أمين سعيد

أسرار الثورة العربية الكبرى

ومأساة الشريف حسين

دار الكاتب العربي

أسرار الثورة العربية الكبرى
ومأساة الشريف حسين

أسرار

الثورة العربية الكبرى

ومأساة الشريف حسين



تأليف
أمين سعيد

دار الكاتب العربي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على انبيائه الاكرمين واصفيائه المخلصين .

اما بعد فيسعدني ان اقدم الى ابناء امتي العربية الجزء الاول من كتاب « الثورة العربية الكبرى » الذي اصدرته في القـــاهرة سنة ١٩٣٥ فلقي الكثير من اقبالهم والرفيـع من عطفهم والزائد من تقديرهم .

ولقد اضفت الى هذه الطبعة اضافات ثمينة ، وضممت اليها وثائق نادرة ، وغيرت وبدلت في الشكل والاوضاع متجـــاوباً مع الوثائق والمعلومات الجديدة التي توصلت اليها .

وتفضلت دار الكاتب العربي العامرة في بيروت لمؤسسها الاديب الناهض الاستاذ قدري قلعجي فتولت اصداره في حلته الجديدة الانيقة مستجيبة لنداء الشعوب العربية التي ما زالت تلح في اعـادة طبعه وتنشد الحصول عليه ، فالى الاستاذ الكبير والى داره العامرة موفور الثناء وأعطر الشكر .

وكل ما ارجوه ان تلقى الطبعة الجديدة من اقبال الامة وتقديرهـــا وعطفها ما لقيته الطبعة الاولى .

ومنه تعالى استمد العون وانشد التوفيق .

امين سعد

مقدمة

هذا فيما اعتقد ، اكمل واوفى كتاب وضع حتى الآن باللغة العربية ، عن اول ثورة اعلنهـــا العرب على الترك في هذا القرن طلباً للحرية والاستقلال .

لقد امضيت نيفاً وثلاثين سنة وانا اعمل في جمع وثائق هذه الثورة ، واتصل بالذين اعدوها واخرجوها وخاضوا غمـارها ، واستمع الى اقوالهم واسجلها ، وأدرس الظروف والملابسات التي احاطت بهـا ، وتضافرت على اعدادها وتكوينها ، حتى ليمكن القول بان مـــا تم لي جمعه ، يكفي لتكوين رأي كامل عنها ، واصدار حكم بعيد عن التحيز والهوى عليها .

لقد جاء الانكليز الى العرب ولم يذهبوا اليهم ، واكثروا من التذلل والاستعطاف ، قبيل اعلان الحرب العظمى وفي اشهرها الاولى ، وكانوا ينادون ويكررون ، ويقسمون بان كل ما يريدونه ويسعون اليه ، هو خير العرب ومصلحة العرب ، ومساعـدتهم على تحرير بلادهم وانقاذها من براثن الترك واعادة الخلافة الاسلامية اليهم ، على ان يتولوا تقديم كل مـا تحتاج اليه هذه الثورة من اموال وسلاح ومعدات ، وهي وعود براقة يسيل لها اللعاب وتغري حتى اكثر الناس صلابة وبعـد نظر ، واذكر ان الملك

علي بن الحسين قال لي حينما اجتمعت اليه في بغداد سنة ١٩٣٣ بالحرف الواحد : « لم نكن سوى بداة بسطاء ، لم يسبق لنا قبل الثورة ان دخلنا في الحياة الدولية ، او عاملنا لاجانب أو اتصلنا بهم من قريب أو بعيد ، ولقد جاءنا الانكليز الى الحجاز ، ولم نذهب اليهم ، جاؤونا بورقة بيضاء في ذيلها ختم الامبراطورية وقالوا لنا هذه ورقة رسمية فاكتبوا فيها ما تشاؤون ونحن مستعدون للتنفيذ والتلبية ، فصدقناهم ووثقنا بهم ، وقاتلنا في جانبهم ولكنهم ما لبثوا ان خانونا وغدروا بنا » . ولا اتردد في تصديق كل كلمة قالها فهو مؤيد باقوال الحسين في مكاتباته ومراسلاته وخطبه ، كما هو مثبت بالحاح الانكليز وسعيهم السعي الحثيث لدى الحسين لتصفية هذه العهود والتحلل منها ، ولما اعجزهم ذلك اغتنموا فرصة احتلال الحكومة السعودية للحجاز ومغادرة الحسين له ، فأعلنوا انها كانت شخصية منحت له وحده ، وانها فقدت قيمتها بخروجه من الحكم وانهيار دولته ، وفاتهم إن اعلانهم هذا ، وهو وحيد الطرف لا يقيد غيرهم ، ولا يسري على سواهم ، اما العرب فيعتقدون إنها قطعت للعرب كافة عن طريق الحسين وبالاضافة اليه ، وبقاؤه أو ذهابه لا علاقة له بالعهود نفسها .

الاستعمار الانكليزي في بلاد العرب

ولا يسع دارس هذه الثورة ، ومُرافقها في تطورها سوى الاعتراف بان هنالك شبهاً كبيراً ، بين المعاملة التي عامل بها الانكليز الحسين في آخر ايامه ، والمعاملة التي اتبعوها حينما غزوا الهند واستعمروها ، وفي ابتلاع الاقطار الآسيوية والافريقية التي ابتلعوها ، خلال القرون الثامن عشر ، والتاسع عشر ، والعشرين ، فقد كانوا يلبسون لبوس الذل والمسكنة حين يفدون الى القطر الذي يريدون اغتصابه ، وينادون بانه لا مطمح لهم ولا مقصد ، ولا يريدون سوى خدمته واسعاده ، فينقاد اليهم بعض

البسطاء من ابنائه ، وما هي إلا جولة او جولتان ، حتى ينشبوا اظافرهم فيه ، ويعتقلوا ساداته ورؤساءه ، فاما ان يعدموهم ، وإما ان يلقوا بهم في غياهب السجون ولا يفرجوا عنهم إلا إذا وصلوا الى حافة القبر ، وهو نفس ما فعلوه بالحسين ، فقد اعتقلوه حينما فقـد كل سلطان ، وارسلوه منفياً الى جزيرة قبرص فأمضى فيها نحو ست سنوات (يونيو سنة ١٩٢٥ — يونيو ١٩٣١) يعاني آلام العزلة والمرض ، ولم يفرجوا عنه إلا حينما وصل إلى حافة القبر ، فأرسلوه الى عمان ليدفن في ثراها كيلا يقال انه مات في اسرهم وفي المنفى الذي اختاروه له ، والقوه في غياهبه ، على انه لم يعش بعد وصوله الى الاردن سوى بضعة ايام كان خلالها فاقد الوعي والشعور ، وكان ينادي ويقول هذا جزاء الذين يثقون بالانكليز ويصادقونهم ويعملون معهم .

ولعلنا لا نرمي بالمبالغة اذا اضفنا كلمة « المأساة » ، أو مأساة الحسين ، الى قصة الثورة وجعلناه عنواناً لها ، فقد تحولت في ايامها الاخيرة الى مأساة كبرى ما جال لاحد في خاطر انها ستنتهي الى ما انتهت اليه ، على انها في حد ذاتها وما فيها من شناعة ولؤم ليست سوى صورة من صور المآسي التي لا يزال يكررها الاستعمار البريطاني في شرقنا العربي ، ولا نرتاب في ان معظم ما نزل باقطارنا العربية ، منذ انشب فيها الاستعمار مخالبه ، مصدره هو وحده ، كما كان من النواحي السلبية عاملاً كبيراً من جملة العوامل التي عرقلت تقدمها فظلت ترسف في كثير من قيود الذل والهوان والتقهقر والتأخر .

لقد كانت منطقة مسقط — عُمان في الخليج العربي ، أول قطر غزاه ، واعتدى على استقلاله وسلبه حريته ، ولا يزال حتى الآن يضع يده عليه ، ويستعبد ابناءه ، ويحول بينهم وبين الاخذ باسباب الرقي والتقدم ممـــا جعلهم في مؤخرة الشعوب العربية رقيـــاً ونهضة . لقد تسلل الى الخليج من الهند ، بعد ان وطد اقدامه في ربوعها ، وفاز بكل مـــا كان فيها من مجوهرات وذهب وماس ومدخرات ، واذا اردنا ان نحـدد

تاريخ وصوله الى الخليج وتدخله في شؤونه، فنقول ان ذلك كان في سنة ١٧٩٨ وعقب وصول الحملة الافرنسية الى مصر بقيادة نابوليون، فقد ارسل هذا الافرنسي الطاغية بعدما استولى على مصر كتاباً الى سلطان مسقط (احمد بن سعيد) يبشره فيه باحتلال هذا القطر، ويقول انه قادم على رأس حملته الى الخليج في طريقه الى الهند، لمحاربة انكلترا وطردها منها، ثم يطلب منه، إيصال كتاب حمله رسوله الى تيبو صاحب احد زعماء الهند، وكان ينازل الانكليز، يبشره فيه ايضاً بقرب وصوله ويحضه على مواصلة قتال العدو المشترك ريثما يصل.

وحسب الانكليز حساب هذه الصلة الجديدة وقرروا ان يحولوا دون بقائها وامتدادها فلا تتحول مسقط الى قاعدة افرنسية في الخليج تهدد الهند، وتحرمها نعمة الاستقرار، فاوفدوا مندوباً الى السلطان احمد يسأله عقد اتفاق مع حكومة الهند تعترف فيه باستقلال دولته وينص على انشاء صداقة بينهما على اساس منع فرنسا من بلوغ بلاده او انشاء اي صلة معها.

ولقد تحول هذا الاتفاق وهو في الأصل محدود يدور في إطار ضيق، الى رأس الجسر الذي عبروا منه الى الخليج فسيطروا على إماراته ومشيخاته الواحدة تلو الاخرى وظلوا على ذلك حتى سنة ١٩١٨ اي ختام الحرب العظمى الاولى.

فاستولوا على العراق، وحولوه الى بحيرة بريطانية لا راية فيها غير رايتهم، ولا كلمة غير كلمتهم، على انه مما يؤسف له اشد الاسف، انه رغم هذا التبدل العظيم الذي طرأ على حالته العامة، ورغم فوز معظم اماراته باستقلالها فلا تزال هنالك ثلاث مقاطعات عربية في داخل الخليج وهي سلطنة مسقط، ومشيخة البحرين، ومشيخة قطر تدور في دائرة هذا الاستعمار وتأبى الخروج عليه، لما يضمنه ويحققه من الفوائد لشيوخها وعائلاتهم على حساب شعوبهم، التي تواصل الكفاح لخلع النير المزدوج الذي يسد عليها الانفاس: نير الاستعمار البريطاني ونير الشيوخ المالكين في ظل الاجنبي وتحت حمايته.

وكان جنوب اليمن هو القطر العربي الثاني الذي انشب فيه الاستعمار

البريطاني مخالبه ، وقد اتبع في التسلل اليه وابتلاعه نفس الطريقة التي اتبعها في الهند والخليج ، فقد اخذ موظفو شركة الهند الاستعمارية يترددون على عدن قاعدة جنوبي اليمن ، وكانت تابعة للسلاطين العبادلة اصحاب لحج وينشئون علاقة ود وصداقة مع رجالاتها وعلى رأسهم السلطان احمد عبد الكريم ، واخيراً اغروه فقبل عقد اتفاق تجاري معهم وقعه يوم ٦ سبتمبر سنة ١٨٢٢ فكان الباب الذي تسللوا منه فامتلكوا عدن واتخذوها قاعدة لاعمالهم التجارية والعسكرية ، ولا يزال هذا شأنها حتى الآن .

وغرقت في سنة ١٨٣٥ سفينة هندية اسمها « دريادولت » بجوار عدن وكانت تقل حجاجاً في طريقهم الى جدة ، ونهب العرب السفينة وفازوا بكل ما كانت تحمله ، ولم يحترموا احداً ولم يوفروا شيئاً .

ووصل الى عدن في سنة ١٨٣٧ القبطان « هس » مندوباً من قبل حكومة الهند للمطالبة باعادة اموال الحجاج المنهوبة ، فقال السلطان وما شأننا في الامر ، فقال له لا بد من دفع ١٢ الف روبية ثمن المنهوبات او إعادتها الينا ، واخيراً اعاد السلطان منها ما بلغت قيمته ٨٧٠٨ روبيات وكتب بالباقي على نفسه صكاً تعهد بدفعه بعد انقضاء سنة . وأثار القبطان في حديثه مع السلطان مشروع استئجار محطة للانكليز في عدن فرفض السلطان ولم يوافق

وعاد القبطان في السنة التالية الى عدن يقود بارجة كبيرة مسلحة بثلاثين مدفعاً وعليها ٣٠٠ مقاتل انكليزي و ٤٠٠ هندي وجاء مزودا بسلطات واسعة من حكومة الهند تطلق يده بالاستيلاء على عدن باي شكل كان .

وتقدم من السلطان طالباً تسليمه عدن بايجار سنوي قدره ثمانية آلاف روبية فرفض وأمر بمنع البارجة التي جاء عليها من الاستقاء من مائه ، فحاصرت الميناء ثم ضربته بمدافعها ، فرد عليها العرب بالقنابل ، ودارت معركة عنيفة بين هؤلاء وبين بحارة البارجة حينما نزلوا الى البر فقتل وجرح

من الاولين نحو ١٥٠ ولم تزد خسارة الانكليز عن ١٥ قتيلاً وجريحاً .

ووصلت الى عدن والمعركة مشتدة ما بين اصحابها والانكليز ثلاث بوارج بريطانية ارسلتها حكومة الهند للاشتراك في عملية الاغتصاب والسلب هي : « ماهي » و « فولج » و « كروز » .

واستولى المستعمرون الانكليز على عدن نهائياً يوم ١٩ يناير سنة ١٨٣٩ واتخذوا من هذا اليوم عيداً يعيدونه كل عام ، ولا يزالون فيها حتى الان . ومن عدن تسللوا الى المقاطعات الجنوبية فوضعوا ايديهم عليها بوسائل ووسائط لا تشرفهم ويبلغ عددها ٣٠ مقاطعة منها ٢٢ في غرب عدن ويطلقون عليها اسم المحميات الغربية و ٨ في شرقها وتبلغ مساحتها السطحية ١١٢٠٠ ميلاً مربعاً .

ومن عدن تسربوا الى البحر الأحمر وفيها بابه الجنوبي ، فاستولوا على مصر سنة ١٨٨٢ باسم الدفاع عن عرش الخديوي وحمايته ، ودخلوا السودان سنة ١٨٩٩ باسم القضاء على الحركة المهدية ، كما استولوا في ختام الحرب العظمى الاولى سنة ١٩١٨ على فلسطين والاردن .

ولم يحمل الاستعمار الانكليزي الى الاقطار العربية التي اغتصبها ونكبت به ، أي اثر يستحق ان ينوه به من آثار الحضارة العصرية ، ولم يحاول ترقيتها والنهوض بها ثقافياً او اقتصادياً او اجتماعياً ، وابقى كل قديم فيها على قدمه ، كما لم يحاول ادخال اي تغيير او تبديل على أوضاعها العامة او الخاصة ، حاصراً همه في استغلال مواردها ، واحتكار تجارتها ، والفوز بما تنتجه من مواد أولية يشتريها بالبخس الاثمان لمصلحة أصحاب الصناعات البريطانية ، وعاملاً بكل قواه من الناحية السلبية على ابقاء شعوبها تتسكع في دياجير الجهالة ليسهل عليه التحكم فيها ، فلا تثور عليه ، ولا تطالبه بالجلاء وها هي حالة مقاطعات اليمن الثلاثين الخاضعة له منذ نيف ومئة سنة ، ومثلها سلطنة مسقط في الخليج ومشيخة قطر ومشيخة البحرين ، فجل سكانها يعيشون على الحالة التي كان يعيش عليها اباؤهم في العصور الوسطى ، والتي قبلها اذا لم نقل في

عصور ما قبل التاريخ ، والمستعمرون حاصرون مهمتهم في حماية الشيخ ، شيخ المقاطعة او سلطانها والدفاع عنه ، وإخماد كل حركة اصلاح يتحركها شعبه المتعطش للعلم والحياة ، والراغب في تحطيم القيود التي يقيده بها الاستعمار .

إن هنالك فرقاً كبيراً وبوناً شاسعاً بين حالة الاقطار العربية التي لا تزال خاضعة للاستعمار البريطاني ، تدور في دائرته ، وتنفذ تعليماتـه ، وبين تلك التي ساعدها الحظ فتخلصت من هذا السرطان الخبيث ، فحـالة مصر والسودان والعراق والكويت بعد ان تخلصت من استيلائه وفازت باستقلالها تفضل بمليون مرة أو أكثر الحالة التي كانت عليها في إبان وجوده ، فقد أغلق في وجههـا ابواب الرقي والثقافة والتقدم حاصراً همه في استغلال مواردها ، وإحتكار تجارتها ، ومنعها من ورود مناهل العلم ، كما قلنا ، وحسبك ان تعلم أن هذا الاستعمار حال بين مصر وبين إنشاء جامعـة لتعليم العلوم العصرية في ربوعها ، وأول جامعة انشئت فيها تأسست سنة ١٩٢٥ أي بعد فوز مصر باستقلالها وتقلص نفوذه ، وقد أتم المصريون في خلال ٤٠ سنة ، وهي المدة التي انقضت على انتهاء سلطاته سبع جامعات ، وكانت محرمة عليهم في عهده السيء الممقوت .

ومهما يكن من أمر فاننا نرى أن من أوجب الواجبات على الحكومات العربية المستقلة ، ان تعنى بامر هذه المقاطعات والمشيخـات التي لا يزال الانكليز يسومونها سوء العذاب فتشرك في الحل لاخراجهم منها ، وتبعث اليها النور والثقافة والحياة وهذا أقل ما يجب عليها .

سلامة الحركة العربية

على ان الذي يجب ان نسجله مع الارتياح الزائد هو ان النكسة التي اصيبت بها الحركة العربية في اعقاب الحرب ، بل الضربة الشديدة التي صوبها اليها الانكليز بالاتفاق مع فرنسا بغية التخلص منها ، والقضاء عليها لم تصب

منها مقتلًا ولم تضعفها ، فقد حمل العرب المشعل الذي أوقدته إلى جميع اقطارهم ، واجتمعوا تحت لوائها يطالبون الانكليز بالوفاء بالعهود التي قطعوها ، فلما رفضوا ، وكان هذا ايضاً شأن الافرنسيين في سورية نهضوا لقتالهم هنا وهنالك وفي كل مكان مما اذهلهم وأطار النوم من عيونهم ، فكان النجاح حليفهم ، والفوز اليفهم ، وما زالوا بهم يغادونهم ويراوحونهم حتى طردوهم من العراق ومن الاردن ومن سورية ومن لبنان ومن مصر ومن الجزائر وتونس وليبيا وانشأوا هذه الدول المستقلة التي تملأ الرحاب وتهز اعطاف العربي سروراً وابتهاجاً .

الفوائد التي حققتها الثورة للعرب

لقد كانت ثورة الحسين في ابتداء هذا العصر نقطة الانطلاق للعرب ، وكانت الباب الذي ولجوا منه الى العالم الدولي ، والجسر الذي عبروا منه الى الحياة الحرة وحسبها هذا شرفاً وفخراً .

ولا بد لنا من القول انه حتى إعلان ثورة الحسين وحتى اعتراف الحلفاء بالحجاز دولة مستقلة تتمتع بكامل السيادة ، لم يكن للعرب دولة مستقلة ولم يكن لهم وجود ولا كيان في العالم الدولي، وكانت بلادهم مقسمة بين انكلترا وفرنسا وإيطاليا وتركيا ، فثورة الحسين واقتداء قومه العرب به ومساعدة الوقت اياهم جعلتهم يحررون بلادهم ويطردون المستعمرين منها خلال هذه الفترة القصيرة .

١ – لقد كانت الثورة على ضعفها وضيق دائرتها وقلة وسائلها الرائد الأول الذي شق الطريق امام العرب ، ومهد لهم اسباب النجاح ، ودلهم على الوسيلة ففازوا باتباعها ونجحوا .

٢ – لقد انقذت سورية من ظلم الترك وجبروتهم فكفوا بعد اعلانها عن شنق احد او إعتقال احد او نفي احد ، ذلك أن الحسين انذرهم

بانه سيقتل عشرة من الاسرى الترك لديه مقابل كل سوري يعتدون عليه ، فامتنعوا واقالوا جمال باشا الكبير بطل المذابح واعادوه الى الاستانة ارضاء للعرب كما اعادوا العائلات السورية التي نفاها الى الاناضول .

٣ — لقد رفعت رأس العربي واعـادت اليه كرامته وعزته ، واجلسته في مجالس السيادة وجعلته يناقش رجال الحلفاء على بساط المساواة وما كان ذلك معروفاً من قبل .

٤ — لقد بعثت القومية العربية والعنصرية العربية من اللحد وما كان هنالك من يؤمن بها بل يذكرها قبل إعلانها .

٥ — لقد كانت الثورة الوحيدة التي اشترك فيها ابناء الاقطار العربيـة وقاتلوا تحت لواء العروبة جنباً الى جنب لا يؤمنون باقليمية ولا يذكرونها بلسان ، لقد قاتل فيها الحجازي وكان اكثر الجميع تضحية في سبيلهـا ، واخلاصاً لها ، الى جانب اليماني والنجدي والسوري والعراقي واللبنـاني والفلسطيني والمصري ، فقد صهرتهم بوتقتها وبثت فيهم روحاً جديدة ، وكان عدد المتطوعين فيها يزداد يوماً فيوماً ، ولو أفسح امامهـا المجـال وتأخر اعلان الهدنة لاستولت على مناطق اخرى . وكان بين رجالها عدد غـير قليل من المسيحيين العرب الذين استجابوا لنداء القومية وتقاطروا الى ميدان القتال .

على أن ما فات جندها ادراكه وهم في صفوفها، حصلوا عليه بعد الهدنة فقد انقلبوا الى بلادهم يحملون جراثيمها ويبثون دعايتها فما لبثت ان انتشرت وعمت ، وبالاجمال فقد كانت مدرسة كبرى تعلم فيها العرب الثورة وتدربوا على اساليب القتال وفنونه ، وهي ميزة كبرى يجب ان يحسب حسابها .

٦ — وكذلك فقد علمتهم النتيجة التي آلت اليها كره الاجـانب ، واشربتهم روح عدم الثقة بهم ، وعدم التعاون معهم ولا يزال هذا شأنهم .

وهنالك نقطة جوهرية يجب ان نشير اليها قبل ان نمسح القلم ونطوي هذا البحث وخلاصتها ان بعض البسطاء من المسلمين العرب وجهوا سهام النقد — عن حسن نية طبعاً — الى الثورة والى رجالها والذين حملوا علمها ، وقالوا انها كانت عاملاً كبيراً في انهيار الدولة العثمانية وضياع الخلافة ، وانه لو بقي العرب الى جانب الترك حتى النهاية ، لتم النصر ونجت البلاد العربية من الاحتلال الاجنبي الذي نكبت به في ختامها .

وهـذا قول يناقض الواقع ولا يتفق معه ، فـالنتيجة الطبيعية المقررة لنهاية الحرب هي انتصار الحلفاء لا الالمان الذين تعد مواردهم ضئيلة ومحدودة بالنسبة للحلفاء ، وخصوصاً بعد انضمام الولايات المتحدة اليهم في سنة ١٩١٦ ودخولها الحرب في جانبهم .

على أن ميدان فلسطين لم يكن في حد ذاته إلا ميداناً جانبياً صغيراً من ميادين تلك الحرب ، فانتصار الانكليز فيه او انكسارهم لا يؤثر بالنسبة للميدان الأكبر الذي كان كل شيء في تقرير مصير الحرب يتوقف عليه ، وهو الميدان الغربي ، فالذي ينتصر فيه فهو الفائز المسيطر . وكان الحلفاء فيه هم الفائزين .

وفائدة الثورة الكبرى للعرب هي انها بفضل انضمامها للحلفاء وتعاونها معهم واخذها العهود والمواثيق بالاستقلال عليهم انقذت بلاد العرب وأدخلتها في دائرة الشعوب المنتصرة الغالبة ، وجعلت حكومتهم الجديدة في عـداد الدول المؤسسة لعصبة الامم ، وتلك كانت مزية كبرى ايضـاً .

اما مؤامرة الانكليز والافرنسيين على العرب واتفـاقهم على اقتسام بعض بلدانهم فهو عمل خاص من صنع هؤلاء وهؤلاء وحدهم وقد تخلص منه العرب في النهاية .

وقد اعتمدت في تدوين الكتاب على ما سمعته شخصياً من الملوك عبدالله وفيصل وعلي فقد اجتمعت الى الثلاثة في دمشق وبغداد وعمان وتحدثت اليهم منفردين واخذت عن الشيخ عبدالله بن سراج رئيس هيئـة الوكلاء في الحكومة الهاشمية الذي اجتمعت به في القاهرة واخذت عنه كما اخذت عن الشريف عبدالله باشا بن محمد وزير داخلية تلك الحكومة ، والشيخ فؤاد الخطيب امين خارجيتها ، ونسيب بك البكري احد مؤسسي الحركة العربية الجديدة والشيخ كامل القصاب والدكتور عبد الرحمن الشهبندر والدكتور احمد قدري والدكتور ناجي الاصيل واللواء مولود مخلص وسليم عبـد الرحمن وقد شهدوا جميعاً تلك الاحداث وساهموا فيها مساهمـــة كبرى وغيرهم وغيرهم .

واعتمدت على مذكرات الامير عبدالله وعلى كتاب الحجاز في الحرب العالمية الاولى لمؤلفه الكولونيل بريمون وعلى ما كتبه تشرشل ولورانس وهما من الذين شهدوا تلك الاحداث وساهموا فيها ايضاً .

وأظن ان الاعتماد على هذه المصادر يكفي ليهب هذا الكتاب منزلة خاصة لدى قراء العربية وكل ما ارجوه أن ينال ثقتهم ، وإذا كان هنالك من خطأ فالعصمة لله وحده .

ثورات العرب على الترك في ثلاثة قرون

اقتحم السلطان سليم العثماني ، حدود بلاد العرب الشمالية من ناحية جبال طوروس وواصل تقدمه حتى مرج دابق (شمالي حلب) فاصطدم بجيوش السلطان قانصوه الغوري فدارت المعركة الفاصلة يوم ١٥ رجب سنة ٩٢٢ وانتهت بانهزام جيش المماليك وسقوط سلطانهم صريعاً في المعركة وانهيار دولتهم وافول نجمهم .

واستولى السلطان على حلب وواصل تقدمه الى دمشق فاستسلمت له ، وكذلك كان شأن القدس .. فقد كان الشعب العربي نافراً من المماليك ، كارهاً لحكمهم ، يرى الخير كل الخير في الخلاص منهم ، وفي الانضمام الى الدولة العثمانية الفتية الناهضة

ولقي السلطان مقاومة في غزة وهو يواصل تقدمه الى القاهرة فقضى عليها وبلغ هذه يوم ٣ محرم سنة ٩٢٣ فاستولى عليها (١٥١٧ م) .

وكان السودان وبالاصح بعض مناطقه الجنوبية والساحلية يتبع مصر ، فدخل فيما دخلت فيه فكان القطر العربي الثالث يخضع للترك .

وتلقى وهو في القاهرة بيعة الشريف ابي نمي ارسلها اليه مع نجله وأرسل معه كتاباً يقول فيه انه خطب باسمه على منبر البيت الحرام ولقبه بلقب خادم الحرمين الشريفين فاظهر الرضا والاغتباط والارتياح .

وكان القطر الحجازي هو القطر العربي الرابع بعد مصر والشام يدخل في نطاق السيادة العثمانية .

وزحف نجله السلطان سليمان على رأس حملة كبيرة الى العراق سنة ٩٣٠ (١٥٣٤) فاستولى عليه فكان القطر العربي الخامس يدخل في الحظيرة ايضاً .

وارسلت القيادة التركية من مصر سنة ٩٤٧ وفي عهد السلطان سليمان حملة عسكرية نحو الجنوب ، لمطاردة البرتغاليين الذين ظهروا يومئذ في البحر الاحمر ، فنزلت في عدن ، وكانت خاضعة لدولة آل رسول فاستولت عليها ثم واصلت التقدم نحو صنعاء تريد الاستيلاء عليها فقاومها الزيود بقيادة الامام شرف الدين فتغلبت عليهم .

وكان اليمن هو القطر العربي السادس يغزوه الترك ويحاولون ضمه الى امبراطوريتهم الكبرى التي كانت تزداد اتساعاً .

ووصل القائد التركي طور غود باشا الى طرابلس الغرب سنة ٩٥٨ فاستولى عليها فكانت القطر العربي السابع يستولي عليه الترك .

واستولوا على تونس سنة ٩٨١ فكانت القطر الثامن ، وعلى الجزائر سنة ٩٣٢ فكان التاسع ، وكان هذا الاحتلال نهاية امتدادهم غربي بلاد العرب في افريقيا الشمالية وجنوبــــاً في السودان واستعصى المغرب عليهم ، وابى الدخول في طاعتهم ، فاحتفظ باستقلاله الكامـل حتى سنة ١٩١٢ (١٣٣٠) فادخله الافرنسيون في نطاق حمايتهم بالاتفاق مع اسبانيا التي اختصت بجزء من شماله على انه فاز باستقلاله بعد ذلك .

واستعصت عمان على الترك ايضاً في شرقي جزيرة العرب ، وقـاومتهم وهزمتهم ، واحتفظت باستقلالها الكامل حتى سنة ١٨٥٥ فاغار عليها الانكليز واستولوا عليها بالاتفاق مع سلطان مسقط الذي دخل في حمايتهم منذ سنة ١٨١٣ .

خيبة امل كبيرة

وخيب الحكم التركي الجديد آمال العرب الذين رحبوا به، وهتفوا له، وظنوا انه ابرك من الحكم القديم وافضل، فقد اوشك ان يكون نسخة مشوهة من الحكم المملوكي في مصر والشام والحجاز، وحسبه انه ابقى كل قديم من النظم والاوضاع على ما كان عليه، واكتفى بان اقام « باشا » في كل قطر احتله، يحكمه لحسابه، ويجبي الاموال التي يفرضها، لا يكاد يهمه امر من أمور البلاد ولا شأن من شؤونها، فلا إصلاح، ولا عمران، ولا أمن ولا آمان، ولا هدوء ولا استقرار.

وسرت موجة من الاستياء والتذمر مصدرها الفوضى التي تخب فيها البلاد شملت معظم طبقات الشعب العربي في اقطاره المتجاورة.

ثلاث ثورات في القرن الثامن عشر

وشهد القرن الثامن عشر ثلاث ثورات كبرى على الحكم العثماني طلباً للتخلص منه والفوز بالاستقلال: الاولى، في داخل الجزيرة العربية، والثانية في مصر، والثالثة في الشام، وهاك بياناً عنها:

١ ـ دعوة الاصلاح الديني في نجـد، كانت دعوة الاصلاح الديني التي قادها الشيخ محمد بن عبد الوهاب التميمي ورفع لواءها في نجد، سنة ١١٥٠ هـ اول حركة قومية يتحركها العرب في بلادهم طلبـــاً للحرية والاستقلال والخلاص من الحكم التركي الممقوت.

واحتضن آل سعود في الدرعية حركة الاصلاح الجديدة وايدوها وحملوا السيف لنصرتها، بعد ان وثقوا من عميم فوائدها للعرب والاسلام باعتبارها الطريق الوحيد الى الوحدة والى الدين الصحيح البريء من الشوائب والبدع والخرافات، وهي مصدر ما نزل بالعرب من تأخر وانحطاط.

وادركت الدعوة نجاحاً زائداً ، وحققت للعرب آمالاً واسعة ، فانشأت لهم اول دولة مستقلة في نجـــد ، سنة ١١٥٨ وهي الدولة العربية السعودية التي لا تزال قائمة نامية منذ ٢٢٥ سنة خلا فترات قصيرة تغلب فيها الاعداء ولكنها ما لبثت ان عادت اقوى مما كانت وأعظم .

٢ – ثورة علي بك الكبير في مصر ، والى جانب حركة الاصلاح الديني في نجد ، التي شرقت وغربت واخضعت نجداً والحجاز وضفة الخليج العربي الغربية من مسقط حتى الكويت مع عسير وتهامة لحكمها ، كانت هنالك ثورة على الترك في مصر قادها علي بك الكبير ، زعيم المماليك الذين كانوا يحكمون هذا القطر تحت السيادة العثمانية لنزع هـذه السيادة ، والتخلص منها ، وإحياء دولة المماليك القديمة التي قضى عليهـا السلطان سليم في مرج دابق كما تقدم .

لقد استغل هذا الزعيم المملوك فرصة انكسار الترك في الحرب الدائرة بينهم وبين الروس (حرب سنة ١٧٦٨ – ١٧٧٤) فأعلن الغاء السيادة العثمانية وانزل الباشا التركي الذي يحتلها من القلعة وسجنه ، ونادى بنفسه حاكماً للقطر المصري ، فلم يلق اية معارضة ولا مقاومة .

٣ – ثورة الشيخ ظاهر العمر في فلسطين – وكانت هنالك ثورة عربية ثالثة تتقد في شمالي فلسطين بقيادة الشيخ ظاهر العمر ، شيخ صفد وطبريا ، فقد ثار هذا على الترك في اواسط القرن الثامن عشر وخلع نيرهم فارسلوا القوى العسكرية لقتاله وإخضاعه ، فهزمها ووسع نطاق إمارته فشملت نابلس وعكا وصيدا ، فخاف الترك النتيجة فاعدوا قوات كبرى لاخضاعه ، فاتصل على الفور بعلي بك الكبير زعيم ثورة مصر ، وكان يعرفه معرفـة شخصية من قبل ووصل حبله بحبله ، فتم الاتفاق بينهما على قتال الترك وعلى طردهم من بلاد الشام كما طردوا من مصر .

وأعد علي بك حملة عسكرية كبيرة في مصر ، جاء الجانب الاكبر منها بطريق البر ، (طريق غزة وسيناء) ، وجاء قسم بطريق البحر من دمياط

الى يافا ، وانضمت هـذه القوى الى قوى الشيخ ظاهر ، ومشى الكل نحو دمشق فاستولوا عليها يوم ٦ يونيو ١٧٧١ وطردوا الترك منها ، فكان نصراً مؤزراً ، وبشيراً يبشر بانتهاء الاحتلال التركي لمصر والشام .

وقبل ان تجف دموع الفرح والسرور التي هطلت بسبب هذا النصر ، حدث حادث مؤلم حول النصر الى نكبة مزعجة ، فقد اصدر محمد ابو الذهب القائد العام للحملة المصرية يوم ١٠ منه ، اي بعد اربعة ايام فقط من احتلال دمشق امراً الى ضباطه وجنوده بان يجلوا عن عاصمة سورية وعن جميع المدن والاماكن التي استولوا عليها ويعودوا فوراً باتجاه القطر المصري ، تاركين البلاد كلها تحت تصرف الترك الذين كانوا لا يزالون يرابطون في الشمال .

ولئن اختلف المؤرخون في تعليل الاسباب التي اهابت بالقائد محمد ابي الذهب الى ركوب هـذا المركب والتخلي عن قطر بكامله استقبله بالهتاف وفتح له قلبه ، فان الذي نرجحه ونؤمن به ، هو ان عامل الحرص والطمع والتربع على عرش مصر هو الذي جعله يسرع بالرجوع ، فانه ما كاد يبلغ القاهرة حتى قبض على زمام الأمور وأعلن خلع علي بك ، وكان هذا عند وقوع الكارثة في فلسطين ، فأسرع عائداً الى القاهرة على رأس قوة صغيرة جمعها من هنا وهنالك علّه يسترد ما فقده ويؤدب مملوكه الخائن ، فدارت بينهما معركة في الصالحية على طريق القاهرة يوم ٩ ابريل سنة ١٧٧١ انتهت بسقوطه اسيراً ، وبعد ايام مات في السجن مسموماً ، فذهب وذهبت ثورته ضحية الخيانة والغدر ، وعادت مصر والشام الى حكم الترك كما كانت .

ثورات العرب خلال القرن التاسع عشر

وعاد العرب الى الثورة والانتفاض على الحكم التركي السيء في القرن التاسع عشر ، فشهد ثلاث ثورات كبرى على الترك وهي :

١ — ثورة محمد علي باشا الالباني والي مصر سنة ١٨٣١
٢ — ثورة محمد أحمد المهدي في السودان سنة ١٨٨١
٣ — ثورة احمد عرابي باشا في مصر سنة ١٨٨١

لقد بلغت الدولة العثمانية في مستهل القرن التاسع عشر درجة عالية من الضعف والهزال ، اطمعت فيها عمالها وشعوبها ، فاندفعوا يقاتلونها ويسعون للخلاص من ظلمها .

وثار الشعب اليوناني في بلاده ، وكان خاضعاً للترك ، طلباً للحرية والاستقلال ، فارسل السلطان يستعين بمحمد علي باشا والي مصر وأحد ولاته يسأله أن يساعده في إخماد الثورة اليونانية ، وكان يملك جيشاً قوياً مدرباً واسطولاً بحرياً منظماً ، فادركت حملته بقيادة ربيبه ابراهيم باشا ، سنة ١٨٢١ نجاحاً لا بأس به فكافأه على خدمته فاقطعه جزيرة كريت ، فازداد نفوذاً ، وازدادت مطامعه وصار يتحين الفرص للانقضاض على بلاد الشام والاناضول لضمها الى مصر والسودان وبلاد العرب وجزيرة كريت ، وكان يحكمها وقد لا يبعد ان تكون نفسه حدثته بامتلاك العاصمة والحلول محل السلطان محمود الثاني في قصر ضولمه باغجه .

واصطنع في سنة ١٨٣٠ خلافاً اثاره مع جاره عبدالله باشا والي فلسطين ، وكان مقره في عكا ، فارسل يطلب منه تسليمه بعض المصريين الذين لجأوا الى فلسطين فرارا من حكم محمد علي الظالم القاسي ، فاعتذر عن تسليمهم بانهم ينزلون في بلاد خاضعة للدولة العثمانية وهم من رعاياها ، وقال انه لا فرق بين ان يكونوا في مصر او فلسطين ، ما دام البلدان يخضعان لسيد واحد

وأسرع محمد علي فأرسل جيشه سنة ١٨٣١ بقيادة ربيبه ابراهيم لغزو فلسطين ، بعدما مهد لهذا الغزو باتفاقات عقدها مع الامير بشير الشهابي امير جبل لبنان ، ومع بعض مشايخ الدروز ومشايخ جبل نابلس وغيرهم فاكتسح البلاد ، وهزم الترك في جميع المعارك التي دارت بينه وبينهم

وواصل التقدم حتى جبال طوروس ، فاستولى على مدينة اطنه قاعدتها ، ثم عبر الجبال الى قونية (قلب الاناضول) ومنها مشى الى كوتاهية ، وهي لا تبعد عن العاصمة اكثر من ١٥٠ كيلومتراً الى جنوبها .

واستنجد السلطان محمود الثاني بقيصر روسيا فارسل اليه خمسة الآف جندي نزلوا في البوسفور وبعض قطع الاسطول الروسي للدفاع عن عاصمته اذا هاجمها المصريون .

واضطربت دولتا الاستعمار الكبيرتان فرنسا وانكلترا لهذا التطور الجديد في الشرق الاوسط ، وكان الاستعمار في مطلع شبابه ، وغض اهابه ، لذلك خاف ان يؤدي انهيار الدولة العثمانية العجوز وقيام دولة فتية مكانها الى حرمانه من الاستيلاء على بعض الاقطار العثمانية ، وكان يضع المخططات لاقتطاعها والفوز بها ، فاخذ يواصل السعي لحل الخلاف صلحاً ، وكانت روسيا في مقدمة الساعين فارسل القيصر سفيره في الاستانة الى الاسكندرية فقابل محمد علي ورجاه باسم سيده قبول الاتفاق والوفاق ، ومع ان محمد علي وعده بالاستجابة وحمله كتاباً الى قائد جيشه بان يقف في المكان الذي بلغه ولا يتجاوزه فان السعي لم يسفر عن اي نجاح .

وانقسمت دول اوروبا خلال ذلك فلزمت فرنسا جانب محمد علي ووقفت وراءه تؤيده وتشد ازره . ووقفت انكلترا في الجانب الآخر وشدت وراءها روسيا والنمسا وسردينيا وبروسيا ، وتلك كانت دول اوروبا الكبرى يومئذ ، فعقدت مؤتمراً في لندن (يونيو سنة ١٨٤٠ ، فقرر بالاتفاق مع الدولة العثمانية واشتراكها اخراج محمد علي من الاناضول وسورية وابقاءه والياً على مصر تحت السيادة العثمانية ، على ان تظل الولاية في بيته يتوارثها ابناؤه واحفاده .

وارسلت الدول المتحدة -- وكانت المرة الاولى في التاريخ ، بعد الحروب الصليبية ، تتدخل اوروبا مجتمعة في شؤون الشرق الاسلامي ، وتملي ارادتها على دوله وشعوبه القوى البرية والبحرية الى ساحل سورية وساحل

مصر ، فانزلت قواها في جونيه (جبل لبنان) وضرب اسطولها بيروت وصيدا وحيفا ، واعد العدة لمحاصرة الاسكندرية ، فلم ير محمد علي بدأ من التسليم والانقيـــاد ، فاسترد جيشه من سورية سنة ١٨٤١ اي بعد عشر سنوات من بدء الحملة . والمتفق عليه انه ادخل الى سورية كثيراً من الاصلاحات النافعة ، وانشأ فيها نظـــام حكم يفضل من وجوه كثيرة نظام الحكم التركي القديم .

٢ – ثورة المهدي في السودان – كان السودان حتى الربع الاخير من القرن الماضي ، خاضعاً لمصر ، تابعـــاً لها ، وكانت ترسل اليه الحكام وكبار الموظفـــين ، ومعظمهم من الاتراك والالبان والشراكسة ، وكان هؤلاء هم حكام مصر في عهد الخديوية ، ولم ينته امرهم الا في اوائل هذا القرن فاخذ المصريون يحلون محلهم تدريجياً في المناصب الحكومية

لقد ارسل محمد علي سنة ١٨١٩ اي بعد عودة الحملة العسكرية من جزيرة العرب ، جيشاً الى السودان فاخضعه وضمه الى دولته الجديدة ، وراح يديره بواسطة رجاله الاتراك وابناء جلدته الالبانيين وكان يعتمد عليهم ، فظلموا السودانيين وارهقوهم ، فثاروا عليهم سنة ١٨٨١ بقيادة السيد محمد احمد وكان يدعي بانه المهدي المنتظر الذي جاء في كتب الاسلام انه يظهر في آخر الزمان فيملأ الارض عدلاً ، بعد ان ملئت جوراً وظلماً ، وارسل كتبه ورسله الى الآفاق ، طالباً الايمان به والتصديق بدعوته .

وطارد الموظفين المصريين والحاميات المصرية فاستسلمت بعد قتال عنيف ، فانشأ حكماً وطنياً مصبوغاً بالصبغة الدينية ، عاش حتى سنة ١٨٩٩ اي حتى اعد الانكليز ، وكانوا يحتلون مصر ، حملة عسكرية كبيرة قادهـــا اللورد كتشنر فاستولت على السودان ، وقضت على نظام الحكم الذي اسسه المهدي بعد معارك عنيفة .

ولم يعد الانكليز السودان الى حكم مصر كما كان ، بل حملوا رئيس الحكومة المصرية (بطرس غالي) فوقع مع مندوبهم السامي بمصر (كرومر)

اتفاقاً يشرك الانكليز في حكم السودان وفي ادارته ، ويجعل حاكمه العام منهم ، مما استنكره المصريون وكان السبب المباشر لاغتيال بطرس غالي سنة ١٩١٠ بيد شاب مصري اسمه ابراهيم ناصيف الورداني ، فذهب ضحية الاستعمار البريطاني الذي جعله يخون بلده ويفرط بحقوقها .

٣ – ثورة احمد عرابي باشا – وهذه ثالث ثورة يضرمها العرب في القرن التاسع عشر ، طلباً للحرية والاستقلال والتخلص من حكم الترك .

قلنا فيما تقدم ان دول اوروبا ابقت محمد علي والياً على مصر تحت السيادة العثمانية ، على ان تظل الامارة وراثية في اعقابه ، ونقول الآن ان هذا الحكم ، كان يعتمد على الاتراك والشراكسة والالبانيين ، فهم اركانه وقادة جيشه وولاته وحكامه وكبار موظفيه . اما المصريون فكانوا يختصون بالوظائف الدنيا ، وما كان يحق لمصري انتسب للجيش ان يتجاوز درجة قائد الالف (بكباشي) اما المناصب العليا فكانت وقفاً على ابناء العناصر الدخيلة من هؤلاء لا يصل اليها مصري .

وكبر على بعض ضباط الجيش الذين هم من ارومة مصرية ، ان يعاملوا هذه المعاملة ، وان يظلوا بعيدين عن المناصب العليا التي هي من حقوقهم الشرعية

وقاد احمد عرابي حركة قومية ايدها الشعب المصري وانضم اليها ، تدعو الى انشاء نظام حكم برلماني دستوري يشرك المصريين في ادارة بلادهم . ومع ان الخديوي توفيق باشا حاول ان يقف في طريق الحركة الجديدة ويصدها عن سبيلها ، الا انه آزاء اصرار الجيش وتأييد الشعب اضطر للاستسلام فاعلن الاخذ بنظام الحكم الدستوري ، فارتاحت البلاد وباتت ترجو استقبال عهد جديد .

وانكرت الحكومتان الانكليزية والافرنسية هذه الحركة وارسلتا اساطيلها الى الاسكندرية مهددة متوعدة ، فكان ذلك بدء مضاعفات جديدة اثرت في الموقف وضاعفت من تطوراته .

واغتنم الخديوي توفيق ، وكان ينطوي على اشد العداء للحركة الوطنية فرصة وصول بعض بوارج الانكليز الى الاسكندرية ، فذهب اليها ووضع نفسه تحت حمايتهـــا وراح يصدر المنشور تلو المنشور ، والنداء تلو النداء ناعتاً قادة الحركة الوطنية بالخيانة ، والمروق ، وداعياً الشعب الى مقاومتها والى الانفضاض من حولها ، فكان الامر بالعكس ، فازداد الاقبال عليها والاندفاع في تأييدها ، فشرعت تحشد القوى وتعد المعدات لمقاومة الانكليز الذين اغتنموا فرصة حادث عادي في الاسكندرية ، يقال انه من من صنع حكومة الخديوي واعدادهـــا ، فضربوا المواقع المصرية حول الاسكندرية ودمروها .

وانتهت المعارك التي دارت بين الجيش المصري والانكليز وكان اخرها معركة التل الكبير يوم ١٤ سبتمبر سنة ١٨٨٢ بانتصار الجيش الانكليزي بسبب وفرة معداته ، وتفوقه في التنظيم والتدريب ، فاستولى على القاهرة وقضى على الحركة الوطنية ، ونكل بقادتها اشد تنكيل ، واعاد الخديوي توفيق الى عرش مصر ، ولكن تحت حماية بريطانيـا وفي كنفها فكانت نكبة جديدة تنزل بالعالم العربي وتفقده جزءاً ثميـنـــاً من اعظم اجزائه ، يفترسه الاستعمار ، ويلغ في دمه .

تلك هي اخبار ثورات العرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، وهذه اخبار نضالهم المستمر المتواصل في سبيل الحرية والاستقلال ، اوردناها باختصار وايجاز لنقيم الدليل على ان الثورة هي اصل في العـــالم العربي ، وان خضوعه للمحتلين الاجانب هو طارىء وموقت يزول بزوال اسبـابه ، وان ثورتنا الجديدة والاولى في القرن العشرين ليست سوى حلقة مكملة لتلك السلسلة الطويلة من الثورات التي لم تنطفىء ولم تخمد الا بعـد ان نال العرب استقلالهم وانشؤوا دولهم هذه التي تملأ الرحاب وتهز اعطاف العرب اعتزازاً وافتخاراً .

عناصر الحركة العربية الجديدة

فكرة الثورة على الترك ، وطردهم من بلاد العرب ، وانشاء دولة عربية مستقلة تضم تحت جناحيها اقطارهم ، وتحيي مجدهم ، وتسهل اسباب انطلاقهم ، فكرة قديمة محفورة في فؤاد كل عربي ، تنتقل من الآباء الى الابناء ، ويتوارثها الخلف عن السلف .

واطل القرن العشرون على العالم العربي وهو في حالة قلق واضطراب ، فالاستعمار يتحين الفرص للانقضاض على بلاده واقتطاع بعض اجزائه ، والدولة العثمانية تزداد ضعفاً وهواناً ، وفكرة الاستقلال العربي وانشاء الدولة العربية تزداد انتشاراً ، ويزداد عدد انصارها بين طوائف الشباب العربي ورجاله الذين لم ييأسوا ولم يستسلموا .

وحدث في اواخر العقد الاول من هذا القرن ، حادث مفاجىء قلب الاوضاع في داخل الدولة العثمانية ، وكانت بعض الاقطار العربية لا تزال مشمولة بسيادتها [1] ، فقد اعلن الجيش العثماني الثورة على حكم السلطان عبد

---

(١) هذه هي الاقطار العربية التي كانت خاضعة لتركيا عند اعلان نظام الحكم الدستوري سنة ١٩٠٨ : العراق وسورية باجزائها الاربعة (لبنان والاردن وفلسطين وسورية الحاضرة) والحجاز واليمن وليبيا .

الحميد يوم ٢٣ يوليو سنة ١٩١٨ ، وكان فردياً استبدادياً وارغمه على الاخذ بالنظام البرلماني الدمقراطي النافذ في معظم ممالك اوربا المتمدنة ، فانطلقت باعلانه الاقلام ، وصدرت الصحف ، وفتحت الاندية ، واطلقت حرية الاجتماعات ، والغيت جميع التدابير الاستثنائية ، فانشأ ذلك جواً جديداً تنفست فيه الفكرة العربية ، وارتاحت مما كانت تعانيه من ضغط وكبت .

واغتنم عدد من طغام الترك واوغادهم في الاستانة ، فرصة انهيار عهد السلطان عبد الحميد ، وفرار رجاله ، وكان بينهم عدد من ابناء العرب ، فهاجموا منازل هؤلاء واعتدوا عليهم ، دون زملائهم الترك ، من الذين استهتروا في ذلك العهد ايضاً ، مما تألم له ابناء الجالية العربية في الاستانة ، ورأوا فيه عدواناً مقصوداً مدبراً يراد به الاساءة الى ابناء العنصر العربي كافة ، فعقدوا سلسلة اجتماعات ، وكان بينهم عـــدد كبير من الموظفين والطلاب والتجار ، ونظروا في الامر من جميع وجوهه ونواحيه ، فاتفقت كلمتهم على انشاء جمعيـــة باسم « جمعية الاخاء العربي » واتموا تأسيسها في سنة ١٩٠٩ وجعلوا شعارها تعاون العرب على اختلاف اقطارهم وامصارهم في الدفاع عن كرامة الامة العربية فيشد بعضهم ازر بعض .

واصدر الحكم الجديد في تركيا سنة ١٩٠٩ قانوناً يقضي بتطهير مصالح الدولة ومكاتبها ودوائرها من الموظفين الذين نشأوا في العهـــد الحميدي السابق ، وبلغوا مراتبهم دون ان تكون لهم المؤهلات الكافية ، او من الذين اشتهروا بسوء الاخلاق وفسادها ، او من الذين اعتادوا قبول الهدايا والرشاوى . ومما يؤسف له ان النقمة ُصبت على رؤوس الموظفين العرب الذين كانوا في خدمة الدولة فاقصوا عن مناصبهم ووظائفهم الا القليل ، لا لعجزهم وضعفهم بل لاحلال موظفين من ابناء العنصر التركي محلهم . ولم تسكت جمعية الاخاء العربي على هذا الظلم ينزل بابناء قومها ، بل احتجت واستنكرت ورفعت صوتها عالياً ، ولكن بدون جدوى ، فقد كان شعـار الحكم الجديد العمل لصبغ الدولة بالصبغة التركية واقصاء ابنـاء العناصر

الاخرى عن بابها ، مما كان في جملته عاملاً من عوامل ازدياد الجفاء بين الشعبين العربي والتركي ، وكان العرب يعتقـدون بان لهم الكثرة العددية في الدولة . وكان الترك ينكرون عليهم هذه الدعوى ، وبديهي ان عدم وجود احصاء دقيق رسمي للسكان يعتمد عليه ، كان سبب هذا الاختلاف .

وعالجت بعض صحف الاستانة شوون بلاد العرب وقضاياها باقلام غير نزيهة وبروح تنم عن حقد دفين ، ورغبة في تشويه سمعة العرب والانتقاص من شأنهم فقد نشرت جريدة « طنين » لسان حكومة الاتحاد سلسلة مقالات في سنة ١٩١٠ لمندوبها المتجول « احمد شريف » رمى بها عرب البلدان التي زارها ببعض النقائص ، فتـــألم لذلك الشبان العرب الذين كانوا يطلبون العلم في معاهد الاستانة ، فانطلقوا يهاجمون دار الجريدة ومكاتبها ، واتبعوا هذه الطريقة في معاقبة جريدة اقدام اصاحبها احمد جودت بك حينما غمزت من قناة العرب واسمعتهم ما لا يريدون سماعه [١].

وحمل هؤلاء الشباب فكرة الانفصال عن الترك بعد الذي شهدوه من عنفوانهم وغرورهم وحرصهم على تعزيز شأن عنصرهم وازدراء العنـــاصر الاخرى والعمل لاذابتها وصهرها في بوتقة القومية التركية . وكانت فكرة العنصرية تستهويهم وتأخذ بالبابهم — فطفقوا يدعون لهـذه الفكرة ، فكرة الانفصال عن الدولة في داخل العاصمة وخارجها واسسوا لذلك عددا من الجمعيات السرية والعلنية شعارها الدعوة للاستقلال العربي وانشاء الدولة العربية الامل المنشود [٢].

---

١ – لم تكن في الشرق الاوسط في مستهل القرن العشرين جامعة تدرس العلوم الحديثة طبقاً للانماط الجديدة سوى جامعة الاستانة فكان الشباب العرب يقصدونها من جميع اجزاء العـــالم العربي ، وما كان عددهم يومئذ يقل عن الف طالب .

٢ – هذه اسماء الجمعيات العربية التي تألفت خلال الفترة الواقعة بين اعـــلان الدستور العثماني سنة ١٩٠٨ واعلان الحرب العظمى سنة ١٩١٤ :

جمعية الاخاء العربي . المنتدى الادبي . الجمعية القحطانية . جمعية العلم الاخضر . حزب العهد . الجمعية العربية الفتاة .

وخاضت الدولة العثمانية في تلك الفترة غمار حربين خرجت منهما مهزومة مهيضة الجناح : الاولى مع ايطاليـا سنة ١٩١٠ - ١٩١١ ، والثانية مع دول البلقان التي تألبت عليها سنة ١٩١٢ وقد خسرت في الاولى ولاية طرابلس الغرب ومحافظة بني غازي او دولة ليبيا وجزر البحر المتوسط ، وخسرت في الثـانية ولاياتها الاوروبية وهي سلانيك ومناستر وقوصوه وبانيا واشقودرة، فاضعف ذلك مركزها في بـــلاد العرب وجعل العرب وخصوصاً سكان ولايات بيروت ودمشق وبغداد والبصرة يؤسسون الجمعيـات ، ويعقدون المؤتمرات ويؤلفون الاحزاب للمحافظة على اوطانهم ، فلا تستهدف لما استهدفت، ولايات مقدونية (تركيا اوروبا) من الغزو وتذهب ضحية المذابح والمطـــامع ، وكانت فرنسا قد كشرت عن انيابها وعقدت مع انكلترا سنة ١٩١٢ اتفاقاً تبادلتا فيه الاعتراف ، فكانت بلاد الشام منطقة نفوذ لفرنسا كما كان العراق منطقة نفوذ لانكلترا .

وزاد هذا التطور الذي تطورته الاحـداث الدولية بين سنتي ١٩١٣ - ١٩١٤ في قلق العرب وجعلهم يندفعون في تـــأسيس حركتهم الجديدة ، انقاذاً لاوطانهم ، ودفاعاً عن كيانهم ، ورغبة في دخول الحظيرة الدولية ، وكانوا عنهـا مبعدين ، فكانت ثورتهم الاولى التي يدرسهـا هذا الكتاب . وكانت مباركة في نتائجها ، محمودة في عواقبها .

بين السلطان عبد الحميد والامبراطور غليوم

غزا نابوليون الاول بلاد الالمان سنة ١٨٠٣ ودخل برلين عاصمة بروسيا ، واستولى على بافاريا وغيرها من الامارات الالمانية وضرب بعض الالمان ببعض مما تألم له عقلاء هذا الشعب فنهضوا يوحدون الصفوف ويجمعون الشمل ، ولقد كان لحكومة بروسيا يد في قهر نابوليون وهزيمته ثم اعتقاله ، فقد اشترك جيشها بقيادة « بلوخر » في معركة واترلو الفاصلة التي انتهت باعتقال ذلك الطاغية واسره ، فكان ذلك مبدأ انطلاقة الشعب الالماني ، كما كان حجر الاساس في بناء الدولة الالمانية الكبرى .

وقادت بروسيا اكبر دول الالمان في الغرب واكثرها سكاناً ، حركة الوحدة الالمانية ، وجندت لها اساتذة الجامعات والمدارس فساروا في طليعتها ، وقاموا على خدمتها ، فنمت وازدهرت وانضم اليها كثيرون ، وايدها السواد الاعظم من الشعب وآمن بها واتخذها شعاراً .

وكانت الخطوة الثانية ، في بناء صرح الدولة الالمانية العتيدة ، ذلك الانتصار الحاسم الذي نالته بروسيا على حكومة النمسا (او حكومة شرق بلاد الالمان) فقد هزمتها سنة ١٨٦٣ في معركة « سادوفا » فضمن لها ذلك التفوق في العالم الالماني .

وكانت الخطوة الثالثة ذلك الانتصار الباهر الذي نالته بروسيا على فرنسا سنة ١٨٧٠ فرفع شأنها ، وعزز مكانتهـا ، فدعت ملوك المقاطعات الالمانية فعقدوا مؤتمراً في فرسايل اعلنوا في ختامه توحيد بلاد الالمـان وانشأوا دولتها الكبرى (المانيا) حلم الشعب الالماني القديم وامنيته الغالية .

ومد السلطان عبد الحميد — وكان يتابع باهتمام تطور السياسة الدولية — يده الى الدولة الجديدة ، يرجو ان يستعين بها ، ويعتمد على تأييدهـا ، في مقاومة دول الاستعمار الثلاث الكبرى (انكلترا وفرنسا وروسيا) وكانت لا تفتـأ تكيد لدولته وتتآمر عليها ، فدعـا الامبراطور غليوم الثاني سنة ١٨٩٨ لزيارته في عاصمته توطيداً للصداقة الجديدة التي نشأت بين البلدين وتأكيداً لها . فاحتفى به الترك حفاوة بالغة ، ثم زار بيروت ودمشق وفيها زار مرقد السلطان صلاح الدين الايوبي واهداه قنديلًا اثرياً ، وخطب فاعلن انه يعد نفسه صديقاً للعالم الاسلامي ثم زار القدس ايضاً .

ولم يقتصر الامر على المجاملات وحضور المآدب والحفـلات ، وتبادل الاوسمة والهدايا ، بل تعداه الى العمل الجـدي المثمر ، الواسع الافق والنطاق ، فمنح السلطان الالمان سلسلة امتيازات اقتصادية ، وفتح لهم ابواب بلاده على مصراعيها ، وربمـا كان امتياز انشاء سكة حديد تمتد من الاستـانة الى بغداد سنة ١٩٠٣ اعظمها شأناً ويبلغ طولها الآف الكيلومترات .

وكان للشركة الالمانية صاحبة الامتياز ان تخرج ما تجده من المعادن حتى مسافة ٢٥ كيلومتراً على جانبي السكة .

ومنح السلطان البنك الالماني حق انشاء فروع له في بلاده .

واستقدم بعثة عسكرية ضمت عدداً من كبار الضباط الالمـان بقيادة الجنرال فون در غولتز تألفت من ٢٥ ضابطاً يمثلون جميع اسلحة الجيش فوزعهم على جيوشه حيث بدأوا نهضة عسكرية واسعة النطاق .

وثار الجيش العثماني يوم ٢٣ يوليو سنة ١٩٠٨ على السلطان طالباً انشاء

نظام حكم دستوري عوضاً عن نظامه الفردي القديم فسلم مضطراً، ثم دبر ثورة قمعها الجيش وأداله هذا عن العرش سنة ١٩٠٩ وجـــاء باخيه محمد رشاد الخامس وكان ضعيفاً عاجزاً فاسلم قيادة الدولة لجمعية الاتحاد والترقي وانصارها .

وسعى الساسة الانكليز والافرنسيون والروس الذين كانوا في الاستانة، لكي يباعدوا ما بين الالمان والترك، وان يفصلوا هؤلاء عن اولئك، ففشلوا واخفقوا بسبب الظروف الدولية التي كانت تحيط بالموقف، فازداد الترك الجدد تقرباً من الألمان واندفاعاً في السير وراءهم .

ورأى أنور باشا، وكان يشغل وزارة الحربية سنة ١٩١٣ وكان من أشد انصار الألمان، ان يستعين ببعثة المانية جديدة لإصلاح الجيش التركي وانهاضه . فجاءته برئاسة المارشال ليمان فون ساندرس .

وجاء ايضاً بخبراء وعلماء ألمان، وفتح أبواب تركيـــا لهم، واندمج فيهم، وهو في الأصل ممن تخرج في مدارسهم .

وأدرك الانكليز، بعد ان توطدت علاقات التعاون بين هذين الفريقين، وبعد ان عجزوا عن التفريق بينهما، وبعد ان تبيّنوا عزم الترك الصادق على الوقوف بجانب برلين في الحرب العتيدة، وكان الفـانوس الأحمر يلوح في الأفق الدولي - رأوا ان مصلحتهم ومصلحة امبراطوريتهم تقضي بالتقرب من العرب ومن الحركة العربيـة الجديدة وتشجيعها، لا حبـــاً بالعرب، ولا رغبة في خيرهم ومساعدتهم، بل لاستغلالهم في خدمـــة سياستهم والاستعانة بهم في قتال الترك والألمان، والانكليزي تاجر مستغل قبل كل شيء، لا يعرف سوى المال ولا يسعى الا لكسبه .

وهكذا ومن هذا الطريق - مشوا نحو الحركة العربية مدعين مناصرتها ومساعدتها، وما يناصرون سوى مصلحتهم، ولا يؤمنون الا بها، ولا يحللون إلا لها .

المخطط الانكليزي لاستغلال الحركة العربية

عكف الانكليز من مكامنهم في القاهرة ودمشق وبيروت والأستانة ، على مراقبة تطور الحركة العربية الجديدة ، وتسجيل حوادثها ، ومرافقتها في سيرها ، وكانوا يغتنمون الفرص للاتصال بقادتها ، ولا يتأخرون عن تشجيعهم لأنهم كانوا يعتقدون ان في نموها ونجاحها ، اضعافاً للترك ، اضعافاً مباشراً ، وبالتالي اضعافاً لخصومهم ومنافسيهم الألمان في الشرق الأوسط ، وهذا في مصلحة الامبراطورية وخيرها .

ولقد اختاروا منذ الساعة الأولى ، أن تكون اتصالاتهم مع الشريف حسين بن علي أمير مكة ، ومصدر ذلك في رأينا كونه يشغله منصباً دينياً كبيراً يجعله على صلة مباشرة بكبار العرب وقادتهم ، ولأنه سليل بيت النبوة ، ولأن ابناءه كانوا يشتركون في الحركة السياسية . فقد كان عبدالله وفيصل يمثلان الحجاز في مجلس النواب العثماني ، وكانا بحكم هذا التمثيل ، يقضيان جانباً كبيراً من العام في عاصمة الدولة ، متصلين برجالها وقادتها ، وبالشباب العرب الذين كانوا يؤيدون الحركة الجديدة ويسيرون في طليعتها ، وتلك مزايا عديدة ، ما كانت لتتوفر في احد من امراء العرب الآخرين . يضاف الى ذلك كله وهو الأهم ، وجود خلاف مستحكم

بينه وبين عدوتهم حكومة الاستانة عما يسهل أمر استمالته اليهم ، ويدفعه للتعاون معهم .

الاتصالات الاولى

ولقد حدثني الأمير عبدالله بن الحسين حين زيارتي له في عمان سنة ١٩٣٣ عن الاتصالات الأولى بينه وبين الانكليز فقال :

كانت هنالك ثلاث اتصالات بيني وبينهم ، خلال الفترة القصيرة التي سبقت اعلان الحرب العظمى الأولى سنة ١٩١٤ وهي :

١ – وصلت في خريف ١٩١٣ الى القاهرة في طريقي الى الآستانة ، ونزلت في قصر عابدين ضيفاً على الخديوي عباس حلمي باشا ، وفجأة وعلى غير انتظار وبدون تحديد موعد سابق ، أبلغني الخديوي بأن اللورد كتشنر المندوب السامي البريطاني بمصر جاء لزيارتي ، فترددت في استقباله خوف ما تثيره الزيارة من قيل وقال بالنسبة للترك ، ولكن الخديوي – ويظهر انه كان على اتفاق معه – ألح علي باستقباله ، فدخلت البهو الذي كان جالساً فيه ومعه المستر ستورس السكرتير الشرقي ، وبعد السلام والتعارف قال اللورد :

لقد اغتنمت فرصة مرورك بالقطر المصري ، فجئت لأبلغك شكر حكومتي على ما يلقاه الحجاج الهنود رعاياها من عناية والدك ورعايته ، إبان قيامهم بتأدية فريضة الحج ، فنحن مغتبطون لهذا التبدل في معاملة الحجاج من رعايانا

– اشكركم يا سيدي على زيارتكم كما اشكركم على شكركم ، وسأنقل الى والدي ما سمعته منكم .

وانتهت الزيارة عند هذا الحد ، وكانت مقدمة لما ما بعدها .

٢ – وعاد الأمير فمر بالقاهرة في اوائل شهر يوليو ١٩١٤ ، وذلك

إبان اشتداد الأزمة الدولية التي انتهت باعلان الحرب العامة ، وكان النضال على أشده ايضاً في داخل الحجاز بين الحسين والترك ، فزاره اللورد والمستر ستورس وتحدثا اليه ملياً في الحالة الدولية ، وفي الخطة التي تنوي بريطانيا السير عليها نحو بـــلاد العرب . وقال اللورد ان انكلترا حريصة على الاحتفاظ بعلاقاتها ودية مع الترك ، غير انها مستعدة لمســـاعدة العرب ضمن هذا الاطار مراعاة لتقاليدها المألوفة

وسلم ستورس الى الأمـــير حين الوداع كتاباً وقال له : ان المستر فيتز موريس - رئيس تراجمة السفارة البريطانية في الآستانة سيأتي لمقابلتك في الباخرة حين وصولها الى ازمير فيتسلمه منك ، ويضع تحت تصرفك باخرة بريطانية تبحر بها متى أردت مغادرة الآستانة .

وتم ما قالوا وجاء رئيس التراجمـة وتسلم الكتاب من الأمير وابلغـه وضع الباخرة تحت تصرفه ، ولكنه لم ير حاجة لاستخدامها .

٣ - وأعلنت الحرب العظمى الأولى يوم أول اغسطس سنة ١٩١٤ فغادرت وشقيقي الأمير فيصل (نائب جدة) الآستانة الى القاهرة يوم ١٨ منه . وزارنا عقب وصولنا الى قصر عابدين المستر ستورس وسلمنــا كتاب شكر مرسل من الحكومة البريطانية الى شريف مكة « تشكره » فيه على حسن قيامه بخدمة الأماكن المقدسة وسهره على راحة الحجاج ، وتقول ايضاً انها لا تعارض في اعادة الخلافة الى العرب .

ولم يجتمع الأمير باللورد ، لأنه دعي بعد اعلان الحرب الى انكلترا وتقلد وزارة الحرب .

وكانت هذه هي الاتصالات الأولى شبه الرسمية بين الشريف والانكليز قبل اعلان الحرب .

الاتصال بالهيئات العربية الاخرى

ليس لدينا في مجموع الوثائق التي نملكها عن تاريخ الحركة العربية في مرحلتها الأولى ما يدل على ان الانكليز انشأوا علاقــات مباشرة مع الجمعيات والهيئات العربية العاملة سواء في القاهرة او غيرها ، وكل ما عرفناه شخصياً هو انهم اتصلوا سنة ١٩١٤ ، وقبيل اعلان الحرب العظمى الأولى بقليل بالسيد رشيد رضا صاحب مجلة « المنار » ومؤسس جمعية « الجامعة العربية » وسألوه ان يوفد مندوبين الى الأمراء : عبد العزيز في نجد ، والإمام يحيى في اليمن ، والسيد الادريسي في عسير ، وبعض زعماء بلاد الشــام يسألونهم رأيهم في الخطة التي يسيرون عليها حين نشوب الحرب . فوافق مبدئياً

وسألوه عن النفقات التي يستلزمها هذا المشروع ، فقدره بألف جنيه دفعت له .

وانتدب لهذه المهمة ثلاثة من الشبان العاملين في القضية وهم السادة :
محب الدين الخطيب أوفده الى نجد .
والشيخ محمد القلقيلي أوفده الى بلاد الشام .
والشيخ عاصم رضا (ابن عمه) أوفده الى اليمن .

واحتــل الانكليز البصرة يوم ٢١ نوفمبر سنة ٩١٤ ، والاستاذ محب الدين الخطيب ينزلها وكان في الطريق الى نجد ، فأعتقلوه فأرسل الى السيد بالقاهرة يستصرخه لأنقاذه من « بيت خالته » ، فسعى لدى الانكليز فأفرجوا عنه فعاد الى القاهرة ، بعد اعتقال امتدّ أشهراً !

وأما الثاني أي الشيخ القلقيلي ، فقد بلغ ميناء بيروت ظهر يوم أول اغسطس سنة ٩١٤ ، بباخرة البريد الايطالية ، وعلم وهو بالباخرة بنبأ إعلان الحرب في ذلك اليوم ، فلزمها ولم يبرحها وعاد بها الى الاسكندرية ، وعلل ذلك بالخوف من اعتقاله فيما لو وقع بأيدي الترك .

وحالت حوائل دون سفر الشيخ عاصم الى اليمن .

وانشأ الانكليز اتصالات محدودة مع قادة حزب اللامركزية العثماني ، بمصر ، وكان السيد رشيد رضا وكيله ، ورفيق العظم رئيسه ، ومحب الدين الخطيب مساعد أمينه العام .

ووصل الى الاسكندرية الشهيد محمود المحمصاني ، من رجال الحركة العربية في فرنسا ، وعضو مؤتمر باريس العربي ، في طريقه الى بيروت ، عقب اعلان الحرب ، ولما كان من عادة باخرة البريد التي يسافر عليها ان تمضي يومين في ذلك الثغر ، فقد اغتنم الفرصة وجاء الى القاهرة للاتصال باخوانه العاملين في الحركة العربية ، فعرف منهم ان هنالك اتصالات تدور بين الانكليز وبين جماعة اللامركزية ، فتحدث بذلك الى بعض إخوانه ، بعد وصوله الى بيروت ، فاهتم رجال الحركة في سورية لهذا النبأ ، وما كانوا يعرفون شيئاً عن اي اتصال مع الانكليز ، فعقدوا اجتماعاً سرياً قرروا فيه انتداب الأستاذ الشيخ كامل القصاب العضو في جمعية الفتاة ، ومن كبار العاملين بحقلها للسفر الى مصر والاطلاع على هذه الاتصالات وابلاغ القائمين بها انهم لا يرضون بما دون الاستقلال التام لبلاد العرب .

ولكن كيف السبيل الى مصر والحدود مغلقة ، والطرق مقفلة ، والسفر ممنوع ، والسلطات العسكرية تسيطر على كل شيء ، بيد ان هذا كله لم يبعث اليأس في نفس الأستاذ ، وكان معروفاً بقوة العزيمة ، فجاء الى بيروت دارساً مستطلعاً ، فعرف ان هنالك باخرة ايطالية تصل بعد يومين في طريقها الى الاسكندرية فأستخار الله ، ونقد بحاراً كان يعرفه مبلغاً كبيراً أوصله سراً وبطريق التهريب الى الباخرة (شتاء سنة ٩١٥) .

وراب الانكليز في ميناء الاسكندرية أمره عند وصوله فاعتقلوه ، بيد ان توسط السيدين رفيق العظم ورشيد رضا لديهم جعلهم يفرجون عنه ، فذهب الى القاهرة واتصل بالاخوان ، فعرف انه لم يجر اي اتفاق ، وان

الأمر ما كان يتجاوز احاديث عابرة مختلفة .

ولقي الأستاذ عناءً كبيراً في رجوعه الى سورية ، وقد اعتقله الترك بعد أيام من عودته وارسلوه الى سجن المحاكم العسكرية في عاليه ، وبعد أن امضى ٢٧ يوماً في سجن انفرادي ، دخل عليه في فجر احد الايام جمال باشا بالذات وقال له : انه جاء يحقق معه شخصياً عن أسباب سفره الى مصر وعودته منها ، والبلاد في حالة حرب ، والسفر ممنوع ، فقال انه صاحب مدرسة يهمه أمرها ، وانه اعتاد سنوياً السفر الى مصر ، واحضار ما تحتاج اليه المدرسة ، وجرياً على خطته هذه سافر هذا العام ، وأحضر ما يحتاجه ، وليس هنالك سوى ذلك .

وحديث الأستاذ القصاب وما عاد به من القاهرة ، يؤيد الرأي الذي أوردناه وذهبنا اليه ، وهو ان الانكليز اعتمدوا منذ الساعة الأولى على البيت الهاشمي وحده ، ويتفق ذلك مع مأثور تقاليدهم ، فهم يضعون يدهم دائماً بيد اكبر رأس في البلاد التي يتقدمون للعمل فيها ، اعتقاداً منهم بأن ذلك اضمن للنجاح .

اتصالات بعد اعلان الحرب

وما كادت طبول الحرب العظمى الأولى تقرع يوم أول أغسطس سنة ٩١٤ ، حتى عاد الانكليز الى الاتصال بالبيت الهاشمي ، ويمكن القول انهم كانوا يعملون ضمن مخطط مدروس اعدوه ووضعوه وهذه قواعده :

١ ـ استمالة العرب عن طريق البيت الهاشمي ، وجرهم الى الحرب بجانبهم

٢ ـ عدم الاندفاع في بذل وعود محدودة لهم .

٣ ـ عدم الدخول في أية مفاوضات مع هيئات عربية أخرى .

٤ ـ بذل المساعدات المادية للحسين ، لجعله قادراً على هذا العمل بما

يمكن أن نسميه المخطط الانكليزي ، للعمل في الميدان العربي الذي اخذوا يهيئون أسباب افتتاحه .

وواصل الانكليز إرسال الرسل والرسائل الى مكة ، بدعوة القوم الى التعاون معهم والدخول في زمرتهم ، مقابل وعود كثيرة مبهمة ، بذلوها بدون حساب ، ونثبت هنا رسائلهم اليهـــا ، وهي منقولة شخصياً من احاديث الأمير عبدالله مع مؤلف الكتاب .

— ١ —

في أواخر شهر سبتمبر سنة ٩١٤ ، أي قبل انقضاء الشهر الثـــاني على اعلان الحرب ، وصل الى مكة ، من القاهرة ، تاجر مصري يقطن في حي الجمالية ، واصله إيراني ، اسمه علي اصغر ، يحمل رسالة خاصة من المستر ستورس ، السكرتير الشرقي لدار المنـــدوب السامي البريطاني في القاهرة ، هذا نصها :

« أمـرني اللورد كتشنر وزير الحربية البريطانيـــة ، أن اكتب الى سيادتكم ، لأسألكم فيما اذا كنتم وسيادة والدكم ، لا تزالون على رأيكم الأول الخاص ، بالدفاع عن حقوق العرب ، وقد سبق له ان اجابكم بعدم إمكان مساعدتكم في تحقيقهـا . على ان في استطاعة حكومة جلالة الملك في الوقت الحاضر ، ان تقدم لكم المساعدات اللازمة ، بسبب عزم الحكومة التركية على الدخول في زمرة الاعداء ، وخرق تقاليد الصداقة القديمة بين البلدين » .

ويقول الأمير ، انه أمسك عن اطلاع والده على هذا الكتاب ، لما يعرفه من صلابة رأيه ، وشديد إخلاصه للدولة العثمانية ، ونفوره من كل شيء ، اسمه اجنبي .

واعاد الرسول الى القاهرة بدون ردّ ولا جواب .

— ٢ —

وأعاد ستورس الرسول ، في منتصف شهر اكتوبر سنة ٩١٤ ، وأرسل معه الكتاب الآتي الى الأمير نفسه :

« حيث ان تركيا ، عزمت على دخول الحرب ، الى جانب الالمان [1] فان الفرصة سانحة لكم لتحقيق مطالب العرب ، وأنا آسف لترككم كتابي بلا جواب ، آملاً الاسراع في إرسال الرد على سؤالي . »

ويقول الأمير ، أنه حمل الكتابين الأول والثاني الى والده ، واطلعه عليهما وسأله بماذا يجب ، فقال له : « الصيف ضيعت اللبن » .

وكتب الأمير الى ستورس مستمهلاً .

— ٣ —

ولم تبعث هذه « اللامبالاة » الدالة على قلة النضج السياسي ، الانكليز على الإهمال وعدم الاهتمام ، وعلى المقابلة بالمثل ، فقد عاد ستورس ، فأرسل في شهر نوفمبر [1] ، اي بعد دخول تركيا الحرب ، مندوبه علي أصغر ، فحمل الى الأمير عبدالله كتاباً قال فيه :

« حيث ان تركيا دخلت الحرب بجانب الأعداء ، فنحن على اتم استعداد لمساعدة شريف مكة ، في قضيته وتقديم كل ما يريده من مساعدة » .

قال الأمير : وحملت الكتاب الى والدي ، وسألته رأيه فقال : « ليس في استطاعتي ان أعمل شيئاً قبل ان استشير العرب واسألهم رأيهم » .

---

(١) دخلت تركيا الحرب يوم ٥ نوفمبر سنة ١٩١٤ اي بعد عشرين يوماً من ارسال هذا الكتاب الى الأمير.

وكتب الأمير الى ستورس واعداً بتقديم مقترحات معينة في موعد غير بعيد .

واذا دل هذا التردد ، وهذا الابطاء في اتخاذ موقف صريح معين على شيء فانه يدل على عدم وجود مخطط مرسوم لدى الحسين وابنائه ، حتى ذلك الوقت ، أي حتى دخول الحرب سنتها الثـانية بالنسبة للانكليز .

عوامل الخلاف بين الحسين والترك

لا بد لنا ونحن ندرس علاقة الحسين بن علي بالترك من ارسال كلمة عن شرافة مكة مع موجز تاريخها ، وعن الخلاف الذي نشب بينه وبين حكومة الآستانة قبل الحرب ، اوثيق صلته بموضوعنا فهو جزء مهم من جملة اجزائه .

لقد ظلت مكة حتى سنة ٤٥٨ هـ. امارة تابعة لبغداد تديرها مباشرة .

واستقل الاشراف الحسينيون بمكة في العهد الفاطمي واولهم جعفر بن محمد بن الحسين بن محمد الثائر . وانتقلت الامارة منذ سنة ٥٩٨ الى الشريف قتادة وبنيه فظلوا يتوارثونها حتى استولى السعوديون على الحجاز سنة ١٣٤٤ والغوا هذا المنصب نهائياً .

ولما دخل السلطان سليم العثماني الى القاهرة سنة ٩٢٣ هـ . ارسل اليه الشريف ابي نمي شريف مكة يومئذ نجله يحمل بيعته مع مفاتيح الكعبة ، وابلغه انه خطب باسمه على منبر البيت الحرام ، فسر كثيراً واقره في منصبه وخصص الهدايا والأعطيات للحجاز واهله .

وظل الحجاز بيد الاشراف يديرونه مباشرة تحت سيادة عثمانية اسمية خفيفة لطيفة ، حتى ظهور حركة الاصلاح الديني في نجد خلال القرن

الثاني عشر الهجري ، فنهدوا لمقاومتها ، وسعوا للقضاء عليها ، فدارت معارك عديدة استمرت سنوات وانتهت بفوز نجد وتغلبها فاستولت على الحجاز سنة ١٢١٧ وابقت الشريف غالب في دسته .

وعهد السلطان محمود الثاني الى محمد علي الالباني ، والي مصر بمناجزة النجديين واخراجهم من الحجاز ، فارسل في سنة ١٢٢٦ اول حملة لمنازلتهم فهزموها فعززها بثانية وثالثة ورابعة ، ثم ذهب بالذات الى الحجاز وكان اول ما فعله بعد وصوله الى مكة انه اعتقل الشريف غالب بن مساعد وارسله منفياً الى سلانيك بتهمة عدم الاخلاص للدولة فظل فيها حتى قضى نحبه .

ونقل محمد علي منصب الشرافة من ذوي زيد الى محمد عبد المعين ، من اشراف ينبع ، وظل اعقابه يتوارثونها ، طبقاً لخطة موضوعة حتى سنة ١٣٤٤ .

وادخل محمد علي الالباني ابان احتلاله الحجاز تعديلًا على نظام الحكم ، فأقام ضابطاً عسكرياً كبيراً يمثل حكومته الى جانب الشريف يشاركه الحكم ويشاطره النفوذ والسيادة .

واتبع الترك الطريقة نفسها حينما عادوا الى حكم الحجاز بعد جلاء المصريين سنة ١٢٥٦ فارسلوا والياً يمثلهم ويقيم في مكة ، ومحافظاً لجدة وآخر للمدينة ، كما ارسلوا موظفين اداريين المدن الصغيرة الاخرى .. اي انهم طبقوا نظام التشكيلات الادارية في الحجاز وما كان متبعاً من قبل .

واقاموا ايضاً حاميات عسكرية كبيرة في كل من جدة ومكة والمدينة ، واتخذوا الاولى قاعدة لفرقة عسكرية مستقلة كانت ترابط فيها على الدوام .

واسرع الشريف علي باشا بن محمد ، وكان يتقلد منصب الشرافة سنة ١٩٠٩ فغادر جدة الى السويس ومنها الى القاهرة اتقاء كل مشكلة او حساب ، فعينت

حكومة الاستانة الشريف عبد الاله خلفاً له باعتباره صاحب الدور ، فمات بعد ولايته بثلاثة ايام بسكتة قلبية ، وكان الدور للحسين بن علي وكان يقيم في الاستـانة ، عضواً في مجلس شورى الدولة ، فعين في شهر اكتوبر سنة ١٩٠٨ (١٦ شوال سنة ١٣٢٤ لمنصب الشرافة فغادرها في شهر نوفمبر سنة ٩٠٨ الى جدة فبلغها يوم ٢٠ منه بالباخرة الخديوية « طنطا » .

واستقبله حين نزوله الى البر في جدة وفد من الشبان ، وخطب باسمهم السيد عبد الله بن قاسم زينل فرحب بالشريف باسم الحجاز واهله ثم قال :

جئنا نرحب بالامير الدستوري الجديد ، الذي نؤمل من سيادته ان يعدل عن الاساليب الادارية القديمة ، ويعدل عن المظالم التي كان يقترفهـا الشريف عون الرفيق باشا ، والشريف علي باشا ، في ظـل الادارة السابقة المستبدة ، والبلاد اذ تحيي سيادة الامير فانها تحيي في شخصه الرجـل الذي آمن بروح العصر الدستوري الجديد الذي استقبلته البلاد ، وترجو ان ينهض العمل في ظله فهو نبراس الشعب .

ورد على هذه الخطبة فقال :

« لقد حظيت بمقام اسلافي وابائي على الشريطة التي بايع بهـا الشريف ابو نمي السلطان سليم الاول .

« ان هذه البلاد لا تقوم فيهـا سوى شريعـة الله المشتملة على الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وهي حريصة على الاحتفاظ بحقها ، فليذهب كل منكم الى عمله : الموظف لوظيفته ، والتاجر لتجارته ، والصانع لصناعته ، واياكم من قيل وقال وما يقولون . فهـذه البلاد بلاد الله ، ليست بملك لاحد ، وان السلطان الآمر بالدستور الذي تذكرونه ، والذي امر ان يعمل في بلاده بالدستور يفخر هو واسلافه بانهم خدام الحرمين الشريفين ، وليس الخادم بالمالك .. ان الدستور الذي يقام في بلاد الله هو شريعة الله وسنة رسوله » .

ويقول الامير عبد الله بن الحسين ، في مذكراته (ص ٣٥) ان الخلاف نشب

بين الحسين والاتحاديين او جمعية الاتحاد والترقي التي كانت تسيطر على تركيا وتحكمها في اللحظة التي القى فيها هذا الخطاب، فقد ارسل اتحاديو الحجاز الى مقر الحزب في الاستانة يقولون ان عهد السلطان عبد الحميد تجدد في الحجاز بوصول الشريف الحسين ، فهو لا يعبأ باحد ، ولا يعترف بالدستور ، ولا يؤمن بالتجديد .

وتطور الخلاف بعد ذلك واتسع نطاقه تدريجياً ، وكان يبدو في صور واشكال مختلفة متباينة ، على ان حكومة الآستانة ما كانت تتردد في استدعاء الولاة الذين كان الشريف يشكو منهم ، وهذه اسماء الولاة الذين ابدلوا في خلال سنوات قليلة بناء على طلبه .

الفريق فؤاد باشا وكامل بك ، وامين بك (وكيل) والمشير عبد الله الشركسي ومنير باشا وحازم بك .

واخيراً ضاقت الحكومة به وباساليبه وخططه ، فارسلت الفريق وهيب باشا الالباني سنة ١٩١٣ ، وكان معروفاً بقوة الشكيمة والبطش ، والياً وقائداً عسكرياً وأمدته بفرقة عسكرية كاملة بغية التخلص منه ومن تدخلاته واقامة نظام حكم جديد لا صلة له به .

واعلن الوالي الجديد « وهيب باشا » عقب وصوله انه يبغي تطبيق قانون الولايات الجديد الذي اصدرته الاستانة في الحجاز ، ومعنى ذلك ادخال النظام المدني في بلاد لا تزال تحكم طبقاً للاسباب القديمة ، فانكر الشريف ذلك واخذ يستعد لمقاومته مما كان مثار ازمة عنيفة بينهما اهتمت لها حكومة الاستانة ، وخصوصاً بعدما تعددت الاشتباكات بين رجال الوالي وانصار الشريف .

ويقول الامير عبد الله في مذكراته ان الصدر الاعظم سعيد حليم باشا ابرق اليه ، وكان في مصر يستقدمه الى الاستانة على جناح السرعة فذهب اليها ، فاستقبله في قصره بحضور طلعت باشا وزير الداخلية وانور باشا وزير الحربية ، وكانت امارات الغضب والاستياء تقرأ في وجوههم . وبدأ

الصدر الأعظم الكلام فقال للأمير :

« اسمع : ان تغير الولاة بمعدل وال في كل شهر لا يهمنا، ولكن الذي يهمنا ونحرص عليه هو انشاء سكة حديد من المدينة الى مكة ومنها الى جدة ومن المدينة الى ينبع فان قام والدك بهذه المهمة عملنا له كل ما يريد ، وان ابى فلا وداد ولا بقاء . واليك شروطنا :

١ - ينال الشريف ثلث دخل هـذه السكة وله ان ينفقه كيفما يشاء .

٢ - تبقى امارة مكة له مدى الحياة ومن بعده لاولاده .

٣ - توضع قوة كافية تحت تصرفه لتنفيذ هذا المشروع .

٤ - تضع الدولة ربع مليون ليرة عثمانية تحت تصرفه ينفقها على العربان .

ثم قال الصدر للامير بعد ان املى عليه هذه الشروط :

سافر في اول باخرة تقوم الى جدة واحمـل الى والدك هذه الشروط ، فان رضي وابلغنا نبأ الرضى ، فاذهب انت الى المدينة فتجد فيهـــا خيري الاركوبي شيـخ الاسلام ينتظرك لارساء حجر الاساس للسكة، وان أبى فلا صلح ولا سلام .

واطلع الامير والده الشريف ، وكان في الطائف على ما حمله وجاء به ، فقال له هل يريدون ان يرشوني ، صدق من قال ان المرء ينظر الى غـيره بعيني رأسه .

ثم ابرق الى الصدر الاعظم بالبرقية الآتية :

« وصل ابني عبد الله ومعه التنسيبـــات والمقررات العلية من الصدر الاعظم بخصوص مد سكة حديد الحجاز الى مكة . ليس هناك ما يستحق التفكير فيما يختص بي ، وانا متنعم بنعم الخلافة ، وسأبعث بابـني في اول فرصة حاملاً ما يلوح لي عن امكان اتمام هـذا الغرض السامي بدون ان يمس مدار معيشة العشائر وسكان البلاد المقدسة الاسلامية .

وعاد الامير الى الاستـــانة في اواسط شهر يونيو سنة ١٩١٤ وزار الصدر الاعظم وابلغه ما يلي :

والدي يقرؤك السلام ، ويقول لك انه خادم الخليفة ، وانه لا يعارض فيما يرى جلالته عمله وهو مستعد للتنفيذ حـــالاً . ولكن اذا كان اتمام مشروع السكة وتأمين ولاء العشائر. ومعاشهم هو ما يريده جلالته وتريده حكومته فلذلـــك وسائل لا تستوجب تخصيص ربع المليون ليرة لي . ولا يخفى ان الوسائل اللازمة لايجاد المشاريع تأتي بعـد التفكير مع لجنة اتولى رئاستها بالذات ، ومن المنـــاسب ان يكون فيهـا شيخ الاسلام او اي وزير من وزراء الدولة . امـا اذا كانت النية منصرفة الى اتمـــام المشروع تحت اي شرط يكون ، فينبغي توظيف فرقة عسكرية بكاملها على طريق السكة ، وايجاد المياه والقرى بين المدينتين ، ثم بعد ذلك تكون البداية في العمل .

وقال الصدر للامير بعد ان سمع الرد ، ليس بعد هذا كلام . وسأدعوك للاجتماع الى طلعة باشا في هذين اليومين .

وقتل ولي عهد النمسا في سراجيفو يوم ٢٨ يونيو سنة ١٩١٤ والمعركة في ذروتها بين الشريف والحكومة ، فكان ذلك بدء الازمة العـــالمية التي انتهت باعلان الحرب العظمى الاولى .

واستدعى الصدر طلعة باشا وزير الداخلية بعد ايام ، واعاد على مسامعه الرد فكان جوابه : لقد انتهى كل شيء الآن . فالحرب العظمى قد اعلنت ، ولم يعد في الطاقة تدارك القضبان الحديدية والشاحنات والقاطرات وغيرها .

ثم قال : « والان وقد انتهينا من مشروع السكة فاني اريدك - والكلام موجه لعبد الله - ان تسافر حـالاً الى الحجاز لتدارك متطوعين، فقد تضطر الدولة لدخول الحرب .

وعليك الان ان تذهب الى انور باشا ، بسيارتي فهو سيبـــاحثك في الموضوع . ولما ذهب اليه قـال له يظهر ان الحرب ستشمل الدولة وان مشروع السكة سيؤجل الى ما بعدها، والآن نريد متطـوعين من العرب ليشتركوا في الجهاد ، وعليك ان تسافر في اول باخرة لجمعهم .

وحدث عبدالله والده بما سمعه منهم ، فاستغرب تفكيرهم في دخـول الحرب . وطير على الأثر برقية خاصة الى السلطان قال فيها : ان دخول الدولة الحرب الى جانب الألمان يؤلف خطراً كبيراً لعدم وجود حدود برية مشتركة ولأن المانيا لا تستطيع امداد الجيوش العثمانية بالمعدات التي تحتاج اليها ، وعدا هذا فالأقطار المترامية الى الجنوب من جسم الدولة ، كاليمن والبصرة والحجاز محاطـة من كل جانب بقوات بحريـة لدول الأعـداء . وقد تتكل الدولة في الدفـاع على حمية أهلها ، وهم ليسـوا منظمين ولا مسلحين بالشكل الذي يستطيعون معه مقابلة جيوش أوروبا المنظمة . ثم استحلفه بالله ان يحول دون دخول الدولة في الحرب .

وزار الشريف وهيب باشا والي الحجاز ، زيارة ود ومجاملة ، بعد اعلان الحرب فقال لي هذا : انه تلقى امراً بأن يسأله رأيه ، بشأن اعلان الدولة الحرب على روسيا وانكلترا - فقال : انه يعتذر عن إعطاء جواب شفهي ويطلب إرسال السؤال اليه خطياً ليجيب خطياً ويسجل جوابه ، ثم قال : واني كجندي شريف ليس بخائن حتى أشير على الدولة بدخول حرب ، لا ناقة لها فيها ولا جمـل . ونحن محاطون هنا بالدول العظمى ذات البحرية القوية ، وانتم ستشغلكم جيوش روسيا ، وجيوش الانكليز بمصر ، مع انكم غير متصلين بحليفتكم المانيا من البر وصربيا معادية ورومانيا معادية مثلها .

ورد وهيب باشا وهو يمس لحيته : انها ورقة نريد ان نقذف بهـا على مائدة الميسر ، فقال له : ان هذا لعجيب . أو تقامرون بالأمة كلها .

وتلقى وهيب باشا بعد دخول الدولة في الحرب ، تعليمات تقضي عليه بأن يسير على رأس فرقته العسكرية الى سيناء للانضمام الى حملة جمـال باشا التي كانت تعد في سورية ، واغتنم رجـال الشريف ، فرصة سفره بين الحرمين ، فسرقوا محفظة أوراقه السرية الخاصة ، وفيها جميـع المخابرات التي كانت تدور بينه وبين حكومته بشأن مقاومة الشريف والتخلص

منه ، فاتخذها سلاحا جديدا ضد الترك .

ويمكن القول ، ان الثقة كانت مفقودة تمامـــاً ، بين الشريف وحكومة الأستـانة ، عند اعـلان الحرب ، وان كلًا منهما كان يمكر بالآخر ويسعى للتخلص منه

الحسين يطالب بالاستقلال في الحجاز

يؤخذ من الوثائق والمعلومات التي جمعناها ، ان اول شيء فكر فيه الحسين ، عقب اعلان الحرب العظمى ونزول الدولة الى ميدانها ، هو الفوز باستقلال الحجاز ، وجعل إدارته وقفاً عليه ، وعلى أولاده ، طبقاً للأساليب القديمة ، التي كانت متبعـــة في القرون الوسطى . ومعنى هذا ، ان فكرة الاتصال بالانكليز ، والتعاون معهم ، ما كانت لتعنّ له في ذهن ولا خاطر ، وهذا هو سبب اهماله رسلهم ورسائلهم ، وعدم إرسال أي رد عليها . وربما كان مصدره ، اعتقاده بان هذه هي أسلم الطرق وأبعدها عن الأخطار والمخاطر .

لقد كان ينكر على الدولة دخول الحرب ، وينصحها بعدم الانغماس فيها ، فلما اندفعت وخاضتها ، اعتقد أنها فرصة من أفضل الفرص للفوز بأمنية من اجل أمانيه ، فأرسل في شهر مارس سنة ١٩١٥ ، برقيـــة مطولة الى انور باشا ، وزير الحربية ونائب القائد العام يؤيد فيها مطالب السوريين باللامركزية وباصدار عفو عام وجعل إمارة مكة وراثية في ابنائه . وهذا نص البرقية ، وقد أملاها الأمير عبدالله بالذات على المؤلف ، مع الرد عليها .

قال الشريف حسين :

« إن خروج الدولة العثمانية منصورة من الحرب الحاضرة ، يتوقف على اشتراك العناصر العثمانية فيها ، ولا سيما العرب ، والجانب الأهم من ميادين القتال في بلادهم ، وتأييدهم لها قلباً وقالباً ، في نضالهم » .

« ويلوح لنا ، ان إرضاء الشعب العربي يتوقف على مداواة قلبه ، الذي جرحه اتهام عدد كبير من أبنائه ، بتهم سياسية مختلفة ، والقبض عليهم أمام المحاكم العسكرية[1] ، بالدواء الآتي :

١ - إعلان العفو العام عن المتهمين السياسيين .

٢ — أنالة سورية ما تطلبه من نظام لامركزي .

٣ — جعل إمارة مكة ، وراثية في أولادي ، وإبقائها على حالتها الحاضرة .

« فإذا قبلت هذه المطالب ، فأتعهد بحشد القبائل العربية بقيادة ابنائي في ميدان العراق وميدان فلسطين ، وإذا لم تقبل فارجوكم ، الا تنتظروا مني شيئاً سوى الابتهال للحق ، جلا وعلا ، بأن يهب الدولة النصر والتوفيق » .

تلك هي طلبات الحسين ، التي تقدم بها للترك ، ونظن أنه لم يكن موفقاً في اختيار الوقت المناسب ، ولذلك لم يتردد أنور باشا في رفضها فوراً ، رفضاً مقروناً بالتهديد والوعيد .

لقد كان الألمان ، والترك حلفاؤهم حين إرسال هذه المطالب في قمة انتصاراتهم ، وكان الترك يهددون قناة السويس ، وكانت جيوشهم تحارب في جميع الميادين ، وما كانت قد انهزمت ولا تراجعت ، وطبيعي وهذه حالتهم ألا يقبلوا هذه المطالب وان يجيبوا عليها بما أجابوا به ، وهذا هو رد أنور باشا .

---

(١) يريد الحسين بالمعتقلين السياسيين، اولئك الذين اعتقلهم جمال باشا في سورية ، عند ابتداء الحرب واعدم بعضهم .

« لقد وصلت برقيتكم الهاشمية ، القائلة : ان إحراز النصر يتوقف على اشتراك جميع أبناء الأمة ، قلباً وقالباً .

« ولما كان طلب إعلان عفو عن بعض المتهمين ، وتطبيق نظام اللامركزية في سورية ، واستبقاء إمارة مكة في شخصكم السامي ، وفي أولادكم خارجاً عن اختصاص سيادتكم ، فالاستمرار في طلبه ليس من مصلحتكم في شيء .

« واني أبلغكم ، انه لا بد أن ينال الموقوفون عقابهم ، كما ان حقوق سيادة ملجأ الخلافة ستظل في الحجاز ، على ما كانت عليه ، وكما هي في جميع الممالك الشاهانية .

« وأوصيكم ملحاً ، بأن تستدعوا ولدكم علياً ، الموجود في المدينة الى مكة فوراً ، وترسلوا المجاهدين الذين وعدتم بارسالهم الى دمشق ، ليكونوا بقيادة ولدكم فيصل بك ، وبديهي أنه سيظل ضيفاً على الجيش الرابع ، حتى نهاية الحرب » .

وسكت الحسين بعد هذا الردّ القاسي ، وما كان بامكان الترك ان يخاطبوه بغير هذه اللغة ، في تلك الظروف ، على ان هنالك تعليلاً آخر يمكن إيراده . وملخصه ان الحسين ، أراد من إرساله مطالبه ، وكان واثقاً من رفض الترك إياها ، ان يتخذ من الرفض وسيلة للخروج عليهم ومقاتلتهم بالاتفاق مع الانكليز الذين كانوا يعدونه بالملك على العرب ، ويعلنون استعدادهم لتقديم كل ما يطلب ويريد ، يؤيد ذلك أنه ما كاد يتلقى هذا الرد ، حتى أوفد نجله فيصل الى دمشق والاستانة للاتصال برجال الحركة العربية في الأولى ، ولدرس حالة العاصمة ومعرفة ما يدور في انحائها تمهيداً لاتخاذ القرار النهائي ، ينتظر حلول الوقت المناسب لإعلانه .

مؤتمر الطائف

اعتقد الحسين بعد أن أرسل مطالبه إلى الترك ، وهي عادلة ومقبولة في نظره ، كما هي في مصلحتهم ، وبعد ان ردوا عليه ردهم القاسي ، ان ذمته برأت منهم ، وانه صار في حل من عهده لهم ، وخلص من ذلك إلى أنه صار في إمكانه أن يعمل بكامل حريته ، بما يصون مصلحته ومصلحة قومه العرب معه .

وفي إطار هذه « الفتوى » ، التي أفتى بها نفسه ، وأراح ضميره ، أرسل نجله الثالث فيصل إلى دمشق ، وإلى الاستانة . وكانت له في العاصمتين : عاصمة العرب ، وعاصمة الترك ، مهمة محدودة ، تدور في هذه الدائرة ولا تتجاوزها .

١ – الاتصال برجال الحركة العربية ، في دمشق ومعرفة ما لديهم ، والمدى الذي قد يسيرون اليه .

٢ – الاتصال بالصدر الأعظم سعيد حليم ، وتسليمه الأوراق السرية ، التي عثروا عليها في محفظة وهيب باشا ، وهي تثبت سوء نية الحكومة نحوه ، ونحو بيته ، وترديد الشكوى على مسامعه .

٣ – درس الحالة العامة في الاستانة ، والاتصال بمن يمكن الاتصال بهم من رجالاتها . والتحدث اليهم ، وسماع آرائهم في الحالة العامة .

تلك هي الأغراض الرئيسية ، التي كان على فيصل أن يدرسها ، ويبحثها ، ويعد عنها تقريراً مفصلًا يقدمه إلى والده وأخوته ، عقب عودته ليتخذوا قرارهم النهائي على هديه .

وقد يكون من المفيد لنا ، أن نرافق فيصل في رحلته هذه ، ونسجل أخبارها ، ونورد أسماء الذين اتصل بهم ، واجتمع اليهم ، وسمع أقوالهم ، لما لذلك من الصلة بموضوعنا .

بدأ فيصل رحلته هذه ، في شتاء سنة ١٩١٥ ، فجاء الى المدينة ومنها الى دمشق بطريق سكة الحديد ، وحل في دمشق ضيفاً على آل البكري أصدقاء البيت الهاشمي القدماء . فتعرف على نسيب بك النجل الثاني لعطا باشا البكري ، عميد هذه الأسرة ، فنشأت بينهما صداقة قوية استمرت حتى النهاية .

ولم يطل الاقامة في دمشق ، بل غادرها إلى الآستانة ، بطريق حلب واظيء لإتمام مهمته فيها ، واعداً باقامة طويلة في عودته .

وكان الصدر الأعظم سعيد حليم ، في مقدمة من زار في الاستانة ، فردد على مسامعه الشكوى من تصرفات الحكومة التركية نحوهم ، وأطلعه على بعض الوثائق السرية ، التي حملها فطيب خاطره . وقال : إن ما مضى مضى . وزار أنور باشا ايضاً ، وأهداه سيفاً مرصعاً باسم والده ، كما اجتمع إلى أقطاب الدولة ، والى البارون أوبنهايم ، مندوب امبراطور المانيا الشخصي .

ولم تزد إقامته في العاصمة عن أسبوعين ، عاد بعدها الى دمشق ، حافل الوطاب بما حصل عليه من معلومات تتصل بمهمته .

واستقر في قصر آل البكري ، وفيه بدأ اتصالاته السياسية ، برجال الحركة العربية ، ورجال الجمعيات العربية ، وكان معظمهم يزوره في الهزيع الأخير من الليل ، أتقاء الرقابة التي وضعها الترك على زواره .

وقد أعدت جمعية الفتاة قائمة ، حددت فيها اسماء الأشخاص الذين

يجب ان يجتمع اليهم ، ويستمع إلى أقوالهم . وانتقتهم من خيرة الطبقات ومن الذين يمكن ان يقال بأنهم يمثلون سورية تمثيلاً صحيحاً كاملاً .

وهذه اسماؤهم :

١ – القائمقام ياسين الهاشمي ، رئيس اركان حرب الفيلق التركي الثالث عشر ، وكان يرابط يومئذ في سورية .

تحدث اليه بصفته ممثلاً لحزب العهد العربي ، وقال له : انهم على أتم استعداد ، لإعلان الثورة على الترك ، وان لديهم في سورية ست فرق عسكرية عربية على تمام الأهبة للعمل ، وان كل ما يطلبونه ، هو ان يقود والده الحركة ، ويقوم على زعامتها ورئاستها .

٢ – الفريق علي رضا باشا الركابي : رئيس بلدية دمشق يومئذ – تحدث اليه بصفته ممثلاً لجمعية الفتاة العربية السرية . وقال : إن الجمعية تؤمن بالثورة وتؤيدها وتنضم اليها ، وتعتقد ان الوقت مناسب لإعلانها .

٣ – الشيخ بدر الدين الحسني ، كبير محدثي الشام ، وعالم علمائها ، تحدث اليه باسم العلماء في سورية ، وقال إنهم يؤيدون والده في الثورة على الترك ، لإنقاذ الامة من جورهم وظلمهم .

٤ – نسيب بك الاطرش : من كبار شيوخ جبل الدروز : تحدث اليه باسم الدروز في سورية ، وقال : إنهم سيكونون أول من يؤيد الثورة .

٥ – الشيخ نواف الشعلان ، نجل الشيخ النوري الشعلان ، رئيس عشائر الرولة ، تحدث اليه بصفته الخاصة ، وباعتباره ممثلاً لجموع القبائل العربية في سورية ، معلناً تأييدهم للثورة واستعدادهم لخوضها .

هؤلاء هم النخبة المختارة ، الذين اجتمع اليهم ، بصفتهم ممثلي الشعب السوري ، والناطقين بلسانه واستمع الى احاديثهم وتصريحاتهم فهزته ، وملأت اعطافه ارتياحاً وسروراً .

ومع أننا لا نعرف بالضبط موعد مغادرته دمشق ، عائداً الى مكة ،

إلا من المرجح ان يكون غادرها في أواخر شهر دسمبر سنة ٩١٥ ، أي بعد ان نصب الترك المشانق في بيروت ، وأعدموا القافلة الاولى من الشهداء .

وذهب فيصل عقب وصوله لمكة الى الطائف ، فاجتمع فيها الى والده وأخوته ، الذين وافوه تباعاً . فعقدوا مؤتمرهم في جو حر بعيـــد عن المراقبـة ، وعن الجواسيس الترك ، وبعد ان درسوا الموقف من جميـــع الوجوه ، واستمعوا الى تقرير فيصل ، اتخذوا سلسلة قرارات هذا أهمها :

١ – إعلان الثورة على الترك بالاتفـــاق مع الانكليز على شروط يتفق عليها .

٢ – يعود فيصل إلى دمشق لإكمال مباحثاته ، مع الزعماء وللاتفاق على التفاصيل .

٣ – يتولى عبدالله تنظيم القبائل في منطقة مكة والطائف .

٤ – يتولى علي تنظيم القبائل حول المدينة .

٥ – يبدأ الحسين مباحثاته مع الانكليز في مصر ، تمهيداً للوصول الى الاتفاق النهائي .

في الطريق الى الثورة

بلغ فيصل دمشق في شهر يناير سنة ٩١٦ ، بعد أن شهد مؤتمر الطائف واشترك فيه ، وبعد أن تقرر إعلان الثورة بالاتفاق مع الانكليز وبالتعاون معهم .

ولقد كان على فيصل أن يؤدي في دمشق هاتين المهمتين .

١ — ان يبقى رهينة تحت تصرف جمال باشا ، فلا يخرج والده على الدولة ، ولا ينهض لقتالها ، ولهذا كان تحت رقابة شديدة من جانب الترك .

٢ — أن يتصل برجالات العرب ومفكريهم ، الذين اجتمع اليهم في المرة الاولى ، ويتم مباحثاته ، ويتفق على الخطط النهائية لإبلاغها إلى والده وأخوته .

وأول ما لاحظه فيصل ، بعد وصوله الى دمشق ، خلو البلاد من الفرق العسكرية العربية ، ومن الضباط العرب الذين كانوا يقودونها ، ومصدر ذلك أن الترك ، نقلوا في خلال فترة غيابه في الحجاز هذه الفرق وهي ٢٣ و ٢٥ و ٢٧ وتؤلف الفيلق التركي السادس ، وكانت دمشق قاعدته ، والفرقة ٣٣ و ٣٥ و ٣٧ وتؤلف الفيلق التركي الثالث عشر وكانت الموصل قاعدته الى غاليسيا ، للاشتراك مع النمسويين والألمان

في صدّ الهجوم الروسي المندفع من جبال الكاربات .

واعتقل الترك أيضاً ، في خلال الفترة نفسها ، العشرات من شبان البلاد السورية ورجالاتها ، وملأوا السجون والمنافي وأثاروا ذعراً كبيراً ، وقلقاً زائـداً يريدون من وراء هذين التدبيرين شل كل حركة عربية ، وإبعاد كل خطر يهدد الامن .

وكان التدبير الثالث الذي لجأوا اليه ، نقل بعض الفرق العسكرية التركية من الأناضول الى سورية وجعلوها على قدم الاستعداد لإخماد كل حركة قد يتحركها الشعب .

ورأى فيصل وأخوانه ، الذين كانوا يتدارسون معه الوضع العام ، انه لم يعد في الإمكان ، إتخاذ سورية قاعدة للثورة ، التي تم الاتفـــاق بينهم على إضرامها ، بعد هذه التدابير التي اتخذها الترك ، وان الأفضل أن يكون الحجاز ميدانها الاول ، حيث الظروف اكثر ملائمة .

ولما انتهى كل شيء من هذه الناحية ، اتجهت النية إلى إخراج فيصل من دمشق وإعادته الى الحجاز لكي يشترك في الثورة ، ولن تعلن قبل رجوعه اليه

وتم الاتفاق بين فيصل ووالده وإخوته ، وكانت المكاتبـــات السرية تدور بينهم دون انقطاع ، ان يتقدم المتطوعون الحجازيون الذين يوسلهم الحسين الى المدينة ، فيطلبون استقدام فيصل من دمشق ليسير على رأسهم ، فيأنسون بوجوده ، ويزدادون قوة .

وزار فيصل جمال في دمشق ، في شهر مايو سنة ٩١٦ ، وقال له أن أخاه علياً ، وكان يقيم في المدينة ايضاً بصفة رهينة لدى بصري باشا ، تلقى أمراً من والده بأن يســـافر على رأس المتطوعين الى سينـــاء وأنه يود السماح له بالسفر ، فيأتي معهم ومع أخيه بالذات فرحب بالفكرة وقال له : سر الى المدينة ، واستقبلهم باسمي ، وعـــد معهم واعمل للاصلاح والتوفيق .

وغادر دمشق في أوائل شهر مايو سنة ٩١٦ ، على رأس وفد كان من أعضائه السيد نسيب البكري ، صديقه ووصيفه ومستشاره الخاص ، وآصف بك المستشار القضائي للجيش التركي وآخرون - الى المدينة ، لاستقبال المجاهدين ومرافقتهم في سيرهم الى سيناء .

وانتدبت القيادة التركية العليا ، اللواء فخري باشا مساعد قائد الجيش الرابع ، وقائد الفيلق التركي الثالث عشر ، وعينته قائداً عاماً لمنطقة المدينة ، وأرسلته اليها ، وشرعت في حشد قوات كبيرة ، استعداداً للطوارىء

وتم الاتفاق بين فيصل واخيه علي ، على العمل للنجاة من قبضة الترك والعودة الى مكة ، وبدأ فيصل فأعاد الوفد الذي جاء معه من دمشق ، وفي جملته السيد نسيب البكري ، بعد ما اتفق معه على أن يرسل اليه برقية هذا نصها : « أرسلوا الفرس الشقراء » ، في حالة الاتفاق على اعلان الثورة في الحجاز .

ووصلت البرقية فعلا اليه ، بعد بلوغه دمشق بخمسة أيام ، فأخذ يعد معدات الرحيل مع أهله وإخوته للحاق بالحجاز .

وزار الاميران علي وفيصل فخري باشا . القائد العام الجديد المنطقة ، وأطلعاه على البرقية التي أرسلها أنور باشا إلى والدهما (أنظر ص ٥٣) ، وقالا أنهما لم يعد في إمكانهما الاستمرار في العمل ، وان احدهما علياً ، سيعود الى مكة ، طبقاً لنص البرقية ، وامتثالاً لإشارة والده ، فاعتذر لهما وقال : أن التسرع ، هو الذي أملى البرقية ، وان هذه الامور تسوّى في المستقبل . واخيراً تم الاتفاق على ان يظل فيصل في المدينة لقيادة المجاهدين ، بدل أخيه ثم يسير بهم إلى سيناء .

وفي صباح أول يونيو سنة ٩١٦ ، غادر علي المدينة الى معسكر المجاهدين في سيدنا حمزة ، بعدما ودّع فخري باشا ، على ان يقضي هنالك الليل ، ويسافر في الغد الى مكة ، ورافقه فيصل في ذهابه ، على ان يعود الى

المدينة ، بعد وداعه ، ولكنه لم يعد بل أرسل صباح ٢ منه ، كتاباً مشتركا مع أخيه علي الى فخري باشا ، حمله ضابط تركي ، كان يعمل مرافقاً لفيصل وهو :

« حيث أن رجال الحكومة ، أساؤوا فينا الظن ، ولما كان ذلك يحول دون الاستمرار في التعاون مع الحكومة ، فقد عدنا إلى مكة بناءً على البرقية التي تلقيناها من والدنا لعدم استطاعتنا البقاء »

وركبا على الفور مع حاشيتهما و٢٠٠ هجان ، قاصدين مكة ، فسلكا الطريق الشرقي ، وظلا في مسيرهما حتى بلغا الخانق ، (إحدى المراحل على طريق المدينة - مكة) فنزلا فيها ، وفي صباح ٣ منه ، عادا الى ببار علي قرب المدينة ، وأرسلا الرسل الى القبائل يدعوانها لموافاتهما . ولم ينقض أسبوع ، حتى تجمع لديهما نحو ستة آلاف مقاتل ، فهاجما سكة الحديد بين محطة المدينة ، ومحطة المحيط يوم ٩ منه ، وفيها دارت أول معركة بين العرب والترك .

وعاد هذا الجيش في الغد ، فهاجم محطة المحيط نفسها ، فخرج فخري باشا بالذات للقتال على رأس قوات كبرى ، واشتبك مع العرب في معركة استمرت من الفجر الى الظهر ، وانتهت بارتداد العرب حتى ببر الماشي لنفاد ذخائرهم ، ثم ارتدوا الى « الغدير » ، وهنالك افترق الاخوان ، فذهب فيصل الى جهة ينبع ، وظل علي وحده يوالي الاستعداد تأهباً لمواصلة القتال .

وننقل من مذكرات جمال باشا ، بعض ما جاء فيها عن هذا الحادث الخطير ، قال :

« لما وصل فيصل الى المدينة ، كتب إليّ معرباً عن سروره ، لان أخاه علياً سيقابلني قريباً . وحيث ان الشريف حسين ، سألني أن أرسل اليه مبلغاً من النقود لإنفاقه على المجاهدين ، أبرقت الى محافظ المدينة بأن يسلمه ما طلب ، وذلك قبل الثورة بيومين » ، ويقول السيد نسيب البكري ،

انهم سلموا فيصل يومئذ ١٨ الف بندقية و ٢٠ الف ليرة عثمانية ذهباً .

ثم قال جمال في مذكراته : « وبينما أنا في بيروت يوم ٢ يونيو سنة ٩١٦ ، حادثني فخري باشا تليفونياً من المدينة ، وقال لي : مازالت علاقاتي حسنة مع الشريفين علي وفيصل ، منذ وصولي الى هنا . وقد دعواني أمس لزيارة مقام سيدنا حمزة (ضاحية المدينة) ، حيث معسكر المجاهدين . فذهبت وتغدينا معاً ، ولعب هؤلاء ألعاب الفروسية وأنشدوا الاناشيد الحماسية . ودعيت مساء الى منزل الشريف علي ، فقضيت وقتاً فيه . ومع اننا اتفقنا على ان تسافر أول كتيبة من كتائب المجاهدين في هذين اليومين الى درعا . فقد تغير الموقف صباح اليوم التالي تغيراً كبيراً فقد جاءني أحد رجال الشريف علي ، واعطاني ثلاث رسائل : الاولى لي ، والثانية والثالثة من الشريف حسين ، احداهما لك ، والثانية للصدر الاعظم ، وبما انهما مكتوبان بالارقام ، فقد عجلت بارسالهما اليك . أما الرسالة الموجهة اليّ فهذا ما جاء فيها :

« بناء على الاوامر الصادرة من والدي ، سيقف نقل المجاهدين الى فلسطين ، ولهذا عقدت النية على العودة بالموجودين الى مكة ، بدلاً من ضياع الوقت هنا . وأني آسف لاضطراري الى الرحيل بدون وداعك ، فأرجو قبول عذري » .

وقال الشريف حسين في كتابه الى جمال : انه يعتـــذر عن عدم استطاعته الاشتراك في حملة القناة ، قبل ان تجاب المطالب التي طلبها في برقيته ، وقبل ان تكف الحكومة عن اتباع خطة الاتهام حوله ، وقال في رسالته للصدر الاعظم : « انه لا يعرف اي الرجلين يصدق : أهـذا السياسي الذي يتعامل معه مباشرة (يريد جمال) ، ولطالما أظهر المجاملة والود ، او ذاك الذي استعمل معه الفاظاً مهينة جارحة (يريد أنور) وانه لذلك يرى نفسه مضطراً الى قطع العلاقات مع الحكومة ، حتى تجاب المطالب التي طلبها من انور قبل شهرين .

ويقول جمال ايضاً ، انه تلقى رسالة بالارقام ، من الشريف فيصل وكان قد سلمه مفتاحاً قبل سفره الى الحجاز قال فيها : « لقد صدر الامر بوقف نقل المجاهدين الى سورية ، لاسباب اؤمل أن أبسطها لك شخصياً متى تشرفت بلقائك . وقد ساءتني كثيراً الحالة الجديدة التي نشأت ، ولما كان من بواعث الالم ، ان لا تقع عيني عليك ثانية ، قبل تسوية الأمور ، تسوية مرضية ، فأتشرف بإخبارك أني ذاهب إلى مكة ، لقضاء بعض الوقت » .

وكان هذا آخر اتصال بين الاشراف والترك الاتحاديين . وقال القائلون يومئذ ، ان الذكاء العربي تغلب على الذكاء التركي وصرعه ، فقد استطاع الاميران بذكائها ، الافلات من قبضة الترك الحديدية بسهولة ، مع انهما لم يكونا سوى رهينة لمنع وقوع الثورة .

نصوص المكاتبات السرية بين الحسين والانكليز

في يوم ١٤ يوليو سنة ١٩١٥ ، (٢٨ رمضان سنة ١٣٣٣) ، وبعد انقضاء نحو سنة على إعلان الحرب العظمى ، بذل الانكليز خلالها كثيراً من الجهود لجذب العرب إلى محورهم ، وضمهم الى زمرتهم ، وبعد أن نفض الحسين يده من الترك الذين أبوا الاستجابة لمطالبه ، وبعد أن وثق من تأييد السوريين له — في هذا اليوم بالذات ، أرسل اول كتاب رسمي الى السر هنري ماكماهون ، نائب ملك انكلترا بمصر ، فكان ذلك بدء المكاتبات الرسمية بينهما ، وقد استمرت حتى يوم ١٠ مارس سنة ٩١٦ ، وختمت بكتاب من هذا اليه ، وبلغ عددها عشراً ، واستغرق تبادلها نحو ثمانية أشهر .

ويرجع سبب هذا التطويل في رأينا ، الى ثلاثة عوامل جوهرية وهي :

١ — صعوبة المواصلات ، وقلة وسائلها ووسائطها ، يومئذ خصوصاً وكان الترك لا يزالون في الحجاز .

٢ — عدم وجود سلطة كافية ، لدى نائب الملك للرفض أو القبول ، فقد كان عليه ان يرسل ما يتلقاه من رسائل ومقترحات الى لندن ، فتضع الجواب ، وتبعث به اليه ، فيحمله الى الحسين .

٣ — عدم وجود مبادىء محددة ومرسومة ، متفق عليها مقدماً

تدور المباحثات في اطارها . وهذا هو العامل الأول والأخير ، في الفشل والاخفاق الذي تبدى في النهاية .

لقد دخل الحسين المكاتبات ، وكان يجهل كل شيء عن الانكليز واخلاقهم واساليبهم ، معتقداً انهم على أتم استعداد لاجابته الى كل ما يطلب ، وربما فوق كل ما يطلب ، اعتماداً على وعودهم ، البراقة ، الخداعة ، ولذلك رأيناه في مذكرته التي ألحق بها كتابه الاول ، يطلب الاعتراف بدولة عربية مستقلة برئاسته ، رسم حدودها ، وحدد قطاعاتها ، وخطط سياستها ، وضرب لهم مهلة ٣٠ يوماً ، للقبول او الرفض ، مما يعد تسرعاً زائداً .

ولا نرتاب ، في انه أصيب بشيء غير قليل من خيبة الامل ، حينما جاءه ردّ المندوب ، وفيه بأن الوقت وقت حرب ، لا يتسع لبحث مسائل الحدود وغيرها . وطالت المكاتبات وامتدت ، وحاول الحسين في بعض مراحلها أن يكون مرناً ، عله ينال بعض ما يريد ، ولكن القوم ظلوا ثابتين في موقفهم ، فما أنالوه وعداً صريحاً محدداً ، وما اعطوه إلا ما أرادوه .

وشرع الترك ، قبل ان تشرف المكاتبات على نهايتها ، في حشد قوات كبيرة في المدينة ، جاؤوا بها على جناح السرعة من غاليسيا ومن رومانيا ، بعد ان انتهى القتال فيها ، ومع انهم كانوا يعلنون ويعيدون ويبدون ، بأن الغاية من هذا الحشد ، هو إرسال القوة المحشودة الى اليمن ، مما لم يقنع الحسين وعده موجهاً ضده ، يبغون من ورائه الوصول الى مكة واعتقاله وابنائه ، والخلاص منهم ، فعجل في إعلان الثورة ، قبل الوقت الذي كان محدداً لاعلانها ، وقبل إتمام الاستعدادات التي كان لا بد من إتمامها

والآن ، هذه هي المكاتبات بنصها ، وهي تنشر كاملة للمرة الاولى .

من الشريف ، الى ماكماهون .

بسم الله الرحمن الرحيم .

مكة في ٢٨ رمضان سنة ٣٣٣ ، (١٤ يوليو سنة ٩١٥) .

لصاحب السعادة والرفعة نائب جلالة الملك بمصر سلمه الله .

أقدم لجنابكم العزيز ، أحسن تحياتي الودية واحتراماتي ، وأرجو ان تعملوا كل ما وفي وسعكم لتنفيذ المذكرة المرسلة اليكم طيه ، المتضمنة الشروط المقترحة ، المتعلقة بالقضية العربية .

وأود بهذه المناسبة ، أن اصرح لحضرتكم ولحكومتكم ، انه ليس هنالك حاجة لان تشغلوا أفكاركم بآراء الشعب هنا ، لانه بأجمعه ميال إلى حكومتكم بحكم المصالح المشتركة ، ثم يجب الا تتعبوا أنفسكم بإرسال الطائرات ، ورجال الحرب لإلقاء المناشير ، واذاعة الشائعات كما كنتم تفعلون من قبل ، لان القضية قررت الآن .

واني لأرجوكم هنا ، ان تفسحوا المجال امام الحكومة المصرية لكي ترسل الهدايا المقررة من الحنطة للأراضي المقدسة (مكة والمدينة) التي اوقف إرسالها منذ العام الماضي

وأود أن الفت نظركم ، الى ان إرسال هدايا هذا العام ، والعام الفائت سيكون له أثر فعال في توطيد مصالحنا المشتركة ، واعتقد ان هذا يكفي لاقناع رجل ذكي مثلكم . واطال بقاءكم .

حاشية — أرجو الا تزعجوا أنفسكم بارسال اي رسالة ، قبل أن تروا نتائج اعمالنا هنا ، حالاً الجواب على مذكرتنا ، وما تتضمنه . ونرجو ان يكون الجواب بواسطة رسولنا ، كما نرجو ان تعطوه بطاقة منكم ، ليسهل عليه الوصول اليكم ، عندما نجد حاجة لذلك[1] .

---

(١) اسم هذا الرسول الشيخ محمد عارف بن عريفان .

المذكرة

لما كان العرب بأجمعهم دون استثناء ، قرروا في الاعوام الاخيرة ان يعيشوا ، وان يفوزوا بحريتهم المطلقة ، وان يتسلموا مقاليد الحكم نظرياً وعملياً بأيديهم ، ولما كان هؤلاء قد شعروا وتأكدوا ، ان مصلحة حكومة بريطانيا ان تساعدهم وتعاونهم ، للوصول الى امانيهم المشروعة ، وهي الاماني المؤسسة على بناء شرفهم ، وكرامتهم ، وحياتهم .

ولما كان من مصلحة العرب ان يفضلوا مساعدة حكومة بريطانيا عن اية حكومة اخرى ، بالنظر لمركزهم الجغرافي ، ومصالحهم الاقتصادية وموقفهم من حكومة بريطانيا .

وبالنظر لهذه الاسباب كلها ، يرى الشعب العربي ، انه من المناسب ان يسأل الحكومة البريطانية ، اذا كانت ترى من الموافق ان تصادق بواسطة مندوبها او ممثليها على الاقتراحات الاساسية التالية :

١ - تعترف بريطانيا باستقلال البلاد العربية من ادنة حتى الخليج الفارسي شمالاً ، ومن بلاد فارس حتى خليج البصرة شرقاً ، ومن المحيط الهندي للجزيرة جنوباً ، يستثنى من ذلك عدن التي تبقى كما هي ، ومن البحر الأحمر ، والبحر المتوسط حتى سيناء غرباً .

توافق انكلترا ايضاً على إعلان صفته خليفة على المسلمين .

٢ - تعترف حكومة الشريف العربية ، بأفضلية انكلترا في كل مشروع اقتصادي في البلاد العربية ، اذا كانت شروط تلك المشاريع متساوية .

٣ - تتعاون الحكومتان الانكليزية والعربية ، على مجابهة كل قوة تهاجم أحد الفريقين ، وذلك حفظاً لاستقلال البلاد العربية ، وتأميناً لافضلية إنكلترا الاقتصادية فيها . على ان يكون هذا التعاون في كل شيء في القوة العسكرية والبحرية والجوية .

٤ – إذا تعدى احد الفريقين على بلاد ما ، ونشب بينه وبينها قتال وعراك فعلى الفريق الآخر ، ان يلزم الحياد ، على ان هذا المعتدي اذا رغب في إشراك الفريق الآخر معه ، ففي وسع الفريقين ان يجتمعا معاً، وان يتفقا على الشروط .

٥ – يجب على إنكلترا ان تعترف بالغاء الامتيازات الاجنبية في البلدان العربية ، وان تساعد حكومة الشريف في مؤتمر دولي لتأكيد هذا الالغاء[١] .

٦ – مدة الاتفاق في المادتين الثالثة والرابعة ، من هذه المعاهدة خمس عشرة سنة ، واذا شاء احد الفريقين تجديدها عليه ان يطلع الفريق الآخر على رغبته قبل انتهاء الاتفاقية بعام .

هذا ولما كان الشعب العربي بأجمعه ، قد اتفق والحمد لله ، على بلوغ الغاية وتحقيق الفكرة مهما كلفه الامر ، فهو يرجو من الحكومة البريطانية ان تجيبه سلباً او إيجاباً في خلال ثلاثين يوماً من وصول هذا الاقتراح ، واذا انقضت هذه المدة ، ولم يتلق من الحكومة جواباً ، فإنه يحفظ لنفسه حرية العمل كما يشاء .

وفوق هذا ، فاننا نحن عائلة الشريف نعتبر أنفسنا – اذا لم يصل الجواب – احراراً في القبول والتنصل من كل التصريحات والوعود السابقة التي قدمناها بواسطة علي افندي[٢] .

– ٢ –

من مكاهون الى الشريف حسين

مصر في ١٩ شوال سنة ١٣٣٣ (٣٠ أغسطس سنة ٩١٥)

---

(١) هذه الفقرة غير موجودة في النص العربي المنشور، وقد وردت في النص الانكليزي وحده.
(٢) هو التاجر البهائي والايراني ، وقد ورد ذكره واسمه من قبل .

إلى الحبيب النسيب سلالة الأشراف وتاج الفخار ، فرع الشجرة النبوية ، والدوحة القرشية الاحمدية ، صاحب المقام الرفيع ، والمكانة السامية ، السيد ابن السيد ، والشريف ابن الشريف ، السيد الجبل دولة الشريف حسين باشا ، سيد الجميع ، أمير مكة المكرمة ، قبلة العالمين ، ومحط رحال المؤمنين الطائعين ، عمت بركته الناس أجمعين .

بعد رفع مرسوم وافر التحيات العاطرة ، والتسليمات القلبية الخالصة ، من كل شائبة الحرص ، اعرض ان لنا الشرف ، بتقـديم واجب الشكر لإظهاركم عاطفة الاخلاص والاحساسات نحو انكلترا ، وقد سرّنا علاوة على ذلك ، ان نعلم ان سيادتكم ورجالكم ، برأي واحد وعقيدة واحدة ، وهي ان مصالح العرب ، هي مصالح انكلترا ، ومصالح انكلترا ، هي مصالح العرب .

وأود بهذه المناسبة ان اؤكد لكم ، ما قاله اللورد كتشنر في الرسالة التي وصلتكم بواسطة علي افندي ، وهي الرسالة التي اوضح لكم فيها بصراحة ، اعتراف انكلترا باستقلال البلاد العربية وسكانها ، وموافقتنا على ان يكون الخليفة عربياً ، عندما تعلن الخلافة ، ونصرح مرة أخرى ان حكومة صاحب الجلالة تميل الى ان يكون الخليفة ، عربياً عريق العروبة.

اما ما يتعلق بالحدود ، فقد يكون بحثنا في مثل هذه التفاصيل — والوقت قصير ، والحرب قائمة ، سابقاً لاوانه ، وخاصة ان تركيا لاتزال تحتل قسما كبيراً من الاراضي التي اشرتم اليها في اقتراحكم احتلالاً تاماً.

ثم يجب ان اضيف الى ذلك ، انني علمت بدهشة ، وألم ان بعض العرب ، في هذه الأقسام لا يرغبون في مساعدتنا ، بل يقدمون مساعدتهم الفعلية بالسلاح للالمان والاتراك ، أعني للهدامين الجدد ، والظالمين القدماء.

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، فأنا على استعداد لان نرسل لفخامتكم المنح المطلوبة للاراضي المقدسة ، حالما تعلموننا كيف واين

ترغبون تسلمها ، ونحن نهيىء الاسباب اللازمة ، ليتمكن رسولكم من الوصول الينا بكل آمان والسلام .

وتفضلوا بقبول فائق احتراماتنا .

« ا . ه . ماكماهون »

— ٣ —

من الشريف الى ماكماهون .

مكة في ٢٩ شوال سنة ١٣٣٣ (٩ سبتمبر سنة ٩١٥)

لصاحب السعادة والرفعة نائب جلالة الملك بمصر سلمه الله .

بمزيد السرور والغبطة ، تلقيت كتابكم المــؤرخ في ١٩ شوال وطالعته بكل احترام واعتبار رغم شعوري بغموضه وبرودته ، وتردده فيما يتعلق بنقطتنا الأساسية اي نقطة الحدود .

وأرى من الضروري ، ان اؤكد لسعادتكم اخلاصنا نحو بريطانيا ، واعتقادنا بضرورة تفضيلها على الجميع في كل الشؤون ، وفي اي شكل ، وفي اية ظروف ، ويجب ان اؤكد لكم ايضاً ، ان مصالح اتباع دياناتنا كلها تتطلب الحدود التي ذكرتها لكم .

ويعذرني فخامة المندوب ، إذا قلت بصراحة ان « الــبرودة » و« التردد » اللذين ضمنهما كتابه فيما يتعلق بالحدود ، وقوله ان البحث في هذه الشؤون ، إنما هو إضاعة للوقت ، وان تلك الاراضي لاتزال بيد الحكومة التي تحكمها — ليعذرني فخامته اذا قلت ، ان هذا كله يدل على عدم الرضاء او على الفتور ، او على شيء من هذا القبيل ، فان هذه الحدود المطلوبة ليست لرجل واحد نتمكن من ارضائه او مفاوضته بعد الحرب ، بل هي مطالب شعب ، يعتقد ان حياته في هذه الحدود وهو متفق بأجمعه على هذا الاعتقاد ، وهذا ما جعل الشعب ، يعتقد انه من الضروري البحث في هذه النقطة قبــل كل شيء ، مع الدولة التي يثقون

بها كل الثقة . ويعلقون عليها كل الآمال ، وهي بريطانيا العظمى .
واذا اجمع هؤلاء على ذلك ، فانما يجمعون عليه في سبيل الصالح المشترك ، وهم يرون انه من الضروري جداً ان يتم تنظيم الاراضي المجزأة ، ليعرفوا على اي اساس يؤسسون حياتهم ، كيلا تعارضهم انكلترا او احدى حليفاتها في هذا الموضوع ، مما يؤدي الى نتيجة معاكسة ، الأمر الذي حرمه الله .
وفوق هذا ، فان العرب لم يطلبوا — في تلك الحدود — مناطق يقطنها شعب اجنبي ، بل هي عبارة عن كلمات وألقاب يطلقونها عليها .
أما الخلافة ، فان الله يرضى عنها ، ويسر الناس بها .
واني على ثقة ، يا صاحب الفخامة ، انكم لا تشكون قط بأني لست انا شخصياً الذي يطالب بتلك الحدود ، التي يقطنها عرب مثلنا ، بل هي مقترحات شعب بأسره ، يعتقد انها ضرورية لتأمين حياته الاقتصادية.
أوليس هذا صحيحاً ، يا فخامة الوزير .
وبالاختصار ، فاننا ثابتون في اخلاصنا ، ونصرح بكل تأكيد بتفضيلنا لكم على الجميع ، اكنتم راضين عنا — كما قيل — او غاضبين .
ان ما يتعلق في قولكم ، بأن من شعبنا لايزال يبذل جهده في سبيل تأمين مصالح الاتراك ، فلا اظن ان هذا يبرر « البرودة » و « التردد » اللذين شعرت بهما في كتابكم فيما يتعلق بموضوع الحدود ، الموضوع الذي لا اعتقد ، ان رجلاً مثلكم ثاقب الرأي ، ينكر انه ضروري لحياتنا الادبية والمادية .
وانا حتى الساعة ، لا ازال اعتقد ما تأمر به الديانة الاسلامية في كل عمل اقوم به ، وأراه مفيداً وصالحاً لبقية المملكة ، واني سأستمر في هذا ، الى ان يأمر الله بغير ذلك .
وأود هنا يا صاحب الفخامة ، ان اؤكد لكم بصراحة ان جميع الشعب ، ومن جملته هؤلاء الذين تقولون انهم يعملون لصالح تركيا

والمانيا ، ينتظر بفارغ صبر ، نتائج هذه المفاوضات المتوقفة على موافقتكم أو رفضكم قضية الحدود ، وقضية المحافظة على دياناتهم ، وحمايتهم من كل أذى او خطر .

وكل ما تجده الحكومة البريطانية موافقاً لسياستها ، في هذا الموضوع، فما عليها الا تعلمنا به ، وان تدلنا على الطريق التي يجب ان نسلكها .

— ٤ —

من ماكاهون الى الشريف

القاهرة في ٢٤ اكتوبر سنة ٩١٥ (١٥ ذي الحجة سنة ١٣٣٣).

الى شريف مكة مع الالقاب .

تلقيت كتابكم المؤرخ في ٢٩ شوال ، بكثير من الغبطة والسرور وكان للعبارات الودية المخلصة ، التي وردت فيه اكبر تأثير في نفسي .

وانه ليؤسفني ، انكم لاحظتم في كتابي الأخير ، وحديثي عن قضية الحدود ، شيئاً من البرودة والتردد ، مع انني لم اكن اقصد ذلك ، بل كنت اود أن اقول بأن الوقت لم يحن بعد للبحث فيها بحثاً منتجاً .

هذا كل ما اردت قوله ، وقد ادركت من كتابكم الاخير انكم تعلقون اهمية كبرى على قضية الحدود ، وانكم تعتبرونها من المسائل الحيوية ، فأرسلت مضمون كتابكم الى الحكومة البريطانية ، وانه ليسرني أن ارسل اليكم البيانات التالية ، التي اثق كل الثقة انها ستفوز برضائكم .

ان مرسين واسكندرون وبعض الأقسام السورية ، الواقعة غرب دمشق وحمص وحماه وحلب لا يمكن ان يقال انها عربية محضة .

فيجب ان تستثنى من الحدود التي ذكرتموها ، ونحن على استعداد للموافقة على تلك الحدود ، على اساس هذه التعديلات ، على ان لا ننقض شيئاً من اتفاقاتنا مع الزعماء العرب .

اما الاراضي التي تستطيع إنكلترا العمل فيها بملء الحرية ، ودون ان توقع ضرراً بحليفتهـا فرنسا ، فان لي السلطة التامة ، باسم حكومة صاحب الجلالة ، ان اعطيكم التأمينات التالية جواباً على كتابكم .

١ – ان انكلترا مستعدة – على اساس تلك التعديلات – ان تعترف باستقلال العرب ، وتقديم المساعدة لهم في الحدود التي اقترحها شريف مكة .

٢ – تحمي بريطانيـا ، الاراضي المقدسـة من كل اعتداء خـارجي وتعترف بوحدتها .

٣ – تقدم بريطانيـــا للعرب عند الحاجة – كل مساعدة او نصيحة تلزم ، وتعـاونهم في تشكيل افضل شكل من اشكال الحكومـات في مختلف البلاد العربية .

هذا من ناحية ، ومن ناحيـــة اخرى ، فان العرب يوافقون على الاقتصار على استشارة ومعونة وادارة بريطانيا العظمى وحدها . ويرضون ان يكون جميع الموظفين الذين يحتاجون اليهم لتنظيم دوائر مملكتهم من التبعة الانكليزية .

أما ما يتعلق بولايتي البصرة وبغداد ، فان العرب يعرفون ان مركز انكلترا ومصالحها فيها – تتطلب شكلاً إدارياً خاصاً . ومراقبـة خاصة للمحافظة على تلك الانحاء من الاعتداءات الخارجية وتأمين راحة واطمئنان السكان ، وتوطيد مصالحنا المشتركة فيها :

واني على ثقة ، بان هذا التصريح ، يجعلكم أبعد مـا تكونون عن الشك في عطف بريطانيا على اماني اصدقائها « التقليديين » العرب ، ويؤدي حتما الى التحالف والعمل على طرد الاتراك من البـلاد العربيـة ، وانقاذ العرب من النير التركي ، الذي كان ومايزال يضغط على اعناقهم منذ اعوام .

لقد قصرت كتابي هـذا ، على الشؤون العظيمة الاهمية ، فاذا كان لديكم شؤون اخرى ترغبون في المذاكرة بشأنها ، ولم أشر اليها ، في كتابي هذا ، فان في وسعنا البحث فيها في فرصة مناسبة في المستقبل .

وقد تلقيت بالسرور والرضا ، نبأ وصول المحمل الشريف ، والهدايـا

المرسلة بكل دقة ونظام ، بفضل التعليمات والارشادات القيمة التي قدمتموها ، وذلك بالرغم من الاخطار والمصاعب التي خلقتها الحرب الحاضرة .

أرجو ان يعيد الله السلام والأمان والحرية سريعاً الى جميع الشعوب .

لقد ارسلت اليكم هذا ، بواسطة رسولكم النشيط الامين الشيخ محمد عارف بن عريفان ، وهو يطلعكم على بعض الشؤون التي لم اذكرها في كتابي .

— ٥ —

من الشريف الى ماكماهون

بسم الله الرحمن الرحيم

مكة في ٢٤ ذي الحجة ١٣٣٣ (٥ نوفمبر سنة ٩١٥) .

الى السر هنري ماكماهون (مع الالقاب) .

لقد تلقيت بسرور كتابكم الكريم المؤرخ في ١٥ ذي الحجة ، وها أنا اجيبكم عليه بما يلي .

١ – رغبة في تسهيل الاتفاق وخدمة الاسلام ، واجتناب كل ما من شأنه تعكير صفو المسلمين ، واعتماداً على صفات بريطانيا العظمى ، ومواقفها الحميدة فاننا نتنازل عن اصرارنا في ضم مرسين وأدنة الى المملكة العربية ، اما قضية حلب وبيروت وسواحلها فهي عربية صرفاً ، وليس هناك فرق بين المسلم العربي ، والمسيحي العربي ، فكلاهما من نسل واحد .

٢ – لما كان العراق قسماً من المملكة العربية ، وكان مركز حكوماتها في عهد علي بن ابي طالب والخلفاء الذين تبعوه ، ولما كان هذا القطر مهداً لحضارة العرب ومدنيتهم ، وفيه انشئت مدنيتهم الاولى ، وفيه عظمت قوتهم ، فان العرب القريبين والبعيدين ، ينظرون الى هذا القطر نظرة اعتبار خاصة ، ولا يستطيعون ان ينسوا بسهولة تقاليدهم وذكرياتهم.

ولذلك اعتقد انه ليس في المستطاع اقناع الشعب العربي بالتنازل عن

هذا القطر ، انما رغبة منا في تسهيل الاتفاق واعتمادا على عهودكم في المادة الخامسة من كتابكم ، وحفظاً لمصالحنا المشتركة في هذا القطر فقد نوافق ان نترك لمدة قصيرة الاراضي التي تحتلها الجيوش البريطانية ، تحت ادارة انكلترا لقاء مبلغ من المال يدفع كتعويض عن مدة احتلال تلك المنطقة واحترام اتفاقكم مع شيوخها .

٣ – اذا كنتم ترغبون في الاسراع بالثورة فاننا نرى امامنا كثيراً من المخاوف . واول ما نخشاه ان يقوم مسلمو الطرف الآخر ، ويلوموننا على حركتنا وثورتنا على حكومة اسلامية .

ثم هناك امر آخر نخشاه ، وهو اننا اذا وقفنا في وجه الترك ووراءهم جميع القوات الالمانية ، فاننـــا لا نستطيع ان نعرف ، اذا كان من الممكن ، ان تضعف احدى الدول المتحـــالفة ، وتطلب الصلح ، فهل تتركنا انكلترا وحدنا امام الترك ام لا !

فاذا تم هذا ، وبقي العرب وحيدين ، فماذا نصنع ؟

٤ – ان الترك لا يكادون يروننا وحيدين ، حتى يعمدوا الى الانتقام منا ، فيعبثوا بحقوقنا المادية والمعنوية ، ويعتدوا على شرفنا وكرامتنـا بمساعدة حليفتهم المانيا .

هذه أمور يجب النظر اليها منذ الآن ، بعين الاعتبار لان لها علاقة خاصة بقضيتنا .

٥ – عندما يعرف العرب ان حكومة بريطانيـــا العظمى ، وهي حليفتهم لا تدعهم وحدهم عند انتهاء الحرب ، وعقد معاهدة الصلح ، وتمد يدها دوماً لمساعدتهم والدفاع عنهم ، عندئذ يخوضون غمار الحرب بنفس مطمئنة لا يشوبها شيء من الخوف والحذر .

٦ – ان كتابنا المؤرخ في ٢٩ شوال سنة ١٣٣٣ ، يغنينا على مـا اعتقد ، عن إعادة رأينا ، فيما يتعلق بالمادتين الثالثة والرابعة من كتابكم الاخير ، بشـأن الادارة والاستشارة الحكوميـة والموظفين ، على ان لا

يكون كما صرحتم ، تدخل في الشؤون الداخلية .

٧ – اننا ننتظر وصول جوابكم النهائي الصريح على هذه الاقتراحات باسرع ما يمكن ، فقد أبدينا كل تساهل في الموضوع ، في سبيل الوصول الى اتفاق يرضي الفريقين .

ونحن نعرف ان نصيبنا من هـذه الحرب ، اما نجـاح يضمن للعرب حياة تتفق وتاريخهم القديم ، او انقراض في سبيل الوصول الى أمـانيهم ومطالبهم .

ولو لم اكن اعرف ، ان العرب بأجمعهم مستعدون للتضحية بارواحهم في سبيل الوصول الى أمانيهم ، لكنت افضل ان اصعـد الى رأس جبل وانزوي فيه . ولكن العرب بأسرهم ، يلحون عليّ بأن اقود حركتهم حتى النهاية . وليحفظكم الله وينصركم .

– ٦ –

من ماكماهون الى الشريف

القاهرة في ١٣ دسمبر سنة ٩١٥ (٩ صفر سنة ١٣٣٣) .

الألقاب

وبعد ، فقد وصلني كتابكم الكريم ، تاريخ ٢٤ ذو الحجة سنة ١٣٣٣

وسرني ما رأيت ، من قبولكم لاخراج ولايتي مرسين وأدنـة من حدود البلاد العربية ، وقولكم ان العرب مستعدون ان يحترموا ويعترفوا بجميع معاهداتنا مع رؤساء العرب الآخرين ، يعلم منه انه يشمل البلاد الداخلة في حدود المملكة العربية ، لان حكومة بريطانيـــا العظمى لا تستطيع ان تنقض اتفاقات ابرمت بينها وبين اولئك الرؤساء .

أما بشأن ولايتي حلب وبيروت ، فحكومة بريطانيا العظمى ، قد فهمت كل ما ذكرتم بشأنهما ، ودونت ذلك عندها بعناية تامة ، ولكن لما كانت لفرنسا حليفتها مصالح داخلة فيهما ، فالمسألة تحتاج الى نظر وثيق وسنخابركم في هذا الشأن ، مرة اخرى في الوقت المناسب .

ان حكومة بريطانيا العظمى – كما سبق فاخبرتكم – مستعدة لأن تعطي كل الضمانات والمساعدات التي في وسعها الى المملكة العربية . ولكن مصالحها في ولاية بغداد ، تتطلب إدارة قوية ثابتة ، واننا نستصوب تماماً رغبتكم في اتخاذ الحذر ، ولسنا نريد ان ندفعكم الى عمل سريع ، ربما يعرقل نجاح اغراضكم ، ولكننا في الوقت نفسه نرى من الضروري جداً ، ان تبذلوا كل مجهوداتكم ، في جمع كلمة الشعوب العربية حول غايتنا المشتركة ، وان تحثوهم على ألا يمدوا يد المساعدة لإعدائنا بأي وجه كان .

وقد فوضت ان أبلغ دولتكم ، ان تكونوا على ثقة من ان بريطانيا العظمى لا تنوي ابرام اي صلح كان ، إلا اذا كان ضمن شروطه الاساسية حرية الشعوب العوبية ، وخلاصها من سلطة الألمان والترك .

هذا ، وعربوناً على صدق نيتنا ، ولاجل مساعدتكم في مجهوداتكم في سبيل غايتنا المشتركة ، فإنني مرسل مع رسولكم الامين مبلغ عشرين الف جنيه . وأقدم في الختام عاطر التحيات القلبية .

– ٧ –

من الشريف الى ماكماهون

بسم الله الرحمن الرحيم .

مكة في ٢٧ صفر سنة ١٣٣٢ (اول يناير سنة ٩١٦) .

تلقينا كتابيكم المؤرخين ٩ صفر ، فسرني ما جاء فيهما ، وذهب ما كان يقلقني .

واظن ان فخامتكم قد ادركتم ، بعد وصول الشريف محمد فاروق واجتماعه اليكم ، بان اعمالنا حتى الآن لم تكن لغايات وميول شخصية ، بل ان كل شيء كان نتيجة مطالب شعبنا، ورغائب شعبنا ، واننا لسنا سوى ناقلين ومنفذين لرغائب الشعب وإلحاحه .

وهذه الحقائق ، هي دوماً في فكري ، واهتم لها كل الاهتمام ، وأرجو انها تجد في نفوسكم مكانها من الاعتبار والانتباه .

أما ما يتعلق بقضية العراق ، وقضية التعويض الذي اقترحناه لقاء احتلاله ، فإنني رغبة في تقوية ثقة بريطانيا بنوايانا وغاياتنا في القول والعمل ، أدع أمر تقدير المبلغ إلى حكمتها وعدالتها .

أما ما يتعلق بالأقسام الشمالية ومرافئها ، فقد ابدينا لكم في كتابنا السابق ، اقصى ما يمكن ان نوافق عليه من تعديلات ، ونحن لم نتساهل الا لتحقيق الرغائب التي يريدها الله العلي القدير ان تتحقق .

وهذا الشعور ، هو الذي حدانا لان نتجنب كل ما من شأنه ان يسيء الى تحالف انكلترا وفرنسا ، والاتفاق المعقود بينهما ، خلال هذه الحرب ومصائبها ...

*

الى هنا ينتهي النص العربي ، وهو ناقص ، وقد وجدنا له تتمة بالنص الانكليزي ، فترجمناها فيما يلي :

وعلى كل ، فاننا نرى من واجبنا ان نؤكد لكم ، اننا سنطلب اليكم في اول فرصة ، بعد انتهاء الحرب ما ندعه الآن لفرنسا في بيروت وسواحلها .

ولست أرى حاجة لألفت نظركم ، الى ان خطتنا هي أضمن لمصالح بريطانيا من خطة بريطانيا على مصالحنا ، ونعتقد ان وجود هؤلاء الجيران سيقلق افكارنا في المستقبل كما يقلق افكارها .

وفوق هذا ، فان الشعب البيروتي ، لا يرضى قط بهذا الابتعاد والانزواء ، وقد يضطرنا لاتخاذ تدابير قد يكون من شأنها ، خلق متاعب جديدة تفوق في صعوبتها المتاعب الحاضرة .

وعلى هذا ، فلا يمكن السماح لفرنسا باحتلال قطعة صغيرة في تلك المنطقة .

ويستطيع معالي الوزير وحكومته ، ان يثقا كل الثقة بأننا لانزال عند قولنا ، وعزيمتنا ، وتعهداتنا ، التي عرفها المستر ستورس عنا منذ سنتين .

ونحن ننتظر اليوم ، الفرصة السانحة التي تناسب موقفنا ، وخاصة فيما يتعلق بالحركة التي اصبحت قريبة ، والتي يدفعها القدر الينا بسرعة ووضوح ، وستكون حجة لنا نحن ، والذين يرون رأينا - في العمل ضد تركيا - دون ان نتعرض للوم أو نقد .

واكرر القول ، بأن اعتقادنا وتأكدنا من ان مصالحنا مشتركة ، بل ومتشابهة ايضاً هي السبب الذي أدى بنا الى الاهتمام بالمفاوضة مع بريطانيا وحدها دون غيرها من الدول ، وبناء عليه ، فانه من المستحيل ان نسمح باي حطّ من كرامتنا ، بان نعطي لفرنسا أو اية دولة اخرى قطعة ارض من تلك المناطق .

وعلى كل حال ، فاننا لا نريد ان ندفعكم لاتخاذ إجراء متسرع قد يهدد نجاح هدفنا بالاخطار ، فانه لايحتاج الى تفسير اكثر من معناه ، اللهم إلا اننا سنطلب منكم ، عندما تدعو الضرورة ، بعض اسلحة وذخائر وغيرها .

أعتقد انني اطلت في هذا الكتاب ، وقد اخذت من وقتكم الشيء الكثير ، واسمحوا لي ان أقدم لكم احترامي .

من ماكماهون الى الشريف

القاهرة في ٢٤ ربيع الاول سنة ١٣٣٤ (٣٠ يناير سنة ٩١٦)

الى الشريف مع الالقاب ...

تلقينا بسرور كتابكم المؤرخ في ٢٥ صفر ، بواسطة رسولكم الموثوق به ، وأطلعنا منه على رسالتكم الشفهية ، واننا لنقدر حق التقدير الدوافع التي تقودكم في هذه القضية الهامة ، ونعرف جيداً انكم تعملون لصالح العرب ، وانكم لا ترمون من عملكم الى شيء غير صالحهم وحريتهم.

ولقد عنيت عناية خاصة بملاحظاتكم بشأن ولاية بغداد ، والتعويض وسنبحث هذين الموضوعين باهتمام زائد عندما تتم هزيمة الاعداء ونصل الى التسويات السليمة .

واما فيما يتعلق بالجهات الشمالية ، فقد كتبت ملاحظة عن رغبتكم في تجنب كل ما من شأنه الاساءة الى تحالف انكلترا وفرنسا ، وسررت جداً بابداء هذه الرغبة .

وانكم تعرفون جيداً ، اننا مقررون قراراً نهائياً بان لا نسمح باي تدخل — مهما قل شأنه — في اتفاقنا المشترك في ايصال هذه الحرب الى الفوز ، ثم متى انتهت فان صداقة انكلترا وفرنسا ستقوى وتشتد ، وهما اللتان بذلتا الدماء الانكليزية والافرنسية جنباً الى جنب ، في سبيل الدفاع عن الحقوق والحريات .

والآن ... وقد قررت البلاد العربية ، ان تشترك معنا في سبيل هذه القضية الهامة ، فاننا لنرجو الله ان تكون نتيجة هذه الجهود المشتركة ، وهذا التعاون ، الوطيد صداقة دائمة تعود على الجميع بالسرور والغبطة .

وقد سررنا جداً ، للحركة التي تقومون بها لإقناع الشعب العربي

بضرورة الانضمام الى حركتنا ، والكف عن مساعدة اعدائنا . ونترك لفطنتكم وتقديراتكم ، تقرير الوقت المناسب لاتخاذ تدابير اوسع من هذه.

إلى هنا ينتهي النص العربي المنشور . ولهذا الكتاب بقية في الاصل الانكليزي ، هذا تعريبها :

ولا شك انكم ستخبروننا ، مع حامل رسالتنا هذه ، باي حال نستطيع مساعدتكم ، كما ان طلباتكم ، ستنال دائماً اعتبارنا العاجل .

لا بد انكم سمعتم ، كيف ان السيد احمد الشريف السنوسي ، قد انخدع بنصيحة قرناء السوء ، واقوال الاعداء ، وستتألمون كثيراً اذا علمتم انه في هذه الآونة ، نسي مصالح العرب ، وانضم الى معسكر اعدائنا ، وكان ذلك من سوء حظه ، ونحن واثقون بأنه سيتبين نتيجة اخطائه هذه قريباً ، والتي ستلحق به وباتباعه الفقراء ، الذين ضلوا وخدعوا معه وتضرروا أشد الضرر .

نبعث اليكم هذه الرسالة مع رسولنا الطيب ، الذي سيوافيكم بأنبائنا جميعها .

- ٩ -

من الشريف الى ماكماهون

مكة في ١٤ ربيع الاخر سنة ١٣٣٤ و ١٨ فبراير سنة ١٩١٦ .

إلى صاحب السعادة ...

تلقيت بمزيد السرور والغبطة ، كتابكم الاخير المؤرخ في ٢٥ ربيع الاول سنة ١٣٣٤ (٣٠ يناير سنة ١٩١٦) ، واحطت علماً بما جاء فيه ، وسأعمل ان شاء الله لجمع كلمة العرب ، ونبدأ العمل قريباً باذن الله .

إلى هنا ينتهي النص العربي المنشور . وله تتمة نقلناها من النص

الانكليزي الرسمي وهي :

اولاً — لقد ابلغنا سعادتكم ، اننا ارسلنا احد ابنائنا الى سورية، ليتولى قيادة العمليات الضرورية هناك . وقد استلمنا تقريراً مفصلاً منه يخبرنا فيه ، بان استبداد وطغيان الحكومة هنالك ، جعل الناس يولونها ظهرهم ، بحيث لم يعد لها نصير تعتمد عليه ، سواء اكان ذلك بين صفوف الجند او غيرهم ، اللهم الا قلة لا اهمية لها .

وقال ايضاً : انه ينتظر وصول القوات التي اعلن عنها ، من مختلف الاماكن ، وعلى الاخص من سكان البلاد والمناطق العربية المجاورة ، كحلب ، وجنوبي الموصل ، والتي قد يبلغ مجموعها مئة الف مقاتل على اقل تقدير حسب اقوالهم ، وهو ينوي اذا رأى ان اغلبية القوات التي ذكرت عربية ، ان يبدأ الحركة مستعيناً بها ، واذا ظهر له غير ذلك ، وعرف ان القوات من الترك وغيرهم ، فانه سيرافقها في تقدمها الى قناة السويس ، وعندما يبدأ القتال ستكون حركاته ضدها .

ثانياً — اقترحنا إرسال ابننا الأكبر الى المدينة ، مع قوات كافية لتقوية مركز أخيه ، الذي يوجد الآن في سورية ، والذي توجد أمامه أكمل فرصة ، لتدمير سكة الحديد ، او لتنفيذ اية عمليات ، قد تدعو اليها الظروف . وهذه هي بداية الحركة الرئيسية ، ونحن قانعون بهذه البداية ، بعد ان جمعنا عدداً من الجنود للمحافظة على الامن الداخلي في البلاد ، وقد اخترنا هؤلاء من اهل الحجاز فقط ، لأسباب عديدة يطول أمر تعدادها ، ولعل اهمها هي : الصعوبات التي تجابهنا لتأمين الضروريات لهم بطريقة سرية وسريعة ، (هذا مع العلم بان هذا التحفظ ليس ضرورياً) ، ولتسهيل إحضار النجدات عند الحاجة اليها . هذه خلاصة ما رغبتم في معرفته ، وانا اعتقد ، ان هذا كافٍ وسنتخذه اساساً ونموذجاً لاجراءاتنا في وجه جميع التغييرات والحوادث التي تقع ، كما سيظهر لنا سير الحوادث في المستقبل ، وبقي علينا ، ان نذكر ما نحتاجه في

الوقت الحاضر .

اولاً – مبلغ ٥٠,٠٠٠٠ جنيه ذهبي للرواتب الشهرية للجنود الذين جمعناهم ولأمور اخرى ضرورية لا حاجة لشرحها ، ونأمل ان تردنا على وجه السرعة .

ثانياً – ٢٠,٠٠٠ كيس من الأرز و ١٥٠٠٠ كيس من الدقيق و ٣٠٠٠ كيس من الشعير و ١٥٠ كيس من البن و ١٥٠ كيس من السكر و ٥٠٠٠ بندقية من طراز حديث ، مع ذخيرتها الضرورية و ١٠٠ كيس من رصاص البنادق من النموذجين المرفقين ، ورصاص من نوع مارتينا – هنري ، ونوع (ازا) اي من الرصاص الذي ينتجه مصنع البنادق في سانت أتين في فرنسا ، لاستخدامه في هذين النوعين من البنادق الموجودة مع قبائلنا ، وإذا ارسلتم ٥٠٠ صندوق من النوعين ، فلن يضيع منها شيء .

ثالثاً – نفضل ان يجري احضار هذه المواد المطلوبة في ميناء بور سودان .

رابعاً – بما ان المواد والمؤن والذخائر التي عددناها اعلاه ، لا نحتاجها إلا بعد بدء الحركة (وسنبلغكم عن ذلك رسمياً) ، فيجب ان تبقى جميعها في المكان المشار اليه سابقاً ، وعندما نحتاجها سنخبر الحاكم هناك . بالمكان الذي يجب ان يرسلها اليه لنستلمها ، وعن الاشخاص الذين سيحملون الاوامر لاستلامها .

خامساً – اما المال المطلوب ، فيجب ان يرسل حالاً الى الحاكم ببور سودان ، وسنرسل وكيلاً موثوقاً به لاستلامه ، اما على دفعة واحدة ، او على قسطين ، حسب استطاعته وهذه الاشارة (×) ، هي اشارة السر ، التي تمكنكم من قبول مبعوثنا .

سادساً – أن مبعوثنا الذي سيستلم المال ، سيصل الى بور سودان ، خلال ثلاثة اسابيع ، يعني انه سيكون هناك في ٥ جماد الأول (٩ مارس)

مع كتابنا ، معنوناً باسم الخواجه اليـاس افندي ، ويقول بـأن عليه (أي الياس) ان يدفع له بموجب الرسالة اجرة املاكنا ، كما ستحمل الرسالة توقيعنا واضحاً ، ولكننا سنأمره بالسؤال عن حاكم المكان ، الذي ستبلغونه انتم ، أمر وصول الشخص المعتمد منا . وبعد مراجعة الرسالة يجب اعطاؤه المـال ، شريطة ان لا يجري معه اي بحث عن اي أمر يخصنا . نطلب اليكم بالتأكيد ، ان لا تخـبروه شيئاً ، وان تحيطوا المسألة بالسرية التامة ، كما يجب ان يعامل الشخص معاملة عادية لا تشير من بعيد او قريب الى مهمته .

ويجب ان لا يخطر على بالكم ، ان اختيارنا لرجل أخر ناتج عن اي عدم ثقة بناقل الكتاب ، بل لتجنب اضاعة الوقت ، لاننا سنعين الناقل لمهمة أخرى ، كما اننا نرجوكم ان لا ترسلوه في باخرة او بطريقة رسمية ، فالوسائل لديه كافية .

سابعا — ان ممثلنا ، حامل كتابي هذا ، قد أمر على وجه التعيين بأن يتأكد من وصول هذا الكتاب ، واظن ان مهمته هذه المرة ، قد انتهت لان ظروف الاشياء معروفة من ناحية عامة ، وبالتفصيل لا حاجة تدعو إلى ارسال شخص آخر . وإذا اردتم بعض معلومات اخرى فستأتي منا ، لأن ممثلنا الآخر ، سيصل اليكم بعد ثلاثة اسابيع ، فتستطيعون إعداد تعليمات له ، لينقلها لنا ، ومع هذا فيجب ان تعاملوه ببساطة .

ثامناً — لتعتبر الحكومة البريطانية هذه النفقـات العسكرية حسب الكتب الصادرة عنها ، موضحة كيف انفقت .

وبالختام ، اقبلوا اطيب تحياتي التي لا عداد لها .

من ماكماهون الى الشريف

القاهرة في ١٠ مارس سنة ١٩١٩ (١٩ جمادي الاول سنة ١٣٣٤)
الى الشريف (مع الالقاب) .

تلقينا كتابكم المؤرخ في ١٤ ربيع الآخر ، من يد رسولكم الامين وقد سررنا ، لوقوفنا على التدابير الفعلية التي تنوونها ، وانها لموافقة في الاحوال الحاضرة . وقد صادقت حكومة جلالة الملك على جميع مطالبكم وكل شيء رغبتم الاسراع في إرساله ، فهو مرسل مع رسولكم حامل هذا ، والاشياء الباقية ستحضر بكل سرعة ممكنة ، وتبقى في بور سودان تحت امركم حتى ابتداء الحركة ، وابلاغنا إياها بصفة رسمية ، كما ذكرتم ، وبالمواقع التي يقتضي سوقها اليها ، والوسائط التي ستكون مع حاملي الوثائق لتسلمها .

ان كل التعليمات ، التي وردت في محرركم ، قد اعلنا بهـا محافظ بور سودان ، وهو سيجريها حسب رغبتكم ، وقد عملت جميع التسهيلات اللازمة لارسال رسولكم حامل خطابكم الاخير ، الى جيزان حتى يؤدي مهمته التي نسأل الله ان يكللها بالنجاح ، وحسن الختام ، وسيعود الى بور سودان ، وبعدها يصلكم بحراسة الله ، ليقص على مسامع دولتكم نتيجة عمله .

وننتهز هذه الفرصة ، لنوضح لدولتكم في خطابنا هذا ، ما ربما لم يكن واضحاً لديكم ، او ما عساه ينتج سوء تفاهم ، الا وهو انه يوجد في بعض المراكز والنقط ، بعض العساكر الترك ، على سواحل بلاد العرب ، يقال انهم يجاهرون بعداوتنا ، ويعملون على إلحاق الضرر بمصالحنا البحرية في البحر الاحمر ، وعليه نرى من الضروري ، ان تتخذ التدابير الفعالة ضدهم . وقد اصدرنا الاوامر القطعية ، بانه يجب على جميع بوارجنا

ان تفرق بين عساكر الاتراك ، الذين يبدأون بالعداء وبين العرب الابرياء الذين يسكنون تلك الجهات ، لاننا لا نحمل للعرب اجمع ، إلا كل عاطفة ودية . وقد ابلغنا دولتكم ذلك ، حتى تكونوا على بينة من الامر ، اذا ابلغتم خبراً مكذوباً ، عن الاسباب التي تضطرنا الى عمل من هذا القبيل .

وقد بلغتنا اشاعات مؤداها ، ان اعداءنا ، باذلون جهدهم في اعداد السفن لكي يبثوا فيها الالغام في البحر الاحمر ، لالحاق الاضرار بمصالحنا في ذلك البحر . وانا لنرجوكم سرعة اخبارنا بذلك ، اذا تحقق لديكم .

وقد بلغنا ان ابن الرشيد ، قد باع للاتراك ، عدداً عظيما من الجمال ، وقد أرسلت الى دمشق الشام ، ونأمل ان تستعملوا كل ما لكم من التأثير عليه حتى يكف عن ذلك ، واذا صمم على ما هو فيه ، فيمكنكم عمل الترتيب مع العربان ، الساكنين بينه وبين سورية ، ان يصادروا الجمال ، حال سيرها . ولا شك ، ان في ذلك ، صالح لمصلحتنا المتبادلة .

ويسرني ان ابلغكم ، ان العربان الذين ضلوا السبيل ، تحت قيادة السيد احمد الشريف السنوسي ، وهم الذين كانوا ضحية دسائس الالمان والترك ، قد ابتدأوا يعرفون خطأهم وهم يأتون إلينا وحداناً وجماعات ، يطلبون العفو عنهم والتودد اليهم ، وقد هزمنا والحمد لله القوات التي جمعها هؤلاء الدساسون ضدنا . وقد اخذت العرب تبصر الغش والخديعة التي حاقت بهم ، وان لسقوط مدينة (ارضروم) وخروجها من يد الترك وكثرة انهزاماتهم في بلاد القفقاس ، تأثيراً كبيراً هو في مصلحتنا المتبادلة ، وخطوة عظيمة في سبيل الامر الذي نعمل واياكم له . ونسأل الله عز وجل ، ان يكلل اعمالكم ومساعيكم بالنجاح والتوفيق .

كيف نشر الانكليز المكاتبات

كان كل ما اذاعته المصادر العربيـــة ، عن هذه المكاتبات خلاصات اثبتناها في المجلد الاول ، من كتابنا « الثورة العربية الكبرى » ، ص ١٣٠ – ١٤٤ وبعضها ظاهر النقص ، واضــح الاضطراب وخصوصاً الاخيرة منها .

وتقدم بعض نواب بريطانيا الى حكومتهم ، يسألونها ان تنشر هـذه المكاتبات ، بعد ان مرّ عليها الوقت ، ، اصبحت من حق التــاريخ فسوفت وماطلت .

ولما عقد مؤتمر المائدة المستديرة في لندن ، (شهر يناير سنة ١٩٣٩)، لمعالجة قضية فلسطين ، زار بعض اعضاء هـــذا المؤتمر ، وفي مقدمتهم نوري السعيد رئيس وزراء العراق ، وزارة الخارجية البريطانية ورجوها بالحاح ان توافق على نشر نصوص هذه المكاتبات ، بعد ان مرّت عليها هذه المدة الطويلة ، وبعد ان صارت من حق التاريخ وحده ، فاستجابت لهم، واصدرتها في شهر فبراير سنة ٩٣٩ ، وبشكل رســـالة تحمل الرقم ٣ (١٩٣٩) ، وكتب على صدر غلافها ما يلي :

« مراسلات بين سر هنري ماكماهون ، المفوض السامي لجلالته في القاهرة ، وبين الشريف حسين شريف مكة . من يوليو سنة ٩١٥ ، الى مارس سنة ١٩١٦ » ، مع خريطة للحجــاز ، والاردن ، وفلسطين ، ولبنان ، وسورية ، حتى حدود ولاية حلب ، اي البـــلاد التي دارت بشأنها المكاتبات ، وبلغ عدد صفحاتها ١٨ بالقطع المتوسط .

وهذه هي المقدمة التي قدموها بها .

« ان المراسلات التي نثبت نصها ، في هذه الرسالة ، مدونـة باللغـة العربية ، والنص الانكليزي ، يعتمد في اساسه على مسودات اصلية باللغة الانكليزية ، برسائل بعث بهـا السر هنري ماكماهون ، والترجمة الحرفية

لرسائل تسلمها السر هنري ماكماهون .

« ولغة بعض المسودات الاصلية ، او الترجمات الحرفية ، قد نقحت في بعض الاماكن ، حيث انتقدت اللغة على اساس انها ليست ترجمة دقيقة للاصل العربي للمراسلات ، وقد وجد بعد الدراسة والفحص ان الانتقاد لا غبار عليه .

« والنص المطبوع في الصفحات التالية ، هو نص منقح كان نتيجة للتعديلات الآنفة الذكر . والملاحظات تشير الى النص ، كما كان قبل ان يدخل عليه اي تعديل ، الا إذا ذكر خلاف ذلك .

« وقد قدم النص الى حكومة جلالته في هذا الموضوع ، المستر ج هايورث ، كبير المحاضرين باللغة العربية ، في مدرسة الدراسات الشرقية في جامعة لندن » .

فيصل بن الحسين والعهود البريطانية

كان الامير فيصل بن الحسين ، اول من أماط اللثام عن قضية هذه العهود وأول من نادى ، بان الانكليز ينكرونها .

لقد أوفد الحسين نجله فيصل في شهر نوفمبر سنة ١٩١٨ ، مندوباً عنه ليمثله في مؤتمر باريس ، الذي عقد لاجراء مفاوضات الصلح بين الحلفاء والالمان ومن معهم .

واشترك فيصل في هذا المؤتمر ، وسافر الى لندن واجتمع الى رجال الحكومة البريطانية ، وتحدث اليهم في القضايا العربية ، ومطالب العرب من انكلترا ، وعهودها لهم .

والقى بعد انتهاء مهمته في اوروبا ، وعودته الى عاصمته دمشق ، حديثاً صحفياً الى جريدة المفيد الدمشقية ، نشرته في عددها الصادر يوم ٢٥ فبراير سنة ٩١٩ ، قال فيه : انه حينما كان في اوروبا ، طلب الى

والده ان يرسل اليه ، الاتفاق المعقود بينه وبين الانكليز ليطالب به ، فأرسل اليه مظروفاً كتب عليه الحسين بخط يده ما يلي : « صورة ما تقرر مع بريطانيا بشأن النهضة » ، ولما فتحه وجده كما يلي :

١ - تتعهد بريطانيا بتشكيل حكومة عربية مستقلة ، بكل معاني الاستقلال في داخليتها وخارجيتها ، تكون حدودها شرقاً من بحر خليج فارس ، ومن الغرب بحر القلزم (الاحمر) ، والحدود المصرية والبحر الابيض ، وشمالاً حدود ولاية الموصل الشمالية ، الى نهر الفرات ومجتمعة مع الدجلة عند مصبها في بحر فارس ، ما عدا مستعمرة عدن ، فانها خارجة عن هذه الحدود .

وتتعهد هذه الحكومة ، برعاية المعاهدات والمقاولات التي اجرتها بريطانيا مع اي شخص كان من العرب ، في داخل هذه الحدود بأنها في محلها برعاية وصيانة تلك الحقوق ، وتلك الاتفاقيات مع اربابها اميراً كان ، او من الافراد .

٢ - تتعهد بريطانيا بالمحافظة على هذه الحكومة ، وصيانتها من أي مداخلة كانت ، وباي صورة كانت ، في داخليتها وسلامة حدودها البرية والبحرية ، من اي تعدّ بأي شكل يكون ، حتى ولو وقع قيام داخلي من دسائس الاعداء ، او من حسد بعض الامراء ، فيه تساعد الحكومة المذكورة مادة ومعنى على دفع ذلك القيام ، وهذه القيامات او الثورات الداخلية . وتكون مدتها محدودة اي حتى يتم للحكومة العربية المذكورة تشكيلاتها الداخلية .

٣ - تكون البصرة تحت اشغال (اي احتلال) ، العظمة البريطانية ، ريثما تتم للحكومة الجديدة المذكورة تشكيلاتها المادية ، ويعين من جانب تلك العظمة ، مبلغ من النقود يراعى فيه حال احتياج الحكومة العربية ، التي هي في حكم القاصر ، في حضن بريطانيا ، وتلك المبالغ تكون في مقابل ذلك الاشغال .

٤ – تتعهد بريطانيا بالقيام بكل ما تحتاجه ربيبتها الحكومة العربية، من الاسلحة ومهماتها ، والذخائر والنقود مدة الحرب .

٥ – تتعهد بريطانيا العظمى ، بقطع الخط الحديـدي ، من مرسين او ما هو مناسب من النقاط ، في تلك المنطقة لتخفيف وطأة الحرب عن البلاد لعدم استعدادها .

قال فيصل : وقدمت صورة عن هذا النص ، الى رئاسة مجلس الوزراء البريطاني ، حينما كنت في لندن ، فانكروا وجود الاتفاق ، وقالوا : انه لا يوجد عهد ، ولا كتاب ينطق بهذا التصريح ، فكتبت الى والدي عن افكارهم ، وطلبت ارسال النص الاصلي ، لمجابهتهم به ، ولكنه لم يرد علي .

هذه هي قصة المكاتبات والعهود ، وهذا أول ما أذيع عن نقصها ، وانكار الانكليز لها ، ويلوح لنا ان الحسين ، لخص في هذا الاتفاق الذي اعده بنفسه لنفسه ، وارسل لنجله فيصل المطالب التي طلبها من الانكليز وكررها في رسائله اليهم . على ما رأينا ، ولكنهم لم يقروها باللفظ ، وان وافقوا على بعضها في متن الكتب التي ارسلوها اليه .

ولقد تناول الامير عبدالله في مذكراته ، قصة هذه المكاتبات عرضاً فقال (ص ١٢٥) ، انه اقترح على والده سنة ١٩١٦ ، ان يسافر الى القاهرة ، ويجتمع الى ماكماهون ، ويفرغ هذه المكاتبات في شكل معاهدة رسمية ، ولكنه لم يجبه الى طلبه .

اعلان الثورة

في صباح يوم السبت ٩ شعبان سنة ١٣٣٤ (١٠ يونيو ١٩١٦) ، أطلق الحسين رصاصة من قصره بمكة ، باتجاه ثكنة جرول (قـــاعدة الترك العسكرية) ، فكان ذلك إيذاناً باعلان الثورة ، فشرع انصاره الذين اعدهم سراً بقيـادة الشريف شرف بن عبد المحسن البركاني بالهجوم على القشلاق لاحتلاله .

وكان جنود الحامية ، يتمرنون بدون سلاح خارج القشلاق ، حينما بدأ الهجوم ، وما كان عددهم يزيد على الالف ، فلجأ درويش بك قـائدهم الى الحيلة ، فخاطب الحسين بالتليفون من داخل الثكنة ، يسأله عن السبب فرد بأن العرب ما عادوا يرضونكم حكاماً عليهم ، بعدما قاتلتموهم وقتلتموهم ، وعاديتموهم ، فقال : ما دام الامر كذلك ، فأرسل الينا من تعتمده لنسلمه الثكنة ، فانتـــدب الشريف شرف البركاتي ، فطلب القائد التركي منه ، وقد بيت الخيانة والغدر ، ان يرافق على دخول الجند الى الثكنة لكي يلبسوا ملابسهم ، ويستعدوا للتسليم فوافقـــه ، فأسرعوا الى حيث كانت أسلحتهم فتنكبوهـا ، ووقفوا على اتم استعداد للقتال ، ونبه احد الضباط العرب ، الذين كانوا داخل الثكنة الشريف شرف الى الخطر المحدق به ، فولى هارباً .

وبدأ القتال ، على الاثر ، بين الحامية وقوات الشريف ، واستمر ٢٤ يوماً ، اي حتى يوم ٤ يوليو سنة ٩١٦ ، فاستسلمت بعدما تقطعت بها الاسباب ، وادركت انه لا امل لها ولا رجاء ، وبعد ان جاء العرب بالمدافع التي كانت للترك في جدة وضربوها بها .

وكان عدد رجال هذه الحامية ، يتألف حين التسليم ، من ٢٨ ضابطاً و٩٠٠ جندي و١٥٠٠ جندي آخرين بين مريض وجريح .

القتال حول جدة

كانت حامية جدة التركية ، اول حامية استسلمت للثورة في الحجاز ، ودخلت في طاعتها .

لقد مشى الشريف علي بن احمد منصور ، شيخ مشايخ قبائل حرب ، على رأس اربعة الآف مقاتل الى جدة ، صباح ١١ يونيو اي غداة إعلان الثورة ، لاحتلالها واخضاع حاميتها ، وذلك طبقاً لمخطط مرسوم .

وتحصنت حاميتها في الثكنة العسكرية ، ووقفت على قدم الاستعداد للمقاومة داخل خطوط دفاع اعدتها . ووقعت بعض المناوشات بين الفريقين .

ووصلت صباح ١٣ منه ، الى عرض جدة ثلاث بوارج بريطانية هي: هاردنج ، وفوكس ، وفران ، فانضمت الى العرب المهاجمين وشرعت تطلق النار على مراكز الترك ، ثم اطلقت طائرات كانت تحملها ، فألقت منشوراً على الحامية التركية هذا نصه :

وما ربك بظلام للعبيد

الى سعادة قائد القوات التركية ، وحضرات ضباطه الاكارم بخط الدفاع بجدة .

أعلمكم علم اليقين ، واخبركم بالحقيقة التي لا مرية فيها ، وهي ان مكة والطائف ، اصبحتا بيد امير مكة الشريف حسين ، وانتصاراته على الجيوش التركية متوالية ، فقد اصبحت ارجاء الحجاز خالية تماماً ، من آثار الحكومة الاتحادية ، مع اعلامكم بأن الحركة لم تكن لتأسيس دولة خلافة عربية إسلامية ، وان العرب لا يكرهون الترك من حيث هم ، لانهم مسلمون مثلهم ، وإنما يريدون التخلص من الحكومة الاتحادية الجائرة ، التي تلعب بها المانيا ، والله على ما اقول شهيد . فبدلا من وقوفكم في وجه العرب ، الذين لكثرة عددهم وعدتهم ، سيحرزون النصر المبين ان شاء الله ، بعد إزهاق الكثير من الارواح ، وبدلاً من المقاومة التي لا نتيجة لها ، انصح لكم ان تسلموا بدلاً ان تبيدوا عن آخرتكم . ومهلتكم هي بمجرد وصول هذا اليكم ، لانكم بعد رفضكم لهذا التصريح ، نصب عليكم القنابل من السفن الهوائية ، ومن البحر ومن البر حيث استعد لكم العرب ، بالمدافع الجبلية السريعة ، ومدافع الميدان الحديثة ، والرشاشات السريعة ، وعلى كل ، فإننا لا نعد ذلك جبناً منكم ، ولا اهانة لشرف رايتكم . ولكن الرجل المضطر يركب الصعب من الامور ، وهو عالم بركوبه ، ويتجاوز الادب وهو كاره لتجاوزه ، فلا تلقوا بأنفسكم الى التهلكة ، وحسن رعايتكم بعد التسليم مضمون والعاقبة للمتقين .

الحكومة الانكليزية

واستسلمت الحامية يوم ١٦ منه ، وكانت تتألف من ١٣٦٤ جنديا ، و٤٧ ضابطاً ، فكانت اول من استسلم ، كما قلنا آنفاً .

وغنم العرب في جدة ٤ مدافع جبلية و ٤ رشاشات ، مع كمية كبيرة من البنادق والعتاد ، واسرعوا فنقلوا ما غنموه الى مكة والطائف ، واستعانوا به ، في إخضاع الحاميات التركية التي كانت ترابط داخلها .

الاستيلاء على الليث واوملج

واستولت قوات الثورة يوم ٩٥ أغسطس على ثغري الليث واوملج ، من مدن البحر الاحمر .

الاستيلاء على الطائف

كان الفريق غالب باشا والي مكة ، وقائد قواتها العسكرية ، حين اعلان الثورة مع كبار ضباطه ، يصطاف في الطائف . وكانت لهم هناك اكبر قوة عسكرية بالمنطقة .

ووصل الامير عبدالله الى الطائف ، حينما تقررت الثورة ، ومعه بعض اتباعه ، معلناً انه في طريقه الى قبيلة « البقوم » ، لتأديبها . فشعر الترك بالخطر وانقسموا الى قسمين ، فريق يقول باعتقاله والذين معه ، وآخرون يقولون بعدم فائدة ذلك ، وان الانتظار اولى .

وبعد ما امضى ثلاثة ايام في الطائف ، يعد معدات الثورة سرا ، غادرها بعد ظهر يوم الجمعة ، بعد ما ودّع الوالي وكبار الضباط ، معلناً انه ذاهب لاداء مهمته ، على انه ما كاد يخرج من السور ويبتعد عنه ، حتى أسرع رجاله ، فقطعوا اسلاك البرق والهاتف ، وشرعوا في الهجوم على الاماكن العسكرية ، فبدأ القتال بين الفريقين ، وظل مستمراً حتى ليلة

٢٣ سبتمبر سنة ٩١٦ ، اي انه امتد ٣ اشهر و ١٢ يومـــاً ، واصل الترك خلالها المقاومة ببسالة ، بيد ان اشتراك المدفعية المصرية في المعركة ، وهي مما ارسل الانكليز ، مع المدافع التي غنمت من جدة ومكة جعلهم يستسلمون ، فنقلوا الى جدة فالقاهرة .

وهذا بيان ، عن عدد الذين استسلموا : ٨٣ ضابطاً و ١٩٢٨جنديا على رأسهم الفريق علي غالب باشا ، والي الحجاز وقائده العسكري .

وغنم العرب في الطائف ، كمية من المدافع والبنادق ، والعتـــاد ، استعانوا بها في تسليح جيوشهم التي انشأوها في ميادين القتال .

ولقد عزز الاستيلاء على مدن الحجـاز وحواضره وثغوره ، مركز الثورة في البحر الاحمر ، وجنوبي الحجاز وانشأ اتصالا مباشراً بينها وبين الانكليز الذين كانوا يبسطون نفـــوذهم على البحر الاحمر ، فصارت المساعدات تصل بسهولة ، بعد ما كان الحصول عليها من المشكلات .

القتال حول المدينة

بدأ القتال حول المدينة (القاعدة العسكرية الكبرى للترك في شمالي الحجاز) يوم ٣ يونيو سنة ٩١٦ ، اي قبل اعلان الثورة باسبوع واحد وذلك بعدما أفلت الاميران ، علي وفيصل من قبضة الترك كما تقدم .

وشهد الاستاذ الشيخ كامل القصاب معركة الحسا ، يوم ٩ يونيو٩١٦ حول المدينة بالذات ، وهاك ما قاله لمؤلف الكتاب عنها :

« زحف الترك على الحسا من ثلاث جهات ، تحت حماية مدفعيتهم ، وكانت تطلق نيرانهـا من مراكزها حول المدينة ، فبدأت المعركة عند الصباح ، وانتهت عند الظهر بانتصار الترك الذين كانوا بقيادة فخري باشا نفسه ، لعدم تكافؤ القوى ، ومع ان خسارة العرب بالارواح ، ممـا لا

يستهان به ، إلا انهم ثبتوا واستبسلوا في القتال ، ولكن الكثرة والسلاح الجيد الحديث ، تغلبا في النهاية » .

« وجلا العرب عن الحسا ، وواصلوا الارتداد ، حتى « بئر الماشي » فتوقفوا ، وشرعوا في تنظيم صفوفهم ، ووراءهم عند الفجر ، صوت بدوي يصيح من اعالي الجبال ، منذراً باقتراب الترك ، فانسحبوا الى « بئر الرويبغ » فبلغوه عند المساء وتوقفوا عنده ، بعدما تركوا ما كان لديهم من معدات ، على ان خبر تقدم الترك لم يكن صحيحاً » .

« وتحدث الاستاذ القصاب في السهرة ، وقد شهد معركة الحسا ، الى الاميرين قائدي الجيش ، معلقاً على انسحاب القوة فقال : إن بقاء حالة الجيش ، على ما هي عليه ، من الفوضى والاضطراب ، لا نتيجة لهـا سوى الفشل والخسران ، وانتصار الترك ، فقالا له : إنك تعرف سيدنا ، (والدهما) وتعرف تصلبه وتشدده ، فاذهب اليه إذا شئت وتفاهم معه ، واقنعه بانشاء جيش نظامي ، نكن لك من الشاكرين ، فذهب في الغداة بطريق رابغ الى جدة ، ولما بلغها اتصل بالحسين تليفونياً ، وسأله ان يأذن له بالقدوم الى مكة ، فـأذن له وتحدث اليه حينما اجتمعا عن الموقف العسكري ، واسهب في الكلام عن النتائج السيئة التي تستهدف لها الحركة ما لم يؤخذ بالنظم الجديدة في التسلح ، فلم يجب ، وطلب اليه في الغداة ان ينصرف الى العنـاية بشؤون المعارف ، فعكف على إدارتها واهتم باصلاحها .

وافترق الاميران ، بعد معركة الحسا ، فقصد علي « الغدير » وهي على مسافة ٢٥ كم من المدينـة الى الجنوب ، على طريق رابغ . اما فيصل ، فقصد بير عباس (ديار بني سالم) على بعد ٧٥ كم من المدينة ، وعلى طريق ينبع ، فاتخذها قاعدة لحركاته بالاتفاق مع قبائل مسروح وبني سالم وبلى وجهينة التي وقفت وراءه تؤيده .

وحمل فخري باشا بقواه الكبرى على فيصل (منتصف شهر يونيو) ،

فاحتل بير الماشي ، وحصنها واقام فيها حامية عسكرية ، يريد بذلك اقصاء الثورة عن منطقة المدينة .

واعاد الكرة ، فحمل يوم ١٩ منه على جيش فيصل ، فدارت معركة حامية انتهت بارتداد الترك ، بعد ما مزق العرب لهم فوجين واسروا ٦٠ اسيراً بينهم ضابطان .

واستأنف فخري الكرة ، فحمل على جيش فيصل ، يوم اول اكتوبر فزحزحه عن مراكزه ، فارتد أمامه حتى ينبع البحر ، فتوقف فخري امامها لا يدخلها ، مع ان ذلك كان في إمكانه . وقد كان احجامه هذا موضع تفسير وتأويل ، فقيل انه حسب حساب البوارج الانكليزية ، فلا تهاجمه وتضربه من الميناء ، وقيل انه ارتد بانتظار فرصة اخرى اكثر ملاءمة ، وقيل ان سوء الحالة الجوية ، واشتداد الحرارة على شاطىء البحر الأحمر ، وانتشار الامراض بين جنوده ، جعله يفضل العودة الى قواعده في المدينة وحولها .

ولم تدر بعد ذلك ، معارك تذكر في هذا الميدان ، بسبب قعود الترك عن الهجوم ، واكتفائهم بالمرابطة وراء الاسوار . وجاراهم العرب فاكتفوا بضرب الحصار حولهم ، ومنعهم عن كل حركة ، رعاية لمقام المدينة في العالم الاسلامي .

هدايا الانكليز للثورة

في يوم ٢٧ يونيو سنة ٩١٦ ، اي بعد ١٦ يوماً من اعلان الثورة . وصل الى جدة ، الكولونيل ولسن باشا ، حاكم مدينة بور سودان ، يحمل كتاب تهنئة للشريف ، من السر رجنالد ونجت ، حاكم السودان

والقائد العام للجيش المصري ، بالثورة والنصر .

وجاءت مع المندوب ، قوة مدفعية مصرية ، هدية من القائد الاعلى تتألف من ٣٢ جندياً وضابطاً مصرياً ، بقيادة القائمقام « السيد بك علي » وهي عبارة عن بطارية ميدان ، وبطارية مكسيم و ٣٠٠٠ بندقية .

وظل ولسن باشا في جدة ، ممثلاً لحكومته لدى الشريف ، فكان بذلك اول مندوب سياسي لبريطانيا في الحجاز .

منشور الثورة

واصدر الحسين ، عقب اعلان الثورة المنشور الآتي ، الى قومه العرب واخوانه المسلمين ، فبسط قضيته ، ودافع عن خطته وسياسته ، وهذا هو بنصه الكامل

بسم الله الرحمن الرحيم .

منشور عام من شريف مكة واميرها ، الى جميع اخوانه المسلمين « ربنا ، افتح بيننا وبين قومنا بالحق ، وانت خير الفاتحين » .

كل من له إلمام بالتاريخ ، يعلم ان امراء مكة المكرمة ، هم اول من اعترف بالدولة العلية ، من حكام المسلمين وامرائهم ، رغبة منهم في جمع كلمة المسلمين ، واحكاماً لعرى جامعتهم لتمسك سلاطينها من (آل عثمان) العظام ، طاب ثراهم ، وجعل دار الخلد مثواهم ، بعروة الايمان بكتاب الله وسنة رسوله ، صلوات الله وسلامه عليه ، ولبناء أحكام دولتهم على الشريعة الغراء ، ولنفس تلك الغاية السامية الرفيعة ، مازال الامراء المشار اليهم ، يحافظون عليها ، حتى انني حملت بالعرب على العرب بذاتي في سنة سبع وعشرين وثلثمائة والف ١٣٢٧ ، اثناء حصار (ابها) محافظة

على شرف الدولة ، وفي السنة التي تلتها ، كان مثل هـذه الحركة تحت قيادة ابنائي الى غير ذلك ، مما هو في هذا المعنى ، وكما هو مشهـــود ومعهود — الى ان نشأت في الدولة جمعية الاتحاد ، وتوصلت الى القبض على ادارتها وجميع شؤونها بقوة الثورة ، فحادوا بها عن صراط الدين ، ومنهج الشرع القويم ، ومهدوا السبل للمروق منه واحتقار ائمته ، وسلبوا شوكة السلطان المعظم ، ما له من حق التصرف الشرعي والقانوني ايضاً ، وجعلوه هو ومجلس الامة ، ومجلس الوكلاء ، منفـذين للقرارات السرية لجمعيتهم الثورية ، واسرفوا في اموال الدولة ، وحملوها الديون الفاحشة ، التي لا يخفى أمر خطرها ووخامة عاقبتها على احد ، وأضاعوا عدة ممالك كبيرة من ممالكها ، ومزقوا شمل الامة العثمانية بمحاولة جعل شعوبها كلها تركية بالقوة القاهرة ، فأوقعوا بينها وبين العنصر الذي ارادوا تسويـده عليها ، وادغامها فيه العداوة والبغضاء ، وخصوا العرب ولغتهم بالاضطهاد .

ولم يكتفوا بذلك كله ، حتى خاضوا بالدولة والامة ، غمرات هذه الحرب الاوربية الساحقة الماحقة ، فوقفوا بالدولة موقف الهلكة ، والقوا بأيديهم الى التهلكة ، واستنزفوا باسمها ، ثروة الامة ، كما استنزفوا قبلها ثروة الدولة ، ثم اتخذوها ذريعة للفتك بجميع المخالفين لرأيهم في سياستهم الخرقاء وادارتهم الظالمة وللتنكيل بالعرب خاصة ، حتى ان حرم الله سبحانه وتعالى ، وحرم رسوله الأعظم ﷺ ، لم يسلما من شرهم ، فانهم عرضوهما للخوف والجوع والخراب .

أما انحرافهم عن صراط الدين ، فلا نأخذ فيه هنا ، بمجرد ما اشتهر عن زعمـائهم من الكفر والالحاد في الصحف الاسلامية والاوربية ، ولا بما نعلم من سوء اعتقاد جمهور علماء الاستانة وغيرهم فيهم ، بل نأخذ فيه باقوالهم وافعـــالهم ، فمن باب الاقوال ما نشروه في دار السلطنة من الكتب والصحف التي جاهرت في الطعن بالاسلام ، وانتقاص ما عظم الله تعالى ، من قدر خاتم رسله ، وقدر خلفائه راشدين الكرام ككتاب

(قوم جديد) ، الذي اشتهر بما فيه من الكفر والضلال والاضلال ، وتحريف نصوص الكتاب العزيز ، والسنة السنية ومجلة (اجتهاد) التي شوهت اجمل سيرة في الخلق واشرفها ، وهي سيرة المصطفى ، صلوات الله عليه وسلامه ، ولا يمكن ان تنشر امثال هذه المطبوعات في دار السلطنة على مرأى ومسمع من شيخ اسلامها وعلمائها ، ومن رجال السلطنة ووزرائها ، لولا ان الجمعية هي الناشرة لها ، وما بالنا نرى من ينتقد جمعيتهم ، ولو بحق يعاقبونه ، بالقتل او النفي او السجن المؤبد ومن يطعن في دين الله وصفوة خلقه يعزز ويكرم .

ومن باب الافعال ، انهم ابطلوا ما كان محتما على تلاميذ المدرسة الحربية وغيرها ، وعلى جميع العسكر من التزام الصلاة ، فجعلوا الصلاة في نظامهم العسكري اختيارية غير واجبة ، توسلًا بذلك الى ابطالها بالفعل ، وقد جعل كتاب (قوم جديد) لدينهم اركاناً لا صلاة فيها ولا صيام ولا حج ، ثم جاءت اوامرهم في اثناء هذه الحرب الى الجنود المقيمين في مثل المدينة المنورة ، او مكة المكرمة ، او الشام تحتم عليهم الافطار في رمضان بعلة المساواة بينهم وبين الجنود الذين يقاتلون في حدود الروس ولفقوا اقاويل لمعارضة النص الصريح الذي لا يقبل التأويل، وهو قوله عز وجل (فمن كان منكم مريضاً او على سفر فعدة من ايام أخر) ، بل شرعوا في ابطال احكام الشريعة المنصوصة في القرآن الكريم المجمع عليها المعلومة من الدين بالضرورة ، وقد يعد من هذا القبيل ما ورد اخيراً الى قاضي محكمة مكة الشرعية ، بأن لا يحكم الا بالشهادة التي تحررت في محكمته وبين يديه ، والا يلتفت الى الشهادات التي يكتبها المسلمون فيما بينهم غير مبالين في آية سورة البقرة . ومنه استحلالهم لقتل المسلمين والذميين بغير محاكمة شرعية ولا حكم ، او باحكام عرفية ما انزل الله بها من سلطان ، واستحلال مصادرتهم وسلب اموالهم واخراجهم من ديارهم وسيأتي شيء من شواهد ذلك في المنشور ، ولا يمكن هنا احصاء جرائمهم

ولا بدعهم واحداثهم في الاسلام ، ومن اغربها مشروع (مجـــلات المستشفعين) ، الذي قرره شيخ اسلامهم السابق ، واصدر به ارادات سنية ، وقصاراه ببيـع الشفاعة النبوية ، لطالبها بليرة عثمانية ، وكتابة اسماء المشترين للشفاعة في سجلات تودع في الحرم النبوي الشريف .

واما سلبهم ما للسلطان المعظم ، من حق الاشراف الشرعي ، وكذا القانوني ، فهو لا يجهله احد من اهل العاصمة ، واهل المعرفة في جميع اقطار المملكة ، ولا من الاجانب ايضاً ، حتى انه لا قدرة له على اختيار رئيس الكتاب (المابين) ، في سلطنته الشريفة ، ولا رئيس خاصته المبجلة المنيفة ، فضلا عن اختيار الصدر الاعظم ، وشيخ الاسلام ، فضلا عن النظر في امور المسلمين ومصالح العباد والبلاد ، وقد اسقطوا بهـــذا بقايا شروط الخلافة التي يطالب بها المسلمون كافة . اذ يجب على المسلمين ان يكون لهم امام (خليفة) شرعي مستقل ، قـادر على التصرف في اقامة الشرع ورفع لواء العدل .

واما اسرافهم في اموال الدولة ، وارهاقها بالقروض الفاحشة ، فأمره معلوم للخاصة والعامة ، وكذلك اضاعتهم لعدة ممالك من الدولة كمملكتي البوسنة والهرسك ، والممالك الالبانية والمكدونية وطرابلس الغرب وبرقة وكذلك ، اثارة الاحقاد الجنسية الممزقـة لشمل الأمة العثمانية ، وبهذه السياسة السوأى اضاعوا المملكة الالبانية ، وفقـدوا الشعب الارنؤوطي الباسل ، الذي كان سياجاً للدولة امام البلقان . وهـــذه حملتهم على ما اشتهر خبره في هذه الايام ، من الفتك بالارمن من رجال ونساء واطفال فأين هذا ان صح عشر معشاره من قول الرسول الاعظم ﷺ : « من آذى ذمياً ، فأنا خصمه ، ومن كنت خصمه خصمته يوم القيـامة » .

رواه الخطيب في التاريخ من حديث ابن مسعود . وفي التوصية بحفظ حقوق اهل الذمة والعهد ، احاديث في الصحاح والسنن ، ومن الاحاديث اللينة في هذا البـــاب ، ما رواه الطبراني من حديث جابر : « اذا

ظلم اهل الذمة ، كانت الدولة دولة العدو ، وان كان في سنده ضعف فان متنه في غاية القوة تؤيده السنن الاجتماعية .

واما ما خصوا به العرب ولغتهم من الاضطهاد ، فهو اعظم ما جنوه على الدين والدولة من الفساد : حاولوا قتل اللغة العربية في جميع الولايات العثمانية بابطالها من المدارس ، ومنعها من الدواوين والمحاكم واصدروا في ذلك اوامر كثيرة ، لقيت من مبعوثي العرب ، معارضات شديدة ونفروا عنها في كتبهم الجديدة ، وألفوا لذلك الجمعيات الكثيرة . ولا يخفى ان قتل اللغة العربية ، قتل للاسلام نفسه . فالاسلام في الحقيقة دين عربي ، بمعنى ان كتابه انزل باللغة العربية ، وجعل متعبداً بتلاوته وتدبره وفهمه ، لا بمعنى انه خاص للعرب ، فمن المعلوم من الدين بالضرورة ، انه عام لجميع الأمم ، وقد قال الله في سورة الرعد : (وكذلك انزلناه حكماً عربياً) .

وقد امكنتهم فرصة اعلانهم الاحكام العرفية في البلاد ، من تنفيذ كل ما يريدون في العرب ، فطفقوا يقتلون ويصلبون كبراء ونوابغ رجال النهضة العربية ، الذين اشتهروا بغيرتهم على الامة والدولة من أرباب المعارف والافكار وحملة الاقلام ، وبارعي الضباط ، وآخر ما وصل الينا من بلاغاتهم الرسمية في ذلك ، انهم صلبوا في الشام (٢١) رجلا في آن واحد منهم شفيق بك المؤيد ، والسيد عبد الحميد الزهراوي والضابط الكبير سليم بك الجزائري والامير عارف الشهابي وعبد الغني العريسي وشكري بك العسلي وعبد الوهاب بك الانكليزي وتوفيق بك البساط ، وانه ليصعب على كثير من ذوي القلوب القاسية ، ازهاق مثل هذا العدد الكبير من الأنفس ، لأجل الانتقام كانت من الدواب او بهيمة الانعام وانما يقتلون امثال هؤلاء ويصلبونهم في الشوارع العامة صلباً ، حتى لا يطمع عربي بأن يمر بعدهم ان لغتنا لغة الاسلام فيجب على الدولة الاسلامية الكبرى مساعدتنا على

حفظها وان لنا في المملكة حقوقا شرعية وقانونية يجب علينا المطالبة بها واما من يقتلون رمياً بالرصاص ، بعلل عسكرية ومن يقتلون اغتيالاً في السجون والشوارع ، فلا سبيل الى العلم باخبارهم الا اجمالا ، وانه ليعز على كل انسان ان يرضى لقومه او لغيرهم ، من ابناء جنسه بأن تكون دماؤهم مهينة ، غير محترمة الى هذا الحد . وقد عظم الاسلام أمر احترام الدماء ، وجعل من يتعمد القتل خالداً في النار .

ثم انهم صادروا اموال من لا يحصى من الناس ، وعمدوا الى كثير من الاسر (العائلات) الغنية او المغضوب عليها لأسباب سياسية ، فأخرجوهم من أموالهم وديارهم وعقارهم ، وابعدوهم نساءً واطفالاً الى بلاد الأناضول ، بلا كافل شرعي ، فهتكوا حرمة المخدرات من النساء المؤمنات ، اللواتي لا يعرفن السياسة ، وعرضوا اطفالهن للهلاك بين ايديهم في الطريق الطويل الذي لا يجدن فيه من القوت ، والأسباب الواقية من البرد او الحر ، والله تعالى يقول : « ولا تزر وازرة وزر أخرى » ، والظاهر ان الغرض من هذا ، ان يكون من يسلم من الهلاك من هؤلاء النساء والأطفال كالاماء والعبيد للترك في الاناضول . ولا بد من ان ينسى الأطفال لغتهم هنالك ، فيكونوا تركاً تعمر بهم بلاد الترك ، ولعلهم يريدون ان يأتوا بترك يحلون محل هؤلاء المنفيين ، فيسهل جعل البلاد السورية كلها تركية .

ولم يكتفوا بالتنكيل بالاحياء ، تقتيلا وتصليباً ، ومصادرة ونفياً بقساوة على الاطفال والمخدرات تنفطر لمجرد تصورها القلوب ، وتذهب الأنفس حسرات ، بل وصل حقدهم على العرب ، الى اهانة الأموات فتجرأوا على قبر الأمير الأبر والمجاهد التقي الزاهد ، مولانا الشريف عبد القادر الحسني باهانته وتحقيره .

أي مسلم ، بل اي بشر يرضى لقومه ، بمثل هذا الظلم والخسف ، وقد جعل الله تعالى ، أمر نفي المرء من وطنه ، مقارناً لأمر قتاله

ليرتد عن دينه ، وسبباً لمشروعية القتال ، فقال تعالى في تعليل الأذن بالجهاد (اذن للذين يقاتلون بانهم ظلموا ، وان الله على نصرهم لقدير. الذين اخرجوا من ديارهم بغير حق) الآية ، وقال في شأن معاملة غير المسلمين بالعدل والبر والاحسان : (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ويخرجوكم من دياركم ، ان تبروهم وتقسطوا اليهم ، ان الله يحب المقسطين . إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين ، واخرجوكم من دياركم ، وظاهروا على اخراجكم ان تولوهم ومن يتولهم ، فاولئك هم الظالمون) .

واما نصيب الحجاز ، وسكان الحرمين الشريفين من هذه الأرزاء ، فلو سكتنا على ما كان من بوادره وأوائله ، لطغى مده حتى لا يعلم الا الله اين يكون حده ، وساقوا الينا الألوف الكثيرة من جنودهم المنظمة مستكملة الاسلحة والذخائر ، وهم يعلمون كما نعلم ان الحجاز لا يحاجه احد من الدول المحاربة ، حتى يحتاج الى قوة مدافعة ، وانهم في اشد الحاجة الى هؤلاء الجنود في ميادين القتال ، فلم يبق الا انهم يريدون ان يفعلوا في الحجاز ما فعلوه في سورية والعراق ، ليتم لهم القضاء على الأمة العربية في دارها وموطن منعتها وعزها وفخارها ، ويذيقوا هذا الحرم الذي جعله الله آمناً ، تجبى اليه ثمرات كل شيء ما اذاقوا جنة الدنيا ، (الشام) من الجوع والخوف ويسلبوه ما من الله عليه به ، وامتن به على سكانه في كتابه العزيز ، فكان وجود هذه الجنود سبباً لمنع ورود الاقوات على الثغور الحجازية ، وعليها مدار معيشة البلاد ، وسبباً لمنع ورود الحجاج اليها ، ولا كسب لأهلها إلا منهم ، فاشتد الضيق حتى اضطر كثير من ابناء الدرجة الثانية من الأهالي ، الى بيع ابواب بيوتهم. وخشية اسباب الهلاك ، عن قوم جعلني الله راعياً مسؤولا عنهم ، وسبب منع سواد المسلمين الاعظم عن إقامة ركن من اهم اركان دينهم ولو كان ذلك البلاء ، في سبيل الدفاع عن الأوطان او المصلحة الراجحة

للاسلام ، لتحملته البلاد بالافتخار ولساوى فيه الشرفاء والموسرون غيرهم، ولو بالاختيار ، ولكنه كما اسلفنا ضد مصلحة الاسلام والوطن .

فيا ايها الاخوان المسلمون :

إننا قد وصلنا الى حال من الخطر ، لم يسبق لها في الاسلام نظير ، كان لنا دول عزيزة قوية ، افضلها دول اسلافنا العربية ، وقد ورثتها هذه الدولة العثمانية ، فكنا نحن العرب أحرص الناس على حياتها ، مع كونها هي التي خذلت اللغة العربية ، وانتحلت لنفسها منصب الخلافة دون الدول التركية والكردية قبلها ، وكنا نحن امراء مكة وشرفاءها اخلص زعماء العرب وغيرهم لها على حرمانها بلادنا ، مهبط الوحي والعرفان من علوم الدين والدنيا ، كل ذلك حرصاً منا ومن العرب كافة على ان يكون للإسلام دولة قوية تحفظ استقلاله وتنفذ شرعه ولو في الجملة .

وقد صار أمر هذه الدولة الى جمعية اغتصبت حق آل عثمان الكرام بقوة الثورة ، وجعلته في ايدي زعانف ليس لأكثرهم في الشعب التركي الاسلامي اصل راسخ ، ولا في الاسلام علم صحيح ، ولا عمل صالح كأنور باشا وجمال باشا وطلعت بك ، وكان من سوء تصرفهم فيها وفينا ، ما اجملناه لكم في هذا المنشور ، وقد كانت مقاومة اخواننا الترك لهم ، اشد من مقاومة العرب . اما نحن ، فكنا كلما سمعنا او رأينا شيئاً من هجماتهم على الاسلام ، ندفعه بالتأويل ، الى ان اعيانا التأويل ، وكلما علمنا منهم او على العرب ذنباً ، نقول لعله ذنب عارض يرجعون عنه بعد قليل ، ولا نستحل مقاومتهم لأجله ، لئلا يترتب عليه صدع في الدولة . ويزيد له ما يزيد ، ويوقع التفرقة بين العرب والترك ، حتى انني ساعدتهم على مقاتلة قومي ومقاومة ابناء ابي وامي ، فلم يرضهم كل ذلك من العرب ، ولا مني .

ولما رأيناهم عرضوا استقلال هذه الدولة التي نحرص عليها للزوال ، ولم يبقوا على كرامة الدين ، ولا على احكام الشرع ، ولا على استقلال

السلطان ، ولم يبق من سبب نحتمل لأجله منهم هذا الخسف والهوان ، ولما وصل سيل طغيانهم الينا ، في حرم ربنا الذي اكرمنا بخدمة بيته ، واقامة دينه وحرم جدنا ورسولنا عليه الصلاة والسلام الذي نحفظ من حديثه الصحيح : « اذا ذلت العرب ، ذل الاسلام » ، اضطررنا الى مقاومة بغيهم من اسلم الطرق ، وهي حصر جنودهم في معاقلها ، من غير ان نبادهم بقتال ، فمن سلّم منهم سلم ، ومن قاتلنا كانت جنايته على نفسه ، فما كان من حاميتهم بمكة الا ان فعلت ما يعد برهاناً على ما تكن صدورهم للدين والعرب ، وهو رميهم للبيت العتيق الذي اضافته العزة الأحدية لذاتها العلية قوله تعالى : « وطهر بيتي للطائفين » ، وهي قبلة المسلمين ، وكعبة الموحدين بقنبلتين من قنابل مدافعهم بحصن (جياد) ، عندما علموا بقيام البلاد بالمطالبة باستقلالها ، وقعت احداهما فوق الحجر الاسود بنحو ذراع ونصف ، والثانية تبعد عنه بمقدار ثلاثة اذرع ، فالتهبت بنارها استار البيت ، حتى هرع الألوف من المسلمين لإطفاء لهيبه بالضجيج والنحيب ، واضطروا الى فتح باب البيت والصعود الى سطحه للتمكن من اطفاء اللهيب ، وما انتهى امرهم بهذا حتى عززوا الاثنتين بثالثة وقعت في مقام ابراهيم عليه الصلاة والسلام ، عدا عدا ما وقع من القذائف في بقية المسجد الذي اتخذوه هدفهم الوحيد في غالب مقذوفاتهم بالقنابل والرصاص ، وما زالوا يقتلون الثلاثة والأربعة في نفس المسجد كل يوم حتى تعذر على العباد التقرب من الكعبة المشرفة . وفيما هذا من الاستخفاف بالدين ، وازدراء بيت الله تعالى ، والالحاد فيه ما نترك القول والحكم فيه أيضاً لجماعة المسلمين ، في مشارق الارض ومغاربها بعد تذكيرهم بقول الله [illegible] وجل : « ومن يرد فيه بالحاد بظلم نذقه من عذاب أليم » [illegible]كيرهم بأن الجاهلي كان يرى قاتل ابيه في هذا المسجد فلا يمسه بسوء (نعم) ، نترك الحكم في هذا الاستخفاف والازدراء للعالم الاسلامي ، ولكنا لا نترك [illegible] [illegible]

وشعائره العربة في ايدي الاتحاديين ، ولا نبيح لهم التصرف ، في حرم الله ورسوله ما استباحوا في ديار الشام ، ولا في الإستانة نفسها ، ولا نسكت لهم على شيء من بغيهم على احد من ابناء جنسنا ، اذ لم يعد في السكوت مصلحة راجحة لا المدين ، ولا المدولة بل صارت المصلحة الاسلامية والعربية (وهما متلازمتان) ، في مقاومة هذه الفئة الباغية .

ولما كان امر حماية الحجاز ، من هذا البغي والعدوان واقامة ما فرضه الله فيه من الشعائر الاسلامية ، ووقاية العرب والبلاد العربية من الخطر الذي استهدفت له الدولة العثمانية بسوء تصرف هذه الجمعية الباغية ، كل ذلك لا يتم تداركه ، الا بالاستقلال التام ، وقطع كل صلة بهؤلاء السفاكين للدماء الناهبين للأموال . وقد هبت البلاد بتوفيق الله تعالى للنهوض بأمر استقلالها ، بعد ان ضربت على ايدي عمال الاتحاديين ورجال حامياتها ، فاستقلت فعلاً وانفصلت عن البلاد التي لم تزل تئن تحت سلطة المتغلبين من الاتحاديين انفصالا تاماً مطلقاً ، بكل معاني الاستقلال الذي لا تشوبه شائبة مداخلة اجنبية ولا تحكم خارجي ، جاعلة مبدأها وغايتها ، نصرة دين الاسلام ، والسعي لإعلاء شأن المسلمين ، والمساواة الشرعية في الحقوق بينهم وبين جميع من يدخل في حوزة استقلالها من المخالفين ، قائمة في كل اعمالها ، على اساس احكام الشرع الشريف الذي لا يكون لنا مرجع سواه ، ولا مستند الا اياه في جميع الاحكام واصول القضاء وفروعه ، مع استعدادها لقبول ما ينطبق على اصول الدين ، ويلائم شعائره من انواع فنون الترقي الحديث وأسباب النهضة الصحيحة ، باذلة كل ما في الجهد والطاقة ، لاعزاز العلم وتعميمه بين الناس على اختلاف الطبقات ، وعلى حسب الحاجة والاستعداد .

هذا ما قد قمنا به ، لاداء الواجب الديني علينا ، وراجين من اخواننا المسلمين في مشارق الارض ومغاربها ، ان يؤدوا كذلك ، ما يرونه واجباً لنا عليهم من احكام روابط الاسلام ، والتناصح على البر

والتقوى ، وليعلموا باننا قد قمنا بما قد قمنا به ، ونحن نعتقد اعتقاداً راسخاً انه افضل خدمة للاسلام ، اذا لم تتحقق به اماني المسلمين الصادقين حتى الترك منهم ، فانه لا ضرر فيه يوازي عشر معشار الضرر في تركه وستظهر لهم الايام حقيقة ذلك ، فليصبروا ان الله مع الصابرين ، والله نسأل ، وبحبه وحب رسوله نتوسل ان يتولانا بالتوفيق ، ويمدنا بالهداية، الى ما فيه خير الاسلام والمسلمين ، والاعتماد على الله العلي الكبير ، وهو حسبنا ونعم المصير .

حالة جزيرة العرب عند اعلان الثورة

كان في داخل جزيرة العرب ، عند اعلان الثورة في سنة ١٩١٦ ، اربع امارات وهي :

١ – إمارة السعوديين في قلب نجد .

٢ – إمارة الرشيد في شمالي نجد .

٣ – إمارة الادريسي في عسير وتهامة .

٤ – إمامة الزيود في اليمن .

وكانت الأولى اقواها ، ويتمتع امامهـــا عبد العزيز بن سعود بنفوذ وذكاء نادرين .

وكانت إمارة الرشيد في حايل ، توالي الترك ، وتدور في فلكهم ، وتستمد منهم القوة لبقائها ووجودها .

أما إمارة الإدريسي في صبيا ، فكانت حديثة الوجود ، وضعيفة في مواردها ، وكانت تستمد العون والمساعدة في ذلك الوقت ، من الانكليز الذين كانوا يعاهدونها .

وكان الإمام يحيى في صنعاء ، على وفاق مع الترك ، الذين اعترفوا

به رئيساً روحياً للزيود ومنحوه بعض امتيازات بموجب اتفاق دعان سنة ١٣٢٨ ه‍ ، فسكن اليهم وتعاون معهم .

تلك كانت حالة الجزيرة العربية – حين إعلان الثورة ، وفي ابان الحرب ، وقيل ان الانكليز اتصلوا بالامام يحيى في ايامها الاولى ، يدعونه للانضمام اليهم والتعاون معهم ، فاعتذر باتفاقه مع الترك .

ولقد كانت قوة السعوديين ، هي القوة الوحيدة الكبرى في داخل نجد ، التي يحسب الحسين حسابها ، فهو يعرف تاريخها القديم والحديث ، ويعرف ان آل سعود ، فتحوا الحجاز في القرن الماضي ، وادخلوه في دائرة حكمهم ، وان محمد علي باشا ، هو الذي وضع اليد عليه بعد جلائهم ، وعين جده محمد عون بن عبد المعين شريفاً على مكة ، وهي الشرافة التي انتقلت اليه .

ووضع الشريف حسين ، منذ استقرت اقدامه في مكة سنة ١٣٢٦ ، نصب عينيه مقاومة النهضة الجديدة التي نهضتها نجد ، بقيادة الإمام عبد العزيز ، فلا تعيد معه سيرة آبائه واجداده .

وكاتب الحسين الآستانة ، يذكر لها خبر نهضة نجد الجديدة ، ويخوفها من نتائجها ، ويذكر لها نشاط دعاة التوحيد من النجديين ، الذين انتشروا في مناطق الحدود بين نجد والحجاز ، ويطلب بذل المساعدة لطردهم والقضاء على حركتهم ، قبل ان تستفحل وتشتد ، فاستجابت له ، فقاد في سنة ١٣٢٨ ، حملة الى حدود الحجاز الشرقية (منطقة نجد) ضمت بعض كبار شيوخ قبائل المنطقة ، اشترك فيها علي وفيصل من انجاله ، ومحمد ابن حميد شيخ قبيلة عتيبة وواصل التقدم حتى نزل القويعية ، وتوجه منها الى شقرا ووصل الى القيصم ، وهاجم عرب الدواسر ، في اسفل وادي الحزما ، فدارت بينه وبينهم معركة ، سقط فيها الأمير سعد بن عبد الرحمن شقيق الامام عبد العزيز ، اسيراً مع بعض انصاره .

وبذلت وساطات للتوفيق ، فتم الصلح بواسطة خالد بن لؤي شيخ

تربة ، فعاد الحسين الى مكة ، بعد ان حصل على وثيقة من ابن سعود بان يكف عن التعرض لقبائل سبيع والبقوم ومطير ، الضاربة في مناطق الحدود وللقبائل الداخلة في حدود الحجاز حتى شفا نجد .

ونال الحسين ايضاً ، الف ليرة عثمانية ذهباً ، فدية عن الأمير سعد .

وهدأت الحالة في مناطق الحدود ، واستؤنفت الاتصالات بين البلدين وظلت مستقرة حتى اعلان الحرب العظمى الاولى سنة ١٩١٤ .

وحدث في خلال ذلك (سنة ١٩١٠) ، ان لجأ بعض آل سعود من سلائل سعود كبير ، وولده عبدالله – الى الحسين ، راجين مساعدته بسبب خلافهم مع ابن عمهم على الحكم ، فأنزلهم على الرحب والسعة . ولكنه يبذل لهم مساعدة تذكر ، ويقول الأمير عبدالله بن الحسين في مذكراته المنشورة في القدس سنة ١٩٤٦ ، ص ١٤٥ ، عن هذا الالتجاء ما نصه :

« ولا أنسى ، ما كان قاله لي الصدر الاعظم ابراهيم حقي باشا ، وهو ان ارجو والده ، اي والدي ، بان يدع المسألة الوهابية وشأنها ، والا يساعد سعود بن عبد العزيز العرافة ، على ابن عمه عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل . وقال يجب ان ننسى مسألة مبارك الصباح وحماية انكلترا له ، فالدولة العثمانية ، غير متفرغة الآن لمسألة تحدث جنوبي البصرة وشرقي الحجاز » .

بين نجد والحجاز في الحرب العظمى الأولى

أرسل الترك وفدين الى الامام عبد العزيز ، عقب اعلان الحرب ، رئس الأول السيد طالب النقيب ، ورئس الثاني السيد محمود شكري الألوسي علامة العراق ، يسألونه الدخول الى جانبهم ، والتعاون معهم في

الحرب ، فاعتذر بأن حالته المادية لا تساعده على اقتحـــام الحرب ، والاشتباك فيها وانه سيلزم الحياد .

وأوفـد اليه الانكليز الكبتن شكسبير مندوبهم في الكويت ، عقب اعلان الحرب ايضاً ، ليكون مندوباً لهم لديه ، وليعمل على اقنـــاعه بدخول الحرب الى جانبهم ، فاعتذر عن هذه أيضاً ، وان كان رحب به كمندوب سياسي ، لدولة أجنبية -- يفد الى عاصمته .

وجاءت الأخبار الى الرياض ، في شهر يناير سنة ١٩١٥ ، بان محمد بن الرشيد ، صاحب حايل يعد المعدات لمهاجمتها بايعاز من الترك ، الذين نقموا عليه عدم انضمامه اليهم ، فوالى الاستعداد ، والتقى الفريقان يوم ٢٥ يناير سنة ١٩١٥ ، بجوار ماء معروف في نجـــد باسم « جراب » ، فدارت معركة ، استمرت من الصباح الى المساء ، عاد بعدها كل فريق الى ديرته .

وأصابت رصاصة طائشة ، الكبتن شكسبير ، وكان يدير المدفيعـــة السعودية في المعركة ، فهلك لتوه ، وعزى ابن سعود به انكلترا .

وكانت معركة « جراب » ، آخر ما دار بين آل سعود والرشيد في تلك الحرب .

وأرسل الحسين ، عقب اتفاقه مع الانكليز ، وإعلانـــه الثورة على الترك ، كتاباً خاصاً مع هدايا ثمينة الى الامـام عبد العزيز ، يخبره بما تم ، ويرجوه قبول هدايـــاه ، فرد عليه شاكراً ، واغتنم الفرصة ، فطالب بتحديد الحدود نهائياً بين نجـد والحجاز ، ولم تكن قد حـددت حتى ذلك الوقت .

ولم يلق هذا الطلب ارتياحاً لدى الحسين ، ولكنه سكت ولم يبد ولم يعد . واكتفى بان قال للوفد النجدي الذي حمـــل اليه الجواب : قولوا للامام ، كل ما انت عليه هو لك ..

ولم يقنع الجواب ابن السعود ولم يرضه .

وكاتب ابن سعود الانكليز ، وكان معاهداً لهم ، وكان بينه وبينهم اتفاق العقير ، المعقود في ٢٦ دسمبر سنة ١٩١٥ ، وقد اعترفوا بموجبه بالدولة السعودية ، وعقدوا معه ميثاق صداقة ، معلناً بانه لا يعترف للحسين باية صفة ، ولا يعترف له بافضلية ، وانه يرى اذا كان ذلك ممكناً ، ان يسعوا لانشاء تفاهم حول قضايا الحدود .

وأوفد الانكليز بعض رسلهم ، للتقريب والتوفيق ، فما أفادوا شيئاً لتمسك كل فريق بموقفه .

وتبدل الموقف على الحدود ، بعد ختام الحرب العظمى الأولى ، في سنة ١٩١٨ ، تبدلاً خطيرا ، تقرأ تفاصيله في الفصول الآتية :

بين الادريسي والحسين والانكليز

أوردنا في الفصل الذي عقدناه للكلام عن الخلافات بين الحسين ، والانكليز ، كلمة عن النزاع الذي شجر حول احتلال الادريسي ، لمدينة « القنفدة » ، الحجازية بالاتفاق مع الانكليز وبمساعدتهم .

وما كان عمر هذه الامارة عند اعلان الحرب ، يزيد عن ست سنوات فقط أسسها سنة ١٩٠٨ ، السيد محمد علي الادريسي ، سليل العائلة الادريسية المعروفة في المغرب ، وصل الى صبيا يومئذ ، قادماً من القاهرة ، حيث طلب العلم في الازهر ، فنزل بجوار ضريح جده السيد احمد ابن ادريس المدفون في ثراها . واغتنم فرصة الفوضى التي كانت تلف منطقة تهامة ، فاستمال اليه بعض شيوخ القبائل ، وألف منهم قوة طردت ما كان للترك من موظفين ، وبقايا قوى مبعثرة هنا وهنالك . ثم تقدم فحاصر مدينة « ابها » ، قاعدة الترك الادارية والعسكرية في عسير ، وبسط نفوذه على بعض اجزاء المنطقة .

واستنجدت الحكومة العثمانية ، بشريف مكة ، الحسين بن علي

وطلبت منه ، ان يتولى أمر الادريسي ، ويكفيها شره .

فسار اليه في سنة ١٩١١ ، على رأس قـــوة ، وكان نجلاه عبدالله وفيصل من جملة قادتهـــا ، حتى بلغ ابها . وبعد ان فك الحصار عنها ، وشتت قوة الادارسة عاد الى مكة .

واعلنت ايطاليا في تلك البرهة (سنة ١٩١٠) ، الحرب على تركيا تريد اغتصاب ليبيا . ووسع الايطاليون نطاق اعمالهم العسكرية ، فشملت البحر الاحمر ، فأطلقوا قنابلهم على الثغور العثمانية في تهامة ، ونشأت على الاثر ، علاقات مباشرة بين السيد محمد علي الادريسي صاحب صبيا وبينهم ، وكانت لهم قاعدة في البحر الاحمر ، هي مستعمرة الارثيريا وتناوح ساحل تهامة ، وتم الاتفاق بينهما ، على ان يمدوه بالمال والسلاح ، لقتال العثمانيين فكتب اليه الامام يحيى معاتباً وناصحاً ، بالكف عن التعاون مع الاجانب ومحاربة الدولة العثمانية ، فما ارعوى وما توقف .

وأرسل الحسين في سنة ١٩١٣ ، يطلب من الحكومة العثمانية حملة عسكرية ثانية الى عسير لمنازلة الادريسي وكف اذاه ، أقادها نجله فيصل فأجرت بعض الحركات العسكرية ، وعادت الى الحجاز ، بدون ان تدرك الغاية التي اوفدت من أجلها

وأعلنت الحرب العظمى سنة ٩١٤ ، وتوقف الطليان عن كل حركة في البحر الأحمر ، وحل الانكليز محلهم .

بين الادريسي والانكليز

وكان الادريسي ، على أتم استعداد للتعـاون مع الانكليز ، بعد ان نفض الايطاليون يدهم من يده ، وقعدوا عن كل حركة في البحر الاحمر ، ولم يتردد في ابلاغهم استعداده ، لاجابة كل ما يطلبون ، ذلك لأن موارد إمارتـه الضئيلة ، وحاجته الزائـــدة الى بذل المـال لاعوانه ،

استبقاء لمودتهم ، كانت تدفعه لركوب هذه المراكب الصعبة .

وانتدب وزيره ، ومدير اعماله السيد مصطفى الادريسي (ابن عمه) فذهب الى عدن ، واتصل بالانكليز ، ووقع معهم يوم ٥ ابريل سنة ٩١٥ ، (١٥ جمادى الثانية سنة ١٣٣٣) ، اي قبل ابتداء المكاتبات الرسمية بين الانكليز والحسين ، وبعد إعلان الحرب بثمانية اشهر فقط هذا الاتفاق :

المادة الاولى — ان هذه المعاهدة ، التي هي معاهدة صداقة وولاء ، وقد وقع عليها امير البحر ، جنرال « شو » المندوب البريطاني في عدن ، باسم حكومة بريطانيا ، والسيد مصطفى بن السيد عبد المتعال الادريسي ، باسم حضرة السيد محمد علي بن احمد بن ادريس (السيد الادريسي) ، امير صبيا واطرافها .

المادة الثانية — القصد من هذه المعاهدة ، هو اعلان الحرب على الترك ، وتوطيد عرى الصداقة ما بين حكومة بريطانيا ، والسيد الادريسي المذكور آنفاً ، ورجال قبيلته

المادة الثالثة — يتعهد الادريسي ، بقتال الترك ، وبان يجتهد لطردهم من مواقعهم في اليمن ، وبان يتعقبهم ، وله ان يوسع أراضيه على حساب الاتراك .

المادة الرابعة — يتجه عمل السيد الادريسي ضد الترك فقط ، ويمتنع عن كل حركة عدائية ضد الامام يحيى ، ما دام هذا لا يضع يده بيد الترك .

المادة الخامسة — تتعهد الحكومة البريطانية بالمحافظة على أراضي السيد الادريسي من كل اعتداء يقع عليها من قبل أي عدو كان على السواحل، وبضمان استقلاله في أراضيه الخاصة ، وباستعمال كل الوسائل السياسية عند ختام الحرب ، في سبيل تأليف مطالب السيد الادريسي ، مع الامام يحيى ، او أي خصم آخر .

المادة السادسة — ان الحكومة البريطانية ، لا تقصد توسيع أراضيها في غرب البلاد العربية ، ولكنها تتمنى بصورة صريحة ، أن ترى الرؤساء العرب ، في حالة سلمية وأخوية كل منهم في منطقته يوالي الحكومة البريطانية .

المادة السابعة — انه كدليل على تقدير الحكومة البريطانية للاعمال التي يقوم بها السيد الادريسي ، فهي ستعاونه بالمال والمؤن وتستمر على معاونته طول مدة الحرب . وستكون هذه المعاونة متناسبة مع ما يقوم به من أعمال .

المادة الثامنة — تسمح الحكومة البريطانية ، للادريسي اثناء الحصار البحري المضروب على سواحل تركيا في البحر الاحمر ، ان يتاجر مع عدن وسواحلها وتضمن استمرار هذه الحالة ما دامت العلاقات الحسنة قائمة بين الفريقين .

المادة التاسعة — تكون هذه المعاهدة نافذة بعد موافقة حكومة السيد عليها

ملحق - تعطى جزيرة فرسان الادريسي ، منعاً لمطالب ايطاليا .

وصدق المعاهدة اللورد ردنج حاكم الهند العام . وكانت عدن تتبع حكومة الهند .

وظلت الحالة في داخل جزيرة العرب ، تدور في هذه الدائرة حتى ختام الحرب العظمى في سنة ١٩١٨ ، فكان ذلك بدء التطور الجديد ، وبدء التبدلات الكبرى التي نورد اخبارها في الفصول القادمة .

اربعة جيوش عربية في الميدان

لم يكن لدى الحسين ، أي قوة عسكرية نظامية او غير نظامية ، يعتمد عليها ، عند إعلان الثورة ، وما كان يملك مدافع ولا بنادق ولا رصاصاً ، وكان ايضاً بدون ثروة ولا مال ، ومعنى هذا انه كان يعتمد في الحصول على السلاح والمال ، ومعظم الحاجيات الاخرى على الانكليز وحدهم ، وكان يعرفون ذلك ، وقد تعهدوا له منذ اليوم الأول بان يقدموا اليه جميع حاجاته واحتياجاته ، فالحسين ما كان رئيس دولة في الحجاز ، وما كان ذا جيش ولا مدافع ولا معدات ، انه لم يكن اكثر من موظف كبير يتناول راتباً من الحكومة العثمانية التي تملك حق تعيينه وحق إقالته . على انه كان يمارس نفوذاً ذا شأن على القبائل البدوية . وكان يعتمد على ابنائها وحدهم ، وهو يعلن الثورة . وقد جند بعضهم بالفعل ، كما جاء في كتابه التاسع الى نائب الملك في مصر .

وتبدل الموقف في الحجاز ، بعد إعلان الثورة ، وبعد ان تم لهذه

القضاء على المقاومة التركية في مكة وجدة ، حيث غنمت كميات كبيرة من السلاح ، فدعت الحاجة الى انشاء جيش نظامي يدرب طبقاً للأساليب العسكرية الحديثة ، ويكون درعاً للثورة وحصناً حصيناً . ورأى القائمون بالأمر في مكة ان خير ما يفعلونه ، هو الاستعانة بالضباط والجنود العرب الذين سقطوا باسر الانكليز ، في حروب فلسطين والعراق ، وذلك باخراجهم من المعتقلات التي كانوا فيها ، ونقلهم الى الحجاز ، فيتولون إنشاء الجيش العربي العتيد ، ويؤلفون نواته الأولى ، وأقر الانكليز الخطة ولم يعارضوها .

لقد كانوا يرسلون الدعاة القوميين الى المعتقل ، الذي يراد تجنيد ضباطه وجنوده العرب ، فيتحدثون اليهم بتطويل وإسهاب عن المظالم التي انزلها الترك بقومهم العرب ، وعن الفظائع التي احتقبوها ، والمشانق التي نصبوها ، والمنافي التي ملؤوها ، والحرائر التي سبوها ، والأموال التي نهبوها وصادروها ، والمجاعات التي افتعلوها ، بغية إذلال العنصر العربي واستعباده . ثم يذكرون لهم نهوض الشريف حسين وابنائه في الحجاز ، لإنقاذ العرب ، وللانتقام من الترك والثأر منهم وطردهم من بلاد العرب ، وإنشاء دولة عربية مستقلة بالاتفاق مع الانكليز وبالتعاون معهم ، ثم يقولون بانه سيفرج فوراً عن الذين يتقدمون منهم للتطوع في جيش الثورة ، فيرسلون الى الحجاز للاشتراك في صفوف المجاهدين ، ويخصص لكل منهم راتب مناسب ، أما من اعرض وتولى ، فيظل في مكانه يرسف في قيود الأسر ، وكان الاكثرون يستجيبون ويسافرون . ووصف الاستاذ فايز الغصين ، في كتابه : « مذكراتي عن الثورة العربية » ، ما شهده في معتقل ، (سمر بور) في الهند ، حيث كان الانكليز يرسلون اليه من يسقط بأيديهم من عرب العراق ، فقال انه كان وبعض زملائه في طريقهم من البصرة الى جدة ، للانضمام الى الثورة عقب إعلانها ، فمروا بثغر « بمباي » ، ونزلوا فيه بانتظار وصول باخرة

تقلهم الى جدة .

« واغتنم الانكليز الفرصة ، فجاء احد ضباطهم وصحب الزملاء السادة : الدكتور حسن شرف (دمشق) ، وعلي جودة الأيوبي (الموصل) ، وتوفيق الحموي (بغداد) ، الى معتقل (سمر بور) في الضاحية ، وكان معداً للأسرى العرب ، فتحدثوا اليهم طويلاً عن الثورة العربية ، وعن أسباب اعلانها ، وعن اعمال التعذيب والظلم في سورية ، وعن المعاملة السيئة التي يعامل بها الترك السوريين ، وعن المشانق التي نصبوها ، فتحمس الكثيرون من الضباط والجنود العرب ، الذين كانوا هناك وتأثروا بما سمعوا وطلبوا إرسالهم الى الحجاز ، فأجيبوا الى طلبهم » .

ويقول ايضاً ، انه كان في الباخرة التي أقلتهم من بمباي الى جدة ١٩ ضابطاً عربياً ونحو ٣٠٠ جندياً ، تطوعوا وأرسلوا الى الميدان ، ثم أورد اسماء الضباط الذين كانوا في الباخرة وهم :

- القائد حسن فهمي الزنبركجي (دمشق) ، الرئيس عبد الرؤوف الموصلاوي . القائد رشيد آل انكري (بغداد) ، الملازم احمد مكي أبو حمد (فلسطين) ، الرئيس عبد الكريم تنتري (بغداد) .

- والملازمون : حامد الوادي ، شاكر الراوي ، عبد الحميد الشالجي ، شاكر عبد الوهاب ، عبد الرزاق الحجا ، رشيد حسن الخماش ، شاكر آل النائب . عبد اللطيف طابور اغاسي . وكلهم من العراق ، والملازم نسيب متولي (سوري) ، ومنعم عبده (فلسطين) .

« ولم ينزل هؤلاء في جدة ، بل واصلوا السفر الى رابغ فبلغوها يوم ٢٩ ذي العقدة سنة ١٣٣٤ ، أي بعد ثلاثة أشهر من اعلان الثورة تقريباً ، فجاء الى الباخرة ضابط عربي بلباس عسكري ، وعلى رأسه كوفية وعقال ، فسلم على الجنود والضباط وحياهم باسم الشريف علي بن الحسين وباسم الجيش العربي ، وضباطه في رابغ ، وقال انه سيحضر في الغداة مع الهجن لنقلهم الى مقر قيادة الجيش . واسم هذا الضابط محمد

حلمي وهو عراقي ، وقد وصل قبلنا » .

ويؤخذ مما لدينا من معلومات ، ان أول قافلة وصلت الى جدة ، من الضباط العرب الذين كانوا في الجيش التركي ، تألفت كما يلي :

الملازم الاول نوري السعيد (عراقي) ، راسم السردست (سوري) ، محمد حلمي (عراقي) ، رؤوف عبد الهادي (فلسطيني) ، ابراهيم الراوي وجميل الراوي (عراقيان) ، ومثلهم رشيد الهاشمي ، جاء من البصرة .

وتتابع وصول الضباط والجنود العرب من مصر ، ووصل في أواسط شهر سبتمبر سنة ١٩١٦ ، من القاهرة القائد عزيز علي المصري ، أحد مؤسسي الحركة العربيـــة في الآستانة ، ومن كبار الضباط العرب في الجيش العثماني ، وتولى وزارة الحربية فور وصوله .

انشاء الجيش الاول

وبدأوا أول ما بدأوا ، فأنشأوا فوجين نظاميين من المشاة في رابغ ، مع فوج رشاش ، وبطارية مدافع ، ثم اتبعوها بفوج ثالث من المشـاة وثلاث بطاريات مختلفة الحجم ، وسرية مهندسين ، وفوج هجانة .

وانشأ مولود مخلص ، واحمد موصلي ، وراسم سردست ، ومن كان معهم من الضباط جيشاً آخر في ينبـع ، فتولى الأول تنظيم الخيـالة ، والثاني المشاة ، والثالث المدفعية ، وكانت هـــذه نواة الجيش الشمالي ، كما كانت قوة رابـغ نواة الجيش الجنوبي .

ولم تقف حركة القتـال بين العرب والـترك خلال هذه الفترة ، بـل ظلت مستمرة متتابعة ، على ان المعارك انحصرت منذ أوائل شهر اكتوبر سنة ٩١٦ ، في ميدان المدينة ، فصار الميدان الرئيسي في الحجاز ، وكان الحسين وابناؤه يتابعون حركة القتال ويشرفون على انشاء الجيش النظامي ويشجعون عليه .

وصار للعرب عند ختام الأشهر الثلاثة الاولى لنشوب القتال اي حتى اوائل شهر اكتوبر ١٩١٦ ، اربعة جيوش وهي :

١ – جيش الشمال بقيادة الامير فيصل – كانت منطقة بير سعيد بين المدينة وينبع قاعدة له ، وكانت مهمته قاصرة على الدفاع عن الثانية ومنعهم من بلوغها .

٢ – جيش الجنوب بقيادة الامير علي – ومقره رابغ . وكان عليه أن يحمي مكة ، ويصد الترك عن بلوغها ، من ناحية المدينة .

٣ – جيش الشرق – أنشىء هذا الجيش عقب استسلام الحامية التركية في الطائف وهو بقيادة الامير عبدالله ، وكانت « العيص » قاعدته في شرق المدينة .

٤ – جيش الوسط – بقيادة الامير زيد ، وكان بمثابة احتياطي للجيوش الثلاثة .

وكان بدو الحجاز ، هم العنصر الاساسي والغالب في هذه الجيوش ، أما الضباط فهم ، اما عراقيون وهم الاكثرية ، او سوريون ، او فلسطينيون . على أن حكومة الحجاز ، اسرعت فانشأت مدرسة حربية لتخريج الضباط ، تولى قيادتها في اول انشائها ضابط سوري ، هو السيد شكري الشوربجي .

قوات الترك في الحجاز

وقد لا يخلو من فائدة ، إيراد بيان عن قوات الترك في الحجاز ، خلال تلك الفترة ، وهذا ما أورده الكولونيل بريمون عنها في كتابه : الحجاز في الحرب العالمية قال :

كان للترك في ميدان المدينة ، وهو الميدان الرئيسي لهذه الحرب في شهر نوفمبر سنة ٩١٦ القوات الآتية :

١ – قوة المدينة الداخلية : وتتألف من فوجي مشاة وآلاي (جحفل) هجانة ، و٣ بلوكات استحكام ، ورشاشات ومدفعية قوية .

٢ – قوة بير درويش : وتتألف من خمسة افواج مشاة وسريتين راكبتين ، وجحفل هجانة ، وبطارية مدافع جبلية تنقل على الابل و ٤ طائرات

٣ – قوة بير روحانا : وتتألف من جحفل هجانة ، وقوة من متطوعة عرب شمر ، وكتيبة تركب البغال ، و٥ مدافع ميدان ومفرزة لاسلكي .

ومجموع هذه القوى ٢٣,٣٠٠ جندي ، يقودها ٦٠٠ ضابط .

وكان للترك ايضاً ، قوات عسكرية كبيرة ترابط على طول سكة الحديد ، من المدينة الى معان ، مقسمة الى ثلاث مناطق :

١ – منطقة المدينة – العلا بقيادة بصري باشا .
٢ – « تبوك – العلا بقيادة القائمقام عاطف .
٣ – « تبوك – معان بقيادة اللواء محمد جمال .

اعمال العرب العسكرية

وينوه الكولونيل بريمون ، في كتابه ، الحجاز في الحرب العالمية ، بالتقدم المشهود الذي ادركه العرب ، في الاعمال العسكرية خلال الاشهر الاولى من سنة ١٩١٧ ، وهذا ما قاله :

في يوم ٦ دسمبر سنة ٩١٦ ، تقدم جيش الجنوب ، بقيادة الامير علي ومعه الامير زيد ، فبلغ ابي وهيبه على طريق المدينة – رابغ ، وتبعد عن الاولى نحو ٧٠ كم تشد أزره ٤ طائرات بريطانية .

وخرج فخري باشا للقائه على رأس عشرة أفواج .

وأغار البدو التابعون للجيش العربي على الترك ، واوغلوا

في غارتهم ، حتى بلغوا ببار علي قرب المدينة ، وعادوا بستين اسيراً .

وبلغ الجيش (بير العبد) ، في تقدمـــه يوم ٢٣ منه ، وفي ٥ فبراير سنة ١٩١٧ ، تقدم الامير زيد نحو ٢٠ كم ، الى الامام ، فلم يجد أثراً للترك .

وعاد الامير علي يوم ١١ يناير سنة ٩١٧ ، الى رابـغ ، فأعد حمـلة زحفت يوم ٢٧ منه نحو المدينـــة ، سالكة الطريق السلطاني ، وكانت تتألف من ٤٨٠٠ مقاتل ، ومعهم ٧ رشاشات ، و ٧ مدافع فاستولت على معظم الاراضي ، وبلغت بير الماشي ، ويبعد عن المدينة ، حوالي ٣٠ كم ووصلت يوم ١٠ مارس الى بير عباس ، وبلغ البدو الذين كانوا ملحقين بها أبواب المدينة ، وعادوا بكثير من الأسرى فكان انتصـــاراً باهراً للعرب .

وتحصن الترك وراء أسوار المدينة عقب ذلك ، وما عادوا يغادرونها ، وفي يوم ٢٧ منه ، أقـام الامير علي مخيمه في بير درويش ، ولم تقع معارك بعد ذلك ، في هذا الميدان حتى نهاية الحرب .

هذا ما حـــدث ، في منطقة الجيش الجنوبي ، اما جيش الشرق ، فقد بلغ بير الحانق ، قادماً من الطائف في اوائل شهر دسمبر سنة ١٩١٦ فضرب مخيمه فيها ، فاثر تقدمه في نفوس القبائل ، التي كانت مترددة ، او موالية للترك ، فاندفعت في الانضمام اليه ، وشتت هذا الجيش شمل كتيبة تركية ، كانت ترابط في « نخلة » ، جنوبي المدينة ، وغنم منها مدفعاً و ٣ رشاشات ، ثم اجتاز خط سكة الحديد، وعسكر في وادي «العيص » فارتد الترك الى جبل احد ، واحكموا تحصينه ، وضرب الامير مخيمه في الوادي ، واقام على حصار المدينة حتى النهاية .

ولقد عد ما حدث ، فوزاً كبيراً للعسكريين العرب الذين أتموا في خلال هذه المدة القصيرة ، وهي لا تزيد عن ثلاثة اشهر ، انشاء هذه القوى واعدادها للقتال . ويجب ان نذكر ايضاً ، ان الجيوش التركية ،

كانت مسلحة باحدث انواع الاسلحة ، فقد أمد الالمان الترك ، بكل ما كانوا يحتاجون اليه ، كما انها كانت مدربة أحسن تدريب ، قاتلت في عدة ميادين قبل وصولها الى تلك المناطق النائية .

وعلى كل ، فقد كان ما تم دليلاً على الذكاء العربي ، والتفوق العربي وكان باعتراف الجميع فوزاً يستحق الذكر والتنويه .

انشاء الدولة الهاشمية

انتقل الحكم في الحجاز ، انتقالاً طبيعياً الى الحسين ، عقب اعـــلان الثورة على الترك وطردهم من البلاد ، فحل محلهم ، وصار صاحب الامر والنهي فيه .

ولما كان هذا وحده لا يكفي ، ولما كان لا بد من انشاء « دولة » بالطرق الشرعية والقانونية المرسومة ، تدير البلاد وتسوس أمورهـــا ، وتتصل بالعالم الخارجي ، وترتبط معه ، فقد اتجهت نية الحسين الى انشاء « الدولة » المطلوبة ، واقامتها ، طبقاً للاصول الشرعية .

وفي داخل هذا الإطار ، وجه الحسين يوم ٧ ذي الحجة سنة ١٣٣٤ ، (اكتوبر سنة ١٩١٦) ، الكتاب الآتي الى الشيخ عبدالله بن سراج ، مفتي الاحناف في مكة وهو :

حضرة العالم الكامل الشيخ عبدالله سراج .

« انه لما كانت مصالح الرعايا وانتظام شوون المجتمع ، وتوفير اسباب العمران ، لا بد لها من دواوين ، يتوزع عليها النظر في الحكومـة ، وما هو معنى ذلك ، من المصالح العامـة والخاصة ، ويتعهد بها أساس الوظائف الذي تبنى عليه المسؤولية ، وتكوين حكومة لبلادنا المحروسة ،

وبالنظر الى ما تحققناه فيكم من الكفاءة والاستقامة ، عزمنا بعد الاستعانة بالله عز وجل ، على توجيه منصب قاضي القضاة لعهدتكم وتعيينكم وكيلا عن رئيس الوكلاء العظام ، وقد اخترنا بقيـــة الوكلاء حضرات الذوات الآتية اسماءهم :

ولدنا عبدالله بن الحسين ، لوكالة الخارجية ، ويكون وكيـــلا عن وكيل الداخلية .

عبد العزيز بن علي (المصري) ، رئيس اركان حرب ووكيل رئاسة الجند مع ترفيع درجة عن رتبته الحاضرة .

الشيخ علي مالكي ، وكيلا للمعارف .

الشيخ يوسف بن سالم ، رئيس البلدية سابقاً وكيلا للمنافع العمومية .

الشيخ محمد امين ، مدير الحرم الشريف سابقاً (تركي) وكيلا للاوقاف في نظارة امور الحرم ، وكل ما يتعلق بوظيفته الشريفة .

والشيخ احمد بن عبد الرحمن باناجه ، وكيلا المالية .

وذلك ، لما توسمناه من درايتهم ، واستعدادهم للسهر على مصالح البلاد وأهلها ، على ما يرضي الله ، واننا ننتظر منكم المبـادرة ، الى تأسيس الدوائر والدواوين الرسمية ، وتعيين العمال والموظفين لهـا . وأرجو الله الله سبحانه ان يجعلنا مظهر توفيقه وهداه ، في كل ما يحبه ويرضاه .

في ٧ ذو الحجة الحرام سنة ١٣٣٤ .

شريف مكة واميرها
الحسين بن علي

وأصدر في اليوم نفسه ، مرسوماً بتأليف مجلس الشيوخ ، وهو بشكل كتاب موجه الى الشيخ سراج ، وكيل رئيس الوكلاء ، وقاضي القضاة وهو : مولانا وفقه الله .

بما اننا قد استنسبنا تعيين هيئـة ، اطلقنا عليهـا اسم ، مجلس الشيوخ

وجعلنا وظيفة هذا المجلس ، النظر في كل ما يتعلق بمنافع البلاد والمراقبة على اعمال الدواوين والدوائر الرسمية ، وابداء الرأي فيما تعرضه الدوائر على مقام رئيس الوكلاء ، وسيقرر فيما بعد ، صلاحية هذا المجلس العالي . وقد جعلنا رئيساً له ، جناب الفاضل الأجل ، فاتح بيت الله الحرام ، الشيخ محمد الشيبي واعضاءه حضرات الافاضل الاجلاء ، مفتي الشافعية ، السيد عبدالله بن محمد صالح الزواوي ، ومفتي المالكية ، الشيخ عابدين حسين ، والشيخ عبد القادر بن علي الشيبي ، ونائب الحرم ، السيد ابراهيم علي ، ووكيل شيخ السادة ، السيد محمد بن علوي السقاف ، والشيخ عبدالله بن علي رضى ، والشيخ علي بن عبدون الشرباصي ، والشيخ ابو بكر بن محمد خوفير ، وذوي السادة الشريف حمزة بن عبدالله الفعر ، وفتن بن محسن ، وسليمان بن احمد بن سعيد ، وناصر بن شكر .

وتبليغهم ذلك اقتضى تحريره / ٧ ذو الحجة سنة ١٣٣٤

شريف مكة واميرها

حسين

وهكذا وبهذه السهولة واليسر ، انشأ الحسين دولته الجديدة ، واختار لها هيئة الحكم ، وبقي عليه ان يختار اللقب ، ويفوز بالبيعة الشرعية الاصولية .

وذهب في الغد (٨ ذي الحجة سنة ١٣٣٤) ، الى عرفه ليحج بالناس ، في اول حجة بعد إعلان الاستقلال . وكانت هناك شخصيات معروفة ، ووفود كثيرة وفدت الى الحجاز في ذلك العام ، بعدما رفع الحصار عن سواحله ، وقد ضربه الانكليز عقب اعلان الحرب ، وأبيح الدخول اليه والخروج منه بعد اعلان الثورة .

وذكر الاستاذ الشيخ كامل القصاب لمؤلف الكتاب ، ان الشيخ عبد الملك الخطيب ، وكان يتردد كثيراً في تلك الايام على القصر الملكي ، جاءه فهمس في أذنه ، بعدما نزلوا إلى منى ، وأتموا مناسك الحج فقال

له : « إن (سيدنا) يريد الشريف ، ينبغى ان يبايع بالخلافة في هذا الموسم » ، فأجابه : إن هذا لا يجوز ، فالخلافة ملك العالم الاسلامي ، ولا يحق لبضعة اشخاص مهما سما قدرهم ، ان يبتوا فيها ، فضلًا عن ان الترك ، لا يزالون محتفظين بكامل قوانهم ، ولا يمكن ان يرضوا بنقلها الينا ، كما ان النداء بها ، وفي هذا الوقت على الاخص ، ولا نزال في ابتداء الثورة ، قد يضر بقضيتنا ، وقد يؤلب علينا العالم الاسلامي ، ولذلك أرى تأجيل مشروعها الآن .

وانصرف الرسول ليبلغ الحسين ما سمعه ، وأثار القصاب حديث الخلافة ، حين اجتماعه بالحسين بعد يومين في مجلس خاص ، وقال له : لعل عبد الملك نقل اليك ، ما سمعه مني في قضية الخلافة ، وقد قلت له ما قلت عن عقيدة وايمان ، فان إثارتها في غير مصلحتنا ، فنفى ان يكون له علم او معرفة بشيء ، كما نفى ان يكون قد أرسل اليه الشيخ عبد الملك او انتدبه او كلفه ، وقال : انه فعل ما فعل من عنده .

وبعد انقضاء فترة غير يسيرة ، عاد الحسين فقال للقصاب في جلسة خاصة بينهما ، لقد عارضت في اعلان الخلافة والمناداة بها ، فهل تعارض في إعلان الملكية ؟

— كلا ، فهذا حق من حقوقك ، فأنت الآن ملك البلاد الشرعي .
— اذن هلم .
— على الرأس والعين .

واتصل القصاب عقب هذا الحديث ، بعلماء مكة ، وحدثهم في الامر ، فوافقوا ولم يترددوا . وتم الاتفاق على ان تجري البيعة يوم الخميس (٦ المحرم سنة ١٣٣٥) ٤ نوفمبر سنة ١٩١٦ ، ووضعوا بذلك

مضبطة ، أقبل الناس على توقيعها بسرور .

وجاء الملك صباح هذا اليوم ، من القصر الملكي الى الحرم المكي الشريف ، يحف به أهل بيته ، والعلماء ، وكبار رجال الدولة ، وبعد ان استقر به المقام في مدرسة (النجاح الخاصة ، في داخل الحرم)، تلا احد شيوخ الدين المضبطة المعلنة مبايعته ، ملكاً على العرب ، ومد قاضي القضاة يده اليه ، على الاثر مبايعاً ، ثم بايعه الاشراف والعلماء ورجال الدين « ملكا على العرب » .

وابلغت وزارة الخارجية ، الدول الحليفة ، ما جرى ببرقية طيرها الامير عبدالله ، وكيل الخارجية في الحكومة الجديدة ، وهذا نصها :

« بملء السرور أبلغكم ، ان افاضل البلاد ووجهاءها ، وكافة طبقاتها قد اجتمعوا في صباح هذا اليوم ، واقروا باتفاق الآراء على بيعة حضرة صاحب الجلالة ، والسيادة مولاي الشريف حسين بن علي ملكاً على الامة العربية ، فهو ملك العرب الاعظم بناء على ما تحققت البلاد من كفاءته واخلاصه الحقيقي للوطن ، ورغبته الصادقة في نشر ألوية العلم والعدل في جميع ارجاء هذه البلاد العربية التي غادرتها عصابة الاتحاد والترقي المعروفة لدى العالم بأسره ، بالمساعي والمقاصد المخالفة لكل شريعة ونظام ، وتعمدها استئصال كيان البلاد المادي والمعنوي المشهودة أثاره في طائفة غير قليلة من مسلمين ومسيحيين ودروز ، مما لا ذنب لهم غير وطنيتهم الصادقة ، وصفاتهم العلمية . وان الامة العربية ، لتود من سعادتكم أعتبارها عضواً عاملا في الهيئة الاجتماعية كما ستثبت ذلك بعناية الله وتوفيقاته الصمدانية .

وأثار اتخاذه هذا اللقب ، ازمة شديدة بينه وبين حلفائه الانكليز والفرنسيين ، استمرت مدة طويلة ، كما سنرى .

الثورة وفرنسا

تأبطت فرنسا الشر للثورة العربية ، لا منـذ اعلانها وظهورها ، بل منذ كانت فكرة ومشروعاً ، فسعت سعياً حثيثاً لدى حلفائها الانكليز ، لإقناعهم بالتخلي عن فكرتها ، فلم يستجيبوا لهـا ، ولم يأخذوا برأيهـا ، لا كرهاً بها ، ولا رغبة في تحديها ، بل ولا حبـاً بالعرب ، بل لانهم اعتقدوا ان مصلحة الامبراطورية تقضي بتبنيها والحرص عليها .

ويلوح لنا ، ان فرنسا قاومت الثورة قبل ظهورها ، لانها اعتقدت ان وجودها :

١ — قد يحول دون استقرارها في سورية ولبنـــان ، وكانت تعمل للفوز بها منذ زمن بعيد .

٢ — قد يفتح عيون عرب شمالي افريقيا ويوقظهم ، ويدفعهم للاقتداء باخوانهم عرب المشرق في الثورة ، على لتحرير بلدانهم .

٣ — يعزز الوحدة العربية ، ويعلي شأنها ، ويشجع الشعوب العربية ويقودها الى الاتحاد او الوحدة .

ولقد كانت لفرنسا مطامع معروفة في بلاد الشام ، ترجع في اصلها التاريخي الى الحروب الصليبية . فقد كان الشعب الفرنسي ، اكثر شعوب اوروبا اندفاعاً فيها ، وكانت اكثر الحملات ترد من بلاده ، وكان آخرها

الحملة الخامسة التي قادها لويس التاسع ، ملك فرنسا بالذات ، وقد هزمه المصريون في معركة المنصورة سنة ٥٤٧ هـ (١٢٤٩ م) ، واسروه واعتقلوه في دار فخر الدين بن لقمان ، ولم يطلقوا سراحه الا بعد فدية كبيرة .

واغتنم الفرنسيون ، فرصة اضطرابات حدثت في بعض انحاء لبنان ، سنة ١٨٦٠ ، فأرسلوا حملة عسكرية نزلت في بيروت ، لحماية المسيحيين في الظاهر ، اما في الباطن ، فالسعي للاحتلال والبقاء . وتدخلت دول اوربا ، فأفسدت خططهم وحملتهم على الجلاء .

وخرجت الدولة العثمانية من الحربين ، اللتين خاضتهما مع الطليان سنة ١٩١٠ - ١٩١١ ، ومع دول البلقان سنة ١٩١٢ ، مكسورة مهيضة الجناح ، فأهاج ذلك المطامع الاستعمارية الدفينة في صدورهم ، فقاموا يطالبون بسورية ولبنان ، منطقة نفوذ لهم .

وقام المسيو بوانكاره ، وزير خارجية فرنسا يوم ٢١ دسمبر ، سنة ١٩١٢ ، والقى خطاباً مطولاً في مجلس نواب أمته استهله بقوله :

« ان الحوادث التي تتالت في البلقان ، أثارت مشاكل معقدة وشائكة كانت اوربا تشعر بها منذ مدة ، وكانت تؤجل معالجتها الى فرص أنسب .

« لقد كانت سياسة حكومتنا التقليدية ، تقوم على قاعدة الاحتفاظ بسلامة اراضي الدولة العثمانية ، وابقاء كل قديم على قدمه ، وكنا نعيش في أوضاع مؤقتة ، كادت تتحول الى اوضاع دائمة » .

وبعد ان عرض لحوادث البلقان ، وتكلم عن العلاقات بين فرنسا وروسيا ، وقال : انهما تعملان بالاتفاق ، تناول العلاقات مع انكلترا ، فقال : ان صلاتنا مع انكلترا ، لم تكن في يوم من الايام ، افضل مما هي عليه في هذا الوقت ، وقد صرح السر ادوار غراي وزير خارجية

انكلترا من تلقاء نفسه ، بانه لا محل للمخاوف التي يبديها بعض الفرنسيين من اتباعنا سياسة تنافي مصالح فرنسا ، ولا تنسجم معها » .

وانتقل من بعد ذلك الى الكلام عن سورية فقال : نحن مصممون على الدفاع عن حقوقنا ومصالحنا ، وعازمون على التمسك بتقاليد فرنسا في الشرق ، وستسعى فرنسا لبذل كل ما يجب ، لصيانة هذه التقاليد المقدسة وحماية « كرامتنا القومية » .

وتكلم بعد ذلك ، أمام مجلس الشيوخ ، في الموضوع نفسه فقال : ولست بحاجة للقول ، بان لنا مصالح تقليدية في سورية ولبنان ، بوجه خاص ، ونحن مصممون على حمل الجميع على احترامها ، واستطيع ان أضيف على ذلك بكل سرور هذه الجملة :

« لقد توهم بعضهم ، ان هنالك اختلافاً بيننا وبين انكلترا ، حول هذه المصالح ، واقول انه ليس لنا ما يبرر وجود هذا الوهم ، فقد صرحت بريطانيا بكل صدق ومودة ، انها لا تنوي القيام بأي عمل في تلك الاراضي ، وانه ليس لها اي مطمع سياسي ، او غير سياسي فيها ، بأي شكل من الاشكال . ونحن عازمون عزماً اكيداً على المحافظة على سلامة اراضي تركيا في آسيا ، ولكن لن نتخلى عن أية عاطفة من العواطف التي نحملها ، ولن نتنازل عن شيء من مصالحنا ، او ندعها عرضة لأي خطر » .

وظهرت في بيروت خلال تلك المرحلة « الحركة الاصلاحية » ، فشجعها الفرنسيون وارسلوا بعض انصارهم ، فاندسوا فيها ، رجاء استغلالها لمصلحتهم ، كما ارسلوا اسطولهم في السنة نفسها سنة ١٩١٣ ، فزار بيروت ، وذهبت بعض بوارجه الى « جونيه » ، لتحية البطريرك الماروني .

وظهرت فكرة عقد المؤتمر العربي ، المطالبة بالاصلاح ، فاحتضن الفرنسيون الفكرة ، وايدوها وفتحوا ابواب بلادهم لاعضاء المؤتمر ،

ومع ان الحكومة التركية سعت سعياً حثيثاً لدى فرنسا ، لإقناعها بمنع اجتماعه ، إلا انها فشلت ، وعقد المؤتمر في سنة ١٩١٣ .

وأعلنت الحرب العظمى في السنة التالية ، والامور تسير في هـذا الاتجاه ، فكان اعلانها فاتحـة تطورات خطيرة ، نرى من الفائدة ان نصحبها في سيرها ، ونتابعها في مراحلها .

لقد بدأت الاحداث تتطور ، منذ السنة الثانية لإعلان الحرب ، اي في سنة ١٩١٤ ، حينما هاجم الاسطول البريطاني ، بالتعاون مع الاسطول الفرنسي ، حصون الدردنيل الامامية بغية اقتحامها وبلوغ الآستانة ، واحتلالها للقضـاء على مقاومة الترك ، فأخفقوا وانهزموا ولم يدركوا أي نجاح .

مشروع اللورد كتشنر

وزار اللورد كتشنر وزير حربية انكلترا ، منطقة الاعمال الحربية في الدردنيل ، وكان الترك والألمان يهددون قناة السويس ، ويعلنون استعدادهم لغزو مصر .

وبعد ان عـاد الى بلاده ، أعـد تقريراً اقترح فيه ، ان يستولي الاسطول البريطاني ، على خليج اسكندرونة ، ثم ينزل جنوداً تتقـدم شرقاً باتجاه حلب . والمسافة بينها وبين اسكندرونة ١٦٩ كم ، فتقطع خط المواصلات الوحيد بين تركيا وبلاد العرب ، وتفصل بينهما ، وتعزل هذه عن تلك ، فيرتاح الحلفاء من ناحية تركيا ، ويرتاح بال الانكليز من جهة مصر ، وافريقيا الشمالية ، وتصبح المنطقة الشمالية (منطقة حلب وما امامها جنوباً) ، تحت رحمتهم .

فرنسا تعارض وتقاوم

ومع ان المشروع معقول ، وفي مصلحة الحلفـاء مئة بالمئة ، لانه يشطر تركيا الى شطرين ، جنوبي ويشمل سورية وفلسطين والحجاز وبلاد العرب الاخرى ، الواقعة في دائرته ، وشمالي ويضم البلاد الواقعـــة في شماله ، وهي ولاية أضنة ، ومنطقة جبـــال طوروس ، والاناضول ، يشطر الامبراطورية العثمانية ، ويقصم ظهرها ، ويشل حركتها . الا أن باريس اعترضت عليه ، وقاومته بشدة ، واعلنت أنها تأبى الاشتراك في تنفيذه ، ولماذا ؟ قالوا لانه يهدد مصالح فرنسا ، في المنطقة الجنوبية ، أي في سورية ولبنان ، وكان ممـــا قالوه ، ان دخول الانكليز هذه الاراضي ، معناه احتلالهم اياها ، وبقاؤهم فيها ، وهو ما لا يرضونه ولا يوافقون عليه بأي شكل من الاشكال ، فكان لهم ما أرادوا ، وعدل الانكليز عن تنفيذه ارضاء لهم ، ولضمان بقائهم في الحرب الى جانبهم .

بوانكاره والمشروع

كان مسيو بوانكاره ، يوم بحث هذا المشروع ، يتقلد رئاسة الجمهورية الفرنسية ، وقد عالجـه بالذات ، وكانت له يد في وأده . ولمـا أصدر مذكراته بعد الحرب بعنوان « في خدمـة فرنسا » ، تناوله مع بعض الموضوعات المتصلة به ، وبشرقنا العربي ، وهذا ما قـاله « في يوم ١٢ اكتوبر سنة ٩١٥ » ، وردت برقيـــة من « مودروس » ، وهي جزيرة صغيرة بجوار الدردنيل ، تضمنت ان الالمـــان قد يزحفون على الاستانة في وقت غير بعيد ، وبذلك يدفعون الاتراك نحو سورية ومصر ويغرونهم بمضاعفة الدعاية للجهـاد . وقالت البرقية ، ان كتشنر يرى في ذلك خطراً لا يستهان به على قنـاة السويس ومصر وافريقيـــا الشمالية

با كملهـــا . ويعتقد بأنه لم يعد هنالك ما يحول دون تنفيذ هذه الخطة الالمانية بحركات دفاعية محدودة في اوربا ، وان خير ما نفعله هو الاستيلاء على اسكندرونة ، فهذا الاستيلاء سهل ، وبه نقطع سكة الحديد بحركات عسكرية تبدأ فيها ، ولعله افضل السبل لحماية مصر والدفاع عن افريقية الاسلامية ، ومن رأي اللورد وجوب تنفيذ هذا المشروع باقصى ما يمكن من السرعة » .

وعاد بوانكاره ، فسجل في مذكراته يوم ١٣ منه ما يلي : درس مجلس الوزراء الفرنسي ، مشروع الاسكندرون ، واتفق الجميع على ان ترك البريطانيين يقومون بالحملة التي يقترحها كتشنر امر خطير جداً . ولذلك ، تقرر الاعتراض عليه بواسطة سفيرنا في لندن .

وقال يوم ١٤ منه ، انه لم يوافق الحكومة البريطانية ، على تنفيذ المشروع ، وقد سلمت بأنه يحتاج الى دراسة كاملة ، بالاتفاق معنا ، وقال السر ادوار غراي وزير الخارجية البريطانية لسفيرنا (بول كامبول) انه تألم كثيراً للريب التي ساورتنا بحسن نيات بريطانيا .

وقال في ١٥ منه ، أبرقت لندن الى كتشنر ، بانها لا تشاطره رأيه في مشروع احتلال اسكندرونه ، فرد مصراً عليه ومعدداً مزاياه وفوائده وقال ، انه افضل السبل للذود عن مصر ، والدفاع عنها يهم الجميع . ولكن ذلك لم يقنع فرنسا ولم يبعثها على تعديل موقفها من جعل حكومة لندن تعدل عنه نهائياً ، ارضاء لها .

فرنسا والمفاوضات مع الشريف حسين

واطلع الانكليز حلفاءهم الفرنسيين ، في تلك الفترة ، على جانب من المكاتبات السرية التي كانت تدور بينهم ، وبين الحسين في مكة ، للاتفاق على الشروط التي يتم بها اعلان الثورة العربية ، فأثار ذلك ثائرة هؤلاء ،

وجعلهم يسعون بكل جهدهم وقواهم لإقناعهم بالعـــدول عن المشروع ووأده .

وتناول بوانكاره « مشروع الثورة » في مذكراته ، فقال عنها يوم ٢٦ اكتوبر سنة ٩١٥ ما يلي :

« بدأت مفاوضات غريبة بين الانكليز وشريف مكة ، انهم سيعدونه بالخلافة ، وهو سيتعهد بمساعدتهم ضد تركيا . ارسل الشريف مندوباً الى القاهرة يتداول الامر مع نائب الملك بمصر ، حول هذه القضية » .

وكتب في اليوم الثاني فقال : « تطلب الينا بريطانيا وهي لا تقول لنا كلمة واحدة عن هذه المفاوضات ، وقد تكون في غير محلها ، ان نتذاكر معها لتثبت حدود سورية . لا شك ان هذه المذاكرات ستكون تتمة سعيدة للاتفاقـات التي عقدناها معهـا سنة ١٩١٢ ، ولهذا قرر مسيو فيفاني وزير الخارجية ، ايفاد جورج بيكو ، الذي كان قنصلنـا السابق في بيروت ، الى لندن لبحث هذه الشؤون مع الانكليز .

ثم عاد فكتب يوم ٣ نوفمبر سنة ٩١٥ ، سيذهب جونار الى لندن لمناقشة مشروع الامبراطورية العربية . ويبدو انه يستهوي كثيراً الوزارة البريطانية ، انه سيحتفظ بحقوق فرنسا على سورية ، طبقاً لما تم الاعتراف به سنة ١٩١٢ .

ثم سجل في ١٢ منه : أسر المندوب السامي البريطاني في مصر لممثلنا بأنه قلق جدا ، من هجوم مشترك يقوم به السنوسيون على مصر ، من ناحية الغرب ، والاتراك والالمان من جهة الشرق ، وقال له : يجب اتخاذ تدابير فعلية لحماية القطر ، ولاجل هذا فان من الضروري ، ايجاد دولة عربية مستقلة .

وقال في الغد : تحدث اللورد غراي (وزير الخارجية البريطانية) ، الى سفيرنا في لندن ، عن مشروع الامبراطورية العربيـة مرة اخرى ، ويظهر ان ايجادها ضروري لبريطانيا ، لمقاومة تأثير الترك ونفـــوذهم .

وقال له : ان العرب ، قد يطالبون ببعض الأماكن التي نعتبرها نحن ، جزءا من أجزاء سورية ، وهو يترك لنا ، تقدير مدى التساهل الذي نستطيع تساهله في الموضوع .

وقال يوم ٢٤ دسمبر سنة ٩١٥ ، اطلع بريان (رئيس الوزارة) زملاءه على سير المباحثات التي بدأت في لندن ، حول مشروع الامبراطورية العربية ، ستثير هذه القضية العزيزة على أصدقائنا الانكليز ، مسألة سورية بطبيعة الحال .

« لقد اعطيت التعليمات الى بول كامبول ، سفيرنا في لندن لابلاغها الى جورج بيكو المكلف بالدفاع عن مصالحنا في لندن ، وعليه ان يطلب صيانة نفوذنا في سورية وكيليكية ، وفقاً لاحكام الاتفاق المعقود في سنة ١٩١٢ . ولم يثر السر أرثر نيكسون ، ممثل الحكومة البريطانية اي مشكلة ، في الاعتراف بسلطتنا على اسكندرونه وأطنه وكيليكية ، وذلك على الرغم من اعتراضات اللورد كتشنر ، ولكنه رغب مقابل ذلك ، في تحديد سلطتنا في سورية ولبنان ، فيوضع ذلك القطر تحت سيادة مكة ، مع تخويلنا حق تعيين الحاكم فقط ، ومعنى ذلك وضع يد سلطان مكة على الشعوب الاسلامية والمسيحية ، التي لا تود ان تكون تابعة له ولا ترغب فيه . ويطلب الانكليز لانفسهم زيادة على ذلك حق إيصال سكة الحديد الى حيفا ، وبتعبير آخر الى انشاء خط منافس لخط اسكندرونه . ان هذه الامبراطورية الكبيرة ، لا توحي الي معنى ذا بال ، واخشى من تأثيرها على مستعمراتنا الافريقية ، وكنت احب الا أراها تخرج الى حيز الوجود . وقد أبلغت مخاوفي الى مجلس الوزراء ، إلا انه يظهر اننا سبق وخضنا غمار البحث ، وقيل لي انه فات الاوان ، وانه لا سبيل الى إعادة البحث من جديد » .

وقال في ٤ ينـاير سنة ١٩١٦ ، عرض بريان على مجلس الوزراء سير المفاوضات التي تدور في لندن ، حول مسائل آسيا ، باداء كثير الغموض ،

قليل الوضوح ، فقال : ان انكلترا تعترف لنا بالسيادة التامة على اسكندرونه وكيليكية والبلاد الواقعة وراءها حتى الموصل ، ولا ادري اذا كانت الموصل نفسها داخلة في هذه المجموعة ام خارجة عنها . وتقبل بوضع طرابلس وبيروت مع لبنان ، تحت سلطتنا ، ولكن لا تترك لنا سورية الا تحت سيادة امير مكة ، مخالفة بذلك اتفاقات سنة ١٩١٢ . وتطلب لنفسها فلسطين وحيفا ، واما بريان فقد طلب ، بعكس ذلك ، تقسيم فلسطين بيننا وبين انكلترا ، واشتراك الدولتين في انشاء السكة الحديدية التي يجب ان تنتهي بحيفا .

« ان ملفات هذه المسائل ، لم تسلم لي بعد ، رغم مطالباتي بها ولذلك لا أجد في نفسي استعدادا لابداء الرأي في النقاط المختلف عليها. ومع ذلك فقد لفت نظر مجلس الوزراء الى ان انكلترا تترك لنا من الأراضي ، ما كان مخصصاً لنفوذ المانيا ، بموجب الاتفاقات التي كنا قد عقدناها في اوائل سنة ١٩١٤ ، مع تركيا من جهة ، والمانيا من جهة أخرى ، في حين انها تطلب لنفسها ، المنطقة التي كانت تركيا والمانيا قد اعترفتا بحقوقنا فيها . ولهذا فان الصلح اذا تم ، لا يضمن لنا كل ما نرغب فيه ، لان المانيا ستطالب بما اعترف به سابقاً لها ، ولهذا يجب ان يكون اعترافنا بما تطلبه انكلترا ، مشروطاً بتحقيق نصيبنا باكمله . ان دومرغ يؤيدني بقوة ، وبريان ينضم الى وجهة نظرنا بعد قليل من التردد » .

وقال في ١١ منه ، « لا يزال بريان يعرض على مجلس الوزراء ، اخبار المفاوضات الدائرة بيننا وبين انكلترا ، حول سورية وفلسطين . ان بريطانيا ترفض التخلي عن حيفا رفضاً باتاً ، وتطلب ايضاً جعل فلسطين منطقة حياد ، ولكنها تعترف لنا بالاسكندرونه ، وكل ما وراءها من البلاد حتى الموصل ، على ان تكون مدينة الموصل داخلة فيها » .

وقال في ١٣ منه ، « قال لي جورج بيكو الذي يتبع المفاوضات

الدائرة في لندن ، حول سورية ، ان الامبرالية البريطانية لم توافق حتى الآن على الاعتراف بحقوقنا في اسكندرونة وكيليكية ، ولكنه يتوقع ان توافق اخيراً ، ويرى انه من المستحيل ، ان تعدل بريطانيا عن المطالبة بحيفا او على الاقل بجعل فلسطين حيادية .

وقال عن الموصل : انه اذا لم يوافق الروس على تركها لنا ، فان الانكليز سيطلبونها لانفسهم ، وهو يأمل ان يوافق الروس طوعاً او كرهاً على تركها لنا .

مفاوضات القاهرة واتفاق سايكس - بيكو

وتنتهي هنا المرحلة الاولى ، من مراحل تطور السياسية الفرنسية نحو الثورة العربية ، وذلك قبل اعلانها لتستقبل مرحلة جديدة ، تبدأ بوصول جورج بيكو ، آخر قنصل لفرنسا في بيروت قبل الحرب ، الى القاهرة حيث وافاه السر مارك سايكس مندوب بريطانيا ، فشرعا في مفاوضاتهما لوضع صيغة المواد ، التي اتفقت الحكومتان على وضعها ، لإقتسام بلاد الشام والعراق وبديهي انهما لم يجدا كبير عناء في الاتفاق على الصيغ ، لان كل شيء كان مقرراً ، فوقعا على الاتفاق في القاهرة ، يوم ١٦ مايو سنة ٩١٦ ، اي قبل اعلان الثورة بالحجاز ، وقد أضيف الى اسميهما ، وأثبتاه في ختام هذا الفصل .

موقف فرنسا بعد اعلان الثورة

نالت فرنسا بموجب اتفاق سايكس - بيكو ، كل ما طلبته وسعت اليه ، ولذلك لم يبق هنالك ما يستوجب عداءها للثورة ، او وقوفها

منها موقفاً خاصاً ، وقد اعلنت بالاصل لتعمل مع الحلفاء وتؤيد قضيتهم .

وخاطبت انكلترا يوم ٢ سبتمبر سنة ٩١٦ ، فرنسا بواسطة سفيرها في باريس ، طالبة منها إرسال مساعدات عسكرية ومادية للثورة ، على ان يكون ارسالها باسرع وقت . وطلبت وزارة الحربية البريطانية الى فرنسا ان ترسل بطارية مدافع من عيار « ٧٥ » ، يقودها مسلمون ، مع بعض الفنيين وغيرهم من المختصين بالفنون العسكرية ، على ان يكونوا مسلمين ايضاً ، فوافقت وقررت مبدئياً إرسال بعثتين :

سياسية برئاسة السيد قدور بن غبريط ، وعسكرية برئاسة القائمقام القاضي العسكري من مسلمي الجزائر ، وأرسلت ايضاً بطاريتين من عيار « ٨ » ، ومثلها من مدافع الجبل وبلوك مهندسين وورشة مدفعية ومستشفى صحراء سيار و ٣٤٠٠ بندقية وكمية من العتاد ، وبلغ عدد الضباط ووكلاء الضباط الذين ارسلوا ١٢ ضابطاً و ٤٨ صف ضابط ، وزعوا على الجيوش العربية .

ويقول الكولونيل بريمون ، ان هذه القوة لم تشترك في الاعمال العسكرية اشتراكاً فعليا ، إلا بعد دخول شهر فبراير سنة ٩١٧ .

ووضعت وزارة الحربية الفرنسية مذكرة يوم اول سبتمبر سنة ٩١٦ دعت فيها الى مساعدة الثورة العربية وهي :

ان اعلان الثورة العربية في الحجاز ، هو في مصلحة الحلفاء من عدة وجوه ، فأما من الوجهة السياسية ، فان اتساع نطاقها حتى تشمل شعوب فلسطين وسورية وأرمينية الصغرى ، وتحرير هذه الشعوب من النير التركي ، يهيىء لفرنسا أسباب التدخل في شؤون هذه المقاطعات ، كما تشغل من الوجهة العسكرية الجيش التركي . اما من الوجهة الأدبية فانها تقود الجانب الاكبر من رعايانا المسلمين ، الى اعتبار الترك كمعتدين على الاماكن المقدسة الاسلامية ، فيزداد تعلقهم بفرنسا ، لانها تكافح الترك وحلفاءهم وتزيدهم إخلاصاً لها . وبناء على هذه الاعتبارات ، قد

يكون من المفيد ، العمل على تنمية الثورة ، وصبغها بصبغة إسلامية . ومهما يكن من ملاحظات يجب ان يحسب حسابها ، فالحركة العربية ذات فائدة للحلفاء ، وان ظن العالم الاسلامي ، ان لم يكن فبعضه ، ان انكلترا ، هي التي دفعت الشريف الى الثورة ، وربما ظن هذا الظن بفرنسا ايضاً .

هذا من جهة واحدة ، أما من الجهة الأخرى ، فان الشريف حسين لم ينهض للثورة ، إلا بعدما وثق من مساعدة الانكليز له ، وعن استعدادهم لتقديم كل ما يطلبه من الذهب والقوى والسلاح وغيرها . وقد أهابت بريطانيا بفرنسا لمساعدة الشريف في دائرة امكانياتها ، وبالشروط التي يتم الاتفاق بينه وبينها على حدة » .

واختارت فرنسا ، بعد ما اقرت مبدأ مساعدة الثورة ، الكولونيل بريمون نائب رئيس اركان حرب الفيلق ٥٥ الفرنسي ، وعينته مندوباً لها لدى الحسين ، لواسع خبرته بالشؤون العربية ، ولمعرفته اللغة العربية ، وعينت الكولونيل كوس مساعداً له ، وارسلتهما الى جدة .

وعكف الكولونيل بريمون منذ وصوله الى جدة ، على الدس للثورة والكيد لها ، ووضع العصي بين عجلاتها ، فلا يحرم فوزها فرنسا ، من الاستقرار في سورية ويحول بينها وبين تحقيق مطامعها الاستعمارية الواسعة في آسيا الصغرى ، وكان يقاوم كل حركة فيها تشجيع للثورة ، او تأييد لها ، او محاولة لاخراجها من نطاق الحجاز ، وتوجيهها نحو الشمال ، كما كان يتظاهر بكره العرب ، ويتحامل عليهم ويكره الانكليز ايضاً ، ويرى في لورانس عدوه الاكبر .

وسعى الانكليز ، بعد ما تبينوا حقيقته ، ولاحظوا هذه الروح الشريرة تتمثل في كل حركة من حركاته ، لدى حكومة باريس ، فاستدعته الى فرنسا يوم ١٧ دسمبر سنة ٩١٧ ، ويقول هو نفسه في كتابه « الحجاز في الحرب العالمية » ، وقد اصدره في باريس سنة ١٩٢١ ، ان

سفير انكلترا في باريس سعى لدى وزارة الخارجية لاستدعائه ، بحجة انه لا يعطف على القضية العربية ، كما ان سفير فرنسا في لندن اشترك في هذه الحملة . وقال في كتابه ايضاً ، انه تلقى وهو في جدة ، برقية من المارشال جوفر ، القائد العـــام للجيش الفرنسي ، يستنكر فيهـا تصرفاته وهي :

« يستنتج من برقياتكم ، انكم تخافون من الحركة العربية وتتوجسون شرا مكروها من نتائجها ، ومن اخذ العرب للمدينة بحجة انه قد يشجع ما في نفوسهم من طموح لاحتلال سورية ، وفاتكم ان فرنسا وانكلترا ، عقدتا اخيراً اتفاقاً يقضي بانشاء اتحاد عربي ، يشمل دمشق وحمص وحماة وحلب والموصل .

ان ظهوركم بهذا المظهر ، وقد فهمه الشريف والانكليز – قد يبعث على الظن ، بأننا نعمل لنقض العهود التي ارتبطنا بها ، وقد يؤثر تأثيراً سيئاً على عملنا في الشرق ، فيجب الا يفسر عملكم هذا التفسير السيء .

وترى الحكومة الفرنسية ، بعكس رأيكم ، ان سقوط المدينة يؤثر تأثيراً حسناً ، في نفوس القبائل العربية والدروز ، ويكون برهاناً على قوة النهضة العربية ، كما يكون فوزاً لخططنا في الشرق ، ولتقوم على التعجيل في القضاء على الامبراطورية العثمانية .

وصول بعثة فرنسا الدينية

هذا مجمل ما كان من أمر بعثة فرنسـا السياسية ، أما ما كان من أمر بعثتها الدينية ، فهذا خبره .

في اواسط شهر دسمبر سنة ٩١٦ ، وصل السي قـــدور بن غبريط رئيس البعثة الفرنسية ، يحمل كتاباً خاصاً الى الشريف ، من بوانكاره مع مليون وربع مليون فرنك فرنسي ، وهدايا خاصة . فأبرق الشريف

الى الرئيس عقب وصوله قائلاً :

« أبشركم بسرور لا مزيد عليه ، بوصول الوفد الاسلامي — الفرنسي المؤلف من ملكيين وعسكريين ، وقد استقبله الشعب استقبالاً فخماً يليق بمقامه فأهلاً وسهلاً ومرحباً ، واني اشكر من صميم الفؤاد ، الذين أوفدوه الينا ، ونعرب الأمة الفرنسية عن اعجابنا بعملها ، في هذا الوقت الذي تدافع فيه ، هي وحلفاؤها عن المدنية ، وحقوق الأمم ، وما خلا ذلك ، فان التاريخ اكبر شاهد ، على العواطف التي اظهرتها الأمة الفرنسية للاسلام والمسلمين ، ولهذا أتمنى من صميم فؤادي ، دوام هذه العواطف ، واعرب عن أخلص عواطفي لشخصكم الكريم وللأمة الفرنسية » .

ورد عليه بالبرقية الآتية :

« اشكر لعظمتكم تفضلكم بالذات ، باخباري عن وصول الوفد الذي انتدبته الى عظمتكم ، حكومة الجمهورية الفرنسية ، ولم اشك بالمقابلة الودية التي قابلتموه بها ، وليكن لعظمتكم تمام الثقة ، بان الحكومة الفرنسية ، تتمنى بمنتهى الاخلاص النصر المبين لجيوشكم ، واني اشاطرها هذه العواطف ، واتمنى لعظمتكم الفوز » .

وخطب السي قدور بن غبريط رئيس هذا الوفد ، خطبة طويلة بين يدي الحسين فقال :

لقد شرفني رئيس جمهوريتنا ، بالمثول بين يديكم الكريمتين ، مع بقية الوفد لتبليغ مراسيم التهاني الصادرة من صميم الافئدة ، الدالة على خلوص المودة القلبية ، في استرجاع حقوق اسلافكم في منابعها الاصلية .

ان نهضتكم المشكورة ، واعلانكم استقلالكم ، قد أدخلا سروراً كبيراً على دولة فرنسا ، ورأت في ذلك حسم المظالم الفادحة التي

التي ارتكبها ذوو الاغراض ، من حزب فتيان الاتراك ، الذين استحوذ عليهم حزب الشيطان ، وغرهم حتى نبذوا الايمان وراء ظهورهم ، ونظروا للعرب حيثما كانوا ، بعين البغض ، وأحلوا محو اللغة العربية ، ونفى أهلها من كل أرض .

لقد أثرت هذه النهضة في نفوس الملايين من المسلمين ، سكان افريقية فاستبشروا وانشرحوا بنهضتكم القومية ، بعد ما كانوا في خوف وكدر اذ تحققوا تحرير قطر الحجاز بوجودكم من كل تدخل اجنبي » .

وكان ابن غبريط [1] ، اول من نبه الافرنسيين ، الى حقيقة اغراض الثورة ، وقرع ناقوس الخطر ، فأعد عقب عودته ، تقريراً رفعه الى وزارة الخارجية الافرنسية يوم ٢ دسمبر سنة ٩١٦ قال فيه :

« لا ينطوي استقلال العرب ، في عرف الشريف الذي اعلنه ، على تحرير الأماكن المقدسة وحدها ، بل يمتد الى ما وراء ذلك . فهو يطمح الى انشاء دولة عربية قوية ، ذات شأن ، تشمل حدودها الجغرافية بلاد العرب كلها ، وقد قال لي : ان بلاده ، لا تستطيع ان تعيش لوحدها ، لضعف مواردها ، بل لا بد لها من الاعتماد على الاقطار المجاورة لها ، وهو يشير بذلك ضمناً الى سورية ودمشق ، ولا يخفي نجله (عبدالله) ، مطامعه من هذه الناحية ، ويجب ان اقرر ، ان خلافنا مع الشريف ، يجعل استقرارنا في سورية عرضة لمصاعب ، ما لم نبادر الى اغتنام فرصة ضعفه الحاضر ، فنعقد معه اتفاقاً يحدد مطامعه ويعترف بما له من مصالح ، لا تتعارض مع مصالحنا ، وعلى كل ، فلا بد لنا من مساعدته مادياً وادبياً ، لاننا نخشى ان تؤثر فيه انتصارات

---

(١) قدور بن غبريط مسلم من ابناء تلمسان ، تعلم في مدرسة الترجمة التي انشأها الافرنسيون ، لتخريج تراجمة يستخدمونهم في مهامهم ، فاتقن اللغة الافرنسية ، وبرع بها فوثق به الافرنسيون ، واستخدموه في المهم من امورهم ، ورفعوه اعلى الدرجات .

ينالها على الترك ، فتحمله على التخازل ، وقد أبان لي بجـلاء ، وكان ابنه عبدالله اكثر منه صراحة ، بان تقاعسنا عن مساعدتهم ، في حالة الخطر ، قد يعجل في حمل الحكومة العربية ، على التعاقد مع الترك ، وقد يتخذ اعداؤنا المصير السيء الذي صارت اليه الدول الصغرى ، التي حالفت فرنسا وروسيا وانكلترا ، ثم استهدفت لمـا استهدفت اليه من مصير سيء ، بسبب غزو الالمـــان لها واستصفائهم بلادها ، فيشجعوا العرب على اغماد سيوفهم ، والوقوف في جانب الترك ضد الحلفاء .

« وان ما يظهره الموظفون الانكليز ، من عـدم اهتمام بمعالجة هذه الشؤون ، يزعج الشريف وابنه ، ويزيد في مخاوفهما واسفهما ، خصوصاً بعدما ظهرت آثار الخلاف في وجهات النظر بين ولاة الامور المدنيين والعسكريين أنفسهم في القاهرة ، وما يجهر به بعضهم من عدم الوثوق بفرنسا ، وتمثلها بعثة عسكرية أثار وجودها ، ثائر الحسد في نفوسهم ».

اتفاق سايكس — بيكو

ونختم هذا الفصل ، باثبات النصوص الكاملة ، لاتفـاق سايكس — بيكو . وقد تم التوقيع عليه في القاهرة يوم ٩ مايو سنة ٩١٦ ، أي قبل إعلان الثورة العربية بشهر واحد :

المادة الاولى — ان فرنسا وبريطانيا مستعدتان ، ان تعترفا وتحميـا دولة عربية مستقلة ، او حلف دول عربية ، تحت رئاسة رئيس عربي في المنطقتين (أ) ، (داخلية سورية) و (ب) ، (داخلية العراق) المبينتين في الخريطة الملحقة بهـذا ، ويكون لفرنسا في منطقة (أ) ، والانكليز في منطقة (ب) ، حق الالوية في المشروعات والقروض المحلية وتنفرد فرنسا فى منطقة (أ) ، وانكلترا في منطقة (ب) ، بتقـديم المستشارين والموظفين الأجانب ، بنـاء على طلب الحكومة العربيـة او حلف الحكومات العربية .

المادة الثانية — يباح لفرنسا في المنطقة الزرقاء (شقة سورية الساحلية) ولانكلترا في المنطقة الحمراء (شقة العراق الساحلية من حدود بغداد ، حتى خليج فارس) ، انشاء ما يرغبان فيه من شكل الحكم مباشرة أو بالواسطة ، او من المراقبـة بعد الاتفـاق مع الحكومة او حلف الحكومات العربية .

المادة الثالثة — تنشأ ادارة دولية في المنطقة السمراء (فلسطين) ، يعين شكلها بعد استشارة روسيا وبالاتفاق مع بقية الحلفـــاء ، وممثلي شريف مكة .

المادة الرابعة — تنال انكلترا ما يأتي : —

(١) ميناء حيفا وعكا .

(٢) يضمن مقدار محدود ، من مـــاء دجلة والفرات في المنطقة : (أ) المنطقة ، (ب) وتتعهد حكومة جلالة الملك من جهتها ، بأن لا تدخل في مفاوضات ما مع دولة أخرى ، للتنــازل عن قبرص الا بعد موافقة الحكومة الفرنسوية مقدماً .

المادة الخامسة — تكون اسكندرونة ميناء حراً لتجارة الامبراطورية البريطانية ولا تنشــأ معاملات مختلفة في رسوم الميـنـــاء ، ولا ترفض تسهيلات خاصة للملاحة والبضائع البريطانية ، وتباح حرية النقل للبضائع الانكليزية عن طريق الاسكندرونة ، وسكة الحديد في المنطقة الزرقاء سواء كانت واردة الى المنطقة الحمــراء او المنطقتــين (أ) و (ب) او صادرة منها . ولا تنشأ معاملات مختلفة (بالذات أو بالتبــع) ، على سكة من سكك الحديد ، أو في اي ميناء من موانيء المناطق المذكورة تمس البضائع والبواخر البريطانية .

وتكون حيفا ، ميناء حراً لتجارة فرنسا ومستعمراتها والبلاد الواقعة تحت حمايتها ، ولا يقع اختلاف في المعـــاملات ، ولا يرفض اعطاء تسهيلات للملاحة والبضائع الفرنسوية ، ويكون نقل البضائع الفرنسوية ، حراً بطريق حيفا ، وعلى سكة الحديد الانكليزية في المنطقة السمراء ، سواء كانت البضائع صادرة من المنطقة الزرقاء او الحمراء او المنطقة (أ) او المنطقة (ب) او واردة اليها ، ولا يجري أدنى اختلاف في المعاملة بالذات او بالتبـع ، يمس البضائع او البواخر الفرنسوية ، في اي سكة من سكك الحديد ، ولا في ميناء من الموانيء في المناطق المذكورة .

المادة السادسة – لا تمد سكة حديد بغداد في المنطقة (أ) الى ما بعد الموصل جنوباً ، ولا في المنطقة (ب) ، إلى ما بعد سامراء شمالاً ، إلى ان يتم انشاء خط حديدي يصل بغداد بحلب ، ماراً بوادي الفرات ويكون ذلك بمساعدة الحكومتين .

المادة السابعة – يحق لبريطانيا ان تنشيء وتدير ، وتكون المالكة الوحيدة لخط حديدي ، يصل حيفا بالمنطقة (ب) ، ويكون لها ما عدا ذلك ، حق دائم بنقل الجنود في اي وقت كان ، على طول هذا الخط ، ويجب ان يكون معلوماً لدى الحكومتين ، ان هذا الخط ، يجب ان يسهل اتصال حيفا ببغداد ، وانه اذا حالت دون انشاء خط الاتصال في المنطقة السمراء ، مصاعب فنية ونفقات وافرة لادارته ، تجعل انشاءه متعذراً فالحكومة الفرنسوية ، تكون مستعدة ان تسمح بمروره عن طريق بربورة – أم قيس – ملقى – ايدار – غسطا – متاير قبل ان يصل الى المنطقة (ب) .

المادة الثامنة – تبقى تعريفة الجمارك التركية نافذة عشرين سنة ، في جميع جهات المنطقتين الزرقاء والحمراء والمنطقتين (أ) و (ب) فلا تضاف اي علاوة على الرسوم ، ولا تبدل قاعدة التثمين في الرسوم بقاعدة أخذ العين ، الا ان يكون باتفاق بين الحكومتين .

ولا تنشأ جمارك داخلية ، بين أية منطقة وأخرى من المناطق المذكورة اعلاه ، وما يفرض من رسوم الجمرك على البضائع المرسلة إلى الداخل ، يدفع في الميناء ويعطى لادارة المنطقة المرسلة اليها البضائع .

المادة التاسعة – من المتفق عليه ، ان الحكومة الفرنسوية لا تجري مفاوضة ، في اي وقت كان ، للتنازل عن حقوقها ، ولا تعطى مالها من الحقوق في المنطقة الزرقاء لدولة أخرى ، سوى لدولة أو حلف الدول العربية ، بدون ان توافق على ذلك سلفاً ، حكومة جلالة الملك التي تتعهد للحكومة الفرنسوية ، بمثل هذا ، في ما يتعلق بالمنطقة

الحمـــراء .

المادة العاشرة — تتفق الحكومتان الانكليزية والفرنسوية ، بصفتهما حاميتين للدول العربية ، على ان لا تمتلكا ولا تسمحا لدولة ثالثة ان تمتلك اقطاراً في شبه جزيرة العرب ، او تنشىء قاعدة بحرية في الجزائر على ساحل البحر الابيض الشرقي ، على ان هذا لا يمنــع تصحيحاً في حدود عدن ، قد يصبح ضرورياً بسبب عداء الترك الاخير .

المادة الحادية عشرة — تستمر المفاوضات مع العرب باسم الحكومتين بالطرق السابقة نفسها ، لتعين حدود الدولة ، او حلف الدول العربية .

المادة الثانية عشرة — من المتفق عليه عدا ما ذكر ، ان تنظر الحكومتان في الوسائل اللازمة لمراقبة جلب السلاح الى البلاد العربية .

وفي يوم ١٥ مايو سنة ١٩١٦ ، أرسـل السر ادوارد غراي وزير الخارجية البريطانية الى سفير فرنسا في لندن الكتاب الآتي :

« لي الشرف ، أن اجيبكم على كتابكم المؤرخ ٩ الجاري ، والخاص بايجاد حكومة عربية ، اني انتظر ان تعلموني مباشرة ، ما اذا كان في إمكانكم اعطائي ضمانات معينة ، تضمن بقاء حقوق الملاحة والامتيازات البريطانية في المعاهد والمؤسسات الدينية ومعاهد التعليم والمعاهد الصحية في المناطق التي ستصير في ما بعد ، مناطق فرنسوية ، او في المناطق التي تسود فيها المصالح الفرنسوية ، وفقاً للقواعد الواردة في كتابكم وتفضلوا » .

فرد عليه السفير الفرنسوي في اليوم نفسه بالخطاب الآتي :

« لقد اعربتم في كتابكم بتاريخ اليوم ، عن رغبتكم قبل الرد على كتابي الخاص ، بمسألة تأليف حكومة عربية ، والمؤرخ ٩ الجاري في — الحصول على ما يضمن لكم دوام بقاء امتيازات وحقوق الملاحة وكذلك جميع الحقوق والامتيازات البريطانية في المؤسسات الدينية ومعاهد التعليم وفي المعاهد الصحية في المناطق التي تصير في ما بعد ، مناطق فرنسوية ، او المناطق التي تسود فيها المصالح الفرنسوية — كما ان حكومة جلالة

ملك بريطانيا ستعترف بهذا الحق عينه لفرنسا ، في المناطق التي تصير في ما بعد مناطق بريطانية ، فلي الشرف ، ان ابلغ سعادتكم ان حكومة فرنسا مستعدة للمصادقة على جميع الامتيازات البريطانية المختلفة التي يرجع تاريخها الى زمن معين قبل الحرب ، في المناطق التي تنتسب الى فرنسا ، في ما بعد ، او المناطق التي تعتمد على مجهوداتها فيها ، اما فيما يختص بالمؤسسات الدينية ومعاهد التعليم والمعاهد الصحية ، فانها ستظل كما في الماضي ، مستمرة في اداء مهمتها . والفت نظركم في الوقت نفسه الى ان هذا العهد ، لا يشمل الامتيازات الاجنبية ، او ما يتعلق بالامور العدلية والقضاء .

فرد عليه السر ادوارد غراي يوم ١٦ منه بالكتاب الآتي :

جواباً لخطابكم المؤرخ في ١٥ الجاري ، لي الشرف ، ان ابلغ سعادتكم ، ان قبول جميع التكليفات والترتيبات بهيئتها الحالية ، مما يوجب إهمال المنافع البريطانية العظيمة ، غير انه لما كانت حكومة جلالة ملك بريطانيا ، ترجو الفوائد العميمة لمصالح الحلفاء عامة باحداث حالة سياسية داخلية مساعدة في تركيا ، فقد استعدت لقبول المواد المتفق عليها ، لضمان اشتراك العرب في الحرب ، ولكي يقوموا بواجب التحالف فيحتلوا حلب وحماه وحمص ودمشق ، فاذن حصل التفاهم بين انكلترا وفرنسا فيما يتعلق بالشروط الواردة في كتابكم المؤرخ ٩ الجاري.

الثورة وتركيا

لم تفاجىء الثورة ولاة الامــور الترك ، سواء من كان منهم في الاستانة او في دمشق او المدينة ، فقد كانوا جميعاً يعرفون ان معداتها تعد ، وانها قادمة لا سبيل الى اتقائها واجتنابها ، على انهم رغم كل ما اظهروا من تجلد وتماسك ، لم يستطيعوا اخفاء ما احدثته من ذعر في نفوسهم ، واضطراب في صفوفهم ، وقلق في مجتمعهم ، باعتبارهــا اول ثورة كبرى يثورها العرب على الدولة ، في هذا القرن طلباً للحريـــة والاستقلال ، وبالاتفاق والتعاون مع الحلفــاء ، وباعتبارهــا اول حدث كبير ، يحدث في داخل الامبراطورية التركية بعد اعلان الحرب ، وفي الوقت الذي كانوا يعتقدون فيه ، انهم قضوا على الروح العربية وتخلصوا منها .

لقد اعتقدوا بعد تحالفهم مع الالمان ، وبعد الانتصارات الكبرى التي نالها هؤلاء في سنتي الحرب الاولين ، ان الفرصة السانحة للقضاء على الحركة العربية ، التي بدأت تقلقهم ، وتقض مضاجعهم ، منذ إعلان نظام الحكم الدستوري في الدولة من افضل الفرص ، وذلك باعدام حملتهـــا ودعاتها ، والعاملين في ميدانها ، واسرعوا فأعدموا رجال القافلة الاولى

في بيروت (شهر اغسطس ١٩١٦) ، وقد بلغ عدد شهدائها ٢١ ، وتلا ذلك ما تلاه من نفي وابعاد وسجن .

ويشاء القدر ان ينتصروا على الانكليز في ميدان العراق ، وان يهزموا الحملة البريطانية التي كانت زاحفة على سجن بغداد ، وان يحاصروها في كوة العمارة ، وان تستسلم لهم يوم ٢٩ نيسان ١٩١٦ [١] ، فكان هذا الانتصار ، وهو اعظم واضخم ما نالوه في تلك الحرب ، عاملا جديداً من عوامل الغرور التي نفخت اوداجهم ، فاندفعوا في ميدان الاجرام والتنكيل ، فأعدموا شهداء القافلة الثانية في دمشق وبيروت يوم ٦ مايو سنة ٩١٦ ، وأمعنوا في الارهاب ، ولا يقل عدد شهداء القومية العربية الذين اعدموا في تلك المرحلة ، عن ٦٠ شهيداً لقوا نهايتهم على مشانق الترك ، كما انه لا يقل عدد الذين سجنوا عن ٢٠٠ من كبار رجالات البلاد ، وما كان عدد العائلات الشامية التي ارسلت الى الاناضول ليقل عن ٥٠٠ عائلة ، قطعوا كل صلة تصلها بوطنها الأصلي ، وصادروا ممتلكاتها واموالها ، واقطعوا غيرها في ديار المنفى اشارة الى انها باقية حيث اقاموها ، وانه لا عودة لها الى وطنها ، فتنسى لغتها وقوميتها ، يريدون ابقاء بلاد الشام بدون سراة وعلماء ومثقفين ومفكرين فيحكمونها كما يريدون ويشتهون .

نعم ، هذا بعض ما فعلوه ونفذوه ، وقد شهدناه وعشناه ورأيناه رأي العين خلال سنتي ١٩١٥ - ١٩١٦ ، وسجلنا بأسف اخباره ووقائعه ، وظن الترك ، بعد ان فعلوا ما فعلوه ودبروه ان أمر الحركة العربية قد انتهى ، وان بساطها قد طوي وانه لن تقوم لها قائمة ، فاذا بها تبعث

---

(١) بلغ عدد افراد الحملة البريطانية ، التي استسلمت لهم يومئذ ١٣ الف جندياً وضابطاً بقيادة الجنرال تاوزند .

في شكل ثورة عامة كبرى ، ويشترك فيها ابناء الاقطار العربية ، بعد ان حالفت الانكليز وعاهدتهم على الاستقلال التأييد الكامل .

اول بلاغ تركي يعترف باعلان الثورة

ونثبت هنا أول بلاغ رسمي ، نشره الترك في دمشق يوم ١٥ يونيو ٩١٦ ، اي بعد خمسة ايام فقط من اعلانها ، يحمل اعترافاً ضمنياً مؤولاً باعلانها وهو :

« إعتدت بعض العصابات المؤلفة من ذوي الطمع والفساد ، ومن بعض جماعة العربان ، وقد استميلوا بالمال على بعض المخافر المجاورة للمدينة المنورة بالسلاح ، وخربوا التلغرافات ، وسكة الحديد ، فبادرت القوة العسكرية الى التنكيل بتلك العصابات الواقفة في الطريق ، وتمكنت من دخول المدينة ، وشرعت في اصلاح السكة ، كما انشأت داراً للمخابرات اللاسلكية في المدينة ، تجري المخابرات بواسطتها . وفي الليلة البارحة ، زحفت قواتنا العسكرية على العصاة المجتمعين والمتخفين بموقع الحسا ، بجوار المدينة ، واستولت على المواقع التي كان العصاة مختفون فيها ، وطردتهم منها بعد تبديد شملهم .

« وقد تبلغنا برقية ، من محافظ المدينة المنورة ، تشعر بان أهل المدينة سروا سروراً عظيماً بما وقع ، وهذا نصها :

« لقد سر أهل البلدة الطيبة ، قلباً وقالباً بمحو القبائل الباغية والتنكيل بها في المعركة التي دارت أمس ، وأعادت الراحة الى ربوعها كما ان هذه الحادثة أثرت تأثيراً عظيماً في نفوس قبائل العربان المجاورة . نبتهل الى الله بدوام توفيقات دولتكم » .

سلسلة تدابير سريعة

واتخذ الترك على الفور ، سلسلة تدابير عاجلة لقمع الثورة ، بعضها

ايجابي وبعضها سلبي ، بعضها مادي وبعضها روحي ادبي ، أملاً بان تساعد على التهدئة والتسكين .

وهذا بعض ما عرفناه بالذات وشخصياً من أمرها :

١ – ألف جمال باشا ، فور اعلان الثورة ، وفداً من وجهاء سورية وعلمائها ، واوفده الى المدينة ، للاتصال بشيوخ القبائل والرؤساء واقناعهم بالانضمام الى الدولة ، في مقاومة الثورة وقمعها .

وهذه اسماء هيئة الوفد : محمد فوزي باشـا العظم ، وعبد الرحمن باشا اليوسف ، والشيخ اسعد الشقيري .

وسافر الوفد ، وأمضى اياماً في المدينة ، وعاد مخفقاً .

٢ – استصدرت الحكومة مرسومـاً من السلطات بتنحية الشريف حسين بن علي من الشرافة ، وعينت الشريف علي حيدر مكانه . وينتمي هذا الى ذوي زيد ، وقد نقلها محمد علي باشا والي مصر سنة ١٨١٤ ، واثناء حركة الاصلاح الديني ، في نجد والحجاز منهم الى ذوي عون . واستمرت بينهم حتى الثورة .

واقام الأتراك احتفالات كبيرة للشريف علي حيدر ، سواء حين وصوله الى دمشق من الاستانة في شهر سبتمبر سنة ١٩١٦ ، وسواء حين سفره الى المدينة ، وسواء حين وصوله الى هذه ، واحاطوه بطائفة كبيرة من الاتباع والحشم والانصار والاعوان ، وانشأوا له صحيفة باسم « المدينة المنورة » لنشر دعايته ، واغدقت عليه الأموال ، ولكن بدون فائدة ، فقد أضطروا لاسترداده بعد اشهر ، لانه كلفهم الكثير من الأموال بدون ان ينالوا فائدة من وجوده .

٣ – إعداد طائفة من الفتـاوى الدينية ، بتكفير الشريف حسين وابنائه ، واعتبارهم مارقين من الاسلام ، ويجب على كل مسـلم ان ينهض لقتالهم ، بحجة انهم خرجوا على الخليفة ، وتعاونوا مع اعـداد الاسلام ، وارسلوهـا مع بعض انصارهم ، فطاف مـدن سورية ولبنان

وفلسطين ، وحمل مفاتي هذه المدن وعلمائها وخطبائها فوقعها اكثرهم خشية ورهبة ، واتفقت اقلية صغيرة عن التوقيع . ونال الذين وقعوها بعض الأجر المادي والادبي .

٤ – شنوا في الصحف اليومية ، التي كانت تصدر في دمشق وبيروت وهي : الشرق والمقتبس والبلاغ واابابيل والرأي العام ، حملة دعاية ضد الثورة ، لا أول لها ولا آخر ، استمرت اشهراً ، ولكن بدون فائدة ايضاً .

٥ – اطلقوا اسم « القوة السفرية لبلاد العرب الغربية » ، على الحملة التي ارسلوها الى المدينة ، لمنازلة الثورة ، وأمدوها بخيرة قواتهم ، واتجهت نية جمال باشا الى تعيين مصطفى كمال باشا (الغازي او أتاتورك بعد ذلك) ، وكان لا يزال برتبة لواء ، لقيادة هذه الحملة لما كان موصوفاً به من البطش والحزم . وجاء الى دمشق فعلا في اواخر ١٩١٦ ، وقابل جمال باشا ، وحضر الشيخ أسعد الشقيري هذه المقابلة ، وقد حدثني عما دار فيها فقال :

لم أر في حياتي ، رجلا تجرأ على جمال باشا ، وخاطبه بلهجة قاسية كما فعل مصطفى كمال .

لقد بدأ حديثه ، فسأل جمالا عن الغاية من استقدامه الى دمشق ، فقال : لقد جئنا بك الى هنا ، لكي تعين قائداً للحملة العسكرية المرسلة الى الحجاز .

– والى اين تتبع قيادة هذه الحملة ادارياً ؟

– قيادة الجيش الرابع .

– ألا تعلم انني ارفض ان اشتغل معك ، واكون تحت قيادتك ؟

– ذلك شأنك . وعلى كل فسيصل أنور باشا الى هنا بعد يومين ، فاجتمع اليه واتفق معه على ما تشاء .

قال الشيخ الشقيري : وجاء انور وقابله مصطفى كمال ، وتم الاتفاق

بينهما على ان يعين قائداً للجيش الثالث في ارحتروم ، وانطلقا معاً اليها .

وتقرر على الاثر ، إبقاء فخري باشـــا قائداً عاماً للحملة ، ومنحه سلطات واسعة .

٦ – تلك كانت النتائج السريعة للثورة . أما نتائجهـا البطيئـة ، وقد كانت أوسع وأعظم فهي :

أ – استدعت حكومة الاستانة جمال باشا من سورية نهائياً في أوائل سنة ١٩١٧ ، فغادرها سراً ، ومن دون ان يطلع احـداً ، على سفره ومن دون ان يودع احداً ، وذهب الى الاستانة ، فأقـــام منبوذاً في وزارة البحرية حتى انهارت الدولة سنة ١٩١٨ ، فلجأ الى اوربا فقتلـــه الأرمن .

ب – جردت الحكومة قـائد الجيش الرابع ، من جميع السلطات المدنية والاستثنائية ، التي كان يتمتع بها جمال ، وأبقته قائـداً عادياً كالآخرين .

ج – جردت القواد الترك ، من منصب القيادة العليا للجيوش التركية في بلاد الشام ، وعينت لها قائداً المانياً ، هو الجنرال فون فالكنهاين ، القائد العام للجيش الالماني في اوائل الحرب ، فجـاء هذا الى القدس ، وتسلم منصب القيادة العليـا ، ونازل الحملة الانكليزية التي كانت قادمة من الجنوب من صحراء سيناء ومصر ، وأدار معها معركة القدس في شهر دسمبر سنة ٩١٧ ، ولما انتهت ، غادر سورية نهائياً ، بعد ما اقترح على الترك نقل خط دفاعهم الى جبال طوروس ، لان العرب اعداءهم ، ولان القتال في بلاد معادية لا يجوز .

وابى الترك الاخذ بهذه النظرية ، واحلوا المارشال ليمان فون ساندرس محله ، فجاء الى الناصرة ، وأدار حركة الجيش التركي حتى شهر سبتمبر سنة ٩١٨ ، فهزمه العرب والانكليز (وكان لي شرف العمـــل تحت قيادته كما سيأتي) .

ص — ألغوا المحاكم العسكرية ، وكفوا عن احالة القضايا اليها .

د — كفوا عن النفي والاعتقال ، وشرعوا منذ اوائل سنة ١٩١٧، باعادة العائلات والاسر التي نفوها للاناضول الى بلادها الأصلية .

ه — أرسلوا ولاة وموظفين وقادة عسكريين ، الى دمشق وحلب وبيروت يحملون اغصان الزيتون ويدعون الى التقارب والتفاهم ، ولكن بعد فوات الوقت ، او بعد خراب البصرة ، كما يقول المثـــل العربي القديم ، فقد تحولت البـلاد بين سنة ١٩١٦ — ١٩١٧ ، فصارت أشبه بـأتون محرق ، وصار العربي — كل عربي — ينظر الى التركي وحليفه الألماني نظره الى عدو ، يجب بتره واجتثاثه وطرده من بلاده ودعم استقلاله .

الخلاف بين الحسين والانكليز

كانت أيام شهر العسل بين الحسين والانكليز ، أقصر من عمر ورود الربيع ، فانه لم يكد يعلن الثورة وينزل الى ميدانها ، حتى بدأ الخلاف يظهر بينه وبينهم على مختلف القضايا والمطالب ، فلا يكاد يتفق معهم على أمر من الأمور ، ولا قضية من القضايا ، ومنشأ ذلك في رأينا هو اختلاف العقليتين ، وعدم وجود قواعد معينة ومحددة للعمل يرجع اليها ، ويسترشد بها ، عند وقوع تباين او خلاف .

لقد كان الحسين ذا عقلية بدوية محافظة لا تعرف المجاملة ، ولا تؤمن بانصاف الحلول ، ولا تكذب ولا تداري ، تتمسك بما تعتقد انه الحق ، مع صلابة في الرأي ، وشدة وحزم ، وتحفظ نحو الاجانب ممزوج بقلة الثقة بهم .

هذه هي عقلية الحسين ، وهذه شخصيته ، وشتان ثم شتان بينه وبين الذي كتب عليه ان يعاملهم ويتصل بهم من الموظفين الانكليز ، الذين شبوا وشابوا في مكاتب السياسة ودهاليزها ، وعرفوا مداخلها ومخارجها ، وألفوا البيع والشراء في أسواقها ، لا يتقيدون بعهد ، ولا يتمسكون بوعد ، ولا يثقون بميثاق ، يعبدون المصلحة المادية وحدها ، ويكفرون بكل ما سواها ، كفرهم بالاخلاق والقيم الروحية

والمثل العليا ، وبديهي ان هنالك صعوبة بل استحالة في التوفيق بين هاتين العقليتين المتباعدتين المختلفتين المتضاربتين ، ولا ريب ان النهايـة التي انتهى اليها الحسين معهم تؤيد هذا الاستنتاج وتشهد بصحته ، فقد ملوه وملوا معاشرته والتعاون معه ، وما زالوا به حتى اخرجوه من دياره ، وقضوا على ما بناه ، وارسلوه منفيـاً الى جزيرة قبرص ، ولم يفرجوا عنه الا بعد ان وصل الى حافة القبر ، فقد كانوا الاقوى وكان الاضعف والويل للضعيف في كل آن وزمان .

كيف بدأ الخلاف

لقد حدثت خلال المرحلة الاولى ، من مرحلة التعاون بينه وبينهم ، وقد امتدت من اعلان الثورة ، في شهر يونيو حتى شهر دسمبر سنة ١٩١٦ سلسلة خلافات نورد اخبارها تباعاً بحسب حدوثها وهي :

١ — منشور الثـورة — عجل الحسين بإرســال منشور الثورة الذي اصدره عقب اعلانها ، الى مندوبه في القاهرة ، لنشره في صحفهـا ، واذاعته بشتى الوسائل ، وكان يعلق اهمية خاصة على نشره ، اذ ضمنه كل ما اعتقد انه يبرر عمله أمام العالم الاسلامي ، يؤيد ذلك ما كتبه اليه يوم ١١ يوليو سنة ٩١٦ وهو :

« المنشور الذي صدر اليكم ، وقد راعينا فيه أساسات ما يقتضى رعايته ، ويقتضيه الوداد وحسن الطوية ، فخذوا رأي نائب الملك في طريقة نشره في جميع انحاء الجزيرة ، فالزيادة والنقص غير ممكن ، وانما يمكن جعلها بصفة ملحق » .

---

(١) كان السيد شريف الفاروقي ، سليل عائلة الفاروقي الشهيرة في الموصل اول معتمد له في القاهرة ، عينه سنة ١٩١٦ .

وفوجىء يوم ١٦ منه بالبرقيـة الآتية : « لقد اعترض نائب الملك على ما جاء فيه خاصاً بضرب الترك الكعبة المقدسة واحراق الستـار ، لاعتقاده ان هذه الجملة تغيظ القسم الاعظم من المسلمين في الهند ، ولأن للاتحاديين هناك تأثيرا عظيماً ، ويقول بأن هؤلاء الهنود يقولون : « انه لا سبب اضرب الكعبة سوى قيام العرب » .

ورد عليه ببرقية يوم ١٩ منه ، فقال : « وأما المنشور ، فهو عديم الأهمية من الوجهة السياسية ، ولم أنشره إلا مجاراة للرغبات من حجاج الهنود ، والاعتراض على ضرب الكعبة المعظمة ، لا اعرف له وجها كأنهم يقولون ان الكعبة للعرب دون الترك ، وان الترك لاغاظتهم العرب بسبب قيامهم ضربوا كعبتهم فنسبة الترك الى هذا مما لا يخفى ، والحال عكس ذلك ، فالكعبة المعظمة ليست خاصة بالعرب او العجم ، وإنما هي لعامة المسلمين ، فتعظيم كل مسلم لها ، تعظيم للاسلامية ، وهذا من البديهيات فكل من لا يدرك هذه الصراحة من الهنود وغيرهم حتى لو طوينا ضرب البيت من المنشور ، فكأنهم على كل حال يستاؤون من قيامنا ولا يهمهم في تلك الفقرة الا توزيع المنشور في جزيرة العرب برمتها . »

ثم عاد فكتب اليه في يوم ٣ أغسطس يقول : « لا ندري ما صنع الله بمنشورنا وكيفية طبعه » ، فرد عليه بأن المنشور وصل ولم ينشر حتى الآن ، وسأتدخل في أمره بناء على أمر مولاي ، وسـأذهب غداً الى الاسكندرية لمقابلة نائب الملك وانشره قريباً . »

ثم كتب يوم ٧ منه يقول : « لم اتمكن حتى الآن من البت بأمر المنشور ، ولكني أرى ان يجعـل مولاي الفظائع التي ارتكبهـا الاتراك في المدينة ذيلا المنشور . »

وفي يوم ٨ منه أرسل اليه يقول : « نجحت المساعي في أمر المنشور وأرجو أن اتمكن من نشره بعد غد » .

وفي يوم ١٤ منه أبرق اليه قائـلا : « أطلعت السيـد رشيـد رضا

على المنشور وعندما قرأه قال انه خير ما يكتب وانما فيه نواقص لغوية ربما كانت من الطبع ويمكن إكمالها وطبع المنشور بلغة مؤثرة ، وكما عرضت سابقاً يلزمه التوسع قليلا ، في بحث المظالم التي ارتكبها الاتراك ضد الارمن واحتقارهم للخلفاء الراشدين ، ومنع نشر العلم في البلاد العربية وما يتأتى من الاخطار عن ضرب الحصار على البلاد الحجازية ، وأرى الضرورة القصوى في أمر هذا التوسع ، فإمـــا ان يأمرنا مولاي بنشر المنشور ، مع التوسع فيه بما تقدم ذكره ، واما ان نرسله ثانية إلى مولاي مع الملاحظات في البريد . »

فأبرق اليه يقول : « قلت في تلغرافك يوم ١٢ منه (لم نعثر عليه) لا بد من الوعد بثاني يتضمن الوجه واعلمني (كذا) والحال ان بحثي في شهداء الشام ، وقولي فيه دفعتين ، تاركين الأمر للعـــالم الانساني عموماً وللاسلامي خصوصاً كافياً لهذه الوجهـة بالنسبة لاختصار المنشور ، ثم قلتم في برقيـــة ١٢ منه عن الارمن ، وقد قلت في منشورنا بلا تفرقة ذميهم ومسلمهم وهذا ايضاً كاف لمختصرية المنشور من جهة ، ومن الجهة الاخرى التعريض بما فعل الروس في يهود بولندا ، وامثال ذلك من الوقائع المشهورة هذه ملاحظاتي .

« واما بحث الجند ، وان ابناء المنتسبين الينا سيكونون كذا وكذا فلا اسأل لهم إلا السعادة » .

وفي ٢١ منه كتب اليه مندوبه يقول : « رأيت بالنسبة لتأخر صدور المنشور ، ولاهتمام الرأي العام هنا بمعرفـة الاسباب الداعية الى قيام سيدنا ونواياه للاسلام والعرب ، ان أنشر ثلاث مقالات بدون امضاء منسوبة الى مصدر « عربي سيـاسي » تحتوي على ظـلم الاتراك للعرب ، وعبثهم بالشريعة الاسلامية وبعض الاسباب الجوهرية التي حملت سيدنا على القيـام الى غير ذلك من الاسباب الحقيقيـة التي تثير المســلمين عموماً والعرب خصوصاً فسمحت السلطة بنشر المقـــالين ، وكان لهما اعظم وقع وسنهتم

بالكتابة عنها في الصحف الاسلامية والمسيحية .

« أما المقالة الثالثة ، وهي التي ذكرت فيها مسألة ضرب الكعبة ، فقد منعت الحكومة الانكليزية نشرها ، وهذا دليل على معارضتهم التامة في هذه المسألة . وعندما رأيت إمتناعهم ابتعدت عن الكلام فيها مخافة سوء الفهم في العلاقات السياسية الحسنة ، فما هو رأي مولاي ؟ » .

وفي يوم ٢٣ منه ابرق اليه : « ابلغتني الحكومة الانكليزية رسمياً اليوم انه يمكن نشر المنشور بدون حذف أدنى شيء منه ، وساعطيه اليوم لقلم المطبوعات وتنشره الصحف غداً . »

ورغم هذا الوعد الصريح ، فقد نشر المنشور في صحف القاهرة يوم ٣٠ اغسطس سنة ٩١٦ مشوهاً مبتوراً ، وبعد حذف نحو نصفه ، وتحوير وتعديل معظم جمله . وبالطبع فقد تألم الحسين لهذا التصرف الشاذ .

٢ – مشكلة الدفاع عن رابغ

وتأتي مشكلة الدفاع عن رابغ في المرتبة الثانية بعد المنشور . وقد نشأت في الأصل عن النشاط العسكري الذي اظهره فخري باشا في المدينة ، خلال الاسابيع الأولى لأعلان الثورة . فقد وصل في غزوته الأخيرة الى ابواب ينبع كما تقدم ، وخاف الحسين ان يواصل غاراته فيحتل ينبع او رابغ ، وما كانت القوى العربية حتى ذلك اليوم كافية لصده او دفع خطره ، يضاف الى ذلك ان النجدات كانت ترده بكثرة من دمشق ، فأبرق الحسين يوم ١٤ يوليو الى معتمده في القاهرة لافتاً نظره الى هذه الحقيقة ومطالباً بارسال قوة عسكرية للحلفاء تنزل في رابغ للدفاع عنها وحماية الطريق المؤدية الى مكة . وهذه برقيته :

« من الضروري ان نعد لسقوط الطائف ، وإرسال قوة مزودة بمدفعية ورشاشات مع القائد السيد علي لتقوية معسكرنا الذي هو بالمدينة ، والذي

هو بمثابة حياتنا ، والمحسوس ان القائد المومى اليه غير موافق على هذه الحركة ، ويتخذ اعذاراً كضرر رابغ ، ولا يخفى ما في هذا من النتائج الوخيمة ، فعليك ان تبلغ الحالة الى نائب الملك ، وهو ولا شك يقدرها حق قدرها — واني لم أبعث بهذه المدفعية إلا الى موقع فيه أولادي فلا يمسهم ومن معهم سوء . وكانت البطارية قد توجهت من رابغ ولا مانع لتوجهها سيما وانه بعد عودتها بيومين ، وصل احد مأمورينا المنتمين بجملة من أعيان عشيرة حرب مندوباً من الأولاد لأستصحابها معه . فلو وصلت الى المعسكر في ذلك الحين لكانت الحكومة المتغلبة (تركيا) في كافة انحاء سورية اليوم في مزيد الخطر والاضطراب ، ولكفينا بريطانيا تكالفها على الترعة (قناة السويس) وعليه فلا أرى الا اعادة طلبي - بعد عزمي ألا ابحث بعد المرة الأولى — ضرورة تجاوزهم على الخط الحديدي ، كما اشرنا لجناب المستر ستورس عند مواجهته باولادنا وهذا ضروري ، وافادتكم عنه منتظرة ، ولتخفيف المحذور ، والضرورة الزمتني بالاخذ في سوق المدافع المكتسبة من الترك الى معسكر المدينة لتعزيز القوة المعنوية فإنه رغماً عما مع عدوهم من المدافع والرشاشات اتلفت من العدو في الوقعة التي زعموا انهم طردوه ما يتجاوز الـ ٢٥٠٠ قتيل ، كما تشهد بذلك الاسلحة التي غنمها جنودنا » .

وأبرق اليه في ٣٠ منه يقول : « حالة معسكرنا بالمدينة شرعت بالتحسن عند تسلحهم بالبنادق المرسلة التي اغاثنا بارسالها فخامة النائب بعد الوهن الذي بلغ مني حتى القوة المعنوية لفقدهم المؤونة الحربية ، لاسيما خراطيش (قذائف) بنادق غرا اليونانية ومارتين (فرنسوية قديمة) والمحسوس ان فيصل يتجاوز قسم من معسكره على اطراف المدينة .

« المتغلبة » (الترك) شرعوا في اعادة ما فقدوه في المدينة من الجند الى الشام او يأتون بعوضه ولعل من عدم الرغبة من افراد الجند ، وعلى رواية انهم يأتون بأقل من مقدار ما يعيدونه للشام . ان رواية تجاوزهم

على ينبع من طريق (العلا) هي التي اضطرتني الى طلب مظاهرة بحرية في ينبع التي كثرت الاشاعات عن اتخاذها واسطة للسوقيات وما يقتضي لحركات المدينة

« ضروري تعيين احدى البواخر الحربية المستعـدة ، مصحوبة بثلاث طائرات ليعلم الترك الذين استحوذ الرعب الشديد عليهم من تأثيراتها في السابق ، وهذا هو السبب الوحيد الذي اوجب طلب مظاهرة ينبع التي بواسطتها تنقطع آمالهم من التجاوز بتأثيراتهـا في قواتهم التي بالمدينة ولا يتيسر المرور من طريق الساحل لمن يريد ينبع من الشمال لانها تكون في داخل حركتها ، ولا بد اننا نصحب قائدها افادة لنائب ينبع بانها مصونة امام كل احتمال وليخبر ابني فيصل بقدومها ومحلهـا فاذا وصلت ورأت عدم اثر للعدو تسافر الى الوجه ، لأنني في هذه الساعة تلقيت من سليمان رفاده (شيخ قبائل الوجه) ، ما يفيد بوصولها وضروري ان يصحبها بجانب من الذخيرة ، وما اشبه ذلك سليمان المذكور . »

٭

وقال في برقية أرسلها الى نائب الملك يوم ٢٢ اغسطس : « ألتمس سرعة اصدار الأمر الى من يلزم لبعث اربع مدافع جبليـة ، واثنين ايضاً من النوع الذي يتجـزأ و ٤ رشاشـات و ٤ طائرات حربية من العشرة التي قيل انها تحت الطلب ، ولو على وجه التعويض من احـد الجيوش الى ينبع في الأسبوع الآتي لمقاومة شدة حملات العدو على جيوشنا المحرومة من جميع المعدات ، وتفوق العدو عليها حتى بقربه من مراكزها ، فهم يريدون قدوم الأمير حيدر الى مكة قبل الحج ، ومقدار ٧٥٠٠ بندقية منها خمسة آلاف الى ينبع و ٢٥٠٠ الى جدة ، وبالمقدار الزائـد من المؤونة . وهذا باسم سلامة المصلحة ، فاني قد اضطررت الى بعث طابورين تقريباً من متطوعة البـلاد مع عدم تدريبهم ومدفعين مما اكتسبناه من

الترك وان كانت قديمة لما فيها من الضرورة . »

وقال في برقية طيرها في ١٢ منه الى مندوبه بمصر :

١ — اشرت لفخامـــة نائب الملك في برقيتي منذ شهر بان الاتراك سيصرفون كل جهدهم لبعثة المحمل مع الشريف[1] الذي عينـــوه وطلبت ارسال القوى بصورة اوضحتها في برقيتي ولا ادري سبب اهمالها .

٢ — بوصولها تقابله حالاً ، وتفيده بأنه توالى علينا بصورة وثيقـة ان الاتراك رأوا التوجه من المدينة في ١٣ ذي القعدة المصادف امس باثني عشر طابوراً وبرفقتهم المحمل ، ورأينا ان نفتح لهم الطريق حتى يتوسطوا فيه ، فيأتي فيصل من خلفهم ويكون امامهم « زيد » المعسكر من اسبوع بين القظيمة ورابغ بالمتطوعة ، ولكنه في هذه الحالة يحتـــاج جداً لتقويته بثلاثة طوابير تساق اليه من اقرب المواقع ، ويمكن إنزالهـا في رابغ او القظيمة .. ولا اقول هذا آخر رجائي .

وبعد خمسة ايام طير اليه البرقية الآتية :

لا اظن أن قيمتنا لدى العظمة البريطانية لا تساوي سوق ثلاث إلايات ، فان زيادة تواتر حركات العدو بالقوة السالفة الذكر وضيق الوقت ، ومـا هو في معنى ذلك ، استلزم جلب علي بقوتـه الشرقية الى رابغ وتأخير وظيفته الأصلية .

الضرورة الجأت إلى ارتكاب هذا التبديل العظيم في خط الحركة مع جهل حسن النتيجة ، عـالمنـا العسكري الذي لم تدخلوه حتى الساعة في مبدأ التكوين يمنع العظمة البريطانية عن نسبتنا للالحاح ، ويلزمها بصيانتنا عما في هذا من المشاكل والمخاطر وبكل عملية ، أقله صدور الأمر بباخرة حربية مصحوبة ببطاريتين او ثلاث تكون راسية امام رابغ » .

---

(١) يريد الشريف علي حيدر باشا .

ورد عليه معتمده في الغد بهذه البرقية : افهمني نائب الملك بأنه ليس في استطاعة الحكومة البريطانية إرسال جنود الى الحجاز لأسباب مختلفة اهمها : الحذر من اتهام العالم الاسلامي لهم واعتقاداً منهم بأنه ليس للاتراك قوة يخشى منها . المهمات الحربية كالرشاشات والبنادق سترسل مع باخرة خاصة بها ، ولا يريدون ارسالها مع باخرة فيها اجانب .

وأرسل الملك يوم ٢٣ منه ، هذه البرقية مباشرة الى نائب الملك بمصر ، وهي :

تلقيت الآن من مندوبي برقية هذا نصها :

افهمني فخامة نائب الملك ، انه ليس في استطاعة الحكومة البريطانية إرسال جند الى الحجاز لأسباب مختلفة أهمها الحذر من اتهام العالم الاسلامي لهم الى آخره ، وفي بيان لفخامتكم في احدى كتبي الاخيرة عما ارسل من النقود بانها موجودة لم تلمسها الأيدي واصراري على الاكتفاء بمدفعين من البطارية الجبلية وطلبي اعادة الباقي الى مستودعها كان اسلامتي من هذه الوجوه، الثانية لمخالفتها لمقررات الاتفاق المعلوم لدى انضمامه رسمياً اعتباركم لنا في جملة الحلفاء . وهذا اصل البحث وفي الختام ...

وطال الأخذ والرد ، ولكن بدون جدوى ، واخيراً طير الملك يوم ٢٣ دسمبر سنة ١٩١٦ الى نائب الملك البرقية الآتية :

« ان مقاومة جندنا البدوي للمتغلبة الاتراك وحليفتهم المانيا وصدهم في نحورهم وثباتنا اربعة اشهر لا يخجلني عن طلب من العظمة البريطانية إمدادها العسكري كشرط عهدنا ، ولقد حصل لدينا مزيد من الأسف لاسترجاعها الطيارات ايضاً ، بعد ان وصلت الى رابغ في الوقت الذي كانت فيه طائرات العدو تهدد ميمنة جندنا التي بقيادة فيصل وتؤثر عليه، فزيادة تفوق العدو بطائراته يلزمني في هذه المرة باسم العهد والتحالف الواقعين بيننا ، عدا ما صرحت به حكومة جلالة الملك ، في بلاغها الرسمي المذاع في ٢٨ رمضان ، المبيح لها كل محذور بقولها فيه عن

العرب انهم انخرطوا في عداد الحلفاء ضد العدو المشترك . ثم في قولها انها ستبذل كل الجهد في ابقـــاء الاماكن المقدسة مصونة من كل طارىء خارجي – فكل هذا يخولني ان اطلب بسرعة اعادة الطائرات الى رابغ بمهندسيها ومديريها بدون اضاعة وقت ، وان حياة ابنائنا علي وفيصل وزيد كافية لحراستها . اما القوة الجزائرية التي يقال انها ستساق ، فان صح أمرها فمن الضروري اعتباري انهـــا بريطانية محضة ، فلا بد من ايجاد قوات كافية نظامية لمقابلة العدو واحباط اعماله المرتكن فيهـــا على الفن والمخترعات الحربيـة التي لا يحسنها جندنا في الوقت نفسه ، فاذا حصـل تأخير في انفاذ الطلبات الواقعة الضرورية في الوقت العــاجل ، فما يحدث عقبه من التهلكة العظمى التي لا تتصورها مملكتنا المرتكنة ، بعد ان علمنا شرف وشهامة محالفتها مع حكومة جلالة الملك لا تخفى على فخامتكم.

وعاد فأبرق اليه في الغد ، مقترحاً ارسال سفينة خاصة تنقل ولده عبدالله الى مصر لمقابلة نائب الملك ، على الا تزيد مدة غيابه عن عشرة ايام للتفاهم .

ورد عليه معتمده يوم ٢٨ منه ، ببرقية قال فيها : « ابلغني اليوم نائب الملك ، جواباً على برقية مولاي ، بأن بريطانيا لا تود ان يخالج مولاي شك في انها لا تود مساعدته في كل ما يحتاج اليه بشرط ان يكون في الامكان ، وانهم يعتبرون مصالحهم متحدة مع مصالحنا . وذكرني بانهم فعلوا كل ما طلبناه ، سوى مسألة الثلاثة افواج ، وانه يهمهم جداً اقناع مولاي بحسن نيتهم ووفائهم ، وانهم مستعدون لمساعدتنا بكل ما يلزمنا على قدر امكانهم .

وعـــاد معتمده ، فأبرق اليه يـوم اول محـــرم سنة ١٣٣٥ ، (اكتوبر) قائلا :

« قابلت اليوم نائب الملك مقابلة طويلة ، فتباحثنا في عدة أمـــور أهمها : تصريحه نهائياً بانه لا يوجد أدنى سوء تفاهم ، ولا يدري ما هي

الأسباب التي حملت مـولاي على اعتقاده وقال : انه يمكن ان تكون مسألة عدم إرسال قوة الى رابغ ، واسترجاع الطيارات ، وكرر القول بان منتهى رغبته تحقيق أمـــاني مولاي ورغباته بشرط ان يكون في استطاعته المحافظة على توازن القوى التي تدافع عن بلادها والتي تساق الى الاماكن الاخرى ، وبين الرأي العام الاسلامي . ومع هذا فانه طلب طلبات مولاي من لنـدن ويأمل ان يصـله جواب مرضي في خـــلال هذين اليومين .

وأبرق الحسين يوم ٢ منه ، الى نائب الملك مباشرة ايضاً فقال :

إيفاد ولدنا عبدالله اساساً منوط الرأي فخامتكم والقصد به قيامنا بوفاء ما يجب أمام بريطانيا . فلاحظنا في ابتداء المخابرة مع فخامة الوزير عن حسيات المسلمين في حركتنا وإمدادنا بالقوة العسكرية ، حتى لما يحدث في داخلية البلاد حتى تكويننـا القوة العسكرية كما هو معلوم لفخامته ، وصراحة شهـامتكم في تحريركم ٦ جمادي الاولى سنة ١٣٣٤ الموافق ٩ مارس سنة ١٩١٦ ، بأن حكومة جلالة الملك صادقت على جميع مطالبنـا وعطف حسيات فخامتكم في خاتمـــة برقيتكم بادىء الذكر بقولكم : وبالختام أقدم عظيم احتراماتي ، وكامل ضروب المودة والاخلاص ، التي لا يزلزلها كر العصور ومرور الايام . أظن يا فخامة الشهم ، ان هذا يجعل لي الحق في استفهام فخامتكم عن أثر التعبب الذي يزداد يومـــاً فيوماً . ويهمنـا جداً الوقوف على حقيقـة الامر ، لئلا يقع ما يحدث زيادة البحث في الأمر عن اسباب لا حقيقة لها .

وعاد الحسين الى طلب الطائرات ، فأبرق يوم ٧ جمادي الثانيـة الى معتمده بمصر : « تزور فخامة النائب ، وتفيـده ان الغرض من ارسـال الطائرات هو لدفع ضرورة شديدة ، فاذا لم يمكن باي صورة مرافقتهـا لمعسكراتنا الجنوبية ، فالرجاء ان تفيدونا بسرعة ، كيما نتخذ اسباباً أخرى تخفف احتياجنا لوجودها ، ونتدارك الامر مهـــما أمكن حتى لا

نترك الحاجة بدون تدبير من الاسرافات والتكاليف في مواد لا توازي جزءاً من مصرف وكلفة انشائها المبحوث عنه » .

وطيرت الخارجية في اليوم نفسه الى المعتمد البرقية الآتية ، لإبلاغها الى نائب الملك بنصها وهي : « توالت علينا برقيـــات الامير فيصل ، وقد جاءنا اليوم من سموه ثلاث برقيات مفصلة وكل حرف من حروفها يدل على شدة الحاجة الى المؤون ، ولاسيما المال بسبب الطوفان العظيم الذي تدفق عليه من قبائل الشمال وكلها يقسم يمين الطاعة ، ويعطي الضمانات المعروفة في مثل هذه الاحوال . ثم تطلب السلاح والمـــال ، وانه لمن المستحيل ان يترك سموه هذا الأمر على حاله ، والامير يهدد بالانسحاب من الميدان اذا لم تجب مطالبه بكل سرعة ، ويقول ان هذا النجاح العظيم يجب الا يهمل والا يكتفى أمامه بالكلام والوعود مخافـة ان يدب الملل والضجر الى تلك القبائل المتحمسة التي اقبلت بظعنها وخيامهـــا ، فنرجو تدارك الأمر كيفما كان ، وبأي واسطة ممكنة فعـالة وسريعة ، مخافة الفشـل الذي نتق ونؤكد ان فخامته يبـذل ما بطاقته لدفعه . ولا حاجة بنـا الى وصف الموقف الذي بات فيه جلالة مولانا الملك بسبب الكارثـــة ، وفخامته في غنى عن كل بيان ، وقد زاد جلالته على ذلك بقوله : اننا لسنا تجاراً حتى نحتاج الى كل ذلك ، ولسنا من الذين يريدون ربحـــاً خصوصياً ليستفيدوا من هذا ، بل اننا عاملنـا حليفتنا الموقرة كما يعامل الرجل أهله ، فضلاً عن حرصنا الشديد على كل وراء ما يصدر . ولكن الضرورة القاهرة الشديدة ، ولزوم المحافظة على مكانتنا ومكانتهم في عيون الوفود المتكاثرة هي التي دعت الى طلبنا هذه الزيادة .

وفي يوم ١١ منه رد المعتمد بالبرقية الآتية :

قابلت اليوم النائب ، وعرضت المطـالب ، وكانت نتيجة المقـــابلة اطمئناني التام ، بان بريطانيا ستستمر في معاونتنا تماماً ، وان فخامته أكبر نصير لهذه السياسة الحسنة ، ولقد كلفني ان أعرض اسمى احتراماته

وتشكراته القلبية لجلالة مولاي ، اليكم الجواب على جميع برقياتكم المرسلة الينا :

الطائرات لا يمكن نقلها إلى ينبع لأسباب عسكرية ، وهي التسلط التام على السكة الحديدية ، وان الطائرات التي في الوجه ، عملت لها مراكز في منتصف الطريق بين الوجه والسكة الحديدية فالرجال العسكريون ، والطيارون الانكليز ، مقتنعون بان بقاءها في محلها أفيد بكثير من نقلها ، وفخامة النائب مطمئن الى ذلك .

سيرسلون من هنا بعد عشرة أيام ، ثلاثين الف جنيه إلى الامير فيصل لعرب الشمال ، وهم على وشك إرسال نحو أربعة آلاف بندقيـة وقد طلبوا من انكلترا كميات كبيرة من الاسلحة . أما زيادة الراتب الشهري من الدراهم والدقيق كما تطلبون ، ففخامته موافق . ولقد أرسل برقية إلى المعتمد بجدّه يبين له التعليمات اللازمة بهذا الخصوص ، وعندما يتشرف المعتمد قريباً بالمثول ، بين يدي جلالته ، فمن الواجب عمل ترتيب قطعي معه بهذا الخصوص ، وفخامة النائب يطلب التفصيلات والأسباب الداعية لهذه الزيادة ، لكي يبينها لحكومته فتوافق عليها . ولهذا يجب ان تكون البراهين قاطعة لإقناع الماليين البريطانيين الذين هم بطبيعتهم عسرون، كما في جميع العالم ، وقد زاد فخامته بأنه مقتنع كل الاقتناع ، بأن كل ما طلبناه منه ليس إلا ضروري ، ولا يخطر في فكره غير خاطر . واننا وإياه نعتمد على بعضنا الاعتماد كله ، وان صداقتهم ومعاونتهم ستستمر مدى الايام .

وفي ٢٠ منه أرسلت الخارجية الى المندوب بمصر البرقية الآتية :

العدو حضر بير الماشي بنصف قواه وحاميتها على الجهات معروفـة التمس من فخامة المندوب لأجل سلامة المصلحة ، ألا يعلق انفاذ طلباتنا المؤسسة على تسريع النتائج المرغوبة من كل وجـه وملاحظات الغير . فأنا اعلم بحالة البلاد ، وأبسط الأدلة على هذا ، انهم لو اسعفونا ببقاء جزء

من الطائرات بمعسكراتنا الجنوبية ، وقذفهم بعشرة قنابل لسقطوا في اليوم الثاني وغنمناهم ، وغنمنا مدة مطاولتهم وما فيها من النفقات والمشاكل ، بل السلامة من جميع المحاذير الناشئة عن ذلك ، والمتعلقة بالحياة . نحن في اشد الحاجة لقنابل المدافع الصحراوية الواردة من السودان ، والمعلوم عيارها عندهم . وقد اضطررنا الى بعث مقدار الراتب الذي جعلناه للامير علي الى الامير زيد كراتب إجمالي في الشهر ٣٠ الف جنيه ، فانه لدى معسكر زيد ثلاثة آلاف جمل ، ولدى معسكر علي الف جمل بالكراء لكل جمل خمسة جنيهات لتباعدهم عن مركز السوقيات .

فرد عليه يوم ٢٢ منه بالبرقية الآتية :

يقولون ان القنابل الصحراوية موجود منها بالسويس ١٥٠٠ ستشحن غداً للوجه لإرسالها الى ينبع لسمو الامير علي ، وانهم أعدوا هـــذا المقدار لشحنه من سبعة ايام ، فحدث عطل بالباخرة اضطرهم للتأخير وهم مستعدون لتقديم كميات أخرى عند الطلب ، وكذلك ارسلوا مقداراً مهماً من الاسلحة الى سمو الامير عبدالله بواسطة سمو الامير فيصل ، والمظنون ان سموه لا يتمكن من إرسال جميع ما وصل اليه من الديناميت لقلة الوسائط النقلية ، وسيرسلون في باخرة الغد ثلاثة آلاف ليبرة من الديناميت للامير فيصل ليرسلها الى أخيه ، وهم مستعدون ان يرسلوا كل شهر من الديناميت بحساب ١٠٠ ليبرة في اليوم ، والكولونيل نيوكمب الموجود في الوجه ، مختص في هـــذه الشؤون ، ويقولون انهم أبلغوا الامراء انهم مستعدون ان يقدموا لهم جميع طلباتهم .

تلك هي مجموع المكاتبات التي وصلت الينا عن هذه المشكلة والمشاكل الأخرى الطارئة اثبتناها بنصها للدلالة على اهمال الانكليز وعلى عـــدم اهتمامهم باغاثة حليفهم وتلبية ندائه عندما دعاهم . ولئن انتهت الاحداث بسلام . ولم ينل الترك منالاً فما ذلك الا بفعل الظروف ، فقد كان

لها تأثيرها في انقاذ جيوش الشريف ووقايتها من الاخطار التي كانت محدقة بها .

٣ – مشكلة القنفذة

ونأتي الآن الى مشكلة جديدة نشأت بينه وبين الانكليز ، في تلك المرحلة ايضاً ، وهي وان كانت ثانوية ، إلا انها مشكلة على كل حال . ولا شك في انها تركت آثاراً في النفوس لا تمحى ، وهذا بيان عنها :

القنفذة ، فرضة صغيرة واقعة على البحر الأحمر ، بين جدة والحديدة ، وكانت تعد من سواحل الحجاز وأراضيه في العهد التركي ، كما انها تحاد الامارة الادريسية في تهامة وعسير ، وتقع في أقصى حدودها .

وخلاصة ما وقع ، ان السيد محمد علي الادريسي ، امير الامارة الادريسية ، وكان حليفاً وصديقاً للانكليز ، أرسل يوم ١٠ يوليو ٩١٦ ، قوة من رجاله فاحتلت القنفذة مغتنمة فرصة اشتغال الحسين بمحاربة الترك في الحجز ، واسرت حاميتها التركية ، ولما كان الحسين لا ينظر بارتياح لا الى وجود هذه الامارة ، وقد حاربها في عهد الاتراك ، وحمل عليها مرة ، ولا إلى توسعها ، ولما كانت القنفذة حجازية ، فقد أبرق الى مندوبه بمصر يوم ٢٨ يوليو ، متذمراً من هذا الاحتلال وطالباً استصدار امر للبارجة الانكليزية التي وقفت أمام القنفذة ، حين مهاجمة الادارسة لها ، وسهلت لهم أمر الاستيلاء عليها بالانسحاب .

فرد عليه يوم ٢ أغسطس قائلاً : « استرحم من مولاي الا يتأثر من استيلاء الإدريسي على القنفذة ، فالاحوال الحاضرة تجبرنا على السكوت الآن ، واني أرى ان يكلف مولاي ولسن باشا (الكولونيل ولسن معتمد انكلترا في الحجاز) ، فقد كلفته حكومته تنفيذ أوامر مولاي

بهذا الشأن لكي يأمر البوارج الحربية ، فتساعد جنود مولاي على احتلال الموانىء الصغيرة كالوجه ، وما شاكل ذلك ليكون الحل أتم » .

وقبل ان يتلقى برقية مندوبه ، أبرق يوم أول اغسطس الى نائب الملك مباشرة البرقية الآتية : وتوّجها بكلمة « مستعجل » .

ما صادفته من المعاملات في حادث القنفذة ، ما كنت اتصور ان اصادفه من حكومة بريطانيا العظمى ، بعد عشرين عاماً فضلا عن الحالة الحاضرة ، سيما وان القنفذة المذكورة ، هي داخل الحدود المقررة .

إصراري في امرها ، ليس من حرص على جاه ، او ما هو في معنى ذلك ولكن تيقن يا حضرة الوزير انها متعلقة بروح المسألة رأساً ، ويتأثر بها جوهر الكيان الذي دخلنا في اسبابه ، سيما عكس تأثيراتها في مهمات المواد والتشبثات بدون مجبر على ذلك ، على انه يمكن تعويض المذكور باللحية (ثغر صغير يقع في جوارها ، وهو داخل في حدود ولاية الحجاز القديمة) ونحوها .

« التمسكم بصورة قطعية تعديلها على هذا الشكل » .

وفي اليوم التالي ارسل اليه البرقية الآتية ايضاً .

عقب تحرير تلغرافي لفخامتكم بالأمس ، دخل علينا معتمد بريطانيا العظمى ، وأثار بحث القنفذة وبالنظر لما يتبادر من هذا في الذهن ، ربما رغائب بريطانيا في استيلاء الادريسي على ولاية عسير عموماً . وكان قوام حركتنا ومدارها محصوراً تماماً في إمداد واعانة بريطانيا العظمى ، والله على ما أقول وكيل . أنادي باسم سيادته (يعني الادريسي) ، من مكة وسائر جهاتنا ، وحسبي على سلامة حياتي من شوائب البغض والحسد ، كتاباتي التي هي تحت العدد والتاريخ لكافة مشايخ عسير بمعاونتهم وطلبي القيام على متغلبة الاتراك ، علاوة على ما ستراه فخامتكم في مصر . ومن حول القنفذة من القبائل المقيمة بما ألزمنا على إرسال مأمورينا درءاً للشقاق ، فان قصدنا وغايتنا حصول النتيجة المرغوبة بأي

صورة كانت ، والافادة منتظرة لحصر استغالاتي الذهنية ، بما يقتضي الاستحضارات الاكمالية .

وفي يوم ٤ منه ارسل الى مندوبه بمصر البرقية الآتية :

١ – ضروري اطلاعكم على تلغرافاتي بتاريخ الأمس وقبله ، لفخامة نائب الملك .

٢ – اخرجت الأمر من الرسميات الى الخصوصيات ، لزيادة التأكيد انه لا غاية منه سوى سلامة العرب بدينهم وقوميتهم بأي وسيلة ليتحقق لدى الدولة البريطانية ، سلامة ضمائرنا لاننا مبتدئون نحن وإياهم في معرفة بعضنا البعض ، ولسلامة معظم الامور من هلكة سوء الفهم ، وقصر الاطلاع ، وحرصت على هذا في اجتماعاتنا غير مرة ، وبسطت يدي لأعاضد من يراه القوم اهلاً ، واني اول شهيد تحت رايته .

أروم أن ابعث اليكم كتاب السيد المشار اليه ، جواباً من قبل ثلاثة اشهر لتروا ما يقوله : بان العرب عصوني ، وليس بيدي واحد منهم ، علاوة على مشاحنة مندوبي محمد بن عريفان ، حتى اضطررت للكتابة الى كافة المشايخ باطاعته والقيام معه ، ولكني لست من ذوي الكبرياء والتعاظم ، ولا اقصد سوى تأمين المصلحة واقراره لنا في الحدود من البرك غرباً الى رأس وادي ضلع شرقاً المعلوم ، لمن يعرف حدود البلاد الخصوصية ، أما من جهة الجواب فيأخذ ما يشاء .

وفي يوم ٧ منه أرسل اليه المندوب البرقية الآتية :

لقد تكلمت معهم بصورة رسمية في مسألة القنفذة ، وفهمت أنهم سيكلفون الادريسي بالجلاء عنها ، والذي أراه اذا كان مناسباً ان تحتلها جنود مولاي عقب اخلائها ، لان القوم يودون ان تبقى تحت حكم مشايخها فقط وسأصر غداً على ضرورة بقائها في يدنا ، ولعلي استطيع ان أخبر مولاي غداً بما يتم بشأنها .

وكتب اليه يوم ١٧ يقول : علمت بان الادريسي سيقابل الشيخ

عريفان (مندوب الملك) وبعده سيكلف مأموريه بأن يتركوا القنفذة ، وقد صرح للانكليز بانه عدو للترك ، وصديق حميم لمولاي .

٤ – مشكلة اللقب

وقبل الانتهاء من هذه المشكلة ، وتسويتها ظهرت مشكلة جديدة أدق واصعب ، وأبعد جذوراً ونعني بها مسألة اللقب او اللقب الذي يجب ان يكون للحسين بعد البيعة ، وقد رأينا انهم اختاروا في مكة لقب « ملك العرب » .

وأثارت مسألة اللقب هذه كثيراً من اللغط والاحتجاج والاخذ والرد ، مما تراه مبسوطاً في الرسائل البرقية التي تبادلها الملك ومندوبه بالقاهرة وهي كما يلي :

في يوم ٨ دسمبر سنة ٩١٦ ، أرسل المعتمد الى الخارجية بمكة هذه البرقية :

« برقيتكم المبشرة باعلان بيعة الامة العربية لجلالة سيدنا المعظم ملك الامة العربية ، وصلت متأخرة خمسة ايام عن تاريخ إرسالها . وكنت تلقيت الخبر بطريقة غير رسمية قبل وصول البرقية ، وارسلت لسموكم برقية مستفهما ، وبعد وصول البرقية إليّ ، طلبني مدير القلم العربي في السلطة العسكرية ، وأشار علي بكتمان الخبر وعدم نشره ، فأجبته بأن هذا عدوان على حقوقنا واني ملزم بنشره ، فرجاني ان اتمهل الى صباح الغد ، وان اقابله ليبلغني رأيه بعد مشاورة نائب الملك ، فان اذن بنشره نشر وإلا فاني أرى من الواجب علي ان احتج عليهم ، واستأذنكم تلغرافياً بما افعل ، وخوفاً من ان يؤخروا تلغرافي اليكم ، قدمت هذه العريضة حتى اذا وصلتكم ولم يكن انتهى اليكم تلغرافنا عن نتيجة ما حصل اسألوا نائب الملك عن سبب انقطاع مخابراتي وهل نشر الاعلان ام لا .

ثم أرجوكم الا تظنوا بأنني سأستعمل في هذا الاجتماع شيئاً من القسوة أو ما ينافي الذوق في المخاطبات الرسمية ، بل بالعكس ، سأفرغ قصارى جهدي لسبك الاحتجاج في قالب رسمي لا ينافي المجاملات .

وعاد فأرسل اليه يوم ١٣ منه البرقية الآتية :

فاوضت رجال السلطة بشأن نشر خبر البيعة ، وانتهت المفاوضات ، إلا انهم رغبوا بالتريث مدة ثلاثة ايام ، يدرسون خلالها حالة العالم الإسلامي ، وطريقة تلقيه هذا النبأ ، وانه متى عرف ذلك ، يمكن إفراغ النبـــأ بشكل يلتئم مع الحالة المذكورة ، ولا أرى بأساً في هذا .

وعاد فأبرق يوم ٢١ منه قائلا :

قابلت بالأمس معتمد فرنسا السياسي في مصر ، وبعد المجـــاملات الرسمية ، حادثته بشأن الاعتراف بالملك ، فأجابني : بأن لفظ « العرب » أمثال تونس ، فقلت له : ان ان هـــذا الاصطلاح قديم ، ولم يؤد يوماً ما معنى سلطان الترك ، سلطان جميـع الاتراك ، والمقصود به البلاد العربية . ثم بينت له لزوم سرعة اعتراف الحلفاء بهذا الأمر ليشجعونا في عملنا المشترك ، ونحن ننتظر منهم مثل هذا التشجيـع ،لننشط في حركاتنا . ثم شرحت لزوم مساعدة فرنسا لنا ، وهي جديرة بالعطف على الامـــة العربية ، فهما عريقتان بالحرية والاستقلال . فللأمـة الافرنسية ان تنظر للأمة العربية كصديقة وحليفة محترمة مخلصة ، لتبنى أساسات السياسة على الصراحة والاخلاص ، أما اعلان خبر الاستقلال فلم اوفق اليه .

وأرسل يوم ٢٢ منه هذه البرقية :

« كررت تشبثاتي مع ولاة الامور الانكليز ، فبينا أن لفظة « ملك العرب » ليست عامة كما يظنون . انها لا تشمل مصر والجزائر وغيرها ، بل المقصود بها ملك البلاد العربية ، واكدت لهم انـه لا يوجد واحد من اصحاب الفكر والرأي في الامة العربية ، يمكن ان يرضى بغير هـــذا اللقب الذي هو حقهم الطبيعي . ثم اظهرت ان الاحجـــام عن تشجيعنا

يدعو الى فتور روح الحركة فينا ، فقالوا : انهم يأملون ان يرد الجواب في ظرف اسبوع لانهم يشتغلون بالمذاكرة مع حلفائهم ، فأكدوا انهم يريدون التمسك بمعاهداتهم مع مليكنا ، وانني أرى لزوم اظهار التجلد السياسي » .

وفي يوم ٢٥ منه أرسلت اليه مكة البرقية الآتية :

« تلقينا برقيتكم ، أفيدونا : اولاً ، هل أنتم بادأتموهم بالبحث أم هم البادئون ؟ علمنا من بحثكم انه كان مع معتمد فرنسا ، ولكن بحثكم الثاني مع أي موظف من حكومة جلالة الملك ، واذا علمنا هذا ، تعين ما يقتضي الجواب عنه » .

وفي اليوم نفسه ، أرسل الحسين الى معتمده بمصر البرقية الآتية : بتوقيع فؤاد الخطيب (وكيل الخارجية) .

« رأى صاحب الجلالة مولاي المعظم ، ان أبلغكم اجتناب مباحثة مأموري السياسة بما يتعلق بذلك وان بادؤوك ، فعلق جوابك على طلب تعليماتنا وما يردك منا تفيدهم به ، فبلغ اولاً من ذاكرك بعنواننا الجديد من مأموري حكومة جلالة الملك جزيل توقيراتي الجدية ، وان معلوم كالاتهم تكليفي بعنوان الخلافة العربية في مبادىء مذكراتنا ، في أمر النهضة ، ثم تبليغك إيانا بتاريخ رمضان ، عن رغبتهم تلقينا سلطان العرب ، وان غياب ابني زيد الذي كان يشتغل بالاوراق اذ ذاك ، يحول دون تعيين يوم وعد تلك الافادة ، فمن الضروري وجودها واجابتنا عنها في قيودك ، ولذلك فإن تأويلها الآن في عنوان القيد « بالبلاد العربية » عقب سماحهم واستنسابهم عنوان الخلافة العربية ، وسلطان العرب ، بما لها من السلطة الواسعة اعتراف بمغلوبية كالاتهم ومداركهم السامية امام الخيالات المحضة ، اذ ان مصر ليست من البلاد العربية ، وتونس والجزائر بطريق الاولى . ولا شك بأن دوام حدوث مثل هذه الخيالات والذهابات ، يحكم علينا بالتردد في العمل ونتيجة إحباط مساعينا وإيامم نحو الحقيقة التي

ثقتي واعتمادي عليها بعد المولى ، الجأتني الى اقتحام ما ذلله الباري من المهالك والمخاطر .

« ولقد أردت إيفاد ابني عبدالله ، لإزالة ما عسى ان يحدث من أمثال هذا من سوء التفاهم ترجيحاً على بقائه الضروري لدينا ، ولكن لم تسعفنا الاقدار إلى اعادة حصولنا على هذا الامل المهم من بشران قدوم صاحب المعالي السردار والحاكم العام للسودان الى جدة لييسر الباري بمذكراتي لمعاليه زيادة تأمين الوصول الى النتيجة المقدسة المقصودة ، وخدمة البشرية وصيانتها من أمثال هذه الشوائب ، فان المقصد نزيه ، والغاية شريفة . واننا بحول الله تعالى ممن يحافظ على شعائر الوفاء مع الاخاء ، فضلاً عن حلفائنا الكرام الذين يعجزنا شكر صنيعهم » .

وفي ٢٩ منه أبرق اليه معتمده بمصر بما يلي :

« بلغت اللازم لحكومة جلالة الملك ، واكدوا بأنه لا سبب للتأخير إلا اشتغالهم بالمذاكرة مع سائر حلفائهم ، لما لهذه المسألة من عظيم الشأن ، وان بريطانيا تحافظ على شرفها وعهودها ، وتبذل كل ما لديها في سبيل هذه الغاية الشريفة ، وتصرف أقصى جهودها لتبني سياستها على مكارم الاخلاق ، ولكن مسألة كهذه من اعظم المسائل ، وليس من الممكن الجواب عليها بدون تأمل ومذاكرة لكي يكون الجواب مطابقاً لما يلزم ، ومن الطبيعي ان هذا يستغرق زمناً طويلًا ، وهم شاكرون احساسات صاحب الجلالة نحوهم ، ويرجون ان هذا التأخير الضروري لا يزعج مولاي واما إفادتي التي كنت قد ذكرتها هي بتاريخ ٩ رمضان ، والعبارة هي : « تباحثت مع نائب الملك لأجل لقب (ملك العرب) ، فوجدته ميالاً لقبوله » .

وفي يوم ٢٠ صفر سنة ١٣٣٥ ، أبرق وكيل الخارجية الى المعتمد بمصر قائلًا : أمر استقلال بلادنا ، قد بلغتنا به بريطانيا وفرنسا في الاسبوع الماضي بصورة رسمية ، ودولة روسيا بلغتنا بانها مصدقة على كل

ما بلغناها إياه ، حتى ان حكومة بريطانيا شرعت قبل ثلاثة ايام تخاطب سيدي ومولاي بعنوان ولقب صاحب الجلالة .

وفي ٢ ربيع ، أرسل المندوب بمصر قائلا : « نشر اليوم في الصحف البلاغ الآتي : «اعترفت الحكومة البريطانية وحكومة جمهورية فرنسا رسمياً بشريف مكة الاعظم ملكاً على الحجاز » .

وهكذا أسدل الستار على المشكلة ، بعد اخذ ورد ومكاتبات استمرت ٥٦ يوماً ، وبديهي ان اللقب الذي اعترفوا بـه وهو ملك الحجاز ، لم يرضه ، يؤيد ذلك كتمانه له ، وعدم الاشارة اليه في جريدته القبلة ، وتمسكه بلقبه الذي اختاره له قومه والقبوه به « ملك العرب » .

وتناول هذه المشكلة الكولونيل بريمون ، مندوب فرنسا في كتابه ، « الحجاز في الحرب العالمية » ، فأورد معلومات ذات شأن تلقي كثيراً من النور على ما جرى وتنم عن نفسية الحلفاء وعما يضمرونه للعرب قال :

« وقوبل خبر هذه المبايعة باستغراب في القاهرة ، ولم يشجع المستر ستورس والكبتن لورانس الامير عبد الله حينما اجتمعا به يومي ١٦ و ١٧ نوفمبر سنة ٩١٦ ، في جدة على الاندفاع في تحقيق هذه الفكرة ، وقال لورانس قبل عودته الى القـاهرة « لقد نصحنا عبدالله ان يأخذ المدينة ، قبل ان يفكر في ان يكون ملكاً على سورية وفلسطين » .

« وكانت القاهرة غير مرتاحة الى ما وقع ، لانها كانت تخشى ان يؤدي هذا التصرف الى نفرة أمراء العرب الآخرين من الشريف وتخوفهم منه كما ان فشله او سقوطه يكون عظيم الاثر في الهند .

« وأبرق السر هنري مكماهون الى الشريف ، معرباً له عن عـدم موافقته فأجابه : بأنه لم يفعل ما فعله إلا نزولاً عند رغبة كبـار قومه وعلمائهم وشيوخ القبائل ، وانه مستعد للتنــازل عنه اذا كانت انكلترا لا تقره .

وفي يوم ١١ نوفمبر سلم الكولونيل ولسن (معتمد انكلترا في جدة)

والكولونيل بريمون معتمد فرنسا بأمر حكومتيهما ، وبعد اتفاقهما ، الى الشريف مذكرة متحدة المعنى في قضية المبايعة ، وتولى ابن عزوز تقديم المذكرة الافرنسية الى الامير عبدالله فقال له : « ان الحلفاء مخطئون بترددهم في الاعتراف رسمياً بلقب والدي الجديد . انظروا الى الالمان كيف يعملون على إعلاء مقام تركيا وزيادة نفوذها ، فقيصر المانيا لا يخاطب السلطان إلا بقوله : « صاحب الجلالة المقدسة » ، فيجب على الحلفاء الا يقتصروا في مساعدتهم الدولة العربية الجديدة على الماديات ، بل يجب ان يتخطوها الى الادبيات والمعنويات فيعلو مقامها ونفوذها » وقال إن العالم الاسلامي كله يتجه بانظاره نحو الدولة العربية الجديدة .

ثم قال الكولونيل بريمون : « وتبادل رجال الحكومتين الانكليزية والافرنسية المذكرات بهذا الشأن ، ففي يوم ١٧ نوفمبر أبرق سفير انكلترا في باريس من لندن الى السردار في القاهرة يقترح عليه ، ان يلاحظ للشريف تسرعه في قول البيعة ، ويقول ان الحكومات الثلاث المتحالفة تعتبر الحسين رئيساً للشعوب العربية الثائرة على الترك وتعد نفسها سعيدة بأن تعترف به ملكاً شرعياً وفعلياً على الحجاز على الا يلقب « باللقب الملكي » ، لأن ذلك قد يؤدي الى وقوع الشقاق والانقسام بين امراء العرب وقد يحول في المستقبل دون تسوية شؤون الجزيرة تسوية تبعث على الارتياح .

وختم السفير برقيته ، بتهنئة العنصر العربي وشكره على جهوده مؤكداً ان الحكومة البريطانية وحلفاءها متفقون على ضمان استقلال العنصر العربي والمحافظة عليه بكل ما يملكونه من قوى » .

ولما عرضت البرقية على المسيو بريان ، وزير الخارجية الافرنسية ، قبل ارسالها أبدل كلمة « العنصر العربي » بالشعوب العربية » .

« وبعد أخذ ورد طويلين بين باريس ولندن اتفقت الحكومتان في أواخر سنة ٩١٦ على الاعتراف بالملك على الحجاز ، ففي يوم ٣ يناير سنة ٩١٧ ،

قدمت الحكومتان بواسطة مندوبيهما في جدة ، مذكرة للملك تعترفـان بموجبها به ملكا على الحجاز ، وان يكون لقبه هكذا « جلالة ملك الحجاز » ، ورد الملك على رسول فرنسا حينما سلمه المذكرة بقوله : لا اهمية للقب بنظري ، فأنا لا افكر إلا في خدمة أمتي وبلادي ، وكلفه إبلاغ شكره لفرنسا .

وتناول الامير عبدالله بن الحسين ، في مذكراته مشكلة اللقب هذه ص ١٣١ فقال : « وفي اليوم الثاني للبيعة طلب إلي المعتمد البريطاني الكولونيل ولسن والمعتمد الافرنسي الكولونيل بريمون المكالمة ، فظننت انهما سيهنئاني على ما وقع ، واذا بهما عكس ذلك يقولان ، لِمَ فعلتم هذا الامر قبل الرجوع الى رأي حلفائكم ، فقلت : عجيب ما تقولانه ، نقاتل بسيوفنا لإعلاء كلمة العرب وإرجاع حقنا القومي الى نصابه ، فمن ساعدنا وايدنا فهو صديقنا ، ومن نكص عنا وأحب ان يفت في عزائمنا ، فهو لا يريد الخير لنا ، ونحن لا نسفك دماءنا إلا في حقها وحلهـا . وأرى انكم تضمرون لنا غير ما تعلنون ، واني لأنتظر رد حكوماتكم ، لا ردودكم الشخصية ، وانا اعتقد ان الترك وحلفاءهم سيقرون ما فعلنـاه ، ويقبلون الصلح معنا . وهذا أمر لا نحبه فقالا : أو تشك في إخلاصنـا فقلت لهما نحن أعلم بما ينبغي لنا ان نفعله من اجل انفسنا .

« وفي اليوم الثاني ، جاءني الرد من المسيو ستورمر ، وزير خارجية روسيا (القيصرية) ، وفيه اعتراف باستقلال البلاد العربية والحسين ملـكا على الامة العربية ، مقدماً تحية القيصر « نقولا الثاني » الى جلالتـه وتحياته لي وإلى الحكومة . فبلغت هذه البرقية إلى دول الحلفاء ، فقـال الكولونيل ولسن: أو تعد هذا اعترافاً ؟ فقلت : وكيف يكون الاعتراف اذن ؟ فقال : تكرم إذن بقبول تحياتي الشخصية على ان أقدم التهاني بعد اعتراف حكومتي » .

وبعد فهذا كل ما وصلنا اليه من اخبار الخـــلاف الذي نشب حول المشاكل الاربع خلال الاشهر الاربعـــة الاولى ، سجلناه بتفاصيله ووثائقه مع اقوال الذين شهدوه وعاشوه . أما ما حدث بعد ذلك فهو أهم واخطر ، ولا سبب له سوى اختلاف العقليتين ، وعدم وجود قواعد اساسية يرجع اليها ، ويهتدى بهديها .

سوريا بين الحسين وفرنسا

يظهر انه كان لاقتراح السي قدور بن غبريط على فرنسا في تقريره ، بالتفاهم مع الحسين واقناعه بالموافقة على احتلال سورية ولبنان ، طبقاً لاحكام اتفاق سايكس - بيكو تأثيره في نفوس الافرنسيين فخاطبوا الحكومة الانكليزية ، مقترحين عليها القيام بمسعى مشترك لدى الحسين ، لكي ينتزعوا منه تصريحاً مشتركاً ، باكتفائه باستقلال الحجاز وترك أمر البلاد العربية الاخرى لهم ، يقررون مصيرها ، ويتولون شؤونها ، متوهمين ان ذلك يفيدهم ويسهل مهمتهم

ووصل الى القاهرة في أواسط شهر ابريل سنة ٩١٧ ، جورج بيكو ، بطل الاتفاق المعروف ، يحمل لقباً جديداً هو « المندوب السامي لفرنسا في سورية وكيليكية » ، ومعه عدد من الموظفين الافرنسيين ، يؤلفون هيئة مفوضيته . وجاء من لندن السر مارك سايكس - وذلك على اتفاق سابق بينهما .

وعقد بيكو ، بعد أيام من وصوله اجتماعاً في فندق شبرد ، حضره معتمد فرنسا في مصر ، وبعض اللبنانيين المعروفين بالميل الى فرنسا وخطب، فقال : انه آن اوان البحث في مصير سورية ولبنان ، وان الحلفاء

اختاروا فرنسا وصية على لبنان ، وان نظام الحكم في سورية الداخلية ، سيكون استشارياً ، وانه كان في مصر منذ سنتين ، ثم غادرها الى أوربا لكي يعمل لأجل سورية .

وقال ان مهمته الآن ، تحددت باتفاق جميع الدول ، فهو ذو صفة رسمية في الوقت الحاضر ، ولقبه الرسمي « مفوض سام » ، وان غاية الحلفاء هي : تحرير البلاد التي كانت خاضعة لتركيا لا فتحها ، ثم ودع الحاضرين قائلاً : « أودع مواطني المستقبل ، وانا ذاهب الآن الى الاسكندرية للاجتماع الى مواطنين من أمثالكم هناك » .

وكان هذا ، اول تصريح رسمي افرنسي ، عن مستقبل سورية ولبنان ، وأول مرة يصرح فيها الافرنسيون بان هذه البلاد ستدخل في دائرة حكمهم .

واستوقفت هذه الحفلة وما قيل فيها من اقوال خطيرة نظر المعتمد العربي في القاهرة ، فطير خلاصة عنها الى الحسين ، وقال : ان معظم الذين سمعوا الخطبة من اللبنانيين ما كانوا مرتاحين ، وقد انتقدوا تصرف المندوب السامي الافرنسي واقواله ، وطلب ابلاغه الخطة التي يجب ان يسير عليها ، فجاءه الجواب بان يقابل نائب الملك ، ويسأله عن معنى هذه الحركة

واجتمع بيكو نفسه بعد ايام بالمعتمد العربي ، ومما قاله له : ان المسائل العامة المتصلة بالمستقبل يسهل حلها بمفاوضات واتفاقات تعقد مباشرة ، وان العرب جديرون بالحياة الاستقلالية ، ما لم يستسلموا للفوضى ، وانه عمل مدة وجوده في اوربا ، لتأييد فكرة الاستقلال العربية ، لما خبره من حالة العرب مدة وجوده قنصلاً لدولته في بيروت قبل الحرب .

وغادر السر مارك سايكس القاهرة ، يوم اول مايو سنة ١٩١٧ ، في طريقه الى جدة لزيارة الحسين ، ورافقه في سفره الكولونيل ولسن المندوب البريطاني في جدة الذي وفد الى القاهرة خصيصاً لمرافقته .

وتحدث مارك سايكس هذا قبل سفره الى المعتمد العربي في القاهرة عن مهمته ، ولخص هذا ما سمعه منه في برقية الى مكة قال فيها « يسافر اليوم الى جدة السر مارك سايكس ، لأجل مسألة غاية في الاهمية ، وقد افهمني بعض الامور التي سيبحثها مع مولاي . ولا شك ان له نفوذاً لدى حكومته ، ومما سيهتم به تحديد موقفنا نحن العرب من الحلفاء لا سيما من انكلترا وفرنسا

والامور التي سيتكلم عنها ، هي من تعليمات حكومته ، ومما قاله انه وان كان بين هذه المسائل ، ما لا ينال ارتياح جلالة الملك ، إلا انها في مجموعها ستسره ، وأعرب لي عن لزوم تعاون الحلفاء ، وقال : ان هذا اعظم شيء في نظرهم ، وأرى أننا نحن العرب في أدق نقطة من تاريخنا السياسي » .

وبلغت البارجة التي اقلته جدة يوم ٤ منه ، وجاء الحسين في الغداة ومعه الشيخ فؤاد الخطيب امين الخارجية وتحدث اليه مطولاً .

وزار سايكس بعد انتهاء الاجتماع دار المعتمد الافرنسي فلم يجده لانه كان في رابغ ، فأدلى للملازم « ميلي » بالايضاحات الآتية لإبلاغها الى الكولونيل بريمون عقب عودته قال .

ان للمسألة العربية ثلاثة جوانب :

فالجانب الاول خاص بالعرب والانكليز والافرنسيين ، والثاني خاص بالانكليز والعرب .

والثالث خاص بالافرنسيين والعرب ، ويتناول ساحل البحر المتوسط ، ثم قال : لقد أحطت بتفاصيل الجانب الاول ، وارجو ألا ينقضي وقت طويل على الكولونيل بريمون حتى يعي الشؤون الاخرى ، وسأعود يوم ١٩ منه ، فأقابله واحادثه .

« ولن اتكلم عن الجانب العربي - الافرنسي خوف الوقوع في الشرك الذي يريد الملك ان يوقعنا فيه ، فهو يتظاهر بكره الانكليز اذا تحدث

الى افرنسي ، وبالعكس اذا كان محدثه انكليزياً ولعل من المناسب ان يطلع الكولونيل الملك تدريجياً على مطالبكم عن الامتيازات التي تريدون الحصول عليها ويدخلها في رأسه بدون الحـــاح . ويجب ان نذكر بانه ليس في امكاننا اهمال شأن الملك لما له من مقام عند القبائل، وكل سياسة يؤيدها ويناصرها تنال تأييـد هذه القبائل فتنضم الى جانبكم وهي تعطف على الانكليز في الوقت الحاضر ، فالدروز يستقبلون كثيراً من الضباط المنهزمين وسيؤدي ذلك الى تأليف قوة تقف الى جانبنا » .

وأبرقت وزارة الخارجية الافرنسية يوم ١٠ مايو الى معتمدها في جدة تبلغه قرب وصول جورج بيكو اليها

وفي يوم ١٦ منه ، أبحرت البارجة البريطانية « ثورن يورك » من السويس ، لقل مارك سايكس وجورج بيكو والاميرال ريس والكولونيل ولسن ، ومرت في طريقها بالوجه فأمتطاها الامير فيصل ، ووصلت الى جدة يوم ١٨ منه ، وجاء الحسين فاجتمع بالقادمين واختلى بهم ، وعقدت بين الفريقين عدة اجتماعات ، كان آخرها ذاك الذي عقد على ظهر البارجة قبل إبحارها إلى عدن . وظل فيصل في جدة حتى يوم ٢٣ منه ، فعاد الى الوجه ومعه الكولونيل ولسن وعاد الملك الى مكة .

ولم يعط اللثام ، الكولونيل بريمـــون في كتابه « الحجاز في الحرب العالمية » ، عما دار في تلك الاجتماعات ، وقد اعتمدنا عليه في كتابة هذا الفصل لأنه أقصي عنها ، كما اعترف ، على انه لاحظ — كما قال — تبدلاً في سياسة الموظفين الحجازيين من فرنسا ، وسجل جملة وردت في حديث دار بينه وبين الكبتن مرسينيه الافرنسي ، عقب دخول دمشق وهي قول الامير : « لقد آثرنا اثناء مفاوضات جدة ، ان نؤجل البت في قضيـــة سورية الساحلية . فقد كان مثلي ومثل الانكليز والافرنسيين ، مثل تجار يسعى كل واحد منهم لبيـع اكبر قسط من بضائع لا توجد في ايديهم، ومعنى هذا ان اجتماع جـدة لم يسفر عن اتفاق ، ولم يساعد على انشاء

تفاهم بين الملك وابنه وبين فرنسا » .

وممـا له صلة وثيقة بهذا الموضوع ، ويصح إيراده لتأييد الرأي القائل بعدم التوصل الى اتفاق في اجتماع جدة ، التعليمات التي زودت بها وزارة الخارجية الافرنسية مصطفى شرشالي ، حين إرساله الى الحجـاز يوم أول مايو سنة ٩١٧ ، للعمل في دار المعتمد الافرنسي وهذا نصها :

« إن فرنسا وهي على تمام الاتفاق مع انكلترا ، فيما يختص بشؤون بلاد العرب ، لا ترمي الا الى صيانة كامل اراضي الدولة العربية ، ولا تميل كبقية حلفائها الاخرين الا ان لا يكون لدولة اوربية نفوذ في الاراضي الاسلامية المقدسة ، مهما كانت صفة هذا النفوذ ، وهي مصممة على عدم التدخل في المسائل السياسية لشبه جزيرة العرب ، وعلى الا يكون لدولة اوربية ما مركز في بلاد العرب .

« وأما ما يختص بسورية والبلاد الواقعة وراءهـا ، فلن تدع فرنسا الى الآخرين أمر العناية ، بتقـدم هذه المناطق ونموها ، وهي ما برحت من القديم تهتم بمصير سكانها ، وفي استطاعتها ان تذكر باسهاب ما لها من تقاليد وصلات قديمة . كما ان المؤسسات والمعاهد ذات الشأن ، التي انشئت فيها خلال السنوات الاخيرة هي ثمرة الاهتمام والعنـــاية اللذين تبذلهما في سبيل هذا الجزء من آسيا الصغرى .

« ولا ترغب في استعباد سكان هذه المقاطعات ، وإنما ترغب في تسهيل تقدمهم ورقيهم ، وحكومة الجمهورية الافرنسية على تمام الاتفـــاق مع بريطانيا للاعتراف بالأنظمة التي يختـــارونها مع مراعاة الاحوال لمختلف المقاطعات .

«وفيما يختص بالولايات التي يقطنها العنصر العربي ، فالحكومة الافرنسية تشجع على انشاء إمارات في حلب ودمشق والموصل ، على ان يرتبـــط امراؤها بملك الحجاز. ومن المتفق عليه ايضاً ان تتمتع الحكومة الافرنسية وحدهـا بحق تقديم المستشارين الذين قد يحتاج اليهم الأمراء ليقودوهم في

طريق المدنية ، فيجب ان تطلب من فرنسا رؤوس الاموال اللازمة لاستغلال خيرات البلاد وان تناط بها مهمة مباشرة المشروعات الكبيرة ، لترقية هذه المقاطعات اقتصادياً .

«واما بشأن الساحل حيث الشعوب أكثر تعدداً واختلاطاً ، فالضرورة تدعو الى انشاء نظام خاص تحت اشراف الحكومة الافرنسية مباشرة .

« ولا بد من نظام خاص للقدس وفلسطين يضمن احترام جميع الاديان وسيدعى الشريف الى الاشتراك في دراسة هذا النظام .

« فباستطاعتكم بعد الاطلاع على هذه التعليمات ان تدحضوا كل اختلاق – من دون استشاراتي – يظهر فرنسا بمظهر عدم المكترث بشؤون سورية ، او يظهرها بمظهر الواقف ، عقبة في سبيل توسع الشريف ، وتعلنوا انها مصممة على ان تحسب حسابه في كل عمل من الاعمال . »

ووصل الشرشالي الى جدة يوم ٧ يونيو سنة ٩١٧ ، وقبل ان يباشر عملا ، أو يطلع الملك على ما يحمله من تعليمات ، وما جاء به ، او يصرح بشيء أرسل وزير خارجية فرنسا يوم ١٧ منه ، إلى رئيس البعثة الافرنسية بجدة البرقية الآتية :

لا شك ان جورج بيكو أطلعكم على نتائج محادثاته مع الملك في جدة ، وقد كلفته ان يطلع الشرشالي على الخطير منها ، ولما كان الموقف قد تبدل بعدما تسلم هذا التعليمات التي يحملها ، فقد كلفت الأول (بيكو) بأن يبلغه بألا يكتفي بعدم البحث مع الملك في الشؤون السورية ، بل ينكر معرفته لأي شيء يختص بالاتفاق الانكليزي – الافرنسي اذا سأله عنه ، والا يجعل للحكومة الافرنسية أي علاقة بقضية الملكية ، وان يقتصر على نقل أجوبتنا اليه . وبديهي ان إفشاءه للاسرار التي اطلع عليها ، وهو ما يخشى منه في هذا الوقت ، يولد الشك في نفس الملك من جهة اخلاصنا ، ولذلك رجوت بيكو ابلاغه بان يكرر على مسامعه في شتى المناسبات نفس الأقوال التي قالها له هذا ، وان يدور

في دائرتها .

ويلوح لي انه من الضروري ، ان يوضح الشرشالي للملك ، معنى تعبير « سورية المسلمة » ، وقد ردده في المشروع الذي سلمه الى بيكو . فهذا التعبير لا ينطبق في نظرنا على المقاطعات الساحلية ، حيث الاديان والطوائف مختلفة متعددة ، ولئن زعمت حاشية الشريف ان في الاستطاعة تطبيقه في جميع المقاطعات السورية لعدم وجود أفضلية عددية للعناصر المسيحية ، فهذا القول لا ينطبق على لبنان . ولقد أبلغت بيكو رأيي بأن من مصلحتنا عدم أحداث خلاف بهذا الشأن ، ولن ننسى البيانات التي صرح بها ، ولا الأعمال التي عملت حتى الآن في الداخل وفي الخارج ، ولا الامتيازات التي لنا هناك ولن نهمل وإني ارجو ان تسترشدوا بهذه التعليمات في محادثاتكم الخاصة بهذه الشؤون ، وفي إبداء رأيكم للشرشالي » .

فهذه التعليمات السرية ، توحي بفشل المهمة التي انتدب بيكو وصاحبه سايكس لإدائها في جدة ، وتنطق برفض الحسين الاعتراف لفرنسا بما كانت تزعمه من حقوق ومصالح في سورية ، وتدل على ان الملك سلم لمندوب فرنسا في جدة مشروعاً لحل مشكلة سورية كتمه الافرنسيون ، وأشير إليه إشارة عابرة في هذه التعليمات ، على انهم ما لبثوا ان مزقوا حجاب التقية حينما ابتسم لهم الحظ ورجحت كفتهم في ميدان القتال فعدلوا عن الكتمان ، وباحوا بما كانوا يُسرون . فقد عقد في باريس يوم ٢٣ دسمبر سنة ٩١٧ ، اجتماع سياسي كبير حضره سايكس وبيكو وغيرهما من كبار الاقطاب ، وبعض ابناء الجاليتين السورية واللبنانية ، وخطب الأول فنادى بأن انكلترا وفرنسا على أتم اتفاق فيما يختص بمصير البلدان التركية ، وانه لا خلاف هنالك ولا تناقض ، ودعا السوريين واللبنانيين إلى العمل لتحرير بلادهم .

وخطب بيشون وزير خارجية فرنسا يوم ٢٧ منه ، أي بعد أربعة

ايام من عقد الاجتماع ، فنوه بالحقوق التقليدية التي لفرنسا في سورية ، واعرب عن ابتهاجه لوجود معاهدات صريحة وغير سرية ، تعترف لها بهذه الحقوق .

أصل فكرة الدولة اللبنانية

ولما يئس الافرنسيون من التفاهم مع الشريف على مصير سورية ، انشأوا في مصر وفي أواخر سنة ١٩١٧ هيئة باسم جمعية الدفاع عن حقوق سورية ولبنان ، وولوا لرئاستها عبدالله باشا صفير ، وهو لبناني متمصر ، لنشر الدعاية لفرنسا بين السوريين واللبنانيين . وكان مما اقترحته انشاء دولة مستقلة للبنان ، تحت حماية فرنسا على ان توسع حدودها فتشمل طرابلس وصيدا وصور وسهل البقاع ، ويقال ان الذي أوحى بهذه الفكرة ونشرها بين اللبنانيين هو مستشرق إفرنسي إسمه مالزاك ، كان يعمل في قنصلية فرنسا بدمشق قبل الحرب ، فأقبلوا عليها وتبنوها .

وظلت العلاقات تدور في هذا الاطار ، إطار التردد والخوف والحذر ، بين الحسين وفرنسا حتى ختام الحرب ، فتبدلت الحال وكان تطور جديد واسع النطاق ، فصلنا إخباره في كتابنا « الدولة الفيصلية في الشام » ، وهو قيد الصدور .

الثورة في عهدها الجديد

يظهر أن الطريقة التي اتبعها الحسين ، في تعامله مع الانكليز ، وترديده الدائم للشكوى والانين ، وتذمره بل واستياءه من المعاملة غير العادلة ، التي أعتقد بأنه يعامل بها – أزعجت بعض كبار موظفي هيئة القيادة البريطانية في القاهرة وضباطها ، فرفعوا عقيرتهم مطالبين بالتخلي عنه وعن ثورته وتركها وشأنها ، ماتت او عاشت ، وقالوا انه من الخطأ ان نشغل أنفسنا ، ونشغل حكومتنا بأمر هذا الميدان الجانبي الصغير ، الذي لا يقدم انتصارنا فيه ولا يؤخر ، ما دام مصير الحرب سيقرر في الميدان الغربي وحده ، فمن فاز هنالك ارتفعت موازينه ، ونال كل شيء وفاز بكل ما يطلب ويريد .

نعم : هذا بعض ما قاله وردده ، بعض كبار الانكليز في مجالسهم الخاصة في القاهرة ، وكانت الثورة لا تزال في اشهرها الاولى ، لم تستو على قدميها ، وكان مصيرها بيد القدر . ولئن كان في كلامهم هذا بعض الوجاهة ، إلا انه لا يتفق مع الخطة التي سار الانكليز انفسهم عليها في العراق . فقد اسرعوا فأرسلوا اليه قواهم ، غداة إعلان تركيا الحرب ، يريدون اكتساحه وحشدوا له الكثير من قواهم ، رغم كونه من الميادين الجانبية الصغيرة ايضاً .

وطال الاخذ والرد بين فريقي القيادة في القاهرة فقد كان هنالك من يقول بتأييد الثورة حفظاً لسمعة بريطانيا ووفاء بالعهود التي قطعتها وعاهدت العرب عليها ، ومدها بكل ما تحتاج اليه من المساعدات والاعانات لتؤدي مهمتها على اكمل وافضل وجه .

واخيراً وبعد جلسات طوال ، ومشاورات كثيرة تم الاتفاق بين الفريقين على ما يأتي :

١ - يسافر وفد بريطاني الى الحجاز لدرس حالة الثورة عن كثب .

٢ - يعد الوفد بعد عودته تقريراً جامعاً يضمنه ما جمعه من معلومات عن حالة الثورة ، وبيان ما اذا كان من المصلحة تأييدها او نبذها .

وتعهد الفريقان بالعمل بما يجيء به الوفد .

وتألف الوفد من المستر ستورس السكرتير الشرقي لدار المندوب السامي ، وهو مستعرب يجيد اللغة العربية ، وعلى وقوف تام بحقيقة العلاقات بين العرب والانكليز .

والعضو الآخر في الوفد هو الكبتن لورانس وكان حتى ذلك الوقت يعمل خبيراً جغرافياً في مقر القيادة البريطانية العليا في القاهرة ، وقد اختاروه لمعرفته باللغة العربية ، ولأنه يعرف بلاد العرب بسبب كثرة زياراته لها وتردده عليها .

وبلغ الوفد جدة يوم ١٦ اكتوبر سنة ١٩١٦ اي بعد ثلاثة اشهر وستة ايام من اعلان الثورة ، وكان بطبيعة الحال ، متكتماً يحيط مهمته بسرية كاملة . ومما يستحق الذكر انه بلغها في نفس الوقت الذي كان فيه الخلاف مشتداً حول اللقب وحول الدفاع عن رابغ .

وأرسل الوفد بعد وصوله ، الى الامير عبدالله (وزير الخارجية) ، يطلب تحديد موعد للاجتماع به ، لانه يريد ابلاغه بلاغاً رسمياً حمله اليه .

وعقد الاجتماع في دار المعتمد البريطاني في جدة ، فألقى ستورس ، البلاغ الذي قال انه حمله وهذا ملخصه :

« قررت الحكومة البريطانيــة استرداد قواتهــا العسكرية الموجودة في رابغ لما يثيره وجودها من مشاكل ، فقـــد أهاج وجودها مسلمي الهند » .

لقد كانت مفاجأة عنيفة للأمير ما كان يتوقعها وما حسب حسابها ، على انه كتم اضطرابه ، وغادر الدار بعد شرب القهوة بدون ان يلقي كلمة او يبدي اعتراضاً .

والتقى في طريقه بالكولونيل بريمون وكان قادماً لزيارة الوفد البريطاني فبادره هذا قائلا :

- الى اين ؟

- الى مكة .

- ولماذا اراك مسرعاً ؟

- لاننا قررنا عقد الصلح مع الترك ، فقـد عرضوا علينا الاعتراف باستقلال العرب ، ولما كان ادراك الاستقلال هو المقصود من حركتنا فقد قررنا ان تستقيل الوزارة الحاضرة فتحل محلها وزارة من رجال معروفين بالميل الى تركيا فيعقدون الصلح معها وتنتهي الحرب .

وحدث بريمون ستورس وصاحبه بمـا سمعه من الامير ، فأرسلا اليه على الفور رسولاً يدعوه لشرب الشاي معهما في الاصيل ، على ان يؤجـــل سفره لمدة قصيرة ، يتصل الوفد خلالها بحكومته ويحصل منها على تصريح رسمي بانها لا تفكر في استرداد قواها من الحجاز ، وانها ستستمر في مساعدة الثورة .

وأورد الامير (الملك) عبد الله هذا الحادث في مذكراته بتطويل وإسهاب ونحن نأخذ كل ما قاله للمقابلة والمقايسة قال ص ١٢٥ :

« وأمرني جلالة الملك أن اذهب الى جدة بعد ان اتممت احتلال الطائف لمقابلة المستر ستورس الكاتب الشرقي في دار الحماية بمصر ، والكبتن لورانس وتقديم الطلبات العسكرية التي اعدها عزيز بك علي المصري ، رئيس هيئة اركان الحرب ، فطلبت اليه ان يقبل بنظرياتي في السفر الى مصر :

اولاً – لتنظيم المخابرات والكتب الواردة من السر هنري ماكماهون ، في شكل عهد قائم .

ثانياً – بعد عودتي ، اذا وافق على سفري ، يكون توجهي الى الحناكية .

ثم قال : وتوجهت الى جدة لمقابلة هذين الانكليزيين ، وخيمت بين الكندرة والسهل فزاراني ومعهم قائم مقام جدة ، ثم زارني في اليوم نفسه الكولونيل بريمون رئيس البعثة الافرنسية ومعه الكولونيل قاضي وهومن مسلمي الجزائر وفي الصباح التالي زرت البريطانيين بدار المعتمد البريطاني الكولونيل ولسن ، وكان معي عزيز بك علي ، وكان يترجم لهم حسين روحي البهائي مترجم دار الاعتماد .

ولما جلسنا واستقر بنا المقام قال ستورس حضرت انا ورفيقي الكبتن لورانس لنقوم بأقصى ما يمكن من الخدمة فخورين فرحين ، ولكن لسوء الحظ تلقينا البارحة برقيـة كانت لنا بها صدمة شديدة وقد ترجمت الى اللغة العربية وستتلى على سموك ، فاذا تكرمت وأصغيت اليها عرفت مقدار جزعنا بسببها ، فقلت اتلها ، وكانت مطولة وهذا ملخصها : ان اخبار النهضة العربية لم تقابل في الهند الا بالسخط ، وان وكلاء الالمان والاتراك اتخذوها وسيلة وزعموا ان الحلفاء احتلوا البلاد الاسلامية المقدسة ، لذلك ، ولما كانت الحكومة لا ترغب في ايجاد متاعب لها في الهند ، فقد قررت ان تسحب جميع البعثات المرسلة من لدنها من المسلمين وكذلك سترجع

البعثات العسكرية الافرنسية وستستمر في تقديم المساعدات الاخرى من اسلحة وعتاد ونقود . وترى هي ايضاً ان نهوض العرب بأنفسهم هو افضل لمستقبلهم .

ثم قال الامير : وكانت البرقية صدمة شديدة لي ولعزيز بك ، فقد كنا في حاجة الى طائرات ومدفعية ورشاشات ومهندسين ، ولا شيء من هذا عندنا ، فقلت ارجوكم ان تتلوها مرة اخرى ، لانني احب ان افهمها زيادة وكانت فرصة للتفكير فقررت قراري ولما انتهت قلت فهمت ما جاء بها تماماً ثم قمت مودعاً فبهتا وودعاني بكل احترام ، والارتباك بادٍ عليهما .

ويممت دار الكولونيل بريمون فاستقبلني من الباب ، وبعد ان جلست قال لي ما هذا ؟ ان الترك بلغوا بير فاضي ، فقلت انا : بل ما هذا ، فان دار الاعتماد البريطاني والموفدين البريطانيين اخبروني الآن بقرارهم على ان يسحبوا بعثاتهم العسكرية بما فيهم انتم ، وانهم سيساعدون النهضة فقط بالاسلحة والعتاد والنقد ، ونحن في حاجة الى طائرات ومدفعية وغير هذا مما لا يتقنه الجنود العرب اليوم ، فقال لم يبلغني ذلك وان الامر لخطير فماذا انتم فاعلون ؟

— لا شيء سوى الصلح ، فان الاتراك عرضوا علينا قبولهم ما نطلبه بضمانة امبراطور المانيا ، واني سأعود الآن الى مكة وتستقيل الوزارة التي انا وزير خارجيتها ، وتأتي وزارة اخرى من الحزب الميال للصلح فننتهي على خير وقد نلنا ما اردناه ، وليس علينا من حلفائنا في هذا اي لوم لأنهم يعرفون ما طلبناه وما قبلوه .

وتغير لونه . وبعد ان شربنا القهوة خرجنا الى المخيم ، وبعد نصف ساعة تقريباً جاءني قائد الدرك ومعه تذكرة من المعتمد البريطاني يقول انه وستورس ولورانس يحبون تناول الشاي معي الساعة الرابعة ، فأجبت

بالقبول . ولما وصلت سألوني عما قلته لبريمون فقلت الذي سمعتموه منه ، فاني بعد تبليغكم اياي قرار حكومتكم صممت على العودة لعرض الامر على الملك وشرحه بتمامه ثم الاستقالة انا والحكومة لتأتي وزارة من الحزب الميال للصلح مع تركيا ، فتقبل بما عرضه علينا الترك وقد اعلنوا استعدادهم لقبول كل ما نريده بضمانة امبراطور المانيا ، ولا لوم علينا في ذلك ولا تثريب . فقالوا ولمَ قات للوصول الى الغاية بعد اعتذاركم ، فقالوا انك لم تبق عندنا حتى نعرض عليكم ما كتبناه للحكومة ، ونحن ننتظر ايضاحاً على ما تريدونه من مطالب ، فقلت بعد تصميمكم على سحب بعثاتكم تقولون انكم كتبتم وماذا تغني كتاباتكم ؟ فألحوا عليّ إلحاحاً شديداً في تغيير رأيي فقلت لا احيد عنه قيد شعرة ، ولكني سأتأخر في الطريق ١٢ ساعة فان سبقتني الموافقة على ما تتطلبه الحالة الراهنة من ابقاء البعثات وارسال الطائرات التي يطلبها فيصل فأستمر فيما نحن عليه . فرضوا .

ولما وصلت الى مكة متأخراً كما وعدت بادرني والدي بقوله : لقد نجحت في عملك فقد وردتني برقية من المعتمد البريطاني في جدة يقول فيها : ان جميع مطالب الساحات سوف تأتي بدون تأخير . فعلمت ان السهم اصاب ، وان القوم فضلوا دوام الثورة العربية على الصلح الذي زعمت انه ممكن . ولم اطلعه على شيء مما دار بيني وبينهم ، غير انني علمت بعد زمن ان عزيز علي قص عليه كل ما وقع .

اول اجتماع بين فيصل ولورانس

وطبقاً للخطة المرسومة غادر الموفدان البريطانيان جدة يوم ١٨ منه ، بعـــد ان أتما البحث الذي جاءا لأجله ، فقصدا الى ينبع لزيارة الامير فيصل وكان يتولى الدفاع عنها

وتحدث الكبتن لورانس في كتابه « اعمدة الحكمة السبعة » مبدياً اعجابه الزائد بالامير فيصل ، وكان هذا اول لقاء بينهما ، فقال انه وجد نفسه فجأة « امام الرجل الذي جاء يبحث عنه في جزيرة العرب » .

وتحدثا طويلاً الى الامير ، ودرسا الحالة العسكرية ، ثم واصلا السفر الى بور سودان ، ومنها الى الخرطوم فاجتمعا طويلا الى الجنرال دنجت حاكم السودان العام والقائد الاعلى للجيش المصري ، وكان مرشحاً ليحل محل السر هنري ماكماهون في مصر ، فيكون خلفاً له بمناسبة انتهاء مدة خدمته .

وسألهما هذا عن نتيجة مهمتهما ، وعما جاءا به بعد طوافهما فاطلعاه على الرأي الذي كوناه بوجوب مساعدة الثورة ومدها بالامدادات الكافية لأنها في مصلحة بريطانيا فرد عليهما بان ما سمعه منهما يتفق مع رأيه الشخصي

وهكذا اتفق الثلاثة على وجوب تأييد الثورة ومدها بالامدادات لتمضي في طريقها ، لأن في مدها مصلحة بريطانيا .

وتقلد دنجت منصب المندوب السامي بعد ايام

ويمكن القول بأن زيارة هذين الموفدين لجدة وينبع كانت حداً فاصلاً بين عهدين : عهد التردد وقلة الاهتمام بالثورة ، وعهد التأييد والاهتمام ، وقد اقتنع بعد رجوع المندوبين الى القاهرة وتقديمهما تقريريهما ، وكان ايجابياً ، منادياً بوجوب تأييد الثورة ومناصرتها ، لان ذلك من مصلحة بريطانيا ، ولانه يعزز سمعتها ومكانتها في بلاد العرب .

ويقول الكولونيل بريمون في كتابه : « الحجاز في الحرب العظمى » ، وهو شاهد عيان ، حضر الاحداث بنفسه ، وقد اعتمدنا عليه كثيراً في نقل اخبار الحرب ، ان الكبتن لورانس أعلن معارضته لاستخدام الوحدات

الاوربية في جزيرة العرب مؤكداً ان القبائل قد تتخلى عن الشريف ، وتعدل عن تأييده اذا استعان بالاوربيين .

ثم يقول ايضاً ان الاميرال وليامس قائد الاسطول البريطاني في البحر الاحمر رافق ستورس ولورانس في سفرهما الى الخرطوم ، وان الثلاثة عقدوا اجتماعاً برئاسة الجنرال دنجت الذي اصدر القرارات الآتية :

١ — لا يستطيع الجيش العربي في حالته الحاضرة ان يقاوم حملة صادقة قد يحملها عليه الترك

٢ — يحتاج الدفاع عن رابغ الى حامية مؤلفة من ثلاثة افواج وحيث ان وزارة الحربية البريطانية تأبى ارسال جنود الى الحجاز ، فمن الواجب انشاء فيلق من الجند العربي النظامي المأسور في الهند .

٣ — وجوب انتقال القوى الافرنسية الى رابغ[١]

٤ — ارسال بعثة الكولونيل نيوكمب[٢] بدون ابطاء .

وعاد الاميرال وليامس بعد ذلك الى السويس مع بوارجه الخمس ، وأظهر استعداده لانزال الجنود الى البر عند الحاجة .

وانزل الانكليز ، بأمر الجنرال دنجت حاكم السودان وقائد الجيش المصري ، قوة من الجنود المصريين في رابغ بقيادة السيد علي مع بطاريتين من مدافع الجبل المصرية وبلوكي استحكام ثم جاءوا بأربع طائرات و ٤٠٠ جندي مصري و ١٠٠ بريطاني .

وفي يوم ١٤ نوفمبر سنة ١٩١٦ وصل الى رابغ الكولونيل بريمون بعد ان تلقى امراً من حكومته بوجوب التعاون مع الانكليز ، فوجد

---

(١) كانت يومئذ في السويس . (٢) مهمة هـذه السفينة لتدريب العرب على استعمال الديناميت .

في مينائها بارجة افرنسية وبارجتين انكليزيتين ، وكانت القوة الانكليزية ـ المصرية تخيم في شمالي الميناء بقيادة الميجر جونس . اما قوات الاميرين علي وزيد فكانتا ترابطان بين النخيل وتنتشران من الشمال الى الجنوب قرب القوة المصرية .

ووصلت الى رابغ يوم ١٧ منه القوة الافرنسية قادمة من السويس بالباخرة الانكليزية (لاما) وتتألف من ٨ ضباط و٣٧ جندياً وصف ضابط بينهم ٣ من رجال الصحة وهي بقيادة الكولونيل قاضي ، المسلم الجزائري .

وعقـــد اجتماع في الخرطوم يوم ١٤ دسمبر سنة ١٩١٦ اشترك فيه الكولونيل بريمون والكبتن جورج لويد (اللورد جورج لويد بعد ذلك) والجنرال دنجت فتداول الثلاثة في التدابير التي يجب اتخاذها للحيلولة دون ضياع مكة المهمة بالنسبة للحلفاء .

وهذه هي الاسس التي دار عليها البحث :

١ ـ القيام بعمل في العقبة او غزة لقطع سكة حديد الحجاز على ان يقوم الجيش المصري بعمل عاجل وراء الحدود .

٢ ـ انشاء حصن في رابغ لقطع الطريق على الترك .

٣ ـ احتلال ثغر الوجه لاتخـــاذه قاعدة لتخريب سكة الحديد في منطقة مداين صالح .

٤ ـ عدم تشجيع العرب على اخذ المدينة لان اخذها يعزز فكرة الاتحاد العربي ويقويها مما يضر بمصلحة الحلفاء .

وسافر الكولونيل ولسن ـ المعتمد البريطاني في جدة ، والكولونيل بريمون معتمد فرنسا ، بعد ختام الاجتماع ـ الى رابغ ، اختاروا مكاناً لانشاء مطار ، وكانت هنـالك حاجة الى ٩٠٠ مصري علاوة على القوة

الموجودة والبحارة الذين يمكن انزالهم من البوارج عند الحاجة وهم بين ٦٠٠ ـ ٨٠٠ بحار .

ورفضت وزارة البحرية الافرنسية السماح لفوجين كانا في جيبوتي بالسفر الى رابغ .

وفي يوم ٢٩ دسمبر سنة ١٩١٦ وصل الى القاهرة الجنرال دنجت قادماً من الخرطوم ليتقلد منصب نائب الملك بمصر ، فقال للمسيو ديفرانس معتمد فرنسا خلال زيارته له : « انه وإن كان لانتزاع مكة من الترك اثر غير محمود في مصر وفي الهند ، فانا من القائلين بوجوب تقديم المساعدة اللازمة للشريف ، ومن انصار الرأي القائل بوجوب ارسال جنود اوربيين الى رابغ ، ولا بد من موافقة الشريف مقدماً على ارسالهم . ثم ابدى اسفه لتردد الشريف واضطراب رأيه ، وقال انه ارسل اليه كتاباً فيه صفة الانذار لكي يجيب عليه بلا او نعم ، ومداره هل يوافق على انزال جنود اوربيين في رابغ ام لا ؟ فاذا اجاب بالرفض فيرسل هذا الجند الى مكان آخر فقد يطلبه ثانية ، فان انزال جند في رابغ ولو كان قليلا يوقد نار الحماسة في صدور العرب ويحمل الترك على الكف عن اية محاولة جديدة لغزوها او الدنو منها » .

ورد الحسين على برقية نائب الملك ببرقية رقمية بتوقيع فؤاد الخطيب ارسلت الى ولسن في جدة فيها شيء من الغموض فأبرق هذا الى القاهرة قائلا ان الحسين وافق على انزال جنود اوربيين في رابغ . فاصدر دنجت على الفور امراً الى الجنرال موراي (القائد البريطاني الاعلى في مصر) بان يبلغ الجنرال مودج بان يتحرك مع لوائه فوراً وكان معداً للسفر من قبل .

وسأل الجنرال (لندن بل) الانكليزي الملازم سان كنتان الافرنسي

عن القوات الافرنسية ، وهل ستسافر الى جدة ؟ وقال انها ستكون بقيادة الجنرال مودج وتنقل معه وتمون بواسطته .

فرد الكولونيل بريمون يوم ٧ يناير سنة ١٩١٧ بأن قوات السويس الافرنسية ستسافر الى رابغ مع القوات الانكليزية ببوارج انكليزية ، وان الكولونيل قاضي سيتلقى التعليمات من الجنرال مودج مع احتفـــاظه بالاستقلال الداخلي .

وكانت الخطة التي تصورها نائب الملك تنطوي على ابقـــاء الجنود الاوربيين في رابغ للدفاع عنها ، وارسال القوى العربية كلها ، الى رابغ وتوجيه البدو نحو سكة الحديد .

وضرب يوم ٩ يناير موعداً لسفر اللواء ، وكانت الدلائل تدل على ان كل شيء قد انتهى ، الا ان وصول الكولونيل ولسن الى جدة يوم ٦ يناير عائداً من مصر بعدما عرّج على ينبع ورابغ جعلهم يعدلون عن ارسال اللواء ، فقد اقتنع هـذا بعدما درس الحالة بأنه لا حاجة الى ارسال جنود اوربيين اليهـــا ، ولم يكن فيها يومئذ اكثر من ٢٠٠ منهم ، وقال ان الترك لن يصلوا اليها مطلقاً ، وان مجيء لواء بريطاني يزيد الحالة اضطراباً ، فأيد بذلك وجهة نظر لورانس

وفي يوم ٩ يناير أبرق نائب الملك الى الحسين للبت في قضية ارسال جنود اوربيين ، واقترح عليه ان يطلب ارسالهم خطيـــاً وعلى مسؤوليته ، فرد بأنه لا حاجة في الوقت الحاضر الى الاستعانـة بالجنود الاوربيين على ان يحتفظ بحق طلبهم عند الحاجة .

وهكذا تولت الطبيعـــة بنفسها حل هـذه المشكلة التي استغرقت لمكاتبات التي دارت بشأنها نحو ستة اشهر ، استطاع الضباط العرب خلالها تكوين قوة عربية منظمة ضايقت الترك حول المدينة عسكرياً ، ومنعتهم

من مغادرتها وأجبرتهم على التحصن وراء اسوارها ، كما استطاعت بغاراتها المتتابعة على محطات سكة حديد الحجاز ، ان تعرقل نقليات الترك ، وتهدد مواصلاتهم .

واستقبلت الثورة عام ١٩١٧ وقد توطدت اقدامها ، ورسخت اركانها ، وتشعبت جذورها ، ونظمت قواها بما كان مقدمة لانطلاقات جديدة نقرأ اخبارها في الفصول الآتية .

وعد بلفور وتصريحات لورانس وهوجارت وماكماهون

وبينما كانت الامور تسير في ميادين القتال على هذا المنوال ، وكانت الحالة قد استقرت في دائرة الثورة ، وساد الهدوء والتفاهم ، تناقلت البرقيات نبأ مؤلماً صادعاً أقام العرب وأقعدهم ، وزادهم ايماناً بعدم اخلاص الانكليز، وعدم وفائهم .

فقد أذيع من لندن يوم ١ نوفمبر سنة ٩١٧ ان اللورد بلفور وزير خارجية بريطانيا اصدر وعداً لليهود بالاضافة الى حكومته ، يطلق يدهم بامتلاك فلسطين ، وهو بشكل كتاب موجه الى روتشيلد المثري اليهودي وهذا تعريبه :

عزيزي :

يسرني جداً ان ابلغكم بالنيابة عن حكومة الملك انهـــا تنظر بعين الرضا والارتياح الى المشروع الذي يراد به ان ينشأ في فلسطين وطن قومي لشعب اليهود ، وتفرغ خير مساعيها لادراك هذا الغرض .

وليكن معلوماً انه لا يسمح بإجراء شيء يلحق الضرر بالحقوق المدنية والدينية التي للطوائف غير اليهودية الموجودة في فلسطين الآن ، او بالحقوق التي يتمتع بها اليهود في البلدان الاخرى ومركزهم السياسي » .

وأثار هذا الوعد المشؤوم ضجة في دوائر القاهرة العربية ، فاستنكرتهَ فور صـــدوره وتطيرت منه ، وأدركت ما ينطوي عليه من مرامي خطيرة .

وكان الحسين نفسه في جملة الذين استنكروه ونظروا اليه بعين الريبة وخاطبوا السلطات البريطانية بشأنه ، ولئن كنا لم نعرف ماذا قال وبماذا أجابوا ، إلا ان الذي نعرفه هو ان هذه السلطات انتدبت الكومندان « هوجارت » من رؤساء المكتب العربي في القاهرة ، فذهب الى الحجاز في شهر يناير سنة ١٩١٨ اي بعد اسابيع من صدور التصريح ليقابل الحسين ، وليزيل ما تركه في نفسه من مخاوف .

وحمل الكومندان تصريحاً الى الحسين باسم الحكومة البريطانية ألقاه اليه ، واملاه املاء وطلب اليه ان يكتبه بخطه وهو :

« بالنسبة لفلسطين نحن مصممون على ألا يخضع شعب لشعب آخر ، ولكن بالنظر الى :

(أ) انه توجد في فلسطين مقامات واوقاف وأضرحة واماكن مقدسة للمسلمين وحدهم او لليهود وحدهم او المسيحيين وحدهم ، وبالنظر لاهتمام جماهير عديدة خارج فلسطين والبلاد العربية بهذه الاماكن ، فيجب ان يقام نظام خاص يقره العالم بخصوص هذه الاماكن .

(ب) انه بالنسبة للمسجد الاقصى يعتبر امره من شأن المسلمين وحدهم ولن بوضع ، مباشرة او غير مباشرة ، في ايد غير مسلمة .

« كما انه بالنظر لأن الرأي اليهودي في العالم يحبذ عودة اليهود الى فلسطين ، وبالنظر لأن حكومة صاحب الجلالة تنظر بعين العطف نحو تحقيق هذا المطمح ، فان الحكومة مصممة على انه في حدود عدم تعارض هذا مع حرية السكان الموجودين فعلاً من الناحيتين الاقتصادية والسياسية لن يقوم عائق في طريق تحقيق هذا الهدف الاسمى » .

وقال الحسين لهوجارث بعد ان كتب هذا التصريح بالقلم الرصاص ، انه اذا كانت الغاية من وعد بلفور هي ايجاد ملجأ يلجأ اليه اليهود يقيهم الاضطهاد ، فانه مستعد ان يبذل جهوداً في سبيل تحقيقه ، كما انه يوافق على كل تدبير ملائم يطمئن الطوائف الاخرى التي لهـــا اماكن مقدسة في فلسطين على حقوقها ، وأوضح للكومندان بشكل لا يقبل الشك بانه لن يتنازل عن حق العرب في السيادة ، وان كان يقبل عن رضا بالتفكير في الوقت المناسب ، بتزويد الحكومة العربية المقبلة في سورية ومنهـــا فلسطين بالخبراء الاداريين والفنيين .

وتناول هذا الموضوع نوري السعيد في الخطاب الذي ألقاه في مؤتمر لندن في (يناير سنة ١٩٣٩) لمعالجة قضية فلسطين فقال :

« وحينما اتصل بالجيش العربي ، تصريح بلفور في شهر نوفمبر سنة ٩١٧ وكان اذ ذاك يقترب من العقبة ، عم الذعر كافة القوات العربيـــة ، فتشاورنا فيما بيننا وأعلنا عدولنا عن الحرب في سبيل استقلال العرب ريثما يرد الينا تأكيد بان تعهدات السر هنري ماكماهون ستنفذ . »

وابلغ الملك حسين احتجـــاجه على تصريح بلفور في شهر يناير سنة ١٩١٨ الى القائد هوجارث الذي ارسلته الحكومـــة البريطانية الى جدة يحمل تأكيدات صريحة بان تصريح بلفور لا يتعارض والحرية السياسية والاقتصادية التي وعد بها العرب في مكاتبات ماكماهون ، كما اكدت له بواسطة هوجارث نفسه بأن هـــذا التصريح لا ينطوي على اكثر من وعد بايواء العاجزين من اليهود في فلسطين لاسباب روحية وثقافية ، وانه لا توجد نية في انشاء دولة يهودية . وأبلغ الحسين هذه التأكيدات الى القوات العربية فعادت الى مواصلة القتال .

ووصلت الى معسكرات الجيش العربي في شهر مايو سنـــة ١٩١٨ طوائف من شبـــاب العرب من فلسطين والاردن للتطوع في صفوفه ، لا

يقل عددهم عن ١٢٠٠ شاب فضلاً عن آخرين سبقوهم ، وكان عدده يزداد يومياً بالقادمين من فلسطين او بالقادمين من معسكرات الاسرى في مصر .

وأثار الشباب الفلسطينيون حديث وعد بلفور ، وقالوا كيف ننضم الى الانكليز ونقاتل معهم وقد وعدوا اليهود ببلادنا . فأثارت اقوالهم ضجة قوية في المعسكر اشترك فيها الحجازيون والعراقيون وتألف منهم وفد قابل الامير ، واحتج لديه على الوعد وعلى زيارة اللجنة اليهودية للقدس [١] ، فوعدهم بان يهتم للأمر ويعالجه على ارفع مستوى .

وخاف لورانس نتائج هذه الحركة فقال للأمير : ان جمال باشا الصغير ارسل هؤلاء لإيقاع البلبلة في الجيش فأجابه بأنه يعرفهم ويثق بهم .

وسكنت الضجة بعدما نال الأمير وعداً من لورانس بأن تعيد بريطانيا النظر في سياستها ازاء العرب ، وتنفذ وعودها وتنصفهم ، وقال بانه سيبذل جهده في هذا السبيل .

على ان أغرب ما حدث بالنسبة لهذا الوعد هو البيان الذي اصدره السر هنري ماكماهون (صاحب المكاتبات) فقد ارسل يوم ٢٣ يوليو سنة ١٩٣٨ كتاباً الى جريدة التيمس اللندنية بمناسبة الضجة التي كانت قائمة حول قضية فلسطين أنكر فيه ان تكون فلسطين داخلة في نطاق التعهدات التي قطعت للملك حسين . وهذا نص كتابه :

« تواترت الاشارات الى تعهدات ماكماهون ، ولا سيما ما يتعلق منها بفلسطين وقد ورد لها تفسيرات من جانب اليهود ، وأخرى من جانب العرب ، وقد قيل لي ان متابعة سكوت صاحب التعهد قد يساء فهمه ، فلذلك ارى من الواجب الادلاء ببيان في الموضوع حاصراً كلامي الآن في

---

(١) زارت هذه اللجنة فلسطين في شهر ابريل سنة ١٩١٨ واحتفل بها الانكليز .

المنطقة المختلف عليها ، وهي ذلك الجزء من سورية المعروف باسم فلسطين ، أكان منوياً او غير منوي ادخاله في الاراضي التي ضمن تعهدي للعرب الاستقلال فيها .

« فأنا اشعر بوجوب التصريح واصرح نهائياً وبكل تأكيد بأنه لم يكن في النية عند تأدية ذلك التعهد ، للملك حسين ادخال فلسطين في منطقة الاستقلال الذي وعد به العرب ، وكنت مقتنعاً كل الاقتناع وقتئذ بان الملك حسين كان فاهماً ان فلسطين غير داخلة في ذلك التعهد » .

ورد الامير عبدالله بن الحسين على ماكماهون بكتاب أرسل يوم ٢٥ يوليو سنة ١٩٣٨ الى المندوب السامي بفلسطين طالباً منه اذاعته وابلاغه الى الحكومة البريطانية وهو :

عزيزي صاحب الفخامة :

« انه لم يدر لي بخلد البتة ان يجرأ احد فيعرب عن رأي المرحوم والدي الملك بعد انتقاله من هذه الدار الفانية الى جواره سبحانه ، حتى سمعت البارحة في الاذاعة عن لسان السر هنري ماكماهون ان العهود المقطوعة لوالدي لم تتناول فلسطين ، وان المرحوم نفسه كان يعرف ذلك . ولما كان لتلك التهمة خطورتها ، وكنت الوحيد الباقي من انجاله ، كان حقاً عليّ ان اذود عنه واسوغ لنفسي النطق بلسانه فأصرح بأن تلك العهود كانت تشمل فلسطين ، وان المرحوم والعرب الذين كانوا على تلك العقيدة الراسخة لم يساورهم فيها ريب ، فوق اني كنت اعلم ذلك عنه في حياته وان فيما دار من مراسلاته مع السر ماكماهون ما يعزز حجتي ، ويؤكد صوابها ، ولقد كنت في ذلك الوقت كاتب يده وامين سره واتولى تلك المذكرات الى ان انجلت الثورة .

« اني لأرجو بعد ان تطلعوا على بياني هذا ان تتكرموا فتعملوا على تصحيح تلك الاذاعة بمثلها حرصاً على الحقيقة وعلى التاريخ ووفاء لعظيم

من عظمائه ، ان كان قد انتقل فان على الذين بعده من امثالنا من آله ومن اصدقائهم اجمع ان يدفعوا عنه ما لا يمت اليه بصلة ، وفي الاخص ما يختص بكرامته القومية واني تأييداً لما المعت اليه اذكر ما يأتي :

١ – لقد كانت مسألة الحدود عقبة كؤوداً في المراسلات التي دارت بين المرحوم والدي والسر هنري مكماهون نائباً عن بريطانيا ، وعلى الرغم من كل محاولة لاقناعه بالعدول عنها او تعديلها فقد أصر على التمسك بها والبت فيها ، فقد قال مكماهون في كتابه المرسل للشريف حسين ، بتاريخ ١٩ شوال سنة ١٣٣٣ « اغسطس سنة ١٩١٥ » ما يأتي :

« اما فيما يتعلق بالحدود فقد يكون بحثنا في مثل هذه التفاصيل – والوقت قصير والحرب قائمة – سابقاً لأوانه ، خاصة وان تركيا ما تزال تحتل قسماً كبيراً من الاراضي التي اشرتم اليها في اقتراحكم احتلالاً تاماً » .

أما تلك الاراضي ، التي يشير اليها السر مكماهون فهي التي وردت في كتاب والدي اليه ، مع علي افندي اصغر وفي المادة الاولى منه يلي :

١ – ان تعترف انكلترا باستقلال البلاد العربية من مرسين – ادنه حتى الخليج الفارسي شمالاً ، ومن بلاد فارس حتى خليج البصرة شرقاً ، ومن المحيط الهندي للجزيرة جنوباً ، يستثنى من ذلك عدن التي تبقى كما هي ، ومن البحر الاحمر والبحر المتوسط حتى سيناء غرباً » .

أما جواب والدي على الكتاب السابق للسر هنري مكماهون فكان بتاريخ ٢٩ شوال سنة ١٣٣٣ (١٩ ايلول سنة ١٩١٥) وفيه ما يأتي :

« ان مصالح ابناء ديانتنا كلها تطلب الحدود التي ذكرتها لكم » .

ثم ان جلالته اشار في ذلك الكتاب بكلمات شديدة اللهجة الى « البرودة » والى « التردد » اللذين ظهرا في كتاب مكماهون ، فيما يتعلق بالحدود ثم قال جلالته :

« ان هذه الحدود ليست لرجل واحد نتمكن من ارضائه ومفاوضته

بل هي مطلب شعب ، يعتقد ان حياته في هذه الحدود وهو متفق باجمعه على هذا الاعتقاد » .

وبعد ان أفاض في هذا الموضوع عن « اعتقاد » العرب لئلا « تعارضهم » انكلترا او احدى حليفاتها فيما بعد ، قال ما نصه :

« ولذلك نرى من واجبنا ان نؤكد لكم اننا سنطلب اليكم في اول فرصة بعد انتهاء الحرب ما ندعه الآن لفرنسا في بيروت وسواحلها » .

ولقد اجاب مكماهون على ذلك بكتاب منه مؤرخ في ١٥ ذي الحجة سنة ١٣٣٣ (٢٤ تشرين الاول سنة ١٩١٥) فقال :

« انه يؤسفني انكم لاحظتم في كتابي الاخير ، وحديثي عن قضية الحدود شيئاً من البرودة والتردد . وبعد الاعتذار عن ذلك قال :

« فأرسلت كتابكم الى الحكومة البريطانية ، وانه يسرني ان ارسل اليكم البيانات التالية التي اثق كل الثقة انها تفوز برضاكم : ان مرسين واسكندرون وبعض الاقسام السورية غربي دمشق وحمص وحماة وحلب لا يمكن ان يقال عنها انها عربية محضة » .

ثم قال :

« اما الاراضي التي تستطيع انكلترا العمل فيها بملء الحرية دون ان توقع ضرراً بحليفتها فرنسا ، فان لي السلطة التامة باسم حكومة صاحب الجلالة ان أعطيكم التأمينات التالية جواباً على كتابكم :

ا — ان انكلترا مستعدة — على اساس تلك التعديلات — ان تعترف باستقلال العرب ، وتقديم المساعدة لهم في الحدود التي اقترحها شريف مكة الى آخر تلك التعهدات .

ومن هذا ترون فخامتكم ان المقصود بتلك الحدود انما كان « سواحل لبنان » الذي ندعه لفرنسا اي بيروت وسواحلها « على امل المطالبة بها بكل تأكيد بعد انتهاء الحرب » . وقد قبل مكماهون ارجاء

البحث في تلك الانحاء الى فرصة اخرى وشكر الملك العربي على ما اظهره من حرص على دوام التحالف بين الحلفاء . ثم قال في كتابه المؤرخ في ٩ صفر سنة ١٣٣٤ (١٣ كانون الاول سنة ١٩١٥) ما يلي :

« اما بشأن ولايتي حلب وبيروت فحكومة بريطانيا قد فهمت كل ما ذكرتم ودونت ذلك عندها بعناية تامة ، ولكن لما كانت مصالح حليفتها فرنسا داخلة فيها فالمسألة تحتاج الى نظر دقيق وسنخابركم بهذا الشأن مرة اخرى في الوقت المناسب » .

وقد اكد جلالته ذلك في كتاب منه بتاريخ ٢٥ صفر سنة ١٣٣٤ (١ يناير سنة ١٩١٦) واجابه عليه مكماهون بتاريخ ٢٤ ربيع الآخر سنة ١٣٣٤ (٣٠ يناير سنة ١٩١٦) بقوله :

« اما ما يتعلق في الجهات الشمالية فقد كتبت ملاحظة عن رغبتكم في تجنيب كل ما من شأنه الاساءة الى تحالف انكلترا وفرنسا » .

ومن ذلك ترون ان فلسطين لم يكن في عروبتها شك ، ولم ينكر ذلك عليها احد ، وان فرنسا لم تكن تطالب بها . ثم انها من البلاد التي تستطيع انكلترا العمل فيها بملء الحرية دون ان توقع ضرراً بحليفتها فرنسا .

واني لأرجو ان تكون هذه البراهين الساطعة التي أدليت بها ناطقة مقنعة بأن فلسطين كانت داخلة في الحدود العربية التي اقترحها شريف مكة ، وان الجدال في امر الحدود انما ثار على بيروت وسواحلها » رعاية للحليفة فرنسا » وان البت في امرها ارجىء الى فرصة اخرى لانها لم تكن عربية محضة ـ على رأي مكماهون ـ ومنها مرسين واسكندرونة .

ثم ان هنالك ادلة ووثائق اخرى وهي تصريح ٨ نوفمبر سنة ١٦١٨ والبرقيات الصادرة من بريطانيا الى والدي وبرقية اخرى ، وقد أثبت الامير في كتابه نصوص هذه الوثائق ، وهي منشورة في هذا الكتاب .

وختم رسالته بقوله :

« ذلك ما عنّ لي الالمام به في هـــذه العجالة وازيد عليه ان حق العرب في بلادهم فلسطين لا يحتاج الى وثيقة او وعد ، فهم اصحاب البلاد واهلها منذ اجيــال وفي اقامة متصلة فيها ، وانهم رغم ما اجتاحهم من حروب ، ونزل بهم من خطوب ، لم يفرطوا بها ، ولم يتحولوا عنها ، والذي ارجوه من فخــامتكم الآن ، هو ان تثقوا ببطلان ما ذكرته الاذاعة من ان العهود المقطوعة لوالدي لم تتناول فلسطين وانه نفسه كان يعلم ذلك . فان الحقيقة التي لا مرية فيها هي ما صرحت به وأقمت الدليل عليه وهو ان فلسطين كانت داخلة في العهود المقطوعة لوالدي وانه لم يكن يعلم غير ذلك .

وارجو ان تتفضلوا بطريقة من الطرق بتصحيح تلك الاذاعة التي نحتج عليها أو ارشادنا الى ذلك لنقوم به بالذات رعاية لحرمـــة الأموات وحرصاً على حقائق التاريخ » .

من الوجه الى العقبة

ها هي الثورة تستقبل العام الجديد ، عام ١٩١٧ وقــد استقرت قواعدها ، واستقام عودها ، وزال كل خطر يهددهـا . واخذت تتأهب لفتح ميادين جديدة ، والقيام بمغامرات عسكرية واسعة النطاق .

لقد أتمت الثورة في خلال الاشهر الستة التي انقضت منذ اعلانهــا اخضاع مدن الحجاز الجنوبية والوسطى والغربية ، وبقي عليهــا القسم الشمالي ، وهو يتصل ببلاد الشام وقاعدته المدينة ، وكان هنالك اتفـاق ضمني بين العرب والترك على احترام حيادها ، وانتظـار اليوم الموعود ، الذي تستسلم فيه حاميتها ، عملاً بالقاعدة « كل محصور مأخوذ » .

وما كانت قوة الترك العسكرية المرابطة في داخل المدينة والمناطق المحيطة بها والمجاورة لها تقل عن ١٥ الف جندي ، يضاف اليهم ما لا يقل عن خمسة عشر الف جندي مثلهم كانوا منتشرين على طول سكة حديد الحجاز في مسافة يبلغ امتدادها نحو ٨٣٨ كيلومتراً وتبدأ من معان ، وتنتهي في المدينة .

وكان للترك ثلاث قواعد عسكرية كبيرة على طول هــذا الخط وهي :

١ — معان .

٢ — تبوك

٣ — مداين صالح .

وكانت مهمة هذه القوى وهذه القواعد حماية قطارات سكة حديد الحجاز في ذهابها الى المدينة وإيابها منها ، اي حماية خط المواصلات وهو شيء ثمين بالنسبة لهذا العدد الكبير من الجنود الذين يتوقف تموينهم ومأكلهم واستيراد جميع حاجياتهم على بقاء هذا الخط سليماً قادراً على العمل .

وهذه قواعد المنطقة العسكرية الجديدة التي وضعت للعمل في ابتداء هذا العام وتولى الجيش الشمالي تنفيذها ،

١ — يعبر هذا الجيش البحر الاحمر الى ضفته الشرقية وينزل في مدينة الوجه .

٢ — يرسل سراياه وعصاباته لنسف محطات سكة الحديد على امتدادها.

٣ — يحتل العقبة ويتخذها قاعدة لغزو مراكز الترك في جنوبي سورية (حوران) وشرقي فلسطين .

وتولى الامير فيصل بن الحسين قيادة هذا الجيش .

ووصل الكبتن لورانس الى ينبع في اوائل هذا العام ، ليتولى منصباً جديداً اختارته له القيادة البريطانية العليا في القاهرة ، وهو المستشار العسكري لجيش الشمال العربي .

وكان هذا بدأ اتصاله الفعلي بالجيش العربي وبالثورة العربية الكبرى ، وقد انتهت مهمته يوم دخول هذا الجيش دمشق في ٣٠ سبتمبر سنة ١٩١٨ فغادر سورية عائداً الى بلاده ، وكان ذلك نهاية اتصاله الفعلي بالثورة العربية .

الاستيلاء على الوجه

وطبقاً للخطة الموضوعة ، هاجمت البوارج البريطانية الثلاث : فوكس ودوفرين وايولوت ، صباح يوم ٢٤ يناير سنة ١٩١٧ مراكز الترك العسكرية في الوجه ، وضربتها بقنابلها فارتدت الحامية التركيـة الى الداخل .

ونزل في الوجه على الاثر ٥٠٠ جندي عربي نقلوا من ينبع ونزل معهم ٢٥٠ بحاراً بريطانياً فاشتبكوا مع الحامية التركية التي تحصنت وراء خنادق قوية ، في قتال انتهى بطردها ، وغنموا اسلحتها واخذوا منها ٨٠ اسيراً

وهذا هو البلاغ العربي العسكري الذي صدر عن هذه المعركة :

« سقطت مدينة الوجه في قبضة جنودنا العرب بعد معركة عنيفة دافع فيها الترك دفاع المستميت ، ثم فرت جنود الأعداء تاركة بين ايدينا ٨٠ اسيراً وعـدداً من القتلى والجرحى . وجدّت جنودنا في اقتفاء اثر المنهزمين ، ولا تزال تضرب في اقفيتهم ، وتقهقر الترك لا يلوون على شيء » .

وأرسل الانكليز الى الوجه ، مفرزة التخريب بقيادة الكبتن نيوكمب الذي كان عليه ان يدرب العرب على استعمال الديناميت وتفجيره لنسف قضبان سكة الحديد ومحطاتها وقطاراتها

ووصل الى الوجه في الغداة ٣٠٠ هجان ومعهم ٤ مدافع و١٠٠ رشاشة فانضموا الى القوة العسكرية فيها

واستولت القوى العربية في الغداة على ثغري المويلح وضبا ، وأسرت ما كان فيها من قوى تركية ، فتم بذلك الاستيلاء على جميع ثغور البحر الاحمر وموانئه وزال كل اثر للترك في هذه المناطق .

واتخذ الجيش الشمالي الوجه قاعدة له وبدأ يرسل منها السرايا والعصابات للغارات على محطات سكة الحديد الممتدة بين المدينة شمالاً ومداين صالح جنوباً . ففي يوم اول مارس سنة ١٩١٧ أغارت سرية الشريف شرف ابن راجح ، وكانت تضم نحو الف هجان ، مسلحين بمدفعين جبليين وأربعة رشاشات وقوة من البغالة ، تؤيدها مفرزة التخريب البريطانيـــة ، على قلعة « المعظم » وكانت من مراكز الترك الكبرى في المنطقة ، فدارت معركة كانت اول ما يدور في هذا الميدان انتهت بارتداد العرب منهزمين بعدما خسروا ١٢٦ قتيلاً وجريحاً ، وأصيب قائدهم بجرحين وكسرت يده اليسرى ، وقتل احد ضباطه . على انهم أعادوا الكرة في الغداة وثأروا لقتلاهم .

واستمرت المعـارك تدور في دائرة هذه المحطات وعلى امتدادها حتى اوائل شهر يوليو سنة ١٩١٧ وكانت القوات العربيـة توالي الهجوم على مراكز الترك فتحتل بعض المحطات ثم تجلو عنها او تنسفها طبقاً للمخطط الموضوع ، فقد كانت الغاية من حروب المحطات هي ازعاج الترك واقلاقهم وشل حركة مواصلاتهم .

وواصل الجيش الشمالي في خلال ذلك تقدمه شمالاً سالكـــاً طريق الساحل ، وكان يزداد قوة يوماً بعد يوم بمن ينضم اليه من الاسرى العرب الذين كانوا يتوافدون من مصر بدون انقطاع ، ومن ابناء القبائل العربية النازلة في المنطقة .

وفي اوائل شهر يوليو سنة ١٩١٧ وصلت قوات من هـــذا الجيش بقيادة الشريف ناصر بن شكر الى منطقة معان ، وكان عليهـــا تدمير مراكز الترك وتخريب المحطات . وهنا انضم اليهـــا عودة ابو تايه شيخ عرب الحويطات ، فهاجمت بالاتفاق معه محطة معان وشتت شمـل القوة التركية التي كانت ترابط هناك .

وفي يوم ١٩ رمضان سنة ١٣٣٥ (اغسطس سنة ١٩١٧) تم الاستيلاء على العقبة بحراً . وكان للترك هنا حامية تتألف من ٧٠٠ جندي يقودها ٣٠ ضابطاً استسلمت للمهاجمين الذين غنموا مدفعين وكمية من الاسلحة .

الاستيلاء على العقبة

وانتقل الامير فيصل على الاثر الى العقبة واتخذها قاعدة لجيشه الذي انتقل باسره الى المنطقة المحتلة الجديدة .

وفي اوائل شهر سبتمبر سنة ١٩١٧ احتل هـذا الجيش الكويرة وتقع في الطريق بين العقبة ومعان ، والمسافة بينهما نحو ٧٢ كلم وأخـذ يسير سراياه لغزو المحطات بين تبوك والقطرانه .

وأعيد تنظيم القوى النظامية في العقبة على منوال جديـــد سيما بعدما تتابع وصول الاسرى من الضباط والجنود والعرب ، فصارت تتألف من فرقتي مشاة تضمان أربعـــة ألوية : لواءي العقبة الاول والرابع ، ومقرهما العقبة ولواء الكويرة واللواء الهاشمي ويتألف اللواء من فوجين ، والفوج من ٥ سرايا (بلوكات) مع سرية رشاشات . ولواء مدفعية وفوج نقليـات وفيه ١٥٠٠ جمل ووحدة هجانة .

وقد وزعت هذه القوى على المنوال الآتي :

يؤلف اللواء الاول القوة الاحتياطية ويظل في العقبة ، ويرابط اللواء الثاني في الكويرة ويحتل اللواء الهاشمي وادي موسى (البتراء) . وقد نفذت هذه التعليمات بلا صعوبة فأزعج ذلك الترك وأقلقهم فجهزوا حملة عسكرية كبيرة زحفت الى وادي موسى لاحتلاله فصدمهـــا اللواء صدمة شديدة واستمر القتال بين الفريقين ثلاثة ايام حمل اللواء في نهايتها على الترك فمزقهم وكسرهم شر كسرة ، مع ان عدد جنودهم كان يزيد على عدده أضعافاً

مضاعفة وقاد الحملة التركية وقـــد سارت من معان اللواء محمد جمال باشا نفسه .

وجدد الترك الهجوم فأعدوا حملة من كتيبتي بغـالة ومدفعين وسرية رشاشات سارت من معان ، ولسبر غور القرتين العربيتين في وادي موسى والكويرة . وكان الجيش العربي قد أعد سرية في الربغة بقيـادة مولود مخلص قوامها فوج مشاة (٤٠٠) وسرية رشاش ورعيل من الخيـــالة فالتقت السريتان في الربغة (اواخر نوفمبر سنة ١٩١٧) ودار القتـــال بينهما في عين وحيدة فانتهى بارتداد الترك وانسحابهم ، ثم استؤنف القتال وصال العرب على الترك فجلوا عن هذه مرتدين الى سمنة ومعان نفسها ، فعزز احتلال هذه مركز الجيش العربي فأخذ يغير على اطراف معان ويضايق الترك فأعدوا قوة جديـــدة في اواسط شهر ديسمبر تتألف من كتيبتي بغالة وفوجي مشاة وبطاريتي مدافع ، فقابلتهم السرية العربية نفسها وصدمتهم فارتدوا الى سمنة والمسافة بينها وبين عين وحيدة ٨ كلم .

وفي شهر نوفمبر سنة ١٩١٧ انتقل مقر الجيش الشمالي من العقبـة الى الكويرة ، وفيها اعد حملة من اللواء الهاشمي وهجانة الشريف ناصر بقيادة نوري السعيد سارت الى الجفر حيث انضم اليها عودة ابو تايه برجاله فحملوا جميعاً على محطة جروف الدراويش (بين عمان ومعان) فدمروها واسروا حاميتها التركية المؤلفة من ١٠٠ جندي وغنموا مدفعاً ودمروا قطـاراً كاملاً كان يحمل ميرة الى المدينة .

وأعد هـــذا الجيش ايضاً حملة بقيادة الامير زيد تتألف من هجانة الشريف ناصر ومدفعين جبليين ورشاشتين وكوكبة خيالة و٦٠٠ من قبائل الحويطات فزحفت الى الطفيلة لاحتلالها ومشاغلة الترك شرقي نهر الاردن لتخفيف العبء عن الجيش البريطاني ، وكان يحارب في غربه ، فاحتلتها في اوائل شهر فبراير بدون مقاومة تذكر فأعدت القيادة التركية العليا فرقة

عسكرية كاملة بقيادة أميرالاي حامد فخري بك لاستردادها لما لمركز الطفيلة من شأن عسكري كبير . واتصل هذا النبأ بالامير زيد فاستنجد بقبائل الكرك العربية فأنجدته وجاءه رؤساء القبائل بالذات ووصلته نجدات من الكويرة . وفي اوائل شهر مارس حملت الفرقة التركية على العرب فصمدوا لها ، ودار قتال عنيف استبسل فيه الفريقان وانتهى بتمزيق الفرقة التركية شر ممزق ومقتـل قائدها وهيئة اركان حربه وعدد من ضباطه ، وغنم العرب مدفعين من المدافع السريعة الطلقات و٢٢ رشاشة و٢٠٠ دابة واسروا ٣٠٠ جندي .

وفي منتصف شهر مارس أعد الترك حملة كبيرة لاسترداد الطفيلة قادها جمال باشا ايضاً ففازت باسترجاعها على أنها ما لبثت ان جلت عنها .

وانتقل مقر الجيش الشمالي من الكويرة الى ابي اللسل متابعاً الجيش في زحفه نحو الشمال . وحدثت حادثة في اوائل شهر ابريل تستوقف النظر وتدل على انتشار الروح القومية في صدور رجال الجيش وعلى يقظتهم ، وتثبت انهم كانوا يحاربون لاستقلال العرب لا لغاية اخرى . وبطل هذه الحادثة اللواء مولود مخلص (قائد الفرقة العربية) فقد ابى تنفيذ امر أصدرته اليه القيادة بمهاجمة محطة قصوعة جنوب معان ، وقال يجب علينا بعد الآن ان نولي وجهنا شطر الشمال (شطر بلاد الشام) لخدمة قضيتنا الوطنية والعمل على تحرير اخواننا لا ان نرجع الى الجنوب . وغني عن البيان ان مولود مخلص اراد تحدي الضابطين الانكليزيين في المعسكر وهما لورانس وجويس ، وقد كانا يعملان جهدهما ليوجها الجيش العربي نحو الجنوب (اي نحو الحجاز) وصرفه عن التقدم نحو بلاد الشام والتوغل فيها طبقاً لتعليمات حكومتهما .

ووضع مولود باشا واخوانه الضباط على الاثر مضبطة بمعنى ما تقدم رفعوها الى الامير طالبين ان يولي الجيش وجهه نحو الشمال ، تاركاً قوة

كافية لحصار معان ريثما تسقط جوعاً كما فعلوا في ميدان المدينة من قبل فيخدمون بذلك القضية الوطنية التي جاءوا للموت في سبيلها . ولما وصلت المضبطة الى القيادة امرت بتنحية مولود عن العمل لأنها اعتبرت عمله خروجاً على التقاليد والنظم العسكرية . وأعدت قوة لمهاجمة محطة قصوعة عملًا بالأمر الصادر قادها جعفر العسكري بنفسه ، ولكنها لم تكد تغادر ابا اللسل حتى هبت عليها عاصفة شديدة تلتها امطار غزيرة فتاهت في الصحراء وتشتتت وهلكت دوابها . واتصل ذلك بمقر القيادة فارسلت السيارات والجند لانقاذها فعاد رجالها بعد عناء شديد بدون عمل فكأن الطبيعة ارادت ان تشارك الضباط في غضبهم . وما هي الا ايام حتى أفرج عن مولود وأعيد الى قيادة فرقتهم ، وصدر اليه الأمر بأن يستعد للهجوم على معان وكان الضباط الانكليز يسمونها فردون العرب .

وفي منتصف شهر ابريل أعدت حملة بقيادة عبدالله الدليمي تضم قوة من مشاة الفرقة الاولى مسلحة بمدفعين جبليين مع بعض رجال الحويطات للهجوم على محطة دار الحج جنوبي معان ، ولما اقتربت منها أرسلت جندياً وعريفاً للاستطلاع فباغتهما الترك فقتلوا الاول وجرحوا الثاني وأخذوه معهم الى داخل المحطة وهاجمت السرية المحطة واستولت عليها واسرت حاميتها ، ولما رأت العريف العربي مذبوحاً قتلت جنديين تركيين انتقاماً له وكتب قائدها الى قائد الجيش التركي في معان ينذره بقتل اسرى الترك اذا عادوا لذبح اسرى العرب ويقول له : « عندنا كثير من اسراكم ولا يوجد اسير واحد منا عندكم » .

وقررت القيادة مهاجمة معان وصدر الأمر الى الفرقة العربية الثانية بأن تتظاهر عسكرياً امام محطة الجردونة لتحول بين قواها وبين الانضمام الى حامية معان حين الهجوم على هذه ، فقامت بمهمتها وهاجمت المحطة يوم ٢٢ ابريل وفي صباح ٢٤ منه تقدمت الفرقة الاولى بقيادة مولود مخلص

لاحتلال تلول السمنات الواقعة غربي معان ، وكان اللواء الاول يؤلف مقدمة الجيش المهاجم فشرع بالهجوم على خط الترك الاول من صباح ٢٥ منه وأصلت المدفعية العربية الترك نيراناً حامية فتقدم الجند تحت حمايتها فاحتل بعد عناء سلسلة تلول السمنات وهي واقعة غربي معان وتبعد عنها كيلومتراً وتسيطر عليها وقد حصنها الترك من قبل ، ولما رأى قائد الفرقة تقهقر الترك شهر حسامه ونادى برجاله وتقدم لمطاردة المنهزمين وكانوا متجهين نحو معان وكان يظن ان سقوطها اصبح قريباً ، ففاجأته قوة تركية بنيران شديدة من خنادقها فاصيب برصاصة وكسرت رجله فنقله جنده على الفور الى مقر الجيش ومنها ارسل الى القاهرة للمعالجة .

وأصلى الترك من مواقعهم الحصينة في معان نيراناً حامية لكي يزحزحوهم فثبتوا وأخذوا يعدون العدة لاستئناف الهجوم وكانوا يترقبون وصول الفرقة الثانية من محطة الجردونة وقد تكللت مهمتها بالنجاح التام فدمرت المحطة واسرت الحامية وعادت مثقلة بالغنائم فعهد اليها بالهجوم من جناح الفرقة الاولى الأيمن (اي من جنوب غربي معان) وكان الأميران فيصل وزيد في تلول السمنات يشرفان على الأعمال العسكرية . وحمل الجيش العربي على اماكن الترك الحصينة اصيل يوم ٢٧ منه بعدما اصلتهم مدفعيته نيراناً حامية وتقدم المشاة ـ ولم يشترك احد من رجال القبائل في هذه المعارك لانهم لم يألفوا الهجوم على الحصون ـ فطردوا الترك واحتلوا خط الدفاع الثاني عند العشاء وقضوا فيه ليلتهم واستأنفوا الهجوم في الغد عند الأصيل على خط الدفاع الثالث وامتد القتال حتى المساء وانتهى بفوز المشاة العرب واحتلالهم الخط الثالث فقضوا فيه ليلتهم .

وجزع الترك واضطربوا وعقدوا اجتماعاً في الليل قرروا فيه الاستسلام للعرب – وما كانت حامية معان تقل عن فرقة عسكرية – ولما شاع

ذلك بين السكان أقبلوا على التطوع في صفوف الترك فلحوا نحو ٥٠٠ منهم شحنوهم في خط الدفاع الرابع وعززوهم به ، ولقي الجيش العربي صعوبة وعناء في الغد عند حملته على هذا الخط ودام القتال حتى الليل فأصدر القائد امراً بارتداد الجيش الى خط الدفاع الثاني لأن الترك تلقوا نجدات في ذلك اليوم ولأن قنابل المدافع نفدت . وفي ٣٠ أبريل اوتد الجيش الى عين وحيدة وبلغت خسائر العرب في هذه المعارك ١٠٠ قتيل وجريح . واليك ما كتبه مولود مخلص عن حروب سمنة ـ معان قال :

« أصدر الامير امره للتأهب بالزحف على سمنة واحتلالها بالقوة العربية ، وهي اللواء الاول من الفرقة الاولى ويتألف من فوجي مشاة (٦٥٠ — ٧٠٠) محارب بقيادة تحسين علي ومن سريتين و٤ مدافع صحراء ومثلها جبلية ومدفعين هوجيكس بقيادة جميل المدفعي وما ينوف عن ٤٠٠٠ مجاهد من العشائر .

« وصدرت الاوامر في اليوم التالي بأن ينضم اللواء الثالث للفرقة الاولى مع سريتي رشاش و٤ مدافع جبلية وعدد غير يسير من القبائل الى القوة العربية الاولى ، وكان هذا اللواء قد تحرك قبل ٣ ايام بقيادة نوري السعيد الى جنوب معان لتخريب السكة الحديدية والمحطات ، فأدى مهمته فصدر اليه الأمر بأن يرتاح .

« وفي يوم ٢٤ ابريل تحرك اللواء الاول بعد العصر بطريق عكيكة في الشرق الجنوبي من معان (الجناح الاول من سمنة) ولقد تلقت احدى السرايا امراً بأن تذهب مع رشاشتين وجمع من القبائل الى جناح سمنة الايسر فتشاغل العدو .

« واستقر الرأي على ان يكون الهجوم من الوراء لسهولة الاراضي ، فتقدمت الوحدات النظامية وحشدت على منوال تستطيع معه منازلة قوى العدو القادمة من معان وضرب قواه المرابطة في سمنة من الجناح

والوراء ايضاً ، واختير مكان موافق للمدفعية فتسنى لها ضرب سمنة من الجناح والخلف واصلاء معان ناراً حامية .

« ولما بزغت شمس ٢٥ منه بدأت المدفعية تصب نيرانها على الترك في سمنة فتمهد لهجوم المشاة — وما كان الترك يعتقدون ان الجيش العربي يستطيع ان يقوم بمثل هذه الحركة الخطيرة — فقامت بواجبها على افضل منوال . وبعد انقضاء ٢٠ دقيقة امر قائد اللواء الاول احد افواجه بالهجوم ، فزحف فوج عبد الحميد الهاشمي فاحتل موقع الترك الذين انسحبوا من دون خسارة تذكر بسبب تساهل الجيش وقوى الجناح الايسر في مطاردتهم . ولم يشترك احد من ابناء العشائر وكانوا يحصون بالالوف .

« وخيل الي ّ ان من العار علينا ان ندع العدو يتقهقر من دون ان نفتك به ونمزق قواه فلا تنضم الى اخواتها وتحاربنا في الغداة . ولكن ما العمل ؟ وليس عندي قوة راكبة استطيع ان اطارده بها ، وبما انني لم اقدر على ضبط نفسي ولا ان اقف موقف المتفرج على ضياع هذه الفرصة الثمينة تذهب من ايدينا أسرعت أحث عبيد الامير ، وكانوا بالقرب منا ولا يقل عددهم عن ٦٠ خيالاً على مطاردة العدو فانضموا الي وهجمنا على سرية تركية كانت مسرعة في الانهزام فأسرناها كلها وبدأنا نطارد سرية اخرى . وانشغل معظم هؤلاء في نزع سلاح الترك المأسورين فتأخروا عن اللحاق بي ولم يبق معي سوى ١٥ — ٢٠ جندياً فأطمع ذلك العدو المنهزم فوقف واخذ يطلق الرصاص علينا فاصابت رصاصة رجلي اليسرى فكسرتها وجرحت اخرى اليمنى وقتل خمسة من رجالنا وجرحت فرسي وهرب من كان معي .

« وعرف جنودي ما أصابني فأتوا لنجدتي تحت نيران العدو الحامية ، فكان ذلك اعظم برهان على الوداد المتقابل والمحبة السائدة بين الجند

وقائدهم . وتقدر قوة الترك التي اشتركت في محاربة سمنة بفوج مشاة وسرية رشاش ومدفعين وكانت المدافع التركية في معان تأتي كل صباح الى سمنة وتعود في الغروب ، وحيث ان الهجوم عليها وقع عند الفجر فلم تستطع هذه المدافع ان تساعدها بل اكتفت بمساعدتها في اثناء تقهقرها » .

وأعد الجيش بعد هذه المعركة سرية مؤلفة من ٢٠ هجاناً بقيادة الشريف ناصر فهاجمت يوم ٨ مايو محطة القطرانه وأسرت عدداً من الجنود الترك ثم أعادت الكرة عليها في الغداة .

وأعد سرية اخرى أسماها سرية وادي الحسا من هجانة بدو ومدفعين ورشاشتين للتأثير في بني صخر وعشائر الكرك وحملهم على الاشتراك في تخريب السكة وقد اتحدت مع سرية الشريف ناصر وهاجمت يوم ١٢ منه محطة القطرانه فلم تنجح .

ثم هاجمت محطة وادي الحسا يوم ١٥ منه فاحتلتها ودمرت جانباً من السكة ، فسير الاتراك قوة استردتها في اليوم التالي . ونشط العرب في خلال هذا الشهر نشاطاً زائداً لتخريب السكة وتعطيل مواصلات عدوهم فدمروا ٢٥ جسراً من جسور السكة خلال ٢٠ يوماً .

وهاجمت سرية عربية اخرى يوم ٣٠ مايو محطة الفريزة وأحاطت بها . فشقت حاميتها التركية طريقاً لها واتجهت الى محطة القطرانه واسترد الترك المحطة .

وفي اوائل شهر يونيو تحركت الفرقة الاولى للجيش العربي من عين وحيدة للهجوم على محطة الجردونة . وتولى نوري السعيد قيادة هذا الهجوم ومشى اليه اللواء الأول من الجنوب والثاني من الشرق . وكان الترك قد أحسنوا تحصينها وحشدوا فيها قوة من المشاة مع ٤ رشاشات

ومدفعين فاستسلمت عندما ضيق عليها الخناق فخربت الفرقة المحطة والجسر وعادت بأسرى عددهم ٢٢٠ الى مقرهـا . وعاد الترك فأصلحوا الجسر والمحطة وسيروا في اواخر هذا الشهر قوة مؤلفـة من فوج مشاة و ٤ مدافع و ٨ رشاشات فاستولوا على المحطة وحصنوها ، واستانفت الفرقـة الاولى الهجوم عليهـا فلم توفق الى احتلالها . ثم سيرت اللواء الاول الى جرف الدراويش وهنـاك انضمت اليه سرية وادي الحسا فهاجمتا هـذه المحطة في اواخر ذاك الشهر ايضاً ، ورأى قائدها ألا فائـدة من المجازفة لأنها كانت حصينة فارتد عنها فعادت سرية الحسا إلى مكانها ، وظل اللواء الاول في القطرانه فاقام فيها شهراً واحـداً لمنع اتصال الترك بقواهم في الجنوب ، ثم تلقى امراً بأن ينسحب الى الطاحونة وكان فيها مقر الفرقـة الاولى . وأغارت سرية الشريف ناصر على محطـة المنزلة وقلعـة عنيزة ووادي الشعر فاستولت عليها ثم استردها الترك فكانت تنتقل بين ايدي الجيشين .

وقررت القيـادة العلـيا في النصف الاخير من شهر يوليو مهاجمـة الجردونة لمشاغلة حامية معان التركية ولتخفيف العبء عن الجيش البريطاني في الشريعة . وحمل نوري السعيد بالفرقتين الاولى والثانية يوم ٢٠ يوليو مع اللواء الهشمي ومفرزة التخريب على الجردونة لتنفيذ هذه الخطة بعدما ترك اللواء الثاني من الفرقة الاولى امام معان .

وكانت حامية الجردونة التركيـة مؤلفة من فوج مشاة و ٤ مدافع ورشاشات وكانت المحطة منيعة جداً كما كان على الجيش المهاجم ان يعمل في أراضي سهلية تجعله هدفاً لنيران العدو ، ولذلك لم ينجح هذا الهجوم واضطرت القوات العربية الى الارتداد بعدما فقدت ٢٤ ضابطاً و ٢٠٠ جندي قتلوا ما عدا الجرحى .

وفي يوم ٢٣ يوليو تلقى اللواء الاول أمراً بالهجوم على محطة تل الاحمر

وتقع بين معان والجردونة وتخريبها فلم يوفق وعاد بعدما خسر ٥٠ قتيلاً وبضعة جرحى وكر يوم ٢٥ منه فارتد ايضاً .

واستمرت المعارك في هذا الميدان على هذا المنوال ، حتى أواسط شهر سبتمبر سنة ١٩١٨ اي حتى شرع الجيش الانكليزي بهجومه الكبير على مراكز الترك في شمالي فلسطين بالاتفاق مع الجيش العربي الذي لعب دوراً كبيراً في هذا الهجوم وأثر تأثيراً مباشراً ساعد على هزيمة الترك واحتلال مراكزهم وأسر عدداً كبيراً من جنودهم .

عهدان انكليزيان جديدان

أول ما يلاحظه الباحث في اضابير القضية العربية ، خـــلال المرحلة الاولى التي بدأت باتفاق الشريف حسين والحكومة البريطانية ، هو عدم احترام هذه الحكومة لعهودها ووعودها ومواثيقها ، وعدم تمسكها بها ، خلافاً لما كان يؤثر عنها ، بل وخلافاً لما كان يفرض فيهـــا من احترام العهود التي تقطعها على نفسها ، بمحض ارادتهـا واختيارها ، والحرص على العهود والوفاء بها من الخصال الحميدة الممدوحة . والمسلمون عادة مفطورون على احترام عهودهم ، ان العهد كان مسؤولا

ولقد أوردنا في الفصل السابق ، قصة وعد بلفور ، الذي قطعـــه الانكليز لليهود ، وأقطعوهم بموجبه بلاداً عربية ثمينة لا حق لهم فيهـا . وبديهي انهم لم يفعلوا ذلك حباً بهم ، ولا اداء لواجب انساني ، كما قالوا كذباً وتضليلا ، بل سعياً وراء غرض دنيوي ، فقد اكتتب اليهود في قرض النصر البريطاني الذي صدر سنة ١٩١٦ بمئة مليون جنيه قبضهـــا الانكليز ثمن الوعد مقدماً . يضاف الى ذلك ما نادى به بعض اقطابهم ، وهو ان وجود كتلة يهودية قوية بجوار قناة السويس ، قـد يكون في

مصلحة الامبراطورية البريطانية ، لأنه يمكنها الاعتماد عليها في مقـــاومة الحركة العربية .

فحكومة لندن في اعطائها هذا العهد انما كانت تقصد شل الحركة العربية التي عاهدت العرب على نصرتها وتأييدها بايجاد قوة معـادية تقف في طريقها ، وتحول دون نموها ، بما تخلقه لها من مشاكل في داخـــل المنطقـة . ولقد ظل الانكليز مدة احتلالهم لفلسطين وسيطرتهم عليها منذ سنة ١٩١٧ حتى جلائهم عنها سنة ١٩٤٨ امناء لهذه السياسة ، اوفياء لها ، فقد وضعوا جميع قواهم وامكاناتهم في كفة اليهود ، وفتحوا لهم ابواب فلسطين ، وأطلقوا يدهم في امتلاكها ، كل ذلك فعلوه في سبيل مقاومة الحركة العربيـة واضعافها ، فلا تنمو ولا تزدهر ، ولا تتحول الى قوة كبيرة ، تقف في طريقهم ، وتحول دون تنفيـذ خططهم الاستعمارية في الشرق العربي .

هذا ما نقوله تعليقـاً على صدور وعد بلفور ، وعلى التصريحات التي حملها الكومندان هوجارت الى الشريف حسين وألقـــاها اليه إلقاء باسم الحكومة البريطانية ، وهي في جملتهـا مهلهلة ، متهافتة ، سداها الخداع ولحمتها التضليل ، شأن معظم ما كان يصدر عن الحكومة البريطانية للعرب في تلك المرحلة .

عهد انكليزي جديد

وهذا عهد انكليزي جديد للعرب ، نضيفه الى سلسلة الوعود والعهود التي جروا على اصدارها يومئذ ، لا بقصد التنفيذ ، بل بقصد التخدير والتسكين والتضليل .

لقد سعى الامير سعيد الجزائري ، في صيف سنة ١٩١٨ ، للتوفيق

بين العرب والترك ، بعقد صلح منفرد بينهما ، على قاعدة اعتراف تركيا باستقلال بلاد العرب . وفي سبيل هـذه الغاية ، زار جمال باشا الصغير ، قائد الجيش الرابع ، وكانت مدينة السلط (الاردن) مقراً لقيادته ، وأطلعه على مشروعه فأقره ، ثم سلمه كتابـاً خاصاً الى الامير فيصل وأرسله بقطار خاص الى معان ، لكي يسلمه الى الامير يداً بيد ويسعى لاطفاء نار الفتنة .

وهذا كتاب الباشا للامير :

قيادة الجيش الرابع في ٥ اغسطس سنة ١٩١٨

« المعروض :

« إطفاء لنار الفتنة المشتعلة بين المسلمين ، ابعث الى حضرتكم بالنجيب الامير سعيد الذي يقوم من جانبنا بمهمة مقدسة ، واني لعلى اعتقاد بأن حفيد النبي الكريم غير مرتاح الى هذا الفتور بين المسلمين ، واعتقد ان روح النبيّ الطاهرة ستكون راضية عن عملي هذا .

« واسأل الله ان يصون دينه المحمدي كما وعدنا في كتابه الكريم وأن يوفق العاملين للصلح فيما يسعون اليه » .

وأعد الامير سعيد الكتاب الآتي وأرسله مع رسول خاص مع كتاب الباشا الى الامير فيصل وهو :

معان في ١٧ اغسطس سنة ١٩١٨

« كلفني قائد الجيش الرابع جمال باشا ان اوافيكم الى مقركم العالي للبحث في قضية الصلح ، وأجد نفسي سعيداً بلقائكم كما ارجو الله ان يوفقني لخدمـة البلاد . فاذا كنتم على استعداد للدخول في المفاوضات

فأرجو من سموكم تحديد الزمان والمكان فأوافيكم متخذاً هـــذه الفرصة وسيلة لتأييد الاخوة واقبلوا فائق احترامي » .

وفي يوم ١٨ منه عاد الرسول الذي حمـل الكتابين الى مقر الامير فيصل يحمل الرد الآتي :

عين وحيدة في ١٨ اغسطس سنة ١٩١٨

« تلقيت رسالتك ، وسررت لدوام صحتك عسى الباري ان يحفظك، ولولا علمي بصفاء قلبك ، وخلوص نيتك ما كنت ارى لزوماً للرد على كتابك ، ولكن بالنظر لما بيننا من الاخوة والمحبة ارى إن كانوا (اي الترك) قد زودوك بمـــا تثق به ويطمئن اليه قلبك فاحضر الى وادي « عقيقه » هذه الليلة تجد عشرة رجال يحملون فانوساً احمر فاعتمد عليهم وهم يقودونك الينا ، وإن كنت لا تحمل ما يطمئن اليه قلبك فلا تتعب نفسك . فانت في مكانك والعرب وشأنهم والسلام » .

وقصد الامير سعيد الوادي في الوقت المضروب مع دليل فلم يجـد احداً لأنه لم يعثر على المكان المحدد للاجتماع فعاد الى معان ، وفي الغـد ارسل الى الامير فيصل كتاباً يخبره بما وقع معه ويطلب منه ان يرسل مندوباً يعتمد عليه وينتظر قدومه على اكمـة تشرف على السهل فيقصد المعسكر العربي متستراً بستار الظلام .

ووصل المندوب فصحب الامير الى المعسكر العربي فاستقبله نوري السعيد وفائز الغصين فقضى ليلته هنـــالك . وفي الغد اجتمع الى الامير وسلمه كتاب جمال باشا (المنشور آنفاً) فكتب عليه الرد الآتي :

عين وحيدة في ٢٢ اغسطس سنة ١٩١٨

« الى حضرة قائد الجيش الرابع :

« تلقيت كتابكم الذي تفضلتم بارساله مع الامير سعيد ، وبما ان ما

تضمره ذاتكم العالية مزيداً من العواطف السامية نحو المسلمين معلوم لدى الجميع فليس عندي ما اقوله سوى تبجيل شخصكم الكريم . وبما ان الرسائل التي نتداولها منذ تسعة اشهر بقيت عرضة للتسويف فلم يبق امل بالوفاق والاتفاق . غير ان مساعي الامير سعيد في هـــذه المرة أحيت بعض امل في نفسي مع ان الحال والوقت هما في اقصى درجات الخطورة ، كما ان وضعك العسكري مهلك ، ولا أورد هذا على سبيل التهديد بـل ان وجداني يسوقني الى اسدائكم النصيحة . ان العرب لا يطلبون شيئاً زائداً من الترك بل غاية ما يتمنونه ان يعيشوا احراراً وان يضعوا ايديهم بأيدي الترك وان يكون حالهم من حكومتهم كحال بافاريا من بروسيا . فاذا كانت حكومتكم مستعدة لقبول هذه الشروط فنحن على أتم استعداد للدخول في الصلح ، والا سنرجع الى اصدار الفتاوى ونصب المشانق .

« واقبلوا يا حضرة الباشا احترامي » .

وعاد الامير سعيد الى السلط بهـذا الكتاب وسلمه الى جمال باشا ، فجمع هذا هيئة اركان حربه فدرسته ، فقررت ارسال برقية الى حكومة الاستانة بوجوب الاعتراف باستقلال العرب . وأخذت هذه بهذا الاقتراح فأعدت مشروع مرسوم رفعته الى السلطان فأقره ، ولكنه لم يبلغ إلا متأخراً ، وكان الوقت قد فات .

وأرسل فيصل المكاتبات التي دارت بينه وبين جمال باشا الى والده في مكة ، فأرسلها هذا الى نائب الملك بمصر لاطلاعه عليها ، مع كتاب اكد فيه ان العرب يحافظون على عهودهم ، ولا ينفصلون عن حلفائهم . فأرسل هذا الكتابَ الى وزارة الخارجية البريطانيـــة ، فأرسلت يوم ٨ فبراير سنة ١٩١٨ البرقية الآتية الى الحسين بواسطة دار الوكالة البريطانيـــة في جدة وهي ،

« ان الرغبة والصراحة التامة التي اتخذتموها جلالتكم بإرسالكم الكتب

التي أرسلها القائـــد التركي في سورية الى سمو الامير فيصل الى جناب نائب جلالة الملك كان لها اعظم التأثير الحسن لدى حكومة جلالة ملك بريطانيا العظمى ، وان الاجراءات التي اتخذتموها جلالتكم في هذا الصدد لم تكن الا رمزاً يعبر عن تلك الصداقـــة ، التي كانت دائماً مشاهد العلاقة بين كل من الحكومة الحجازية وحكومة جلالة ملك بريطانيـــا العظمى .

ومما لا يحتاج الى دليل ان السياسة التي تنسج عليها تركيا هي ايجاد الارتياب والشك ، بين دول الحلفاء والعرب الذين هم تحت قيـادة وعظيم ارشادات جلالتكم ، قـــد بذلوا الهمة الشماء ليظفروا باعادة حريتهم القديمة . ان السياسة التركية لا تفتأ تغرس ذلك الارتياب بأن توسوس للعرب بأن دول الحلفاء يرغبون في الاراضي العربية ، وتلقي باذهان دول الحلفاء انه يمكن ارجاع العرب ، عن مقصدهم ولكن اقوال الدساسين لن تقوى على ايجـاد الشقاق بين الذين اتجهت عقولهم الى فكر واحد وغرض واحد .

« ان حكومة جلالة ملك بريطانيا وحلفاءها ما زالت واقفـة موقف الثبات لكل مهمة تؤدي الى تحرير الامم المظلومة ، وهي مصممة على ان تقف بجانب الشعوب العربية في جهادها ، حتى تبني عالماً عربياً يسود فيه القـــانون والشرع بدل الظلم العثماني ، وتجتث التنافس المصطنع الذي أحدثته السلطات الرسمية التركية . وان حكومة جلالة ملك بريطانيا قد سلكت سياسة التحرير ، وتقصد ان تستمر عليهـا بكل استقامة وتصميم بأن تحفظ العرب الذين تحرروا من السقوط في وهدة الدمار ، وتساعـد العرب الذين ما يزالون ، تحت نير الظلم ، لينالوا حريتهم .

« وفي الختـــام ألتمس قبول خالص التحيات وعظيم الاحتشامات والتمنيات » .

نعم ، هذا ايضاً احد الوعود التي قطعت للعرب بمساعدتهم في نهضتهم ، وتحرير اقطارهم ، وإنقاذهم من حكم الترك ، وقد اضيف الى سلسلة العهود السابقة التي اثبتت الحوادث انها ليست اكثر من قصاصة ورق ، عند الانكليز الذين أصدروها ، لا قيمة لها ولا شأن .

وعد انكليزي آخر

ونشرت حكومة السوفيات في موسكو يوم ٢٢ فبراير سنة ١٩١٨ نصوص اتفاق سايكس — بيكو المعقود بين الانكليز والافرنسيين في القاهرة ، في جملة الوثائق السرية التي عقدها الحلفاء فيما بينهم ، لاقتسام العالم والفوز بكنوزه وذخائره خلافاً لما كانوا يقولون ويذيعون وهو انهم يحاربون لتحرير الشعوب ومنحها حريتها .

وأقلق نشر هذا الاتفاق الدوائر البريطانية في القاهرة ، وكانت حتى ذلك الوقت تنكره ولا تعترف بوجوده ، كما أثار ثائرة الدوائر العربية التي كانت حتى ذلك الوقت تثق بوعود الانكليز . وأسرع السر مارك سايكس ، احد ابطاله ، الى القاهرة يعمل على تسكين الثائرة ، وتخدير الأعصاب التي أهاجها نشره واعلانه ويعلن انه مكذوب مختلق .

وأرسل الحسين الى نائب الملك في مصر يسأله عن الاتفاق وعن نصيبه من الصحة . وهذا هو الرد الذي تلقاه يوم ٨ يونيو سنة ١٩١٨ من وزارة الخارجية البريطانية :

« ان البلشفيك لم يجدوا في وزارة الخارجية في بتروغراد معاهدة ، بل محاورات ومحادثات موقتة دارت بين انكلترا وفرنسا وروسيا في اوائل الحرب لتذليل المصاعب بين الدول اثناء مواصلة القتال ضد الترك ، وذلك قبل النهضة العربية . وان جمال باشا إما عن خبث او جهل غيّر

في مقاصدها الأساسية وأهمل شروطاً فيها تقضي برضا الاهالي وحماية مصالحهم . كما تجاهل ما وقع بعد ذلك من ان قيام الحركة العربية ونجاحها الباهر وانسحاب روسيا قد أوجدا حالة اخرى تختلف عما كانت عليه بالكلية » .

الاتفاق الذي ينكره الانكليز جملة وتفصيلاً ثبت بنصه الكامل في فصل سابق من هذا الكتاب وتاريخه ١٦ مايو سنة ١٩١٦ .

العهد البريطاني للسوريين السبعة
بين السوريين والعراقيين في الجيش الشمالي

أوردنا فيما سبق خبر سفر الاستـــاذ كامل القصاب من سورية الى مصر في شتاء سنة ١٩١٤ - ١٩١٥ مندوباً عن هيئة الفتاة لمعرفـــة حقيقة الاتصالات بين الوطنيين في مصر والحكومة البريطانية ، وقلنا انه عاد صفر اليدين لعدم وجود أي اتصال ، وان الترك اعتقلوه على الاثر وأرسلوه الى سجن عاليه وأن جمـال باشا الكبير حقق معه بنفسه ثم أطلق سراحه .

ولم يطل الاستاذ القصاب الاقامة في دمشق ، بعد ذلك ، فقد غادرها الى الحجاز مندوباً عن اخوانه العاملين في سورية ، لـكي يحمل الى الحسين رأيهم ومطالبهم ، وكان خبر اتصاله بالانكليز معروفاً لديهم ، وليبلغه بأنهم لا يرضون لبلاد العرب بما دون الاستقلال التام الناجز ، على ان يظل مقيماً في الحجاز اداة اتصال ما بينهم وبين الحسين .

وأدى فريضة الحج في ذلك العام ، عام ١٣٣٣ واجتمع الى الحسين وأبلغه الرسالة التي حملهـا من العاملين في سورية وتلح بطلب الاستقلال كاملاً للبلاد العربية ، فرد عليه بان هذا ما نسعى اليه ونعمل له .

ومما علمه إبان اقامته في مكة ضيفاً على الشريف ان حسين رشدي باشا ، رئيس الحكومة المصرية يومئذ ، وتربطه بالشريف حسين رابطة قربى ، فكلاهما زوج لإحدى كريمات المشير احمد ايوب باشا ، كان يقوم بدور الوساطة بين هذا والانكليز ، وكثيراً ما أطلعه الحسين على الرسائل التي كانت تصل اليه من الانكليز ، ويقول له اتفقنا على كذا وعلى كذا .

ويقول الاستاذ القصاب ان الحسين كان يؤمن في قرارة نفسه بأن اتفاقه مع الانكليز هو على استقلال بلاد العرب استقلالاً تاماً كاملا .

وانتقل القصاب بعد انتهاء موسم الحج الى المدينة ، واتخذها دار مقام له ، حيث الاتصال بسورية أسهل بواسطة سكة الحديد التي كانت ما تزال تغدو وتروح بانتظام بينهما ، فكان يتلقى الاخبار يومياً منها ويرسلها الى الحسين بمكة .

ووفد الى المدينة ، بعد اسابيع من إقامته فيها ، تاجر من دمشق وهو السيد مصطفى شورى فأسرَّ اليه بان امراً صدر في دمشق باعتقاله ، وان اخوانه أرسلوه اليه ليبلغه ذلك ، ويطلب اليه الانسحاب والابتعاد . فاتصل على الاثر بالشيخ يوسف الخشيرم ، وكيل الشريف بالمدينة ، فارسله على الفور الى مكة ، ولما دخل على الشريف قال له ، انت هنا حر مطلق ولن يصيبك من الترك اي اذى ، ما دمت في جوارنا .

وعكف الاستاذ القصاب ، بعد اعلان الثورة ، على ادارة المعارف الحجازية فنظمها طبقاً للانماط الحديثة المتبعة في سورية ومصر ، فلم يرق ذلك للحسين ، الذي كان يفضل البقاء على الاساليب التقليدية القديمة .

وتقدم الى الحسين في اواخر سنة ١٩١٧ يرجوه السماح له بالسفر الى مصر لأمور خاصة ، فتردد ، فألح ، واخيراً سمح له بالسفر على ان يعود في اقرب فرصة مستطاعة .

وكان أول ما لاحظه بعد وصوله الى القاهرة، وجود نشاط كبير يبديه الافرنسيون في المحيط السوري - اللبناني، لاقناع هؤلاء وأولئك بأن مصير بلادهم صار مقرراً وانها ستكون من نصيب فرنسا، وان من الخير لهم ان يتفاهموا معها ويقبلوا عليها، بدل مجافاتها والإعراض عنها، كما لاحظ من الناحية الاخرى خلو الميدان من هيئة قومية تعمل للعروبة وتتعاون مع الثورة وتدعو لها وتحض السوريين على الالتفاف حولها وتأييدها .

واتصل ببعض اصدقائه القدماء واخوانه العاملين في الميدان القومي فوجد استعداداً طيباً، ورغبة بالتعاون صادقة، فتألفت هيئة قومية ضمت الدكتور عبد الرحمن الشهبندر والسيد محمد رشيد رضا صاحب مجلة المنار ورفيق بك العظم وأحمد مختار الصلح وحسن حماده المحامي وغيرهم، جعلت شعارها تأييد الثورة العربية ومقاومة الاستعمار الافرنسي .

وغادر الاستاذ القصاب القاهرة في اوائل سنة ١٩١٨ بعدما أتم تأليف الهيئة القومية، قاصداً العقبة فزار الامير فيصل، داعياً الى انشاء صلة وتعاون بين هذه الهيئة - وكان يحمل منها تفويضاً يطلق يده بالعمل في ما يفيد القضية الوطنية ويعزز شأنها - وبين الثورة العربية .

ودارت احاديث بين الامير وضيفه، تناولت القضية العامة ووجوب السهر عليها، فاقترح القصاب ارسال مندوب الى اوربا، وما كانت تعرف شيئاً عن القضية العربية ولا عن الثورة العربية، وما كان هنالك من يذكرهما او يتحدث عنهما، فيطوف عواصمها، ويتصل بقادتها ويطلعهم على ما يجب الاطلاع عليه من امرها، اذ لا يجوز ان تبقى محصورة في الاطار الضيق الذي تدور فيه، اطار الانكليز وحدهم . ومما قاله القصاب انه يقترح ان يكون المندوب الذي سيوفد الى اوربا مسيحياً من ابناء

الشام ، وان يكون الاستاذ اسكندر عمون بالذات ، وهو لبناني مثقف كان يعمل بالمحـــاماة في مصر ، وله مكانة وشهرة ، لما يتحلى به من صفات طيبة وخبرة ممتازة ، يضاف الى ذلك انه يرأس الاتحاد اللبنـــاني بمصر .

وأعاد وأبدى ايضاً في اقتراح سبق ان تقدم به للحسين ويدور حول دعوة طائفــة من كبار المصريين والسوريين المقيمين بمصر الى جدة لزيارة الحسين والتعرف اليه ، وإنشاء صلة مباشرة بينه وبين القطرين لما في ذلك من فوائد تدرك بداهة . فبقاء الثورة في عزلتهـا لا يجوز مطلقاً اذا لم يكن مضراً بها ومسيئاً اليها .

وخاطب فيصل والده بمكة برقياً فجاء الجواب بالموافقة على الاقتراحين ، وصدر الامر الى الوكالة العربيـة بمصر ففتحت اعتماداً بألف جنيه للاستاذ عمون على حساب نفقات سفره الى اوربا ، وأطلقت يد الاستاذ القصاب في اختيار الوفد على ان يصحبه في زيارته لجدة .

وفيما كان القصاب يعمل في تأليف الوفد المسافر الى جدة ، والاستاذ عمون يعد معدات السفر الى اوربا ، وصلت الى القاهرة جريدة « القبلة » لسان حال الحكومة الهاشميـــة تحمل في صدرها خبراً أثار ضجة كبرى لدى الذين قرأوه او سمعوا به .

فقد نشرت في صدرها بالبنط العريض ما يلي :

« بشرى للمسلمين بتنفيذ الاحكام الشرعية في الحجاز » .

ثم أوردت خبراً خلاصته ان احـدهم حبس في حقوق فتسلق جدار السجن بقصد الفرار فأدركوه وأعادوه الى السجن ثم حاكموه وحكموا بقطع يده ورجله من خلاف عملا بالآية الكريمة : « جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ان تقطع ايديهم وأرجلهم من خلاف او ينفوا من الارض »

وانه تم تنفيذ الحكم ، فقطعت يده ورجله في حفلة حافلة وامام جمهور كبير من المسلمين الذين شملهم السرور والابتهاج باقامة حد من حدود الله » .

وتناقلت الالسن الخبر في القاهرة فرحب اناس بتطبيق احكام الشرع الشريف واستغرب ذلك آخرون ، واجتمع بعض اعضاء الوفـــد الذين دعوا للسفر ، وذهبوا الى دار الوكالة العربية معتذرين عن السفر .

وهكذا فشل المشروع . . ومما يستحق الذكر ، ان سلطة الرقابة الانكليزية على البريد ، وقد اعتادت حجز جريدة « القبلة » عند وصولها من مكة ، وعدم توزيعها ، استثنت هذا العدد دون سواه .

بين الضباط السوريين والعراقيين في الجيش الشمالي

ووصل الى القاهرة في تلك الفترة من العقبة نوري السعيد وقاسم راجي ومحمد حلمي البغدادي من كبار الضباط العراقيين في الجيش العربي الشمالي فدعاهم القصاب الى اجتماع عقد في منزل السيد محيي الدين الخطيب في حي غمرة بالقاهرة ودعا اليه الطبيبين السوريين عبد الرحمن الشهبندر وعيسى الامام ، فدار الحديث حول الخلاف المشهور في داخل الجيش بين الضباط العراقيين والسوريين ، وكان خبره على كل لسان ، فاقترح عليهم السعي لحسمه ، فأبدى نوري السعيد استعداداً طيباً ورغبة في الوفاق ، وطلب منه ان يكتب كتاباً يحمله بالذات الى القائمقام حسن رفقي الحيمي كبير الضباط السوريين في العقبة ، والدكتور محمود حمدي حموده رئيس الاطباء في هذا الجيش يوصيهما فيه بالتعاون الصادق مع اخوانهم العراقيين وبأن يكونوا يداً واحدة في خدمة الوطن ، فاستجاب له ، وطلب منه ومن زميليه ان يقسموا على الاخلاص في خدمة قضية العرب وبأن يقاوموا كل نفوذ اجنبي ، فوافقوا وطلبوا اليه ان يضع صيغة القسم فوضعها ،

فأقسم عليها الجميع وهي : « اقسم بالله ألا اشتغل إلا للبلاد العربية ، والامة العربية ، وأن اقاوم كل من يمد يده للاجانب ، وكل سلطة تتعاون مع الاجانب ، وكل سلطة استبدادية في البلاد » .

وانتقل معسكر الجيش العربي من العقبة الى الكويرة ، مواصلاً زحفه الى الامام ، فجاءت الاخبار الى القاهرة بأن شقة الخلاف بين الضباط السوريين والعراقيين تزداد اتساعاً ، وأن وساطة نوري السعيد لم تجدِ ، فقرر الاخوان في القاهرة انتداب القصاب للسفر الى المعسكر واصلاح ذات البين ، فكان السؤال عن اليمين الذي حلّفه الضباط العراقيين اول ما سأله عنه الامير فيصل حينما بلغ الكويرة وعن الغاية منه ، فقال ما اردت سوى خدمة قضيتنا الوطنية العامة والتمكين لها في النفوس ، وما جئت الى هنا الا في سبيلها ايضاً ، فالانقسام الواقع بين الضباط السوريين والعراقيين يسيء اليها كما يسيء الى سمعة الجيش نفسه مادياً ومعنوياً ويسيء الى سمعتكم الشخصية اذ يجب الا يكون هناك سوري ولا عراقي ، وان ينصهر الجميع في بوتقة العروبة .

وانتهى الاجتماع بالتصافي والعودة الى العمل في خدمة القضية الوطنية وحدها .

وأوشكت المساعي التي بذلها للتقريب بين كبار الضباط ان تثمر ثمارها لولا ان امراً عسكرياً صدر وهو هنالك ، يقضي بدمج الفرقتين العسكريتين اللتين كانتا للجيش الشمالي احداهما بالاخرى ، وتعيين جعفر العسكري قائداً لها ، وكان يتولى قيادة الفرقة الاولى حسن رفقي الخيمي (سوري) ، وقيادة الفرقة الثانية نوري السعيد (عراقي) .

ويقضي الأمر العسكري الذي صدر بتعيين الاول مفتشاً عاماً للجيش ، والثاني رئيساً لهيئة اركان الحرب .

ولم يلقَ هذا التدبير ارتياحاً لدى الضباط السوريين ، فأقنعهم القصاب بالموافقة عليه لما في توحيد القيادة العسكرية من فوائد . أما أسباب الخلاف الحقيقية فالذي توصل اليه القصاب هو ان العراقيين كانوا يؤلفون العدد الأكبر في هذا الجيش ضباطاً وجنوداً ، وكانوا تبعاً لذلك يرون ان تكون القيادة بأيديهم والكلمة العليا لهم اما السوريون فكانوا يرون ان تكون السلطة العليا لهم ، لأن القتال يدور في بلادهم وداخل اراضيهم ، ولأنهم حَمَلَة القضية القومية وأول من نادى بها .

واستقال القائمقام حسن رفقي الحيمي ، من منصب مفتش الجيش العام ، عقب خلاف نشب بينه وبين جعفر العسكري ، ولحق بالقاهرة متخلياً عن العمل بالجيش .

وانتقل المعسكر العام الى « ابي اللسن » متابعاً الجيش في زحفه نحو الشمال (مارس سنة ١٩١٨) . وزار القصاب الامير في هذا المعسكر ومعه بعض اخوانه ، وكانوا يحملون تفويضاً من القاهرة ، لمحادثته في امور تتصل بالقضية الوطنية ، فاستقبلهم بعد منتصف الليل في مضربه الخاص .

وزار القصاب وأصحابه في الغد خطوط الدفاع الاولى فاستقبلهم الامير زيد ونوري السعيد فقضوا يومهم هناك ، وفي الغداة استأنفوا المناقشة في حدوث الخلاف ووجوب حسمه .

الدعوة لفصل القضية السورية

وعلى اثر ذلك دعا بعض السوريين الى فصل القضية السورية عن القضايا العربية الأخرى ، والسعي لانشاء كيان مستقل لسورية ، تؤسسه بما يتلاءم مع تطورها ، وينسجم مع رغبة ابنائها .

ودعا القصاب واخوانه السوريون في القاهرة الى اجتماع عام درسوا فيه الموقف ووافقوا على انشاء حزب سياسي سوري ، يعمل للقضية السورية وحدها

انشاء اول حزب سياسي سوري

ووقع الاختيار على السيد ميشال لطف الله من اعيان السوريين المسيحيين رئيساً للحزب الجديد ، والسيد محمد رشيد رضا ، صاحب مجلة المنار ، وكيلًا للحزب الجديد ، والسيد سليم سركيس (صحافي سوري) سكرتيراً للحزب .

وتألفت لجنته الادارية كما يلي :

رفيق العظم وكامل القصاب والدكتور عبدالرحمن الشهبندر والدكتور خليل مشاقه ، والمحامون اسكندر عمون ووهبه العيسى وحسن حماده ، اعضاء .

وتألفت لجنة تنفيذية للحزب برئاسة رئيسه ميشال لطف الله قوامها القصاب والشهبندر . وأعد له نادٍ مناسب في شارع عابدين رقم ٤٥ ، وكانت نفقات الحزب تدفع في اول الأمر من رئيسه ، على ان شقيقه السيد جورج تبرع للحزب بألفي جنيه .

وهذه هي المبادىء التي تبناها الحزب واتخذها شعاراً له :

١ — ان تكون سورية بجملتها على وحدتها القومية ، مستقلة استقلالاً تاماً تضمنه جامعة الامم وتضمن دستوره ضماناً لا يخل بهذا الاستقلال .

٢ — تكون حدود سورية القومية كما يلي : جبال طوروس شمالاً ، ونهر الخابور والفرات شرقاً ، والصحراء فمداين صالح جنوباً ، والبحر الاحمر فخليج العقبة ورفح فالبحر المتوسط غرباً

٣ - يكون الحكم في سورية على مبدأ اللامركزية ويكون اساس قوانينها واحكامها مدنياً ما عدا الاحوال الشخصية فانها تبقى كما هي :

٤ - يكون دستورها على مبدأ الديمقراطية اللامركزية ضامناً لحقوق الأقليات .

الانكليز والحزب الجديد

وتلقى القصاب بعد ايام من تأسيس الحزب دعوة للحضور الى المكتب العربي في سافوى اوتيل بالقاهرة[١] ، فذهب اليه ومعه الدكتور الشهبندر والمهندس خالد الحكيم ، فاستقبلهم السر جلبرت كليتن الرئيس الاعلى لهذا المكتب ومستشار وزارة الداخلية المصرية في الوقت نفسه ، وكان يتمتع بنفوذ كبير في الدوائر البريطانية .

وحضر هذا الاجتماع من الجانب البريطاني ايضاً المستر والرند من اعضاء هذا المكتب والسكرتير الخاص للورد ملنر وزير الحربية البريطانية ايضاً .

وافتتح كليتن الحديث فأشار الى خطورة الوضع العام في العالم ودقته ، فإما موت او حياة ، ثم قال لقد ساعدنا العرب ونشطناهم ، لا لمصلحتنا وحدنا بل لمصلحتهم ايضاً ، فاذا نجحنا فالخير لنا جميعاً واذا فشلنا فالأمر كذلك ، ولهذا فاني احذركم من الاتيـان بأي حركة ضدنا او ضد من يتعاون معنا .

وزاد والرند فخاطب القصاب قائلا : ولن نتردد في ابعادك الى جزيرة نائية لا يعرف احد مكانها ، ولا تستطيع التفاهم مع سكانها .

---

١ أنشأ الانكليز هذا المكتب في القاهرة ابان الحرب للعناية بالشؤون العربية ضموا اليه عدداً من كبار رجالاتهم الواقفين على هذه القضايا .

وقال القصاب : « لا حاجة لمخاطبتنا بمثل هذه اللهجة ، فنحن نعرف انفسنا . اننا نخدم قضية عادلة ، ولا لوم علينا ولا تثريب اذا عملنا لنجاحها وفوزها . لقد دخلنا معكم كحلفاء ، لكم ما لنا وعليكم ما علينا ، ولا يخاطب الحليف حليفه باللهجة التي تخاطبوننا بها .

« نحن مؤمنون بحقنا ، ومتمسكون بقضيتنا ، ولا نسكت عن المطالبة بما نعتقد انه واجبنا . وعلى كل فأنتم الأقوياء الآن ، وبيدكم السلطة فافعلوا ما تريدون ، واعلموا اننا سنطالب بكل ما نعتقد انه من حقوق بلادنا حتى النهاية ، وسنوصل صوتنا الى اخواننا داخل البلاد ، ونطلع قومنا على كل ما يجب الاطلاع عليه من اعمالكم » .

وعاد كليتن الى الكلام فقال : ما اردت تهديداً ولا وعيداً بل اردت التفاهم معكم وتذكيركم بوجوب العمل للقضية المشتركة ، فنجاحها يعود علينا وعليكم بالخير على السواء » .

وقال القصاب : « ليتكم تسدون هذه النصائح لغيرنا ايضاً ، فنحن نعرف واجبنا حيال بلادنا ، ونعرف حدودنا فنقف عندها » .

وانتهت الزيارة . ووقف الحديث عند هذا الحد ، وانسحبوا عائدين الى منازلهم .

نص العهد البريطاني الجديد

وزار المستر والرند القصاب في منزله بعد يومين فقط ، فاستقبله مرحباً ، فبدأ الحديث قائلا :

« اننا نعد الجمعيات والاحزاب العربية حلفاء لنا واصدقاء ، كما نعد الحسين وابناءه ، ونوليها ما تستحقه من الاحترام والتقدير . ونحن مستعدون لمباحثتكم في القضايا العربية ضمن هذين الشرطين :

١ – ان تختار الاحزاب العربية ممثلين عنها للدخول في هذه المباحثات اذا شاءت ، وان يظـل ما يدور فيها مكتوماً لا يطلع عليه اعضاء الحزب كلهم .

٢ – ان تعرض نتائج هذه المباحثات على الحسين نفسه ، ويجب ان يقرها ، لكي تصبح نافذة ومعتبرة ؛ وإلا فلا .

ونقـل القصاب الى اخوانه ، ما دار بينه وبين المندوب البريطاني ، وطلب اليهم اختيار اثنين منهم للدخول في مباحثات مع السلطة البريطانية ، فاختاروا الدكتور شهبندر ورفيق العظم .

واستمرت هذه المباحثات اياماً ، قدّم المندوبون خلالها مشروعـاً للحكومة البريطانية ، وأسفرت عن الاتفاق على اصدار البيان الآتي :

« في يوم ٢٢ يونيو سنة ١٩١٨ دعا الكومندان هوجارت ، المنتدب للعمل في المكتب العربي ، المندوبين الثلاثة الى منزل المستر والرند ، فتلا عليهم رد الحكومة البريطانيـة على مشروعهم المرسل اليها في ١٦ يونيو سنة ١٩١٨ ، وهذا هو الرد :

١ – ان حكومة جلالة الملك ترغب في ان تكون عامة الشعوب التي تتكلم اللغة العربية مُنقَذَة من السلطة التركية ، وان تعيش فيما بعد وعليها الحكومة العربية التي ترغب فيها .

٢ – ان بعض البلاد العربية ، إما كانت تتمتع باستقلالها التام من مدة او حصلت عليه الآن . وهو استقـلال اعترفت به انكلترا اعترافاً تاماً . وسيكون هذا شأنها ايضاً مع البلاد التي تحصل على استقلالها منذ الآن حتى نهاية الحرب .

٣ – ان سائر البلاد العربية هي إما خاضعة للترك او تحتلها جيوش الحلفاء . فحكومة جلالة الملك تأمل ، ولها الثقة ان شعوب هذه البلاد

تحصل ايضاً على حريتها واستقلالها ، وان يُتخذ بشأنها عند انتهاء الحرب قرار يتفق مع رغائبهم .

٤ – ان حكومة جلالته تعتقد ان العوائق والصعوبات المقدرة التي تقف في سبيل احياء هذه الشعوب سيتغلب عليها تغلباً ناجحاً ، وهي تعد بكل مساعدة لمن يسعى في ازالتها ، كما انها مستعدة لأن تنظر في اي خطة لعمل مشترك يلتئم مع الحركات العسكرية الحاضرة ويتفق مع المبادىء العامة لسياسة بريطانيا وحلفائها » .

وأرسل الانكليز هذا البيان الى الحسين ، لإقراره ، طبقاً للخطة التي رسموها ، وأرسل القصاب نسخة عنه الى الامير فيصل لإرسالها الى والده ، وإقناعه باقرارها ، فلم يرد عليه ، كما ان الحسين لم يرد على الانكليز .

وطلب القصاب من الكومندان هوجارت ان يعطيه النص البريطاني ليحتفظ به ، فأجاب ان ذلك يكون في حالة إقرار الحسين ، اما قبل ذلك فلا ، لأنه يكون بدون قيمة .

والسوريون السبعة الذين اضيف هذا العهد اليهم هم : القصاب والشهبندر ورفيق العظم وفوزي البكري ومختار الصلح ومحيي الدين الخطيب وحسن حماده .

وهكذا اضيف هذا العهد الى سلسلة العهود البريطانية الكثيرة ، ولكن لم ينفذ ، فشأنه لا يختلف عن العهود التي سبقته وتأخرت عنه ، فهي لم تعطَ للتنفيذ ولكن للتخدير والتضليل .

الحسين هدد الانكليز بالاستقالة ثلاث مرات

اخذت الحرب تدنو من نهايتها ، ورجحت كفة الحلفاء ، وظهر انهم المنتصرون ، كما ظهر بأنهم لا ينوون ان يلبوا للعرب مطلبـــاً ، أو ينفذوا عهداً ، فالافرنسيون أزاحوا اللثام عن وجههم ، وراحوا ينادون بأن سورية من نصيبهم ، وان الحلفاء أنالوهم إياها ، ولن يتخلوا عنها .

ووضع الانكليز يدهم على العراق وأنشأوا فيه حكماً استعمارياً هندياً ، كما فتحوا ابواب فلسطين لليهود ، الذين اخذوا ينسلون اليهـــا من كل صوب ، معلنين بأنها لهم ، وانهم جاءوها لتأسيس دولة يهودية في ربوعها ، لليهود وحدهم .

وضاق الحسين ذرعاً بأساليب الانكليز ، ومكرهم ودسائسهم . فجنح الى التهديد بالاستقالة والانسحاب ، يرجو ان ينال بواسطته ما فاته نيله بالاساليب الديبلوماسية . فوجه الى نائب الملك بمصر يوم ٢٠ ذي القعدة سنة ١٢٣٦ (٢٧ اغسطس سنة ١٩١٨) الكتاب الآتي :

« اني ما طلبت امام حكومة الملك ما طلبته من المواد التي تعهدت بها ، رغبة في تأسيس حكومة او تشكيـل دولة لأستأثر بحاكميتها ، او حرصاً على جاهها ، او رياستها ، ولكن عندما دعتني بريطانيا الى ما

دعتني اليه ، وعلمت ان مقاصدها بهذا ايضاً تأمين مصلحة المسلمين عامة والعرب خاصة لم يسعني الا الاجابة ، وطلبي أقله تلك المواد المؤدية في اعتقادي لما يأتي :

١ – حفاظة الكيان العالم الاسلامي بالنظر لما حل او سيحل بتركيا .

٢ – صيانة العظمة البريطانية من الاستهداف لما سترمى به عكس مقاصدها .

٣ – سلامتي من الاتهـام بالتواطؤ معهـا ضد الاساس المقصود بالنهضة .

نعم ، اني لم اجد من جناب الفاضل الاريب المستر « ستورس » عند اجتماعي بحضرته في السنة الاولى بجدة ، ثم بعده بحضرة الشهم الهمام السر مارك سايكس ، ثم في السنة الماضية بالكومندان الهمام « هوجارت » الموقر ، ما يشير الى ما يخالف او يخل بتلك المقررات ، غير ان ما في طبيعة مشروعنا وقياته الحياتية من الرقة وما يصادف من بعض حالات يستدعي سياقها زيادة تبين الامر وتؤكد الحقيقة عن الحدود فقط ، والا باقي المواد فاننا نعجز عن اداء شكر الوفاء بها ، مما لو فهمت الغلط في مقرراتنا المذكورة اساساً ، او حدث ما يوجب تعديلها ، الامر الذي لا اقول انه يمس كيان العالم الاسلامي ، ولكن اظن لا يخلو في شيء من ذلك ، هذا على فكري المعنوي .

« ان تعديل مقرراتنـا المذكورة ، بصرف النظر عما في اخلاله بالغايات المقصودة الاساسية وغرضنا ، عدا عن موادنا الثلاث الآنفـة البيان ، وطمس صحيفة تاريخه ، فهو يزيل ويسقطني من ثقة واعتماد بلادي واقوامي الاقربين فيما يظهر لهم عكس تلك المقررات التي أعلنتها وصرحت بها شفاهاً وتحريراً ، في ظرف هذه المدة ، وأسست عليها الأعمـال ، واكون قد خدعت نفسي وغششتكم يا اصدقائي بمـا وراء هذا من

اضطراب البلاد بالفتن والثورات ونحوه ، بمـا لا يمكن لي معه حتى الاستفادة لذاتي . وما يزيل كل حسن ظن حكومـة جلالة الملك بي ، واكيد اخلاصي يجبرني ان اقول من الآن ان مبادىء هـذه الخطرية على وشك التحسس بها ، بالنسبة للطلبات المتكررة المختلفـة عن امرهم باعلان استقـلال بلادهم . ولم اجد ما ادفعهم به الا قولي ان استقـلالي هو استقلال عموم انحاء البلاد . ولكنهم يقيمون الحجة على دفعي هذا بأوجه اخرى . وعليه فان كان ولا بد من التعديل ، فلا لي سوى الاعتزال والانسحاب . ثم تعينوا البلاد التي تستحسن اقامتنا فيها للسفر اليها في اول فرصة ، إن رأت ذلك . ولكن مشاكل الحرب الحاضرة تقضي بتأجيله الى ختامها ، فمعروفهـا وجميل مكارمهـا يفرض علينـا الثبات امام ما سيتضاعف علينـا من المهمات ونحوه من العموم ، بما لا مقاومة لدينا الا حسن النيـة فالامر اليها .

« اما عطف الامر وتعليقه بمؤتمر الصلح ، فالجواب عليه بأن لا علاقة لنا به ، ولا مناسبة بيننـا وإياه حتى ننتظر منه سلباً او ايجاباً . ولو قرر المؤتمر المذكور اخفاق مقرراتنـا ، وكان ذلك من غير وساطتكم ، وقبلناها ، فنكون من المطرودين من رحمة الباري جل شأنه الرقيب على قولي هذا والذي اتوسل اليه الآن ان يتولانا جميعاً بعنايات رأفته الابدية. وقبول ما اقدمه لفخامتك في الختام من جزيل احتشاماتي هو من سجايا شيمكم .

٢١ ذي القعدة سنة ١٣٣٦ (٢٧ اغسطس سنة ١٩١٨) .

- ٢ -

وحدث في شهر يونيو سنة ١٩١٩ ، اي بعد الحرب ، خلاف بينه

وبين الانكليز على تخفيض المساعدات التي تدفع لميزانيـة الحجاز ، فأرسل يوم ١٦ يونيو (١٧ رمضان سنة ١٣٣٦) كتاباً الى المعتمد البريطاني في جدة ، يطلب فيه قبول استقالته ويعلن عزمه على الانسحاب . فأرسل هـذا اليه يوم ١٧ منه كتاباً مطولاً قال فيه :

« دهشت جداً عندما تلقيت كتابكم رقم ١٥٣٤ تاريخ ١٦ يونيو سنة ١٩١٩ ، ولم افهم السبب الذي جعلكم تكتبون بأنكم تريدون الاستقالة والانسحاب ، رداً على خطاباتي اليكم بشأن الاعانة . وقـد أبرقت اليكم عندما اطلعت على برقيتكم للامير زيد ، وفيها تقولون انه لا اعانة بعد الشهر القادم ، مما اكد لي ان خطابي ذاك لم يكن كامـل الموضوع ، او غير واضح العبارة مما أسفت له .

« انكم تذكرون ان الحكومة البريطانية رغبت في تنقيص الاعانة لميزانية الحجاز وجعلها ثمانين الف جنيه في شهر ابريل الماضي ، واني سألتكم تفصيلاً لميزانية الحجاز فأرسلتموها ، فبعثت بها الى لندن ، وبعـد ذلك صدقت الحكومة على استمرارها مئة الف جنيه الى نهاية شهر يوليو القادم ، وهذا لا يدل على انه لا اعانة بعد شهر يوليو كما جاء في برقيتكم للامير زيد ، ولذلك ارجو رفع هذه الجملة من البرقية .

« أما بشأن الاستقالة والانسحاب فأرجو العدول عنها لأن بلادكم والاسلام في حاجة اليكم » .

- ٣ -

وعاد الملك فأثار في سنة ١٩٢١ حديث الاستقـالة والانسحاب للمرة الثالثة ، وكان سببه هذه المرة عـدم صرف اموال للحجاز مستحقة في العراق . ولكن لم نعثر على نص الكتاب الذي أرسله بهـذا الشان الى

الميجر مارشال المعتمد البريطاني في جدة ، بل عثرنا على الرد الذي اجاب به هذا عليه . وهذا هو :

جدة في ٢٥ سبتمبر سنة ١٩٢١ .

حضرة صاحب الجلالة الهاشمية ، والسيادة العظمى ، جلالة الملك المعظم .

« تسلمت خطاب جلالتكم رقم ٢٠/١/٤٠ ، وهو خاص بالنقود الموجودة في العراق . ان هذه النقود هي من اوقاف الحرمين . ولذلك فان الأمر لا يتعلق بحكومة جلالة الملك . ولو ان اي مساعدة يمكنني القيام بها لارسال هذه النقود لتكون طوع ارادة جلالتكم .

« لا يمكنني ان افهم معنى اشارة جلالتكم عن تعيين خلف ، في برقيتكم للعراق . وبما ان الحجاز مملكة مستقلة فان هذا ايضاً لا يتعلق بحكومة جلالة ملك بريطانيا . على اني شخصياً سأكون آسفاً بعد صداقتنا الطويلة ، اذا قررتم جلالتكم التنازل عن العرش . ولكن هذا الامر يتعلق كلية بجلالتكم وبالأمة .

« وتفضلوا بقبول جزيل اشواقي » .

وكان هذا آخر ما كتبه في هذا الموضوع الى الانكليز .

من العقبة الى دمشق فحلب

يقول احمد جمال باشا في مذكراته ، وقد نقلها الى العربية سنة ١٩٢٣ ونشرها في القاهرة الاستاذ احمد شكري حسن ، ان الانكليز ظلوا ، منذ ابتداء الحرب في سنة ١٩١٤ حتى اعلان الثورة العربية في الحجاز في شهر يونيو سنة ١٩١٦ ، ملتزمين خطوط دفاعهم وراء الضفة الغربية من قناة السويس لا يغادرونها ، ولا يظهرون منها :

وانتقلوا بعد هذا التاريخ الى الضفة الشرقية ، واندفعوا يوغلون في سيناء متقدمين شمالاً باتجاه غزة وطاردين الترك من المنطقة كلها ، وبلغوا هذه في شتاء سنة ١٩١٧ واستولوا عليها .

وأوفد الشريف الحسين في خلال ذلك وفي تلك الفترة ، وفداً من رجاله برئاسة الشريف البركاني جمال في سيناء ، واتصل بعربانها وشيوخها ، وأبلغهم باسم الشريف بأن الانكليز صاروا حلفاء العرب ، بعدما اعترفوا باستقلالهم وانه يجب عليهم ان يؤيدوهم ويقفوا الى جانبهم في حرب الترك اعداء العرب .

وننشر هنا نص منشور ألقته الطائرات البريطانية الى العرب الذين كانوا يحاربون في الجيش التركي ، باسم الجيش البريطاني ، يدعونهم الى الانضمام اليهم وهو :

- الى جميع العرب وغيرهم من الضباط والرجال في الجيش العثماني -

« لقد سمعنا بكل اسف بأنكم تحاربوننا ، نحن الذين نعمل من أجل صيانة الشريعة الاسلامية المقدسة من أن تبدل ، ومن أجل تحرير جميع العرب من الحكم التركي .

« اننا نعتقد انه لم تصلكم الحقائق الصادقة ، ولذلك فاننا نرسل لكم هذا النداء والتصريح لنؤكد لكم بأننا نحارب في سبيل غايتين نبيلتين هما صيانة الدين وحرية العرب عامة .

« لقد كانت المملكة العربية خلال وقت طويل مستعبدة من الاتراك الذين قتلوا اخوانكم وشنقوا رجالكم ونفوا نساءكم وعائلاتكم وبدلوا دينكم ، فكيف اذن تحتملون ذلك منهم وتتحملون مرارة الاستمرار بالتعاون معهم وتقبلون بان تساعدوهم ؟

« تعالوا ، انضموا الينا نحن الذين نعمل من اجل دينكم ومن اجل حرية العرب حتى تعود المملكة العربية كما كانت ايام آبائكم » .

الجيش البريطاني

واستأنف الانكليز الكرة في ربيع سنة ١٩١٧ ، فاصطدموا مع الترك الذين كانوا ما يزالون يرابطون في منطقة بير السبع . وانتهت المعارك التي دارت في خريف ذلك العام بجلاء هؤلاء عن القدس واستيلاء الانكليز عليها يوم ٩ ديسمبر سنة ١٩١٧ ، فكان ذلك نهاية الحرب الصليبية ، كما قال الجنرال اللنبي ، قائد الجيش البريطاني وهو يدخل القدس .

واستقال الجنرال فالكنهاين القائد العام الاسبق للجيش الالماني وقائد الجيش التركي في جنوبي فلسطين ، بعد هذه المعركة ، وعاد الى بلاده ، داعياً الترك الى الجلاء عن بلاد العرب كلها والارتداد الى ما وراء جبال طوروس وانشاء خط دفاعهم هناك لحماية العاصمة والاناضول ، وقال لهم

ان العرب ثائرون عليكم وان من الخطأ مواصلة القتال في ارض كل منها يضمر العداء لكم .

وأبى أنور باشا ، القائد العام للجيش التركي ، الأخذ بهذا الرأي ، وانتدب المارشال فون ساندرس فحل محله في قيادة الجيوش التركية في المنطقة ، فجاء الى الناصرة في شتاء سنة ١٩١٨ ، واتخذها قاعـدة له ، وجعل مقر قيادته في بناية روسية قديمة اسمها « الكازانوفا » .

وكان من حسن حظي انني ألحقت بقيادته ، فكنت ملحقاً في الشعبة الثانيه (شعبة المخابرات) مستشاراً وخبيراً للشؤون العربيـة (شهر مايو سنة ١٩١٨) .

قوات الترك في المنطقة

ألقت روسيا السلاح وعقدت صلحاً مع اعدائها في برست ـ ليتوفسك (٥ مارس سنة ١٩١٨) . فأطلق ذلك يـــد الترك ويد الالمـان وأراحهم من القتال في ساحة واسعة ، هي الساحـــة الشرقية الكبرى ، وما كانت اهميتها تقل عن اهمية الساحة الغربية في اوربا الوسطى .

ونقل الترك قواهم التي كانت معدة لمناجزة الروس في شرقي الاناضول الى حلب ، واتخذوها قاعدة لتجمع عسكري جديد ، وأعادوا تنسيق قواهم ، ودمجوها في قوة اسموها « جيوش الصاعقة المجتمعة » .

ووضعوها بقيادة المارشال الالماني ليمان فون ساندرس ، يساعده ضابط تركي برتبة لواء اسمه كاظم باشا ، وهو رئيس اركان الحرب التركي ، وضابط الماني الميجر لودندورف ، رئيس هيئة اركان الحرب الالماني

وأمضى الترك والالمان سحابة الصيف في الاستعداد للمعركة القادمة ، وكانوا يتوقعون نشوبها في فصل الخريف .

وكانت لهم في خط الدفاع الامامي ثلاثة جيوش وهي :

١ ـ الجيش الثالث بقيادة اللواء جواد باشا .

٢ ـ الجيش السابع بقيادة مصطفى كمال باشا .

٣ ـ الجيش الرابع بقيادة جمال باشا الصغير .

وكان الجيشان الثالث والسابع يرابطان في خط يمتد من قاقون (طولكرم) على ساحل البحر المتوسط حتى غور الاردن في وادي الشريعة

وكان على هذين الجيشين صد الانكليز اذا حاولوا الهجوم من جهة الساحل ، او هجموا من منطقة رام الله باتجاه نابلس ، وكانت هذه مقر قيادة الجيش السابع ، كما كانت مدينة طولكرم مقر قيادة الجيش الثالث .

ولا أزال اذكر ان المارشال ليمان سعى لدى القيادة التركية فاستدعت فوزي جقمق ، وكان يقود الجيش التركي السابع في نابلس . وأرسلت مصطفى كمال بدلاً عنه ، وكان المارشال يعرفه ويثق به ، فقد حارب في الدردنيل سنة ١٩١٥ بقيادته وكان ذلك مصدر شهرته وسبب نجاحه .

وكانت منطقة الجيش الرابع تشمل منطقة شرقي الشريعة وتمتد من البحر الميت جنوباً حتى غور بيسان شمالاً ، اي ان الخط التركي هنا يمتد من الشمال الى الجنوب ، بعكس خط الدفاع الآخر فقد كان يمتد من الغرب الى الشرق .

وكانت المهمة الاولى للجيش الرابع ، صد الانكليز اذا حاولوا عبور الشريعة والاندفاع نحو الشرق ، للاحاطة بقوى الترك التي كانت تقاتل في المنطقة ، وما كان مجموع هذه الصفوف يقل عن ثلاثين الف مقاتل ، منهم نحو الثلث او اكثر قليلاً يرابط في شرقي الشريعة ، وكان على هذا الجيش ايضاً ، ان يقف في وجه جيش الشمال العربي الذي بدأ يتغلغل في

المنطقة من جهة الشرق ، متجهاً نحو درعا في محاولة لقطع خط الرجعة على الجيوش التركية .

في طريق الهجوم البريطاني

واتصل الجنرال اللنبي ، وكانت القيادة العامة للجيش البريطاني قد انتهت اليه ، وكانوا يطلقون على جيشه اسم « الحملة المصرية » امعاناً في التمويه والتضليل ، بالامير فيصل قائد الجيش العربي الشمالي الذي كان يتغلغل في المنطقة ، مقترحاً انشاء تعاون مباشر بين الجيشين ، فتم الاتفاق على تنفيذ مخطط مشترك هذه قواعده :

١ – يتولى الجيش العربي حماية ميسرة الجيش البريطاني في زحفه نحو الشمال ويحول دون انضمام قوات الترك التي ترابط شرقي الشريعة الى المرابطة في غربها ، ويحول دون انشاء اي اتصال بينهما .

٢ – يحتل الجيش العربي (عاصمة حوران الادارية) وهي قاعدة كبرى من قواعد المواصلات بسكة الحديد مع فلسطين ومع الحجاز ، ويقطع كل اتصال بهذه السكة بين قوات الترك في فلسطين وقواتهم في سورية .

٣ – يهاجم مؤخرة الجيش التركي وخاصة حال ارتداده شمالاً الى سورية ، ويلقي الذعر والاضطراب في صفوفه .

وعكف الامير فيصل عقب الاتفاق على هذا المخطط يعد معدات التنفيذ ، وبدأ فأرسل المنشور الآتي الى اهل حوران وجبل الدروز وهو :

« الى كافة اخواننا اهل جبل الدروز حضريين وبدويين .

« السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . اما بعد فانه يتبين لكم من الفرمان[1]

---

١ لم نجد فيما لدينا من وثائق أثراً لهذا « الفرمان » .

الذي هو ضمن هذا الكتاب ، الصلاحيـة التي خولني إياها جلالة والدي المعظم ، وعليه ريثما آتي الى بلادكم بشخصي فقد أنبت عني الشريف ناصر ابن علي والسيد نسيب البكري لكي تكونوا واياهما يـــداً واحدة على اعدائنا واعدائكم ، وانتخلصوا بلادكم من ربقة الذل والهوان وتطردوا من بلادكم عدواً طالما طغى في ارضكم ، وفـتق في بلادكم ، وقتـل وشنق اعاظم رجالكم . وعن قريب ان شاء الله ، اكون عندكم ، وافرح نفساً طالما شقيت لاجلكم ، وتألمت لألمكم وما ذلك على الله بعزيز .

فيصل

وعاد فأرسل اليهم المنشور الآتي :

بسم الله الرحمن الرحيم

الى عموم اهل جبل الدروز وحوران المحترمين

السلام عليكم ورحمة الله . بما اننا انتدبنا السيد نسيب بك البكري الى جهاتكم ريثما نحضر بذاتنا او يحضر اخونا الامير زيد لجهتكم ، فيجب والحالة هـــذه اجراء جميع التسهيلات المقتضية التي اعتدنا ان نراها من امثالكم الموصوفين بالغيرة العربية ، والشهامة العدنانية ، لطرد اعدائنـا واعداء وطننا اولاد جنكيزخان الذين اذا لم نتحد على طردهم من ديارنا ، ونخلص البقية الباقية من ابناء قومنا ، فانهم لا يبقون منا فرداً . واننا بعون الله سنأتيكم قريبـــاً بجيوشنا ومعداتنـا . هدانا الله وإياكم سواء السبيل ، ووفقنا للتغلب على الاعداء ، واراحة العباد ، وتخليص البلاد .

فيصل

تحريراً في ١٨ جمادي الآخرة سنة ١٣٣٦
الموافق ٢٨ مارس سنة ١٩١٨ .

وطاف السيد نسيب البكري انحاء الجبل الجنوبية ، فلقي استعداداً طيباً ، وكان سلطان باشا الاطرش في مقدمة المنضمين اليه والمتعاونين معه.

فيصل يدعو جماعة الفتاة

وأرسل فيصل مندوباً من العقبة الى دمشق يحمل كتاباً خاصاً منه الى الدكتور احمد قدري احد مؤسسي جمعية الفتاة ، وكان على صلة وثيقة به في دمشق ، يدعوه وجماعة الفتاة للقدوم اليه والعمل الى جانبه ، بعدما فتح الطريق وتهيأت الاسباب .

وأطلع الدكتور بعض اخوانه على الكتاب ، وطلب اليهم ان يتهيأوا للسفر ، وكان مما اتفقوا عليه ان يوفدوا السيد سليم عبد الرحمن ، وكان عضواً في الجمعية ، الى طولكرم وهي بلدته الاصلية فيقابل ياسين الهاشمي ، وكان يقود الفرقة التركية العشرين ، وكانت ترابط في منطقـــة طولكرم تجاه الانكليز ، ويدعوه للانضمام اليه ، في السفر الى العقبـة باعتباره من مؤسسي الحركة العربية .

وهذا ما حدثني به سليم عبد الرحمن عما دار بينهما قال :

دخلت على ياسين الهاشمي في خيمته الخاصة ، وبعد ان أريته شارة الجمعية ، وأطلعته على المهمة التي جئت لأجلها قال لي بالحرف الواحد :

« ان الانكليز غير مخلصين لا لفيصل ولا لوالده ، فهم بعد ان عاهدوهما على انشاء دولة عربية ، اتفقوا مع اليهود وأصدروا وعد بلفور ، كما اتفقوا مع الافرنسيين على اعطائهم سورية ، وربطوا العراق بالهند ، ثم أخرج لي منشوراً ألقته عليهم الطائرات الانكليزية كما أخرج نسخاً من جريدة المقطم المصرية ، كانت الطائرات الانكليزية تلقيها عليهم من وقت الى آخر ، مع مناشير انكليزية وكلها تلقب الحسين بلقب ملك الحجاز

مع انه يلقب نفسه بلقب ملك العرب » .

وختم كلامه معتذراً عن السفر بأنه يتولى عملاً عسكرياً لا يجوز له التخلي عنه ، وقال له اذهب انت واخوانك واعملوا مع الامير لانقاذ العرب ، وسنلتقي في دمشق ان شاء الله قريباً .

وطلبوا ايضاً الى اللواء رضا الركابي الانضمام اليهم ، والسفر معهم الى العقبة ، فاعتـــذر بأنه يتقلد منصباً عسكرياً لا يجوز له ان يتخلى عنه (كان يتقلد منصب قيادة تحصينات دمشق ، وكان الترك قد شرعوا في تحصينها استعداداً للمقاومة) .

وهذه اسماء رجال الفتاة الذين اجتمعوا في دمشق ، وغادروها سراً في اواخر شهر مايو سنة ١٩١٨ الى العقبة للانضمام الى الجيش العربي :

الدكتور احمد قدري (دمشق) كان طبيباً عسكرياً في الجيش التركي ، وتحسين قدري (كان برتبة رئيس عسكري في الجيش التركي) وسليم عبد الرحمن (كان ضابط احتياط في الجيش التركي) ، والشيخ سعيد الباقي من علماء دمشق ، ومفتي قطنا ، ومحمود حلمي ملازم اول في الجيش التركي ، واصله من برقه ، والاستاذ خليل سكاكيني (القدس) والاخيران ليسا من الفتاة وقد انضما اليها في هذه الرحلة ، ومحمد رستم حيدر (بعلبك) عميد الكليـــة الصلاحية في القدس ، ورفيق التميمي من رجال التعليم (نابلس) .

وتسلل اعضاء الحملة سراً من دمشق الى قرية جرمانا من قرى الغوطة واهلها من الدروز وكانوا على صلة بجبل الدروز ، بعد ان تزيوا بزي الفلاحين وساروا ليلاً من جرمانا يريدون الجبل الدرزي ومعهم نفر من شبان القرية الدرزية لحماية القافلة الصغيرة ، فواصلت السير حتى بلغت قرية « القرية » داخل الجبل وهي قاعدة سلطان باشا الاطرش ، بدون حادث. وكانت هذه حمى يقصده كل خائف وكل هارب من ظلم الترك وجبروتهم

وكل من يريد الانضمام للثورة العربية ـ وكان الباشا وثيق الصلة بها وبرجالها ـ فيجد الامن والامان .

ووصل الى القرية ، والقافلة الصغيرة ما تزال تنزل فيها ، السادة عبد اللطيف وحكمة ولطفي وفائق العسلي فانضموا اليها في سيرها الى المعسكر العربي ، فبلغته بعد ١٥ يوماً من سيرها في البادية ، وكان عدد افرادها يزداد تدريجاً حتى وصلوا الى ١١٠ عند وصولهم الى المعسكر ، فاستقبلهم اخوانهم بالترحيب والتكبير والتهليل .

الشروع في العمل العسكري

تلك هي بعض التدابير المدنية التي وقفنا عليها من اخبار الاستعدادات التي باشرها الامير عقب اتفاقه مع الانكليز على الشروع في الزحف العتيد .

اما الخطة العسكرية التي نفذت ، فهذا بيان عنها :

دعا الامير جمهور المجاهدين عندما اقترب موعد الزحف وخطبهم قائلا :

هيا للعمل فقد دقت ساعة انقاذ سورية .

سنشرع بالهجوم بعد ايام ، فاذهبوا غداً مع الحملة البدوية وجمهور الثوار الى الازرق وسيلحق بكم الجيش النظامي وسأحضر لعندكم بعد أيام ، فبادروا واضرموا نار الثورة في جميع انحاء سورية .

وتم تأليف الحملة في اواخر شهر اغسطس سنة ١٩١٨ من العناصر الآتية :

١ ـ لواء الهجانة وهو مسلح بأربعة مدافع صغيرة و٤ رشاشات ثقيلة و٢٠ خفيفة و٤ دبابات .

٢ ـ مفرزة تخريب .

٣ ـ طيارتين للكشف .

وقاده الامير الحملة بالذات ، وانضم اليهـا الشيخ نوري الشعلان شيخ مشايخ الرولة ومعه ١٠٠ خيال ، والشيخ عودة ابو تايه مع ١٠٠ خيال ، كما انضمت اليها سرية الشريف ناصر فاصبحت تتألف من نحو الفي مقاتل.

وتحركت الحمـــلة من ابي اللسل في اوائل شهر سبتمبر سنة ١٩١٨ قاصدة الأزرق ، فاجتازت سكة الحديد من جنوب معان الشرقي ، ودمرت في اثناء سيرها الجسر الحديدي بين محطتي المفرق والزرقا يوم ١٦ منه ، وواصلت تقدمها حتى أشرفت على ضواحي درعا .

وبدأت عملها في حوران صباح ٢١ بمهاجمـة محطة خربة الغزالة وتقع شمالي درعا على طريق دمشق فدمرتها كما دمرت جسراً كبيراً بقربهـــا ونسفت قضبان سكة الحديد بينها وبين درعا ، وكانت الطائرات الالمانية تتعقبها وتقذفها بقنابلها .

وسيرت الحملة في ذلك اليوم قوة من الهجانة الى المزيريب لتدمير سكة الحديد بين درعا وحيفا ، فبلغت بعد الغروب قرية « طفس » فكمنت وراءها واستدعت شيخهـا طلال بن حريدين ، فاتفق مع قائدها على ان يأتيه بقائد محطة المزيريب وهو ارمني فيسلمه المحطة . وجاء هـذا بملابس بدوية وتم الاتفاق . وبينما كان هذا يهم بتنفيذه ، وصل من حيفا قطار يحمل فوجاً تركيـاً معه بعض المدافع فرابط في المحطة . فتوقفت القوة عن العمل بانتظار سفره ، على انها حاولت في الغداة التحرش به فأصلتهـا المدفعية التركية ناراً حامية ، فقصدت محطـة صغيرة بين المزيريب ودرعا فدمرتها ، ثم ذهبت الى محطة « نصيب » بين درعا والزرقا فاشتبكت مع قوة تركيـة يقودها ضابط الماني أعدت للدفاع عن درعا ، وبعدما خربت جسراً حديدياً كبيراً اتجهت الى قصر الازرق . ووصلت صباح ٢٥ منه الى قرية الشيخ سعد فقضت فيهـــا يوماً كاملا وأسرت ١٥٠٠ جندي تركي و٦٠ ضابطاً هذا اليوم .

واحتلت محطة درعا يوم ٢٨ منه ، وبلغ عدد أسراها من الترك هنا نحو خمسة آلاف جندي وضابط من فلول القوى التركيـــة المرتدة من فلسطين . وفي يوم ٢٩ منه اتصلت بالجنـــاح الايمن للجيش البريطاني ، وواصلت الزحف نحو دمشق بطريق سكة الحديد فبلغتهـا يوم ٣٠ منه (الساعة الثالثة والنصف بعد منتصف الليل) فدخلتها بين هتاف الشعب وتهليله .

كيف نفذ الهجوم البريطاني

في يوم الاربعـــاء ١٨ سبتمبر سنة ١٩١٨ بدأ الجنرال اللنبي هجومه الكبير على خط الدفاع العثماني الغربي الممتد من « قاقون » من منطقة طولكرم (البحر المتوسط) غرباً الى وادي الشريعة شرقاً ، فاخترق الخيالة الانكليز في الغداة خط الدفاع التركي في منطقة الجيش الثامن ، واندفعوا متقدمين شمـالاً على طول ساحل البحر حتى وصلوا الى العفولة في قلب فلسطين ، فقضوا ليلتهم فيها .

ووصلت اخبار هذا الهجوم وهذا الاختراق لخط الدفاع التركي الى مقر القيـادة في الناصرة فصدر الأمر بالشروع بالجلاء نحو الشمال ، نحو دمشق وحلب ، وأسرعت فسلمت حقيبة ملابسي الى مركز قيادة الجيش لارسالها الى دمشق .

وأفقت فجر الجمعة ٢٠ منه ، وكنت اقطن منزلاً في اعالي الناصرة ، على دوي الرصاص ، فعرفت ان معركة تدور في أسفل المدينة على الطريق الممتد من العفولة ، بين الخـــيالة الانكليز الذين جاءوا من العفولة وبين قوات الترك والالمان الصغيرة التي احتشدت لمنازلتهم ، وتسنى لهـا ردهم واعادتهم قرب الظهر ، فهيأت بذلك فرصة مناسبة للضباط الذين كانوا ما يزالون هنـالك للجلاء . وكان المارشال ليمان فون ساندرس ورئيس

اركان حربه اللواء كاظم باشا في مقدمة من جلا ، وقد شاهدتهما وهما ذاهبان من المكان الذي كنت اجلس فيه قرب عين الماء في كفر كنا ، حيث قالوا ان المسيح حوّل الماء الى خمر .

وانتهى الجلاء التركي ـ الالماني عن الناصرة في المساء ، في ظل من الهدوء ، واتجه الجميع الى دمشق بطريق طبريا ـ الجاعونة ـ جسر بنات يعقوب ـ القنيطرة . وبلغت دمشق قبل ظهر الاحد ٢٢ منه ، وكانت تهوج وتموج ، وكانت تنتظر بفارغ الصبر وصول قوات الجيش العربي ، الذي كان يصول ويجول في حوران .

وكان الترك يواصلون الجلاء عن دمشق متجهين الى حلب ، وكانت الأسر التركية ايضاً تجلو مع الجيش ، وكانت الحرائق تتصاعد من كل مكان ، حيث كان الترك والالمان يحرقون كل ما لا يمكن نقله .

واستقرت قيادة الجيش في فندق فيكتوريا ، فذهبت اليه للاستطلاع ، فعرفت ان امراً صدر بالاستعداد للسفر في ذاك المساء ٢٦ سبتمبر سنة ١٩١٨ الى حلب ، وان قطاراً خاصاً يعد في محطة البرامكة لسفر ضباط القيادة ، ودعيت للسفر فيه ، فاتجه بعد الغروب الى رياق ومنها الى حلب ، ولحقته طائرتان بريطانيتان وألقتا عليه بعض القنابل ولكنه نجا ووصل في الصباح سالماً الى حلب ، فاستقر المارشال في فندق البارون .

وتوارد الى حلب كبار الضباط والقواد الترك قادمين من الجنوب في طريقهم الى الشمال ، وفي مقدمتهم جواد باشا ومصطفى كمال باشا وجمال باشا الصغير وعصمت بك ورأفت بك وغيرهم من كبار القادة . وكانت اطنه وجهة الترك في المرحلة الجديدة بعدما ادركوا ان لا امل لهم بالبقاء في حلب .

وأرسل المارشال فون ساندرس يبلغ الحكومة التركية نبأ استقالته

من القيادة ، فجاء الأمر الى مصطفى كمال بأن يحل محله ، فشرع بالعمل ، فأمر بارسال العائلات والمرضى والجرحى من الجنود الى اطنه ، كما أمر بانشاء خط دفاع في جنوبي حلب ، فأقيم بجوار خان طومان ويبعد عنها نحو ٢٥ كلم الى الجنوب ، كما اقام خط دفاع في شمالها بجوار محطة السلمية وتبعد عنها ٦ كلم ، وحشد في هذين الخطين كل من تسنى له حشده من القوى المرتدة من الجنوب .

ووصل الى حلب يومئذ الاستاذ الشيخ اسعد الشقيري قادماً من عكا في طريقه الى اطنه وتركيا فلا يقع في ايدي الانكليز حين احتلالهم لمدينة عكاء مسقط رأسه ، فذهبت معه لزيارة مصطفى كمال باشا في فندق البارون وكان يقطن في الطبقة الثانية .

وتحدث عن الانكسار الذي لحق بهم ، فقال ان هنالك تبعة لاحقة بالقيادة العامة بالدرجة الاولى فقد غادرت الناصرة رأساً الى دمشق مهملة انشاء اتصال بقادة الجيوش ، فما كان احد منا يعرف اين هو والى اين يسير . وهذا عامل كبير من عوامل الفوضى التي وقعنا فيها .

ثم قال وهنالك مسؤولية كبيرة ايضاً لاحقة بجمال باشا الصغير قائد الجيش الرابع ، فقد اتصلت به مراراً بعدما هاجمنا الانكليز في منطقة « البان » وطلبت منه انجادنا ، وما كانت هناك معارك تدور بينه وبينهم ، لأن هجومهم كان موجهاً الينا والى الجيش الثامن اي على خط البحر ـ الشريعة وحده ، ولكنه لم يرد ولم يبد اي حركة .

قال ولقد صددت هجوم الانكليز وأوقفته ، وكان في الامكان ان نثبت لو اشترك معنا الجيش الرابع في المعركة ولكنه لم يفعل . فماذا كانت النتيجة ؟

كانت النتيجة انه اضطر للانسحاب والارتداد في اسوأ حال ، فقد

حمل عليه الانكليز بعد ان تغلبوا علينا ، وحاولوا القيام بحركة التفاف ضده فارتد مسرعاً وتفرق شذر مذر .

وهذا ايضاً عامل من عوامل الانكسار »

نعم ، هذا ما سمعته من مصطفى كمال في حلب عن المعركة . ومما يجب ذكره انه ابى ان يستخدم جمال هذا او يستعين به في دولته التي أقامها في انقرة ، وقد وصفه بأنه لا يصلح ان يكون اكثر من شيخ تكية .

ولم يبقَ لضباط قيادة المارشال ما يعملونه في حلب بعد ان انتقلت القيادة الى مصطفى كمال ، فاتجه هؤلاء الى اطنه مع الذاهبين ،وقد ودعتهم حين سفرهم في محطة القطار ، ولما سألوني لماذا لا ارافقهم واذهب معهم اجبتهم بأن حدودي تنتهي في حلب .

ودخلت قوات الجيش العربي يوم ٢٥ اكتوبر سنة ١٩١٨ الى جنوبي حلب فاصطدمت بخط الدفاع التركي الذي أقامه مصطفى كمال ، فدارت معركة بسيطة انتهت بارتداد هؤلاء الى الخط الشمالي في السلمية .

وعقدت الهدنة يوم ٣٠ منه وألقي الترك السلاح ، وسافر مصطفى كمال الى اطنه ومنها الى الاستانة حيث مثل دوره الخطير في التاريخ التركي .

على عربات البقر

ولقد شهدت بعيني رأسي وانا في حلب جلاء الترك النهائي عن بلاد العرب بعد ان حكموها نيفاً واربعماية سنة ١٥١٧ - ١٩١٨ او من سنة ٩٢٣ الى سنة ١٣٣٦ بالحساب الهجري ، ورأيتهم اكثر ما يعتمدون في جلائهم على عربات البقر ، وقد جاءوا عليها في الأصل . ولعل مما يؤسف

له انهم لم يتركوا في بلاد العرب رغم امتداد حكمهم هـذا الامتداد الطويل ما يذكر الناس بهم ، او يجعلهم يأسفون على رحيلهم .

المعارك الختامية في كتاب بريمون

وهذا ما نقله الكولونيل بريمون في كتابه « الحجاز في الحرب العالمية » عن المعارك الختامية قال :

كانت الحملة بقيادة نوري السعيد وكانت تتألف كما يلي :

٤٠٠ جندي نظامي عربي بقيادة علي جودة الايوبي و٤٥ مصرياً بقيادة الكبتن بيك (النقـل) و٣٠ تركياً بقيادة الكبتن سكوتيجانس وثلاث دبابات وطيارتان وسيارات نقل . وكانت القوات البريطانية في الحملة بقيادة الكولونيل جويس ولورانس والميجر يونغ ، وكان فيها ايضاً بطاريـة افرنسية عيار ٥ و ٦ وسرية وشاشات فرنسوية وسرية مهندسين بقيـادة الكبتن بيزاني الفرنسوي ومجموع رجالها ٣ ضباط و١٤٠ جندياً .

وفي يوم ٣١ اغسطس سنة ١٩١٨ غادرت الحملة ابي اللسل بقيـادة الامير فيصل قاصـدة الازرق فبلغته يوم ١٢ سبتمبر ، وسبق الامير نوري السعيد فوصل يوم ١١ بالسيارة . اما الطيـارات فجاءت يوم ١٠ منه .

وفي الساعة ٤,٣٠ من يوم ١٤ منه غادرت الحملة الازرق ـ وقـد ظل الامير فيها ـ باتجـاه الغرب الشمالي ، وفي يوم ١٦ عسكرت على مسافة ١٢ كلم من درعا فانضم اليها ٢٠٠ من خيالة الرولا مع الشريف ناصر والامير طراد الملحم ، وفي ١٧ منه دمرت المدفعية مركزاً للترك في تل عرار وهو على بعد ٨ كلم شمالي درعا . وتجولت الدبابات الانكليزية على طول سكة الحديد وحلقت خمس طائرات تركية فوق الحملة ، وألقت

قنابلهـا ورصاصها من علو لأن المدفعية منعتها عن ان تسف . ثم عادت الى درعا وكانت تراوح الحملة وتغاديها بلا انقطاع .

وقبع الترك في درعا وتحصنوا فيها ، فواصلت الحملة تخريب السكة ، وفي الساعة ١١,١٥ أمر نوري السعيد بالزحف على تل شهاب بعدما ابقى قوة في تل عرار لمضايقـة حامية درعا . ولمـا وصلت الحملة الى المزيريب قابلها السكان بالهتاف والسرور ، ثم غادرتها في الساعة ٩,٣٠ مساء الى تل شهاب في انتظـــار قطار قادم من الغرب . وفي الساعة ١٢,٣٠ مساء امر نوري السعيد بتدمير الجسر القائم هناك ، وأرسلوا بدوياً للتجسس ، فعاد بعد طول انتظار يقول انه وصل فوج من الجنود الالمان بقيـــادة كولونيل تحصن في متاريس ، فكان ذلك القطار المنتظر . وعادت الحملة الى المزيريب فوصلت في الساعة الثانية من صباح ١٨ سبتمبر ، ثم اتجهت الى الشرق مارة بجنوبي درعا . وفي الساعـــة ٤,١٥ خربت مخفراً للترك في نصيب ، ففر رجاله الى درعا . وفي الساعة ٩ مساء عسكرت على مسافة ٥ كلم شرقي سكة الحديد . واستأنفت الزحف صباح ١٩ منه ، فلحقت بها طائرتان تركيتان من درعا والقت عليها قنابل في الساعة ٩,٢٠ صباحاً ، فأجابتها المدفعيـة بنيرانها ، وذهب على الاثر لورانس بسيارة يبحث عن الطائرات الانكليزية . وفي الساعة ٦ بعد الظهر قصدت أم السراب وكان فيها مطار ، فنزلت فيها وضربت خيامهـا . وفي مساء ٢٠ منه سيرت قوة لتدمير سكة الحديد فقامت بمهمتها ، ووصلت الى أم السراب ظهر ٢٢ منه ثلاث طائرات ، قدم عليها لورانس فقال ان الهجوم الانكليزي فاز فوزاً مبيناً وانهم اسروا ٢٢ ألف تركي وان خيالة الانكليز وصلت الى بيسان .

ودار قتال بين الطائرات فسقطت طائرة تركية . ووصل في الساعـة السادسة مساء قائـــد الطيران الانكليزي بطيارة ، وألقت ٤ طائرات

انكليزية في الليل القنابل على درعا . وفي الساعة ١١ مساء غادرت الحملة ام السراب لتخريب سكة الحديد فقامت بمهمتها ، وعادت في الساعة الواحدة والنصف بعد ظهر ٢٣ منه . وفي هذا اليوم جلا الترك عن معان فاحتلها العرب . وفي صباح ٢٤ منه طارت طائرة انكليزية فوق المعسكر وألقت بلاغاً جاء فيه : « ان الانتصار عظيم ، وان خيالة الانكليز بلغوا سمخ ، وان الجيشين السابع والثامن التركيين تمزقا ، وان القوات التركية في السلط وعمان تنسحب نحو الشمال سائرة شرقي سكة الحديد » . فسار نوري السعيد بقواته لمطاردتها ، فوصل في الساعة ٤,٣٠ بعد الظهر الى أم طيا . وفي صباح ٢٥ منه شوهدت قوتان كبيرتان للترك تسيران على انفراد نحو الشمال على جانبي سكة الحديد بين المفرق ونصيب ، فالتقط البدو زهاء ٢٠٠ اسير منهم الماني واحد ونمسويون ، وغنموا منهم غنائم . واعتزمت الحملة قطع خط رجعة الجيش التركي الرابع ، فسارت في الساعة ٣ بعد ظهر ٢٥ منه الى الشمال ، وتوقفت في الساعة السادسة . وفي صباح ٢٦ منه واصلت سيرها فوصلت الى شيخ مسكين في الساعة الرابعة من صباح ٢٧ منه ، وفي الساعة الثامنة بلغت الشيخ سعد وتبعد ١٨ كلم من شمالي المزيريب . واقتفاه الخيالة الدروز والحوارنة ، وقد ازداد عدد المنضمين منهم الى الحملة في اليومين الاخيرين زيادة كبيرة ، ٨٠٠ أسير الى معسكر الحملة في الشيخ سعد بينهم ضباط المان ونمسويون و١٦ رشاشاً ومدفعاً.

وفي الساعة ١٠ صباحاً جاء اهل طفس يستجيرون بالحملة ويسألونها انقاذهم من ظلم الترك الذين نهبوهم واعتدوا على نسائهم اثناء مرورهم بقريتهم . فجردت قوة أرسلتها على الفور لطردهم ، ولما وصلت تبينت جموعاً كبيرة من الترك قادمة من الجنوب لا تزال محافظة على النظام ، ولديها قيادة منظمة ، والارجح انها فلول الفيلق الثامن المرتد من عمان

تحاول سلوك طريق درعا - طفس - شيخ سعد - نوى - دمشق ، ويبلغ مجموعها ٨ آلاف مقاتل منها ٣ آليات مشاة يقودها ثلاثة جنرالات ومعها عدد من الفنيين الالمان والنمسويين ، فلم تتردد مدفعيـــة الحملة في صب نيرانها على الترك القادمين ، فذعروا لهذه المفاجأة فارتدوا وسلكوا الطريق الشرقي وهي طريق درعا - شيخ مسكين - دمشق . وبينـــما كانت المدفعية تصلي الترك ناراً حامية انسل العرب الى قرية طفس فانتقموا من الترك الذين كانوا فيها ، ثم عادوا في السادسة مساء الى الشيخ سعد. ووصلت في المساء طائرة انكليزية فقالت ان الخيـالة الانكليز يصلون في الغد الى درعا . وغادرت الحملة الشيخ سعد في الساعـة ٤,٣٠ من صباح ٢٨ منه فوصلت في الساعـة العاشرة الى درعا ، فألفت فيها آلايين من الخيالة البريطانيين وصلا في الساعـــة ٨,٣٠ صباحاً . ووصلت في المساء الحملة البريطانية الكبرى من عمان . وفي درعا اتصل الجيش العربي بالجيش البريطاني .

وفي صباح ٢٩ منه غادرت الخيالة البريطانية درعا ، فأدركت الترك في الصنمين وساقتهم حتى خان دنون على بعد ٢٠ كلم من جنوبي دمشق . وكانت خيالة الجيش العربي بقيـــادة الشريف ناصر قد سبقتهم ، فبلغت الكسوة ودخلت دمشق الساعـة ٣ من صباح اول اكتوبر . اما الامير فيصل فبلغ دمشق يوم ٢ منه قادماً بالسيارة من الازرق ، وقـــد استقبل والحلفاء استقبالاً حماسياً ، وأخـــذوا من دمشق ١٦ ألف اسير تركي .

وواصلت الحملة العربيـة الزحف الى حمص فحررتها ، ثم قصدت حماة فاستقبلها السكان بالأهازيـج ، وواصلت تقدمهـا نحو حلب ، وكان الترك قد ارتدوا اليها وأسسوا في جنوبيها خط دفاع ، دافع عنه مصطفى كمال بالذات ، وكانت القيادة قد انتهت اليه بعد الهزيمة الكبرى ، غير

انه لم يطق المقاومة فارتد يوم ٢٥ اكتوبر الى شمـالي حلب ورابط في خط دفاع جديد أقامه في السلميـة (شمـالي حلب) ، فدخلت قوات العرب حلب بين التهليل والتكبير . ثم واصلت مطاردة الترك ، بيد ان استسلامهم يوم ٣٠ منه اطفـأ نار الحرب في الشرق وأعاد السيوف الى اغمادها . وكان قادة تلك الحملة يعلنون عزمهم على الوصول الى العراق لولا الهدنة التي وقعت في طريقهم .

آخر العهود للعرب

ونختم هذا الفصل باثبات هذا العهد الجديد ، الذي قطعته الحكومتان الانكليزية والفرنسية للعرب ، وقد صدر يوم ٨ نوفمبر سنة ١٩١٨ ، اي قبل استسلام المانيـــا وانتهاء الحرب بثلاثة ايام ، وهو آخر ما ناله العرب من عهود ، وهذا هو نصه :

« ان السبب الذي من اجله حاربت فرنسا وانكلترا في الشرق ، تلك الحرب التي اهاجتها مطامع الالمان ، انما هو لتحرير الشعوب التي رزحت اجيالاً تحت نظام الترك ، تحريراً تاماً نهائياً وإقامة حكومات وادارات وطنية تستمد سلطتهـا من اختيار الاهالي الوطنيين لها اختيـاراً حراً . ولقد أجمعت فرنسا وانكلترا على ان تؤيدا ذلك بأن تشجعـــا وتساعدا على اقامة هذه الحكومات والادارات الوطنية في سورية والعراق – المنطقتين اللتين أتم الحلفاء تحريرهما ، وفي الاراضي التي ما زالوا يجاهدون في تحريرها ، وان تساعدا هذه الهيئات وتعترفا بها عندما تؤسس فعلًا – وليس من غرض فرنسا وانكلترا ان تنزلا اهالي هذه المناطق على الحكم الذي تريدانه ، ولكن همها الوحيد ان يتحقق بمعونتها ومساعدتها المفيدة عمل هذه الحكومات والادارات التي يختارها الاهلون من ذات انفسهم ،

وان تضمنا لهم عدلاً منزهاً يساوي بين الجميع، وان تسهلا عليهم ترقية الامور الاقتصادية في البلاد بإحياء مواهب الاهالي الوطنيين ، وان تشجعاهم على نشر العلم ، ووضع حد للخلافات القديمة التي قضت بها السياسة التركية .

« تلك هي الأغراض التي ترمي اليها الحكومتان المتحالفتان في هذه الاقطار المحررة » .

هـــذا هو آخر العهود ، وقد رأيت انه مشترك بين الانكليز والافرنسيين ، وقد كان نصيبه كالعهود التي سبقته النبذ والاهمال ، كما كان عاملاً مباشراً في اعلان العراقيين والسوريين الثورة على الانكليز والافرنسيين في بلادهم كما سيأتي .

الحكومة الهاشمية في مؤتمر الصلح

أسرع لورنس ، وكان قد وصل الى رتبـــة كولونيل في الجيش البريطاني ، فغادر دمشق في الايام الاولى لاحتلالها قاصداً لندن ، للدفاع عن قضية العرب ، ولتعديل الاتفاقات التي عقدت لاقتسام بلادهم ، تعديلاً يوافق مصلحتهم ، طبقـــاً لما وعد به فيصل ، عقب اعلان وعد بلفور (انظر ص ٢٠٤) .

بين لورانس وملك انكلترا

ومع اننا لا نعرف شيئاً عن الجهود التي بذلها ولا عن الاجوبة التي تلقاها ، الا ان الذي نعرفه ونثق به ، هو انه بعد ان وجد الابواب مغلقة ووجد عزماً وتصميماً من الحكومـــة البريطانية على هضم حقوق العرب وعدم الوفاء بالعهود التي وعدتهم بها ، حمل أوسمته ورتبته العسكرية وسلمها الى كبير امناء الملك جورج الخامس وقال له ارجوك ان تبلغ جلالة الملك انني اعيد هذه الاوسمة مع الرتبة العسكرية اليه لانني لم انلها بحق ، بل نلتها بسبب تضليلي للعرب وخداعي إياهم .

ويحدثنا المستر تشرشل في كتابه « عظماء معاصرون » ، وهو نديم للورانس ، عن هذا الحادث ، حديثاً طريفاً رأينا اثبـاته بكامله لصلته الوثيقة بقضايانا ، ولأنه يلقي نوراً جديداً على موقف لورانس ، الذي يصح ضمه الى مجموعة الادلة التي تشهد على انكلترا بالخيانة وعدم الوفاء للعرب .

قال تشرشل في كتابه :

« حينما مثل لورانس بين يدي الملك جورج الخامس في شهر اكتوبر سنة ١٩١٨ عند عودته من ميدان القتال الى انكلترا ، اراد الملك ان يقلده بيده شارة وسام الحمام وشارة وسام الخدمة الممتازة ، اللذين سبق نشر خبر الانعام عليه بهما في الجريدة الرسمية ، فالتمس من الملك اعفاءه عن قبولهما ، ولم يكن هنالك ثالث بينهما ، فأعفاه .

« ولمت لورانس على ما فعله مع الملك ، حينما اجتمعت به في باريس ابان انعقاد مؤتمر الصلح ، فقبل اللوم بروح مرحة طيبة ، وقال انه ما كان يسعه ان يسلك سوى هذا المسلك ليلفت انظار المقامات العليـــا في الدولة الى ان شرف بريطانيا رهن اخلاصها في معاملة العرب ، وان الغدر والتسليم بمطالب فرنسا في سورية هما وصمة عار في تاريخنـــا ، وقال انه كان لا بد من اطلاع الملك على ما يعترف باسمه ، وانه لم يكن يعرف لذلك وسيلة اخرى .

« وينبغي عليّ ان اسلم بأن هـذا الحديث شوقني الى الاستزادة من المعلومات المتصلة بما وقع فعلاً في حرب الصحراء ، وفتح عيني على تلك الانفعالات النفسية التي كانت تغلي في صدور العرب ، فطلبت التقـــارير وأنعمت النظر فيها ، ثم تحدثت الى كليمنسو فأخبرني بأن اتجاه الافرنسيين نحو سورية يرجع الى مئة عام ، وهو لا يطيق حتى مجرد التفكير في ان

فرنسا – وهي التي اريقت دماؤها في خنادق الفلاندر – تخرج من الحرب الكبرى ، صفر اليدين ، لا تنال حصتها من الاراضي المفتوحة ، كما لا يطيق ذلك مواطنوه ولا يقبلونه بحال من الاحوال .

« والناس جميعاً يعلمون ما أعقب ذلك ، فبعد نقاش عنيف طويل في باريس وفي الشرق ، منح مؤتمر السلام فرنسا حق الانتداب على سورية ، وقاوم العرب هذا القرار بالقوة ، وأخرجت جيوش فرنسا الامير فيصل من دمشق بعد حرب شعواء استشهد فيها بعض شيوخ العرب البواسل ، ثم وطد الافرنسيون احتلالهم لهذه الولاية الزاهرة ، واستعملوا أشد ضروب العسف في قمع ما تلا ذلك من ثورات ، وظلوا هنالك يحكمون حتى اليوم بفضل جيشهم الجرار [1]

« وفي اثناء ذلك كله لم أرَ لورانس ، والحق ان معاملة العرب هذه لم تبدُ شاذة في عالم ما بعد الحرب ، حيث كانت اشياء كثيرة تهوى وتنهار . غير اني كلما خطر ببالي هذا الموضوع ادركت الى اي حد بلغ به التأثر ، وكل الذي أقض مضجعه انه لم يكن يدري ماذا يصنع ، فأخذ يلجأ الى هذه الجهة او تلك في يأس وقنوط ، وفي اشمئزاز ونفور من الحياة ، حتى لقد أعلن في ما نشر له من اقوال ان ما كان له من اطماع شخصية ، لم يبقَ لها اثر قبل ان يدخل دمشق ظافراً في المرحلة الاخيرة من الحرب » .

الحسين ومؤتمر الصلح

هـــذا ما تحدث به تشرشل عن مهمة لورانس في لندن وفي فرنسا

---

[1] كتب تشرشل هذا قبل طرد فرنسا من سورية .

ومؤتمر السلام واحداث ذلك العهد ، ولئن فشل من ناحية العهود ، ولم يلقَ سوى الاصرار على غمط حقوق العرب ، فقد أدرك نجاحاً في ميدان آخر ، ذلك انه سعى سعياً حثيثاً لدى حكومته لكي توجه دعوة الى الحكومة الهاشمية ، باعتبارها احدى حكومات الحلفاء التي اشتركت في الحرب ، لتوفد مندوبين الى مؤتمر السلام الذي تقرر عقده في باريس لوضع معاهدات الصلح مع المانيا وحلفائها ، وتنظيم العالم تنظيما جديداً ، تقتضيه نتائج الحرب وما انجلت عنه .

ولا بد لنا من القول ان فرنسا كانت تعارض في دعوة الحكومة الهاشمية للمؤتمر ، باعتبار ان قضايا البلاد العربية بتّ فيها ، وان لا حاجة الى اعادة بحثها ، بيد ان الحاح الانكليز عليها جعلها تعدل وتنقاد ، فتلقى الحسين في شهر نوفمبر دعوة للاشتراك في المؤتمر ، فأصدر امراً الى نجله فيصل ، وكان يومئذ في حلب وكان يزورها بعد الفتح للمرة الاولى ، بأن يسافر الى باريس لحضور مؤتمر الصلح ، وهذه برقيته اليه :

« حليفتنا الوفية بريطانيا ترغب حضورك نائباً عن مصالح العرب ، وكل ما يكون اساساً لحياتهم سواء ما يتعلق بالحدود والادارة مما هو معلوم لديك ، في مجتمع سيعقد في باريس في ٢٤ نوفمبر سنة ١٩١٨

« فانفاذاً لرأي عظمتها تتوجه بكل سرعة ممكنة بعد مذاكرتك لفخامة القائد العام في كيفية سفرك وطريقته ، وبعد ان تقرر ما ترونه لحالات البلاد وادارتها في مدة غيابك الذي لا يتجاوز تقريباً شهراً .

وحيث ان رابطتنا الوحيدة هي العظمة البريطانية ولا علاقة لنا ولا مناسبة مع سواها في اساساتنا السياسية ، فكل ملاحظاتك وما تراه في الموضوع تبديه لنوابها وعظمائها الاماجد ان كانوا زملاءك في المجتمع او معتمديها السياسيين ، وما يكلفونك به من قول او عمل إن كان في المجتمع او سواه تعمل به وتجتنب كل ما سوى ذلك .

« هذه درجة مأذونيتك عما يختص بالمجتمع ، وخير الاهالي بالمصلحة والقصد . والله يتولاك » .

وأعد الانكليز بارجة خاصة في بيروت اسمها الدوق جلوسستر أقلعت بالأمير يوم ٢٢ نوفمبر سنة ١٩١٨ في طريقها الى مرسيليا . فلم يرق هذ التدبير للافرنسيين ، وكانوا يرون بأنه لا حق للحكومة الهاشمية بالاشتراك في مؤتمر الصلح ، لأن امر القضايا العربية يخص انكلترا وفرنسا وحدهما ، وقد فرغتا منها .

وأبلغت فرنسا الحسين رسمياً بواسطة مندوبها في جدة ، بأنها وإن كانت تحتفي بالامير عند وصوله الى مرسيليا يوم ٢٦ نوفمبر احتفاءها بابن ملك حليف وصديق قديم ، وتقوم بالواجب عليها نحوه ، إلا أنها تستغرب عدم ابلاغ الامير احد ممثلي حكومة الجمهورية الافرنسية في سورية وفلسطين خبر اي شيء عن رحلته هذه ، مع انها هي المختصة باستقباله وإعداد معدات سفره من مرسيليا الى باريس ، وأنه يظهر لها والحال كما ذكر ، انه يستحيل عليها في الوقت الحاضر اعتبار الامير قائماً بمهمة رسمية لم تبلغ عنها اي شيء .

ورد الحسين مبدياً عدم ارتياحه الى هذا الابلاغ ، وقال انه يغتنم الفرصة ليصرح بأن الافرنسيين اخذوا ينظرون اليه نظر عدم الاطمئنان منذ وصول الجيش العربي الى سورية ، مع انه لا مطمح له فيها ، وما كان تدخله الا بطلب اهلها الذين أعربوا عن هذه الرغبة بملء اختيارهم وبدون اي ضغط لا من جانبه ولا من جانب ولده .

وبلغ الامير مرسيليا في الوقت المحدد ، فجاء لورانس لاستقباله ومرافقته .

وأعد الافرنسيون خطة تقضي بالطواف بالامير في فرنسا وبعدم ادخاله الى باريس ، باعتبار انه لا عمل له فيها .

وتدخل الانكليز وتوسطوا ، فعدل الافرنسيون خططهم ، فاستقبل

رئيس جمهوريتهم الامير في الساعة الخامسة من يوم ٧ دسمبر سنة ١٩١٨ ومعه السي قدور بن غبريط ، وكانت زيارة ودية عادية

وغادر الامير فرنسا يوم ٩ منه الى لندن في اول زيارة له ، فاحتفل به الانكليز حفـــاوة كبيرة ، ثم عاد الى باريس يوم ٦ يناير لشهود مؤتمر الصلح .

وحاول (كلمنسو) رئيس الحكومة الافرنسية ان يصد الامير عن دخول المؤتمر وعن الاشتراك فيه ، بيـد ان توسط الانكليز والاميركان جعله يعدل ، فاشترك في حفلة الافتتـــاح يوم ١٨ منه ممثلاً لحكومته بالاشتراك مع رستم حيدر الذي اشترك في المؤتمر ايضاً ، اي ان الحكومة مثلت بمندوبين اثنين بل بمندوب واحد .

وعملاً برغبة المستر ولسن ، رئيس وفد اميركا لمؤتمر الصلح ، ومجاراة له ، بدأ المؤتمر اعماله بدرس مشروع ميثـاق جامعة الامم ، وقد حمله معه من واشنطن ، فأقره واتخذه مقدمة لمعاهدة الصلح المعقودة مع المانيا وجزءاً منها .

وينص هـذا الميثاق على انشاء نظام الانتداب الذي وضع في الأصل ليطبق على البلاد العثمانية المنفصلة عن تركيا وبلاد العرب من جملتهـا ، فرفضه الحسين وابى توقيع المعاهدة التي هي جزء منه ، فحرمت حكومته من عضوية جامعة الامم لأنهم جعلوا دخولهـا قاصراً على الدول التي تقر ميثاقها .

ويقول الكتاب الاميركيون الذين كتبوا عن المؤتمر ، ورافقوا ولسن اليه ، انه لم ينص في مشروع ميثاقه على مبدأ الانتداب ، وانه دمجه فيه وهو في باريس مراعاة للانكليز والافرنسيين ، فقـــد كبر عليهم ان يحرموا من غنائم الحرب ، وان يحال بينهم وبين الاستيلاء على الاقطـار التي تآمروا عليهـا واتفقوا على اقتسامها ، فداوروا الرئيس الاميركي

وحاوروه ، وما زالوا به حتى أوقعوه في شراكهم ، وأقنعوه بقبوله مشروعهم ، وهو في الأصل ليس من رجال السياسة ولا من دهاقينها .

ويصفه عارفوه بأنه من الذين تغلب عليهم بساطة رجال العلم والتعليم ، الذين يسهل خداعهم والتأثير فيهم .

نظام الانتداب

ونثبت هنا نص المادة ٢٢ من ميثاق الامم المتحدة وهي خاصة بالانتداب ، وتضم نظامه وهي :

« يجب ان يطبق على المستعمرات والبلدان التي قضت نتائج الحرب الاخيرة بخروجها عن سلطة الدول التي كانت تسيطر عليها في الماضي والتي كانت تسكنها شعوب ما تزال الى الآن غير قادرة على الوقوف منفردة في معترك الحياة ـ المبدأ القاضي بجعل سعادة شعوبها وتقدمها وديعة مقدسة في يد العالم المتمدن ـ ويجب ان ينص في هذا العهد على الضمانات اللازمة لحسن القيام بهذه الوديعة ، والطريقة المثلى لتطبيق هذا المبدأ عملياً هو ان يعهد بالوصاية على هذه الشعوب الى الدول الراقية التي تمكنها مواردها المالية او اختباراتها او موقعها الجغرافي ، من القيام بهذه المهمة على منوال افضل من غيرها ، وتكون مستعدة لقبول هذه التبعة ، وتقوم بها على سبيل الانتداب من قبل جامعة الامم .

« وتختلف طبيعة هذه الوصاية باختلاف درجات هذه الشعوب في التقدم ، وباختلاف موقعها الجغرافي واحوالها العمرانية وما اشبه من الظروف . ولما كان بعض الشعوب الصغيرة التي كانت ضمن السلطة العثمانية قد بلغت من الرقي درجة يمكن ان يعترف معها مؤقتاً بكونها مستقلة على شرط ان تسترشد ادارتها بنصائح ومساعدة تستمدها من دولة

منتدبة الى ان تصير اهلا للسير وحدها ، على ان تحل رغبة هذه الشعوب باختيار الدولة المنتدبة محلها من الاعتبار ، ويجب في جميع الأحوال على كل دولة من الدول المنتدبة ان تقدم تقريراً سنوياً الى مجلس جامعة الأمم عن البلاد الموضوعة تحت وصايتها ، وعلى هذا المجلس ان يحدد تحديداً صريحاً نوع السلطة او المراقبة او الادارة التي تخول الدولة المنتدبة ممارستها .

« ويجب ايضاً انشاء لجنة دائمة لتسلم تقارير الدولة المنتدبة سنوياً وفحصها وامداد المجلس برأيها في جميع الأمور المختصة برعاية شروط الانتداب » .

واحتج الحسين على نظام الانتداب من حيث هو ، وعده بدعة استعمارية جديدة .

الامير فيصل في المؤتمر

ومثل الامير امام مؤتمر الصلح يوم ٦ فبراير سنة ١٩١٩ فبسط قضية العرب وقال ان والده لا يطلب ضم شبر ارض واحد الى مملكته ولكنه يطلب للعرب - ويريد بالعرب الشعوب التي تتكلم العربية - حق تقرير مصيرها ، بحسب نظام التوكيل الدولي ، الذي يعتقد ان البريطانيين مستعدون لتطبيقه على عرب الحجاز . وقال انه لا يصر على توكيل دولة دون اخرى ، ولا يتكلم باسم عرب افريقيا ، ولا يعارض الافرنسيين الا حيث يحتمل ان يعارض الافرنسيون في مطالب العرب الذين ظلوا حلفاء اكثر من ثلاثة اعوام .

ثم لخص مطالبه بقوله انه يطلب :

١ - الاعتراف ببلاد العرب وحدة جغرافية مستقلة برئاسة والده الملك حسين

٢ - تطبيق العهود المقطوعة للعرب بالاستقلال التام .

٣ - الاعتراف لسورية بالاستقلال التام ، على ان تستعين بمستشارين اجانب تستخدمهم عند الحاجة ، وعلى ان تكون متصلة بحكومـة الحجاز في شؤونها الخارجية .

ورد على سؤال للرئيس ولسن فقال ان الافضل لبلاد العرب ان تكون مستقلة وموحدة .

ورد على سؤال آخر عن السلاح الذي قدمه الافرنسيون لمساعـــدة الثورة ، فقال انهم ساعدوها بأربعة مدافع فقط .

استسلام المدينة بعد الهدنة

انهارت قوى المانيا وحلفائها في خريف سنة ١٩١٨ ، فاستسلمت النمسا في شهر اكتوبر وتلتها بلغاريا ، وجاء الدور للحكومة التركية فدارت مفاوضات في جزيرة مودروس ، بين القائمقام سعدالله بك مندوباً عن حكومة الاستانة ، والاميرال كالتورب ممثلا لانكلترا وحلفائها ، انتهت يوم ٣٠ منه بتوقيع اتفاق الهدنة ، وقد استسلم به الترك للحلفاء بدون قيد ولا شرط والقوا سلاحهم القاء تاماً .

ومما نص في المادة ١٦ من اتفاق الهدنة ان يبادر الترك فيجلوا عن كل ما ما بقي لهم من قوى في بلاد العرب ويستردوها فوراً

وكان للترك حين عقد الهدنة قوى عسكرية في الاماكن الآتية :

١ — المدينة (الحجاز) .

٢ — الموصل (العراق) .

٣ — صنعاء (اليمن) .

٤ — لحج (اليمن) .

وكان اللواء علي احسان باشا يقود القوة الموجودة في الموصل ، واللواء فخري باشا في المدينة ، واللواء توفيق باشا في صنعاء ، واللواء علي سعيد

باشا في منطقة لحج (جنوبي اليمن) .

وأبى اللواء فخري باشا ان يستسلم ويسلم المدينـة ، حين أرسل اليه الامير علي يوم اول نوفمبر سنة ١٩١٨ يبلغه ، بصفته القائـــد الاعلى للجيوش العربية في المنطقة ، نبأ عقد الهدنة واستسلام حكومته ويطلب منه تنفيذ الاتفاق المعقود ، فأبى قائلًا انها خدعة حربية ، رغم وصول اوامر اليه باللاسلكي من الاستانة يدعونه للتسليم .

ووصل الامير علي يوم ٢٨ منه الى بير درويش ومعه الكبتن غارلند ضابط الارتباط الانكليزي في جيشه وأرسل اليه يدعوه للتسليم ، فأصر على الرفض رغم النذر الكثيرة التي وجهت اليه .

وخاطب المندوب السامي البريطاني في الاستانة حكومتها طالباً اليهـا اتخاذ التدابير اللازمـــة لتسليم المدينة ، فانتدبت ضابطاً حمل اليه امراً بالتسليم مع نص شروط الهدنة التي تعاقدت عليها مع الحلفاء . ولكنه أصر على الرفض بحجة ان المدينـة مقاماً مقدساً في نظر المسلمين ، وانه لن يسلمها وهو حي . فعاد الضابط الى الاستانة يحدث بما سمع .

وعلم ضباط الحامية بما هنالك ، وكانوا في اشد حالات الضيق والضنك بسبب امتداد زمن الحصار ، فاتفقوا سراً برئاسة « نكور امين بك » رئيس اركان حرب الحامية ، على خلعه والتسليم للعرب ، وكتبوا بذلك نشرات أذاعوها في المعسكر . وحاول فخري ان يفتك برئيس اركان حربه ، حينما وصل اليه الخبر ، فلجأ الى المعسكر العربي مع فوجين من الآلاي ٥٥ التركي ، فأحرجه ذلك وأزعجه ، فأصدر يوم ١٤ دسمبر سنة ١٩١٨ امراً بالجلاء عن العلا وضم قواتها الى قواته ، فزاد ذلك في نقمة الضباط والجند .

ولجأت سريتان من سرايا الفوج الثاني للآلاي ٤١ المرابط في العوالي بالمعسكر العربي مع بعض المدفعية والرشاشات ، فعجل بالجلاء عن هذه

المنطقة كما جلا عن بير الماشي .

وتتابع انضمام الوحدات التركية الى المعسكر العربي ، فارتد الى خط الدفاع الثاني وهو اضيق من الاول ، فلم يفده ، اذ استمر الالتجاء والفرار ، فأدرك ان العناد لا يفيد ، فأرسل يوم ١٠ يناير سنة ١٩١٩ وفداً الى بير درويش لمقابلة الكبتن غارلند والاتفاق معه على شروط التسليم .

وواصل المندوب السامي البريطاني في خلال تلك الفترة السعي لدى حكومة الاستانة لحملها على انجاز امر المدينة ، فألفت وفداً قوامه حيدر منلا وزير العدلية والاميرالاي احمد بك ، أوفدته الى المدينة يحمل « مرسوماً سلطانياً » موجهاً اليه بوجوب الجلاء ، فبلغا المدينة يوم ١٤ منه ، اي بعد استسلامه بأربعة ايام ، فقد جاء يوم ١٠ منه الى المعسكر العربي بالذات مسلماً نفسه .

وهذا هو صك التسليم وقد وقع عليه يوم ٧ منه في بير درويش :

توفيقاً للمادة ١٦ من معاهدة الهدنة المعقودة بين دول الحلفاء وتركيا تقرر بين صاحب السمو المعظم الامير علي باسم الحكومة الهاشمية لدى دول الحلفاء ، وبين الهيئة الموقعة في ذيله المرسلة من قبل قائد القوات التركية في المدينة ، اخلاء المدينة وتسفير القوات التركية الى بلادها بموجب الشروط الآتية :

١ — نظراً لضعف الامراء والضباط والجنود العثمانيين الذين سيخلون المدينة يتوسط ويسعى صاحب السمو المعظم علي باسم الحكومة الهاشمية لدى دول الحلفاء المعظمة لارسال الجنود التركية الى بلادها .

٢ — بعد مرور ٤٨ ساعة من امضاء هذه الشروط يلزم على القائد فخر الدين باشا ان يترك المدينة المنورة وفي معيته كل من ينتخبه من

الامراء ويأتي الى مقر سمو الامير علي في (بير درويش) ويحل في منزله ضيفاً معززاً مكرماً .

٣ – ان القطعات العسكرية الموجودة في داخل المدينة المنورة وجوارها تجتمع في داخل المدينة المنورة ، والقطعات الموجودة على الخط الحديدي تجتمع ايضاً في مركز (البويرة) ، والأسلحة الخفيفة والثقيلة مع جميع ذخائرها تهيأ في المواقع المذكورة بموجب كشف وتسلم بموجب مضبطة قبل سفر القطعات التركية ، الى هيئة المأمورين المنتدبة من قبل صاحب السمو المعظم . وبعد نقل القطعات من مركز البويرة بالقطار الحديدي الى (بواط) يجري سوقهم الى (ينبع النخل) بواسطة الجمال ، واذا صعب سوق القطعات المذكورة من بواط يجتمعون بسلاحهم وذخائرهم في المدينة المنورة ويجري بعد تسليم السلاح والذخيرة وعندها يهيئون للرحيل ، وان الاسلحة الثقيلة الخاصة بقطعات (جليجله) و (علاوه) تنقل الى المدينة المنورة بواسطة الحيوانات التي ترسل من جيش سمو الامير علي ، وان الاسلحة الخفيفة وذخائرها سيجري تسليمها في (جليجله) وبعده يجري نقل القطعات عند وصول الجمال اليها في المحل المذكور .

٤ – توفيقاً للمادة الثالثة عشرة من معاهدة الهدنة تسلم القطعات التركية الاسلحة الخفيفة والثقيلة والذخائر وجميع المهمات الحربية والتلغراف اللاسلكي وجميع الآلات والأدوات المماثلة ، ويجب ايضاً تسليم الخط الحديدي مع قطاراته ومحطاته وجميع لوازمه بصورة سليمة وبدون ان يطرأ عليها اقل تخريب . ان الالغام والمواد المتفجرة الموضوعة في المحلات المختلفة تجمع من قبل واضعيها بدون ان يحصل قضاء ما .

٥ – الاسلحة والاشياء المدرجة في متن المادة الرابعة تحضر من طرف المأمورين المخصصين لهذه الغاية وتسلم بموجب كشف وبمقابل مضبطة من طرف الهيئة المعينة من قبل صاحب السمو المعظم الامير علي .

٦ — جميع الحيوانات الاميرية تسلم من قبل القطعات الى الهيئة المنتخبة من قبل سمو الامير علي بموجب كشف منظم بمعرفة البياطرة الموجودين في المدينة .

٧ — ان الاشياء الذاتية العائدة لشخص الامراء والضباط كمثل النقود والنواظير ، والاشياء الذاتية المماثلة لها ، والاشياء الذاتية العائدة للجنود العثمانية كمثل النقود وغيرها ، ان كل هذه الاشياء المذكورة اعلاه لا تمس بضرر ما ويسمح لحاملها بأخذها .

٨ — يتفضل سمو الامير بتخصيص جملين لكل امير من الامراء ، وجمل واحد لكل من الضباط والمأمورين ، وجمل واحد لكل نفر من الجنود ، ويعين لكل قافلة ألفا جمل او ما يقارب هذا المقدار .

٩ — يسعى بكل همة لترحيل الامراء والضباط والجنود والمرضى في اربع قوافل ، على ان تكون الفاصلة بين القافلة والاخرى من خمسة الى ستة ايام ، وعلى كل قافلة ان تستصحب معهـا مؤونة عشرة ايام من الارزاق ، وعدا ذلك يعطى الى المرضى علاجاتهم وكل ما يلزم من المواد الطبية ، وان بطانيات الجنود وألبستها وجميع مواد مطبخها وما يلزم لوضع مائها وكل ما يلزمها في طريقها يتدارك ويعطى من قبل القيادة التركية في المدينة ، وكل ما يقتضي لنقل الاشياء المذكورة اعلاه يتفضل باعطائه سمو الامير ويخصص من رجال القافلة في المائة عشرين للمرضى ويخصص جمل واحد لأجل الاشخاص الذين مرضهم خفيف ، ولأجل مساعدة الطبيب يرسل طبيبـان وبمعيتهما الافراد اللازمة من الصحية لأجل تطبيب المرضى المرسلين في القوافل .

١٠ — بعـد مرور اسبوع على امضاء هذه الشروط يبتدىء سوق اول قافلة .

١١ — المنزل الاول يكون (الحفر) والثـاني (مضيق بواط)

والثالث (رأس البئر) والرابع (ينبع النخل) ، والقافلة التي تصل الى هذا المنزل تنتظر فيه مجيء البواخر ، غير ان المرضى يساقون رأساً الى (ينبع البحر) ، وتؤمن راحة القوافل الواردة الى (ينبع النخل) من قبل البكباشي محي الدين بك .

١٢ ـ تجري النقليات على الجمال ما بين (ينبع النخل و (ينبع البحر) بمعرفة المأمورين المخصوصين لهذه الغاية وعلى الوجه المذكور اعلاه .

١٣ ـ ان مسألة الاركاب في البواخر وما يقتضيه من التسهيلات لها، تدبر من قبل قائمقام القضاء ومعاونه البكباشي براءت بك .

١٤ ـ ان الجمال المرسلة الى المدينة المنورة لأجل نقل وسوق القوافل تجتمع في (عروة) ، وبعده تقسم القطعات والمؤسسات المهيئة للحركة وترسل اليها .

١٥ ـ تدخل هيئة الاستلام الى المدينة المنورة عقب خروج حضرة فخر الدين باشا منها .

١٦ ـ بعد خروج اول قافلة من المدينة تحتل الجنود الهاشمية النقاط اللازمة الموجودة في المدينة ، وتضمن الراحة العمومية الى ان تخرج آخر قافلة منها ، ويضمن سمو الامير عدم دخول العربان والاهالي اليها .

١٧ ـ ان النقود والاوراق النقدية الموجودة في خزائن القطعات والمؤسسات توفيقاً لأوراقها الرسمية والحسابية المنظمة في داخل كشف تسلم بموجب مضبطة الى الهيئة المنتخبة .

١٨ ـ يؤذن للقطعات والمؤسسات ان تأخذ الدفاتر والامانات والمخلفات الموجودة لديها لأنهم مجبرون على ابرازها امام حكومتهم .

١٩ ـ تشكل هيئة من الاشراف ومشايخ القبائل المحلية ، لأجل منع الاضرار والتعديات حين انسحاب القوات ، على الخط الى بواط والمدينة المنورة من اول محطة الى آخر محطة .

٢٠ ـ يلزم بقاء مستخدمي الحرم الشريف والخزينة النبوية في وظائفهم الى مـدة شهر ونصف الى ان يعين غيرهم في محلهم ، ومعاشاتهم تصرف لهم كالسابق

٢١ ـ يمكن البقـــاء في المدينـة لمن يرغب من المأمورين الملكيين والمجاورين فيها .

٢٢ ـ يستوفي اصحاب الحقوق حقوقهم من المبالغ العائدة للملكية والمحكمة الشرعية والخزينة النبوية ، وبعد ذلك يسلم الباقي من المبـالغ المذكورة بموجب دفاترها للهيئة المنتخبة بمقابل مضبطة .

٢٣ ـ على دائرة البريد ان تعيد المبالغ المرسلة من قبل الضباط والجنود العثمانية الى عائلاتهم بواسطة اليوزباشي ضياء بك لعدم ارسال هذه الحوالات الى اصحابها .

٢٤ ـ يبقى موظفو المطـاحن والكهرباء وما يلزم من المقدار الكافي من المأمورين العائدين لسوق القطعات الى حين سفر آخر قافلة ، ويستمر هؤلاء في وظائفهم وتصرف لهم معاشاتهم كالسابق .

٢٥ ـ ان المرضى الموجودين في المستشفيات والذين يصعب نقلهم لشدة مرضهم يوضعون في مستشفى او اثنين ، ويترك لكل مائة منهم ، لأجل معالجتهم ، طبيب وصيدلي واحد .

٢٦ ـ بعد تفريق ما يلزم اخذه من الادوية والرباطات لاجل الطريق يترك ما بقي الى الحكومة الهاشمية ويسلم الى مفتشي صحتها .

٢٧ ـ على الاشراف المكلفين بسوق القافلات ان يرشدوا الى كل ما يقتضي لاجل المحافظة على المرضى في المنازل عند المساء ، ولأجل اعطائهم شاياً وشوربة حارة .

٢٨ ـ الطرفان مجبران على تطبيق احكام هذه الشروط .

٢٩ ـ نظمت هذه الشروط في نسختين بالعربية والتركية في مقر قيادة

سمو الامير علي في بئر (درويش) في يوم الثلاثاء الموافق ٥ ربيع الآخر سنة ١٣٣٧ هـ و٧ كانون الثاني سنة ١٩١٩ ـ سنة ١٣٣٥ رومية عند الساعة ٩ غروبية .

معتمد دول الحلفاء في الحجاز	رئيس لوازمات القوة السفرية
كبتن غارلند	**قائمقام صبري**

قائد منزل القوة السفرية
ميرالاي عبد الرحمن

الامير علي بن الحسين

وكيل اطباء القوة السفرية	قائد الفرقة ٥٨ المنسوبة للقوة السفرية
يوزباشي كمال	**ميرالاي علي نجيب**

وكانت المدينة حين تسليمها خالية تقريباً من السكان ، فقد أجلى الترك ابناءها في ابتداء الحصار ، تحت ستار ضرورات الدفاع ، فتفرقوا في الحجاز والشام والاناضول ، ولقوا كثيراً من الشقاء والعناء والضنك ، وكانت نكبة فادحة نزلت بهم .

وسهل الحكم الجديد سبل العودة والرجوع للذين ظلوا احياء ، فعاد بعضهم وكانوا في حالة يرثى لها . على ان الحالة لم تزدهر في المدينة الا في هذه السنوات القريبة ، وبعد ان نفذت الحكومة السعودية طائفة من المشروعات العمرانية التي أنعشت المدينة ورفعت مستواها الاقتصادي والمعاشي .

خدمات الثورة العربية للحلفاء

أسدت الثورة العربية التي أطلقها الحسين في الحجاز ، خدمات عظيمة لمصلحة الحلفاء عامة ولمصلحة بريطانيا خاصة ، فقد نالت بواسطتها ومساعدتها انتصارات كبرى في ميادين الشرق الاوسط (العراق وسورية وفلسطين) وبلغت كل ما أرادته وصبت اليه ، وكان اعلانها عاملا كبيراً ايضاً من عوامل اضعاف مركز الترك والالمان في الشرق الاوسط كله ، اذ أيدها العرب بكل قواهم في جميع انحاء بلادهم ، وحملوا السلاح لقتال اعدائهم ، وحاربوهم في كل مكان ، واضطروهم لحشد قوى عسكرية كبيرة في هذه المناطق خففت عن الحلفاء في كثير من الميادين ، وكانت عاملا مهماً من عوامل انتصارهم النهائي .

وطبقاً للخطة التي جرينا عليها ، نورد اقوال قادة الحلفاء الذين تعاونوا مع العرب في بعض الميادين مع اقوال القادة الترك والالمان ، وفيها ما يرفع رأس العربي وينوه بعظمة الخدمات التي أسدتها ثورته لقضية الحلفاء .

وبديهي ان هؤلاء لا يمكن اتهامهم بمصانعة العرب ومجاملتهم ، وهذه هي :

١ – شهادة اللورد اللنبي

ونبدأ بتسجيل شهادة المارشال اللنبي ، القائد العام للحملة المصرية وقد تم النصر على يديه ، فقد نوه في تقرير ارسله يوم ٢٨ يوليو سنة ١٩١٨ الى وزارة الحربية البريطانية ، بالخدمات الجلى التي أسداها الجيش العربي فقال : اشكر لجلالة الحسين بن علي ملك الحجاز اخلاصه العظيم لقضية الحلفاء ، ولا املك نفسي من توجيه عاطر الثناء الى سمو الامير فيصل لما أظهره من براعة في القيادة وعلى اخلاصه القلبي وعلى ما ابداه من بسالة ومهارة في الاعمال العسكرية التي عملها الجيش العربي ، فقد ساعدت الحلفاء مساعدة كبيرة في الحصول على نتائج حاسمة في الحرب .

وقال في التقرير الختامي الذي أرسله الى حكومته في شهر اكتوبر سنة ١٩١٨ ، اي بعد ختام الاعمال العسكرية ما يلي :

« ولقد ساعدنا الجيش العربي مساعدة عظيمة القيمة ، فقطع خط مواصلات العدو قبل القتال ، وساعد فرساننا في اثناء الزحف على دمشق فرابط على الطريق الذي تقهقر فيه العدو شمالي درعا ، فحال دون فرار جانب من الجيش العثماني الرابع ، وأنزل بالعدو خسارة كبيرة » .

وقال في الجلسة السرية التي عقدها اقطاب الحلفاء في باريس يوم ٢٠ مارس سنة ١٩١٩ : « ان المساعدات التي قدمها لنا العرب لا تثمن » .

٢ – اقوال وزير الحصار البريطاني

وألقى اللورد سسل وزير الحصار البريطاني بياناً عن اعمال الجيش العربي في مجلس اللوردات ، عقب ختام الحرب ، وهذا هو :

« باذن المجلس الموقر ، اصف بقدر ما يمكن من الايجاز ادوار الاعمال

العسكرية التي جرت منذ اعلان الاستقلال العربي في مكة في شهر يونيو سنة ١٩١٦ فأقول :

« كان للترك في ذلك الوقت في الاقطـار الحجازية جيش نظامي ، مؤلف من عشرين ألف جندي مزود بالمدفعية وكل لوازم النقليات والمواد الغذائية والمهمات الحربية ، علاوة على السكة الحديدية العسكرية التي تصل الجيش المذكور مع مراكزه الشمالية في دمشق .

« ولم يكن العرب الذين انضووا تحت لواء الحرية والاستقلال منظمين ولا مزودين بالاسلحة الحديثة ، ومع ذلك فقد تم لهم منذ اول الحركة الاستيلاء على جدة ومكة والطائف وينبع والوجه والعقبة وتيماء . وعلى اثر ذلك انضم كثير من القبائل العربية الى جلالة الحسين ، وتطوع كثير من الضباط والجنود العرب ، الموجودين عندنا في الاسر ، في الجيش العربي ، فشكل جلالته منهم قوة متمرنة مستديمة ليحفظ بها ما استولى عليه ويوسع نطاق الاستقلال العربي

« ولقد كانت نتيجة المجهود الذي بذله هذا الجيش القومي بقيـــادة اصحاب السمو الشريف علي وعبدالله وفيصل وزيد ، تطهير سواحل البحر الأحمر من الترك على مسافة ٨٠٠ ميل . كما ان مواصلات سكة الحديد العسكرية انقطعت مراراً عديدة وألقت خسائر جسيمة في ادواتهـــا وعرباتها ومستودعاتها . والمدينة المنورة نفسها محصورة منذ سنة . وقـد تقدم الشريف فيصل بجيشه من مكة الى شمـــالي الطفيلة على شواطىء البحر الميت ، يعني مسافة ٨٠٠ ميل . وساعدت الغارة التي قام بها فريق من الجيش البريطاني على عمان الجيش العربي على الاحتفـاظ بمراكزه . والخسائر التي لحقت بالاتراك حتى الآن جسيمة جداً . ويمكننا ان نقول بكل اطمئنان ان القوات العربية منذ الاستقلال العربي حتى الآن ، قد حصرت وأسرت وشغلت ٤٠ الف جندي تركي ، وغنمت اكثر من ١٠٠ مدفع .

« وبالرغم من انهماك الحكومة الحجازية في الجهاد ، فقد تسنى لها افتتاح عصر جديد من النظام والترتيب لم تعرفها الاقطار الحجازية منذ دخلت تحت سلطة الاتراك . وقد نجحت الحكومة العربية باتخاذ التدابير اللازمة لتسهيل الحج في السنتين الاخيرتين ، ولقي الحجاج من ضروب الرفاهية والعناية الطبية ما لم يسبق لهم التمتع به من قبل ، وكان الحج في كلتا السنتين سالماً من الاوبئة والتعديات العادية والاضطرابات .

« وفي القسم الشرقي من جزيرة العرب ، قد برهن الامير ابن سعود انه حليف متين ، وقد اعلن استقلال القسم الاعظم من نجد . وما زال امير حايل ، شخصياً تحت حكم الاتراك . وقد مضى عليه نحو سنة وهو متغيب عن عاصمته » .

٣ — شهادة رسمية افرنسية

وفي يوم ١ فبراير سنة ١٩١٩ سلم الجنرال موردالك ، امين سر رئاسة وزارة فرنسا ، الامير فيصل وسام الصليب الحربي وشارة سعف النخل مع كتاب هذا نصه :

« انه امير يشار اليه بالبنان ، مملوء حمية ونخوة ، أيد بعزم وطيد قضية ابيه جلالة ملك الحجاز سنة ١٩١٦ ، لخلع النير التركي وتأييد قضية الحلفاء ، وكان ملازماً لجنوده ، ونظم عدة هجمات حربية مهمة على سكة دمشق ـ المدينة المنورة ، وقاد فيها الجنود بنفسه ، واحتل العقبة والوجه بين شهر اغسطس سنة ١٩١٧ وشهر سبتمبر سنة ١٩١٨ ، ونظم هجمات كثيرة في الجهات الجنوبية والشمالية من معان ، واستولى على عدة محطات ، واسر عدداً كبيراً من جنود الترك ، واشترك في تمزيق الجيش الرابع والجيش السابع والجيش الثالث والجيش الثامن من

العثمانيين ، فقطع مواصلاتها في شمالي درعا وجنوبها وغربها ، ثم دخل مع جنود الحلفاء دمشق في اول سبتمبر وحلب في ٢٦ منه ، بعد ان فعل افعالاً تدل على منتهى الجرأة والاقدام » .

٤ — اقوال الكولونيل لورانس

ووصف الكولونيل اعمال العرب العسكرية في كتابه « ثورة في جزيرة العرب » ومما قاله :

« كلنا يعرف ان فيصل بذل جهداً كبيراً في نشر ألوية الثورة التي أعلنت في مكة وفي توسيع نطاقها ، فتم له ما اراد ، بفضل بسالته وحكمته ، فأسدت هذه الثورة اعظم خدمة للحلفاء في ميدان فلسطين .

« وكلنا يعرف أيضاً ان الجيش العربي الذي اعد وانشىء في ساحة القتال بين نيران المدافع صار جيشاً منظماً كامل العدد والعدة بعدما كان في ابتداء امره شراذم من البدو وقد تم له أسر ٣٥ الف جندي تركي ، كما أخرج عدداً لا يقل عن هذا العدد من صفوف القتال ، وغنم نحو ١٥٠ مدفعاً ، واستولى على ما مساحته مئة الف كيلومتر مربع من الاراضي . ولقد ادى العرب هذه الخدمات في زمن كنا في اشد الحاجة اليها ، فنحن مدينون له »

٥ — تقرير نائب الملك بمصر

ووضع الجنرال ونجت نائب الملك بمصر ، وهو الذي أعلنت الثورة فيما كان حاكماً عاماً للسودان ، تقريراً مفصلا ، بعد الحرب ، عن الاعمال

العسكرية التي عملها العرب :

« اعين الجيش العربي في الحجاز بقوة صغيرة مؤلفة من ٥٥ ضابطاً و ١٠٠٠ من صف الضباط والجنود كانوا مسلحين بستة مدافع ميدان ، وستة مدافع سريعة الطلق ، و١٠ مدافع جبلية ومدفعي موزر صغيرين .

« ولما شرع العرب بالهجوم واخذوا الترك في الحجاز على حين غرة ، تمكن جند الشريف من الاستيــــلاء على جدة ومكة في الشهر الاول ، وثبتت حامية الطائف ثلاثة اشهر ونصف شهر ، ثم سلمت في ٢٢ سبتمبر سنة ١٩١٦ . وكان الفضل الاول في الاستيلاء على الطائف لفصيلة المدفعية المصرية بقيادة اللواء سيد باشا علي ، ثم شرع في تطويق المدينة المنورة وكان فيها ٣٥٠٠ من خيرة المقاتلين العثمانيين أعدوا القتال في جنوبي جزيرة العرب ، وتعذر على القوات العربية ان تستولي عليها ، وتمكن الترك من جعل المدينة قاعدة حربية لهم بواسطة سكة الحديد ليهددوا مكة .

« وفي منتصف شهر سبتمبر سنة ١٩١٦ غادرت بعثة الكولونيل بريمون العسكرية الافرنسية السويس الى جدة .

« وبعدما انقضى موسم الحج تبين ان خير الطرق لاخذ المدينة انما هو قطع مواصلاتها بسكة الحديد مع الشمال ، فزحف الامير فيصل من ينبع الى الوجه واستولى عليها ، وأخذ عرب الحويطات يهددون سكة الحديد بقيــــادة الشيخ عودة ابي تايه وسعدالله يوسف سودان لمنع ارسال المدد من الشمال الى المدينة . »

وأسهب السر ونجت في وصف هذه الهجمات ، ومما قاله : « ان قافلة كبيرة كانت قادمة من حايـــــل (عاصمة امارة الرشيد) الى المدينة ، فباغتها العرب وقتلوا ٣٠ من الترك وأسروا ٢٥٠ اسيراً ، وغنموا ٤ مدافع جبلية وعدداً كبيراً من البنادق وثلاثة آلاف جمل محملة اطعمة وثياباً والفي رأس غنم . وفي هجمة اخرى ، بقيادة الكولونيل نيوكمب ، دمرت

فصيلة من العرب والمصريين ، ما طوله ٥ كيلومترات نزعتها قضيباً قضيباً.

« وفي اوائل سنة ١٩١٨ حاول العثمانيون الانسحاب من الحجاز ، فأفرغ الجيش العربي قصارى جهده ليعرقل حركتهم بقطع سكة الحديد. وأسر العرب خمس قوافل للترك فيها ١٥٠٠ جمل ومن بين الغنائم التي غنمها العرب في معارك اخرى ٢٥ الف ليرة عثمانية ذهباً .

« وكان من جراء ذلك ان اضطر الترك الى انقاص قواهم في المدينة بمن ارسلوهم شمالاً لحماية الخط ، وكانت القوة العثمانية في المدينة قد بلغت ٩٥٠٠ رجل في اوائل سنة ١٩١٧ معها عدد من المدافع الضخمة ، و٢٥٠٠ رجل لحراسة سكة الحديد و٨٠٠ رجل في جهة الوجه ، وقوة اخرى في سواحل اخرى .

« ولما صار الامير فيصل في الوجه تقدم الامير عبدالله الى شمالي المدينة وجاوز سكة الحديد وجعل ينبع قاعدته ، ورابط في وادي العيص ، وسير القبائل الى الشمال الشرقي من المدينة لأسر القوافل التي تمدها بالمؤن من عند ابن الرشيد .

« وانشئت في الوجه مدرسة لتعليم العرب طريقة تخريب سكة الحديد فتعلم كثيرون ، وكانوا يـدمرون السكة بارشاد الكولونيل نيوكمب والكبتن لورانس والملازم غارلند ، فحال ذلك دون ارسال المدد من فلسطين وسورية الى المدينة ، واضطر القـائد العثماني ان يخفف قوته فأرسل قسماً منها الى الوجه والعلا ومداين صالح وغيرها من المحطات واضطرته قلة الطعام الى طرد اهل المدينة من بيوتهم .

« وقد اشترك في تدمير سكة الحديد وقطعها الامير فيصل بين العلا والهدبة ، والامير عبدالله من الهدبة الى بواط ، والامير زيد في الجنوب ، واتخذت تدابير لتوحيد زمان القطع .

« وفي اواخر سنة ١٩١٧ ، قطعت مواصلات العثمانيين في الحجاز مع

الشمال ، فكانت القوافل تاتيهم متقطعة من حايل او الرياض . واخذ العرب يهاجمون المدينة ، وابى فخري باشا قائد المدينة تسليمها ، بعدما هزم الجنرال اللنبي العثمانيين في فلسطين في شهر سبتمبر سنة ١٩١٨ . واستولى العرب على تبوك في ١٢ اكتوبر واسروا فيها اكثر من ٣٠٠ اسير تركي ، وغنموا ١٠ مدافع ، كما استولوا على مواقع اخرى » .

٦ – اقوال الكومندان هوجارت

ونشر الكومندان هوجارت ، وكان من رؤساء المكتب العربي في القاهرة ، ومن الذين رافقوا الثورة العربية في تطورها ، وهو في الأصل مستشرق ومن اساتذة اكسفورد ، نشر مقالاً في مجلة سنتشوري في شهر يونيو سنة ١٩٢٠ جاء فيه :

« ولو لم تقم الثورة بغير احباط تقدم الترك والالمان المشترك في جنوبي الجزيرة سنة ١٩١٦ لوجب علينا مكافأتها باكثر مما كافأناها به حتى الآن » .

اقوال القادة الالمان والترك

سجلنا في الصفحات السابقة شهادات القادة والوزراء البريطانيين ، وقد انطوت على اجزل عبارات الشكر والثناء والتقدير للثورة ، ونسجل في هذا القسم اقوال القادة الالمان والترك الذين عملوا في الميادين العربية فهي جديرة ايضاً بالنقل والتدوين .

١ — اقوال المارشال ليمان فون ساندرس

ونبدأ بايراد ما قاله المارشال ليمان فون ساندرس ، آخر قائد للقوات التركية في بلاد العرب ، عن الثورة ، فقد تناولها في مذكراته التي نشرت بعد الحرب ، وهذا ما أورده :

« اتفق شريف مكـــة وأميرها مع الانكليز في صيف ١٩١٦ على الاشتراك في الحرب ، وأعلن استقلاله ، فنشطت بذلك حركات الثورة في سورية ، وكان الحلفاء يحمونها ، واتسع نطاقها ، خصوصاً بعـد افلاس سياسة الشدة التي سار عليها جمال باشا في معاملة الشعب العربي .

« وأراد انور باشا إعداد حملة عسكريـة تزحف على مكة وتنصب اميراً جديداً عليها ، بيد ان عدم ملاءمة الظروف الحربية وعدم جواز اشتراك جنود مسيحيين فيها حال دون اتمامها ، فعدل عنها .

« ولقد أدت الثورة خدمات عظيمة للجيش البريطاني خلال تقدمه في جزيرة سيناء ، فكان الانكليز يتقدمون آمنين مطمئنين ، يفعلون ما يشاؤون كأنهم في داخل بلادهم ، في حين ان الترك الذين مقتهم اهل البلاد وملوهم كانوا يسوقون جيوشهم كأنهم في بلاد معادية لهم .

« ولا يخفى ان المستر تشمبرلن أبرق يوم ٢١ اكتوبر سنة ١٩١٥ ، الى نائب الملك في الهند ، يقول له ان العرب ما يزالون مترددين في الانضمام الينا ، فاذا لم نستملهم بمنحهم امتيازات تطمئن قلوبهم اليها فقد لا ينفصلون عن الترك » . وتبدلت الحال حين رجحت كفة الانكليز في بلاد العرب وحين اعترفوا باستقـــلال هؤلاء ، فانضم الشريف اليهم ، وأدى خدمات جليلة للحلفاء في بلاد العرب . ولقد كانت سكة حديد الحجاز عرضة للتلف والتدمير كل يوم وخصوصاً بعدما احتل الجيش العربي العقبة وأصبح الامير فيصل ـ وقد عرفته في الاستانة وأعجبت بمزاياه ـ في

جانب اعدائنا . ولا ريب ان خطأ الحكومة التركية العظيم في سياستها العربية هو الذي ألقى مثل هذا الامير الكبير في صفوف الاعداء ، وسبب فصل قطر كبير من الاقطار العربية عنها ، وانضمامه الى خصومها .

« وعلمت سراً في ١٠ مايو سنة ١٩١٨ ان حكومة الاستانة ترغب في ان تعهد اليّ بالاشراف على الشؤون الادارية لسورية ، علاوة على مهام القيادة العسكرية . وفعلاً عرضت ذلك علي بواسطة « انور » ، فاعتذرت بكثرة مهامي العسكرية ، ولما ألح كررت الاعتذار . وما كنت اجهل ان الانحلال سرى الى الادارة التركية في سورية لسوء معاملة الموظفين ، كما ان النفرة من الترك استحكمت في قلوب السوريين .

« وفي النصف الاخير من شهر اغسطس سنة ١٩١٨ تلقيت بواسطة جمال باشا الصغير ، قائد الجيش الرابع ، اقتراحا من الشريف فيصل يقول فيه « انه مستعد للانضمام بجيشه العربي الى الجيش التركي اذا اعترفت تركيا باستقلال العرب وتعهدت بمساعدتهم في انشاء حكومة عربية مستقلة ، وانه في هذه الحالة يتعهد بأن يتولى قيادة جبهة نهر الاردن الشرقية » . ومما جاء في هذا الاقتراح قوله : « ولما كان الجيش البريطاني على وشك القيام بهجوم عام في جبهة الاردن الغربية ، فانه يصبح في استطاعة الترك ، اذا نفذ الاقتراح ، استخدام جيشهم الرابع في مقاومة الانكليز » . فأبرقت على الفور الى « جمال » بواسطة رئيس اركان حربي كاظم باشا بأن يفتح باب المفاوضات مع الامير فيصل ، كما أبرقت الى « انور » بما وقع وطلبت اليه تقديم الضمانات اللازمة بسرعة ليتم الاتفاق ، فلم احظ برد ، لا من انور ولا من جمال . ولذلك لا يمكن

الكلام عن الاقتراح . غير اني فهمت من كاظم باشا ان الترك لا يثقون كثيراً بصحة هذه المقترحات[1] . »

وقال في مكان آخر من هذه المذكرات : « وفي يوم ٢٤ سبتمبر سنة ١٩١٨ علمت ان جموعاً غفيرة تجمعت شرقي دمشق وجنوبها وكانت حالتها المعنوية قد تحولت تحولاً سريعاً يبعث على الخوف والحذر ، فقد كثر توارد رجال القبائل المسلحين اليها ، وكانوا يتجولون في اسواقها ، ويطلقون الرصاص فرحاً وسروراً . وكان الدمشقيون يتهافتون على قراءة المنشورات التي تلقيهـــا الطائرات البريطانية بكثرة فتزداد بذلك الدعوة العربية انتشاراً .

وبدأت الفوضى تسري الى جميع فروع الاعمال . وكثر ورود رجال فيصل وانصاره ، وكانوا يدعون الناس الى الثورة والانتفاض . واتصل بي ان كثيرين من الدمشقيين أعدوا العلم العربي في دورهم استعــــداداً لنشره ورفعه ، وقـــد رفع فعلاً يوم ٢٩ سبتمبر سنة ١٩١٨ ، وأطلق بعضهم الرصاص على قوافل الجيش فأوقفها ونهبها ، كما أطلق الرصاص على آخر قوة تركية مرت في اسواق دمشق .

« وغادر آخر جندي تركي محطة القدس مساء ٣٠ منه بعد ان خسر الترك كثيراً من جنودهم في تلك المحطـة وفي الطريق ، لأن السكان كانوا يهاجمونهم » .

---

١ الصحيح في امر هذا الاقتراح ان الامير سعيد الجزائري زار الامير فيصل في معسكره في عين وحيدة في شهر اغسطس سنة ١٩١٨ باذلاً وساطته لعقد الصلح بين العرب والترك وسلمه كتاباً كان يحمله اليه من جمال باشا الصغير فأرسله الى والده في مكة وهـــذا أرسله الى لندن ، فتلقى برقية شكر مطولة . (انظر ص ٢٢٩) .

٢ - اقوال مصطفى كمال (اتاتورك)

وشهد مصطفى كمال تلك الاحداث وعاشها ، وقد تناولها في مذكراته التي أصدرها بعدما صار الامر اليه في تركيا ، وهذا ما قاله :

« كنت في نابلس قائداً للجيش السابع ، وكان اول ما عملته هو درس حالة الجبهة ، فقمت برحلات متعددة ، وخرجت من هذا التفتيش بعقيدة ثابتة وهي ان الأمر انتهى ، وان من الصعوبة الاهتداء الى تدابير سياسية لمنع المصيبة القريبة الوقوع .

« لقد كانت هنالك ثلاثة جيوش فقط في ساحة تمتد مئات الكيلومترات وليتها كانت قوية ، بل كانت مفككة الاوصال ، ضعيفة ، مبعثرة هنا وهنالك . فكيف العمل ؟

« وبينما كان رئيس اركان حربي يتلو عليَّ في احد الايام التقارير اليومية المعتادة لفت نظري ما جاء في اقوال اسير انكليزي وقع في ايدينا ، فقد تضمنت ان البريطانيين سيقومون بهجوم عام على خطوطنا في جميع اجزاء الميدان بعد يوم او يومين ، فأصدرت على الفور امراً حربياً قلت فيه ان العدو سيقوم بهجوم عام مساء ١٩ سبتمبر سنة ١٩١٨ ، ثم ذكرت التدابير التي يجب على جيشي اتخاذها ، كما ارسلت صورة عن هذا الأمر الى القيادة العامة اي الى المارشال ليمان باشا ، وقد استبعد هذا القائد الذي احترمه كثيراً ، النتيجة التي توصلت اليها .

« واتصلت ليلة ٢٠ منه بعصمة بك (عصمة اينونو الذي صار رئيساً للجمهورية التركية بعد موت الغازي) وكان يقود الفيلق العشرين التابع لجيشي وعلي فؤاد بك (رئيس اركان حرب الجيش الرابع ، ثم قائد الفيلق الثاني والعشرين التركي) وسألت كلّا منهما على حدة :

– هل وصل اليك امري ؟

– نعم ، وعملت بما جاء فيه .

« وقبل أن ينتهي الحديث بدأت مدفعية العدو تقذف خطوطنا الامامية بقنابلها ، وانقضى الليل بأكمله في حرب عنيفة ، واخترق العدو الجناح الأيسر لجيشي ، ومرت خيالة الانكليز في هذه « الثلمة » وواصلت التقدم حتى مقر قيادة المارشال نفسه في الناصرة ، فأدرك الحقيقة ولكن بعد فوات الوقت .

« وقد استطعت ان اتقهقر بجيشي الى دمشق ، بعد اجتياز الاردن ، واختراق الصحارى ، متحملاً مشقات واهوالاً يصعب وصفها ، وعندما عسكرنا بجوارها طلباً للراحة ، دخلت اليها في جمع من حاشيتي فوجدتها في حالة غير طبيعية ، وقد كان من الصعب ادراك ما يظن تحت هذه الحالة من معان .

« ولما كنت اعرف دمشق معرفة تامة ، وقد كانت اول منفاي عندما تخرجت من المدرسة الحربية برتبة يوزباشي ، فقد ادركت بسهولة انه يسودها جو من الكره لنا .. » .

٣ – اقوال مدير المخابرات التركية

ووضع مدير شبكة المخابرات في القوة المرتبة التي كانت تدافع عن معان إبان الحرب ، رسالة طويلة وصف فيها المعارك التي دارت بين العرب والترك ، فقال :

« لولا وجود جيش عربي وقف موقف العداء من الترك في جزيرة العرب وفي ساحة طولها الف كيلومتر ، لما تم للجيش البريطاني احراز ما احرزه من نصر بمثل تلك السرعة العظيمة ، وبدون كبير عناء . والى الجيش العربي يعود الفضل في وصول الانكليز الى قلب البلاد العربية واستيلائهم على القدس والمرابطة امام السلط ، وجناحهم الايسر مكشوف.

ولولا وجود الجيش العربي لاستطاع الترك القيام بحركة التفاف واسعة النطاق ولأجبروهم على الرجوع .

« وكذلك فقد عطل العرب الترك نحو اربعين الف مقاتل بأسلحتهم الكاملة ، كان في امكانهم حشدها امام الانكليز في ساحة فلسطين ، ومنعهم من التقدم .

« لقد كان في المدينة وحدها ما لا يقل عن ١٥ الف جندي بقيادة فخري باشا ، وكانت قوات الفيلق الثاني المرابط في القطرانه لحماية المحطات لا تقل عن عشرة آلاف ، وكانت قوات معان بقيادة محمد جمال مؤلفة في ابتداء امرها من ثمانية آلاف ، وما كان عدد قوات تبوك بقيادة نصري باشا يقل عن اربعة آلاف يضاف اليها قوات العلا بقيادة علي نجيب بك ولا تقل عن ثلاثة آلاف ، وذلك عدا المدفعية القوية والرشاشات والمحطات اللاسلكية والطيارات وغيرها . ولو وقفت هذه القوات في وجه الجنرال اللنبي فهل كان في استطاعته بلوغ نابلس والشريعة ودخول دمشق ؟ كلا ثم كلا » .

٤ – اقوال احمد جمال باشا

ولا يخلو من فائدة ان نختم هذا الفصل بفقرات نقتبسها من مذكرات جمال باشا الخاصة عن الثورة ، ففيها ما يستوقف النظر :

قال في صفحة ٢٨٨ : « وفي النهاية اصبحت يوم ٢ يوليو سنة ١٩١٦ امام امر واقع وهو ثورة الشريف حسين العلنية . وكانت ضربة قاضية على الحملة التي كنا نعدها لمهاجمة قناة السويس .

« وقد اخذت افكر في امر الانكليز ، فرأيت انهم لو ارادوا مهاجمة فلسطين لتعين عليهم انشاء خط مواصلات بين قناة السويس وفلسطين ، كما

فعلنا نحن ، ووصل هذين الخطين بسكة حديد . ولم تجرأ كتيبة انكليزية واحدة على ان تطأ بأقدامها ضفة القناة الشرقية ، وغاية ما امكنهم عمله ان بعض فرق العسس من الهجانة كانت تتجسس الى مسافة ٥٠ ـ ٦٠ كلم من القناة ثم تعود الى قواعدها .

« وكان اول ما اكتشفنا من اعمال الدفاع الانكليزية انهم شرعوا في اواخر شهر يناير سنة ١٩١٦ باقامة الاستحكامات تجاه القنطرة والاسماعيلية. ويوافق تاريخ انشاء هذه الاستحكامات تاريخ خطاب ارسله الشريف حسين الى الانكليز واكد لهم فيه قرب خروجه علينا .

« ومن هذا يتبين ان الانكليز لم يقرروا العبور الى الشاطىء الشرقي او بعبارة اخرى ، لم يبدأوا الهجوم في فلسطين الا بعد ان وثقوا من تأييد الشريف حسين وان قواته ستضطرنا الى اتخاذ تدابير معينة للحماية ، وان نسحب من تلك الجهة بعض القوات التي كانت معدة لسورية وفلسطين ، كما تأكدوا ان البدو الذين أمدوهم بالاموال الطائلة المرسلة اليهم بواسطة الشريف حسين سيثورون ضدنا وان ثورتهم ستضعفنا كثيراً » .

* * *

وبعد فهذا ما توصلت اليه من اقوال القادة العسكريين الذين اشتركوا في تلك الحرب منقولاً عن تقاريرهم ومذكراتهم ، وكلهم يعترف بعظمة العمل الذى أتمته الثورة العربية في الميدان العسكري وينوه بعظيم تأثيره . كما ان هنالك اجماعاً على القول بانه لولاها لما تسنى لجيش الجنرال اللنبي اختراق شمالي فلسطين ولما بلغ دمشق وحلب ، ولكان مصيره مصير جيش الجنرال موراي الذي حاول اجتياز سيناء قبل الثورة العربية فاصيب بالفشل مما بعث حكومته على ان توقف حركته وتعدل عن كل نشاط عسكري . على ان الحال تحول بعد اعلان الثورة العربية ، فاندفع الجنرال

اللنبي بجيوشه ، بالاتفاق مع العرب وتأييدهم ، فأدرك ما ادركه من انتصارات بفضل هذه المساعدة وهذا التأييد .

« ان المساعدات التي اسداها الجيش العربي للانكليز ، من يوم تكوينه حتى نهاية الحرب ، كانت عظيمة ، كما كانت العامل الاول في ارتباك القيادة العليا وعجزها عن وضع خطط حربية ثابتة ، يضاف الى ذلك ، اصرار بعض قواد الترك على عدم الجلاء عن الحجاز .

« ان من ينعم النظر فيما اصاب جيوش الجنرال اللنبي عند دخولها السلط وعمان في اوائل سنة ١٨١٨ ، وكيف طردها مئات من الاهلين والموظفين الذين تجمعوا على بعض التلول ، يتبين صحة هذه النظرية . فقد أوقفوا خيالة الانكليز ساعات وصل خلالها فوج من درعا مع رشاشاته فاشترك في المعركة وهزم الانكليز وقضى على خططهم وتدابيرهم ، وكانت ترمي الى قطع خطوط مواصلات الجيش الرابع . اذن فمنع اربعين الف جندي تركي من الاشتراك في حروب فلسطين وشل حركة الترك في بلاد العرب ، من الامور الخطيرة التي لا يستهان بها ، ولولاها لما تسنى للانكليز دخول تلك البلاد

« وهنالك امر خطير لا بد من التنويه به ، وهو تأثير الجيش العربي في المعركة الفاصلة ، فقد ضرب الجيش التركي ضربة قاتلة أثناء تراجعه وأجهز عليه ، بما حير القيادة التركية وأذهلها . ولقد كانت هذه القيادة تعمل في اول الأمر على اكتساب ود القبائل العربية وتبذل لها الاموال والارزاق بلا حساب ، فأدركت بعض الفوز في اول الامر ، الا ان ظهور الجيش العربي في صحراء الشام جعل هذه القبائل تنضم اليه ، فخسر الترك خسارة كبيرة .

« هذا فضلاً عما أثرته الثورة في النقليات ، فقد كان معظم القاطرات

البخارية والشاحنات يعمل على سكة حديد الحجـــاز ، مما ادى الى اهمال النقل على خط دمشق ـ رياق والخطوط الاخرى ، وتنظيم النقـل في مقدمة وسائل الظفر في الحرب . وبالاجمـــال ، فلولا ثورة الحسين لما تسنى للجيش البريطـاني اختراق فلسطين ولقضي عليـــه في صحراء سيناء ،

مساعدة الانكليز للثورة

لا نجد ما نضيفه الى الاقوال التي سجلناها في الفصل السابق منقولة عن لسان كبار القادة العسكريين والاقطاب السياسيين عن المساعدات الثمينة التي اسدتها الثورة العربية الانكليز خاصة والحلفاء عامة ، فقد سهلت لهم سبل اكتساح شمالي فلسطين وسورية وفتحت لهم الابواب وضمنت لهم النصر .

ولقد رأينا ، بعد ان تكلمنا عن مساعداتها لهم ، ان نورد بياناً عن مساعداتهم لها ، وعن الاموال التي قدموها ، والاعانات التي ارسلوها ، للمقابلة والمقايسة واستخراج النتائج ، فقد لا يخلو ذلك من فائدة .

وقبل كل شيء نقول ان الحجاز كان حتى بداية الثورة يعاني ازمة اقتصادية شديدة هددته بمجاعة مخيفة أودت بالكثير من ابنائه ، ذلك انه كان في ذلك العهد يعتمد على ما يدره موسم الحج على ابنائه وسكانه من الاموال ، ولقد انقطع ورود الحجاج خلال سنتي ١٩١٥ - ١٩١٦ ، بسبب الحصار البحري الذي فرضه الانكليز على سواحله ، فمنعوا الدخول اليه والخروج منه حتى ثار على الترك وانضم اليهم ، وقاتل في صفوفهم ، فبدأوا يرسلون اليه الاعانات والاموال ، فتحسنت حالته وزال خطر

المجاعة الذي كان يهدده ، واخذ يعود الى حالته الطبيعيه تدريجيا

فهذه الحقائق الثابتة التي نضعها امام نظر القارىء ، لا تدع شكاً في ان الحجاز وشعبه وحكومته الجديدة كانوا في اشد الحاجة عند ابتداء الثورة ، والغاء الحصار البحري ، الى المساعدة المادية ، وقد تعهد الانكليز بتقديمها ، بدون قيد ولا شرط ، ولكن لا بدون ثمن ولا عوض كما يتبادر الى بعض الاذهان ، بل بثمن فاحش تقاضوه فوراً ، ونعني به انضمام الشعب العربي اليهم ، ووقوفه في صفهم ، يقاتل اعداءهم الترك والالمان ، وما كانوا يطلبون اكثر من هذا . ولقد اعترف قادتهم واقطابهم بأن صفقتهم كانت الرابحة ، وقالوا انهم مهما قدموا للثورة وبذلوا لها فهو قليل لا يكاد يعادل جزءاً مما قدمته لهم .

ويمكن تقسيم المساعدات التي بذلها الانكليز للثورة ورجالها والحسين وحكومته والحجاز وابنائه ، على المنوال الآتي :

١ – قسم كان يرسل الى الجيوش المحاربة في شتى الميادين .

٢ – قسم كان يرسل الى الحكومة الهاشمية بمكة .

٣ – قسم كان يرسل الى الحجاز لإطعام ابنائه الذين كانوا في حاجة الى القوت الضروري .

وبين ايدينا الآن كتاب أرسله المعتمد البريطاني في جدة يوم ٢٩ مارس سنة ١٩١٧ ، اي بعد اعلان الثورة بثمانية اشهر ، الى الحسين ، فيه خبر الاعانات التي كانت ترسل وتوزع على المنوال الآتي :

٤٠ الف جنيه للامير فيصل .
٣٠ الف جنيه للامير عبدالله .
٢٠ الف جنيه للامير علي ومثلها للامير زيد .
١٥ الف جنيه لحكومة مكة .

وزادوا بعد ذلك عشرة آلاف جنيه على ما يدفع لفيصل ومثلها لعبدالله ، اي ان مجموع المبلغ الشهري المرسل ارتفع من ١٢٥ الفا الى ١٤٥ الفاً ، ووصل بعد ذلك الى ٢٠٠ الف ، وهذا اقصى ما وصل اليه .

وفي كتاب لدار الاعتماد بتاريخ ١٣ ابريل سنة ١٩١٩ ، وذلك بعد فتح دمشق وزوال حكم الترك ، انهم خفضوا الاعانة التي تدفع الى الحجاز من ٢٠٠ الف جنيه الى ١٢٠ الفاً ، على ان تدفع الثمانون الفاً المخفضة لحكومة دمشق الفيصلية . ثم زادوها بعد ذلك الى ١٥٠ الفاً ثم خفضت الى ١٢٠ الفاً ثم الى ١٠٠ الف . وقد استمر دفع هذا المبلغ حتى شهر يوليو سنة ١٩١٩ .

وفي كتاب آخر من دار الاعتماد البريطاني بتاريخ مايو سنة ١٩٢٠ للملك حسين ، ان مجموع المبلغ الذي وصل اليه من الخزانة البريطانية ، ما بين ابريل سنة ١٩١٨ لغاية مارس سنة ١٩١٩ ، هو ٢٤٧٥٠٠٠ جنيه باعتبار ٢٠٠ الف جنيه عن كل شهر مع اضافة ٢٥ الف جينه علاوة على كل من ابريل ومايو ويونيو .

وفي كتابين ، بتاريخ ١٤ فبراير سنة ١٩٢٢ واول فبراير سنة ١٩٢٣ ، ان المبلغ الذي وصل اليه من اول ابريل سنة ١٩١٧ الى ٣١ مارس سنة ١٩٢٠ بلغ ٩٢٥٥٧٥ جنيهاً . وفي خلال سنة ١٩٢٠ المتداخلة في سنة ١٩٢١ وصل اليه ٢٧٢٥٣ جنيهاً .

وهذا بيان عن المؤن والاغذية التي ارسلت في شهر سبتمبر سنة ١٩١٨ نثبته كنموذج لما كان يرسلونه شهرياً :

الف كيس دقيق ومثله من الارز و٦٠ كيس قهوة لينبع مع ٣٠ كيس سكر و٥٠٠٠ كيس شعير .

١٢٠٠ كيس طحين للامير زيد بالعقبة ومثله من الارز و٥٠ كيس قهوة و٥٠ كيس سكر .

وبعد ، فهذا كل ما وصلنا من اخبار المساعدات التي بذلها الانكليز للثورة ، يضاف اليه ثمن الاسلحة والمعدات والمهمات الحربية . ولك بعد ذلك ان تقارن بين هذه المساعدات المادية المحدودة ، وتكاد تكون ضئيلة بالنسبة لما كان الانكليز ينفقونه يومياً في إبان تلك الحرب ، ويبلغ عشرة ملايين من الجنيهات .

معركة تربه

كانت صغيرة في حجمها ، كبيرة في نتائجها ، عظيمة في تأثيرها .

لقد كانت فاتحة هذه التبدلات الواسعة التي غيرت وبدلت في خريطة بلاد العرب فأزالت دولاً وامارات قديمة ، وأنشأت دولاً جديدة واوضاعاً جديدة .

لقد اعتقد الحسين ، عقب استسلام حامية المدينة ، وجلاء الترك نهائياً عن الحجاز ، وتفرده بالحكم فيه ، ان في استطاعة القوة التي كانت تقيم على حصار المدينة ، ان تكتسح حدود نجد الغربية ، وتواصل تقدمها ، بدون عناء حتى الرياض والهفوف ، فتطفىء نور النهضة التي أوقدها الامام عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل ، وترفع علم الحكومة الهاشمية على شاطىء الخليج العربي ، وتضيف اقطاراً الى اقطارها ، فتصبح القوة الكبرى في داخل الجزيرة ، لا يد فوق يدها ، ولا كلمة تعلو كلمتها .

وسعى الانكليز سعياً حثيثاً متواصلا ، سواء في إبان الحرب ، وبعد ختامها للتوفيق والتقريب بين صديقيهم ، وإزالة ما هنالك من خلاف وفتور ، فكانوا يصطدمون بتشدد الحسين ورغبته في التفوق ، وقد كان يشترط لكل اتفاق جلاء السعوديين عن مناطق الحدود وتخليهم عن جميع

الاماكن التي احتلوها في العهد الجديد .

ونثبت هنـــا نص كتاب ارسله الجنرال السر رجنالد دنجت في شهر نوفمبر سنة ١٩١٨ ، اي بعد استسلام تركيا وانتهـاء الحرب في الشرق العربي ، الى الحسين ، وهو آخر سعي بذلوه للتفاهم والتقارب قبل معركة تربة ، وهذا هو :

مصر القاهرة في ٥ نوفمبر سنة ١٩١٨

حضرة صاحب الجلالة الهاشمية الحسين بن علي ملك الحجاز وشريف مكة المكرمة ، نصره الله .

ان برقيتنـا المؤرخة في ١٨ اكتوبر والمنقولة الى مكة بطريق المعتمد البريطاني في جدة من طي تحرير نمرة ١٥ - ٧ - ١١ في التـاريخ ذاته ، تشرفت فيها بإحاطة جلالتكم علماً بالآتي :

١ - بان الكتاب الذي تعهدتم بارساله الى الامير ابن سعود ، طبقـاً لاقتراح الحكومة البريطانية ، لم يصل اليه .

٢ - كما ان الكتاب الذي أرسل من قبله الى جلالتكم ، بنـــاء على اقتراح الحكومة البريطانية ايضاً ، لم يصل الى جلالتكم . وهذا علمناه من المعلومات التي وردت الى اولياء الامور في العراق ، بمعنى ان جلالتكم رفضتم استلام التحرير المرسل من الامير ابن سعود ، بأسلوب غير رقيق ، ولم تطلعوا على ما جاء فيه .

أما بشأن رد ناظر خارجية مكـــة المكرمة (نمرة ١٥٢ رقم ١٨ اكتوبر) على برقيتنا المشار اليها ، فلم يمكننا ان ندرك منه مآل كتابكم الذي بعثتم به الى الامير ابن سعود ولا تاريخ ارساله من مكة المكرمة . كما انني ما ازال جاهلاً الظروف المنوه بها في تقرير اولياء الامر في العراق عما يتعلق باسلوب استقبال جلالتكم رسالة الامير ابن سعود .

وعليه ارى انه لا مناص لي من ان اخاطبكم مباشرة ، وذلك ليس لكوني اريد التدخل في اقل الأمور اختصاصاً ، بل ان غرضي الوقوف على جلية الامر ، والغرض المقصود من ذلك .

لقد جاء في احدى رسالات جلالتكم ما يأتي : « ولا من منافع البلاد حدوث قلاقل واضطرابات بين مكة وسائر مراكز مثل امثال حضرته » ، وهذا كما لا يخفى على جلالتكم ، رأي حكومة جلالة ملك بريطانيا ، فانها ، نظراً الى عنايتها بمصالح العرب الجوهرية ، تقف ازاء اشتعال نيران الحرب في جزيرة العرب موقف القلق المضطرب ، خصوصاً لكون حدوث ذلك يؤثر في القرارات السياسية التي سيتفق عليها قريباً .

ثم انه يجب ألا يخامر جلالتكم اقل ريب في وفاء الحكومة البريطانية نحوكم ، ويتحتم عليها عدم اتخاذ جانب ابن سعود او غيره فيما يضر بمصالح جلالتكم . غير ان جلالتكم لا يجهل شروط المعاهدة الحالية بين الحكومة البريطانية وابن سعود الضامنة حقوقه داخل حدود بلاده ، الا انها ابلغته بصفة رسمية بانها تنظر الى كل عمل يأتي به خارج بلاده بعين السخط ، بل انها رفضت طلبه زيادة الذخائر والمهمات الحربية . زد على هذا انها طلبت منه وقف الحركات العدائية ضد « ابن رشيد » صديق الترك ، التي كان شرع بها ، بناء على طلب الحكومة البريطانية نفسها .

انني لا اذكر هذا ، الا اغرض وقوف جلالتكم على حقيقة الحالة ، ولكي تقدروا حق التقدير البواعث التي حملت الحكومة البريطانية على الاشارة لجلالتكم بالوقوف عند حد معلوم فيما يتعلق بمسألة « الخرما » وغيرها من شؤون القبائل ، والتي سيمن الباري بحلها بالصبر والتأني .

هذا ، ونظراً الى ما سبق ذكره ، وما تكرر وروده في كتب جلالتكم الكريمة ، يصعب عليّ تصديق الخبر الذي جاءني وهو ان جلالتكم رغبتم في قطع العلاقات الودية مع ابن سعود ، بما يكنى عنه

رجاءكم رسوله ، ورفضكم كتابه .

انني ارجو منكم أعظم الرجاء ان تجتهدوا لمنع كل البواعث الجوهرية التي تؤدي الى سوء التفاهم مع الامير المشار اليه بشأن سياستكم نحوه ، فانه وإن كان اقل درجة من جلالتكم ، وأضعف موارد ، فانه لا ينكر انه ذو تأثير وأهمية في السياسة العربية .

انني لا اعتبر ان اتباع جلالتكم سياسة كهذه ، مما يحط من قدركم ، لا سمح الله ، وعلى الاخص بعد تقلص ظل الاتراك من جزيرة العرب ، ونجاح النهضة بالاكثر على يدي جلالتكم نجاحاً باهراً اعترف به الصديق والعدو .

« وفي الختام اسأله تعالى ان يطيل عمر جلالتكم كحاكم مستقل ، حتى تساعدوا على احياء هذا العنصر العربي ، وتجديد حيويته ، وتعضدوه بنصائحكم الرشيدة في حل المشكلات الكثيرة ، التي لا بد من ان تعترض كل مشروع خطير مثل عمل جلالتكم هذا الذي لا تقدر قيمته ، والله يتولاكم » .

بهذه اللغة الديبلوماسية ، التي تجمع بين النعومة والشدة ، خاطب الانكليز الحسين في شهر نوفمبر ، اي قبل استسلام حامية المدينة بشهر وايام فقط ، طالبين منه الاعتدال في خطته نحو ابن سعود ، بيد انه ابى الاصغاء الى هذا النداء المعقول ، اعتقاداً منه بأن ما لديه من قوى تكفي لاكتساح نجد والوصول الى الحسا والاستقرار على شاطىء الخليج ، ويومئذ يسهل عليه التفاهم مع الانكليز ، بعد ان يجعلهم امام حالة واقعة .

واصدر في ظل هذه العقيدة ، التي ملكت شعوره ولبه ، وسيطرت على حواسه ومداركه ، تعليمات الى نجله الامير عبدالله بأن يتجه بقواه الى « عشيرة » ، ويرابط فيها ، بانتظار اوامره وتعليماته .

وحدث قبل ذلك حادث في وادي العيص ، كان الشرارة التي انطلقت

منها المعركة ، فقد لطم فاجر بن شلوع احد شيوخ قبيلة الرولة من عتيبة ، الشريف خالد بن لؤي ، امير الخرما ، وكانا في جيش الامير عبدالله ، المرابط حول المدينة ، بسبب خلاف شجر بينهما . ومع ان الامير عبدالله عاقب فاجر حينما بلغه الأمر ، الا ان هذه العقوبة لم تقنع ابن لؤي ولم ترضه ، فتقدم بعد ايام الى الامير يطلب اجازة يسافر بهـــا الى اهله ، فأجازه بشرط ان يمر بمكة ويزور والده في طريقه ، ولكنه لم يفعل ، بل اتجه الى ديرته ، وفيها وصل حبله بحبل الاخوان النجديين اخوان التوحيد ، واندمج في زمرتهم ، واتجه نحو الرياض ، وأعلن الدخول في طاعتها .

ووصل الخبر الى الحسين في مكة ، وقيل له ان ابن عمه خالد بن لؤي ، وهو في الأصل من الأشراف العبادلة الذين ينتمي الحسين اليهم ، صبأ ، اي انضم الى الاخوان ، وأصبح نجدي الهوى والميول ، فأرسل فدعاه لزيارته فاعتذر ، فأقاله وولى احد أبناء عمومته بدلاً منه ، فاعتذر هذا عن قبول الامارة وقال انه لا قبل له بمقـاومة خالد . فأرسل حملة لإخضاعه فهزمها ، وكان هذا نصيب الثانية والثالثة ، والرابعة ايضاً ، مما زاد في نفوذ خالد ورفع مكانته في المنطقـة ، وأقلق بال الحسين وجعله يعد المعدات لاخضاعه وإعادة الهدوء والاستقرار الى تلك البلاد .

ووضعت وهو في تلك الحالة ، الحرب اوزارها ، واستسلمت المدينة ، فاستقر قراره على ارسال القوة التي كانت ترابط حولهـا ، الى الجهـــة الشرقية ، الى الخرما ، فتخضعها وتواصل التقدم موغلة في نجد فيرتاح من ناحيتها ، ويصيب عصفورين بحجر واحد .

وما كاد الجيش يصل الى الـ« عشيرة » حتى ذهب اليها الحسين محاطاً بكبار الاشراف من ابناء عمومته واهله ، وعقد مؤتمراً استمر ثلاثة ايام وانتهى باقرار الخطة المرسومة .

ووصلت اخبار ما يعده الحسين ويدبره الى الرياض ، وقال القائلون بان مكة تستعد للغزو ، فأرسل سيدها الى المعتمد البريطاني في البحرين يخبره بما جاءه ويقول له ان الشريف الذي طالما نصحني الانكليز بمصادقته والتفاهم معه ، يعد العدة لمهاجمتي والعدوان عليّ بدون ان يبدر من جانبي ما يستوجب ذلك او يدعو اليه . فأرسل هذا الى لندن بما سمع ، وهذه وأصدرت تعليماتها الى معتمدها في جدة بأن يخاطب الحسين ويدعوه الى الاعتدال ، فأعد هذا كتاباً كتبه باللغة العربية وأرسله اليه مع سكرتير داره ، واسمه حسين روحي البهائي ، وكان ما يزال في الـ « عشيرة » ، فذهب وسلمه الكتاب ، وهذه خلاصته : « تدعوك الحكومة البريطانيـة الى الاعتدال وان تعود الى الطائف مع جيشك فيوافيك اليها الامير عبدالعزيز ابن سعود ، وتبدأ المحادثات لحل ما هنالك من خلاف على الحدود » .

وبعد ان تلا الحسين الكتـاب ، خاطب حامله بملء صوته قائلاً : « اذهب الى الذين ارسلوك وقل لهم انه ليس لهم ان يتدخلوا في امورنا الداخلية ، فنحن احرار نفعل ما نريد » وأعاد الرسول بدون ان يسلمه جواباً على الكتاب الذي جاء به ، مكتفياً بما ألقاه من كلمات على مسمع من الجميع .

وهكذا رفض الحسين ، عن تصور وتصميم ، الوساطة البريطانيـة ، وابى الاصغاء للنصح الذي أسدي اليه . وكيف يصغي وهو يؤمن بأن الرياض في متناول يده ، وان الفرصة السانحـة من افضل الفرص لتحقيق امنية قديمة كان يعدها حلماً من الاحلام .

ولكن للاقدار حكمها ، ولها ارادتها ، التي لا تغلب ولا ترد . ويقول الامير عبدالله بن الحسين في مذكراته عن هذه المعركة ، وقد أثبتناها في نهاية هـذا الفصل انه حاول ان يثني والده عن ارسال هذه الحملة وعن الايغال في العداء ، بيد ان إلحاحه وإصراره جمله ينقاد وينصاع

الوصول الى تربة

وانتهى المؤتمر ، وودع الحسين جيشه وزود نجله بنصائحه ، فمشى باتجاه تربة . وكان في اصح الروايات يتألف كما يأتي :

٨٠٠ جندي نظامي يقودهم ٥٠ ضابطاً .

٣٠ رشاشة .

١٨ مدفعاً جبلياً (هاوتزر) .

وذلك عدا طوائف عديدة من متطوعة البدو بقيادة عدد من الاشراف قدروهم ببضعة آلاف .

وتولى اللواء محمد حلمي البغدادي قيادة القوة النظامية والمدفعية ، وكان من بين ضباط الحملة اللواء صبري باشا والقائمقام حامد الراوي والقائمقام ابراهيم الراوي وغيرهم من الضباط العراقيين الذي كانوا في جيش الامير عبدالله حول المدينة .

وبلغ الجيش تربة في زحفه الى الامام ، فاستولى عليها بعد مقاومة بسيطة وضرب فيها خيامه . وأرسل الامير يدعو شيوخ الديرة لتقديم الطاعة .

ووصل الى تربة وفد أوفده الامام عبد العزيز ، فزار الامير عبدالله وسلمه كتاباً حمله اليه يبلغه فيه سلامه ، ويسأله عن صحة الشائعات التي تشاع عن ازماعه مهاجمة نجد ، مع انها لم تسيء اليه ، ومع انه ليس هنالك ما يستوجب ذلك ، ويسأله ان يكون وسيطاً لدى والده لحقن الدماء . فرد عليه رداً مبهماً ، فلم يطمئن ، فحشد قواه وجاء على رأس رجاله فرابط في مكان اسمه « القصية » يبعد نحو ٧٠ كلم عن الحدود في داخل نجد وأقام يراقب الحوادث وتطورها .

وصحت عزيمة القبائل النازلة هنالك ، وهي حجازية في الاصل ، على

مباغتة الحملة وضربها وتشتيتها ، فانقضت عليها فجر يوم الخميس ٢٥ شعبان سنة ١٣٣٧ (١٤ مايو سنة ١٩٢٠) ، وأخذتها على غرة ، وما هي الا ساعات حتى أنهوا امرها ومزقوها شر ممزق . ونجا الامير عبدالله قائدها العام بمساعدة احد عبيده ، فقد شق الخيمة التي كان ينام في داخلها وحمله على ظهره حتى أركبه حصانه فمضى به الى الطائف لا يلوي على شيء .

وغنم الاخوان كل ما كان لدى الحملة من سلاح ومعدات ، وكان نصراً كبيراً فتح ابواب الحجاز امام ابن سعود ، بعد ان بادت القوة الكبرى التي كان يعتمد الحسين عليها في الدفاع عن كيانه .

واضطرب الحسين لوقوع هذه الكارثة وما تجلد ، والتجلد من شأنه ودأبه ، وأسرع فأرسل ٥٠٠ جندي نظامي كانوا لديه ، الى الطائف للدفاع عنها بقيادة اللواء محمود فهمي القيسوني وزير حربيته .

ودعا الحسين الشيخ عبدالله بن سراج رئيس الوكلاء ، وقص عليه ما حدث وسأله رأيه فيما يجب ان يفعله ، فقال له ليس لنا عن الدفاع محيص ، فاقره في رأيه ، ثم طلب اليه ان يتصل بالمعتمد البريطاني في جدة ويطلعه على ما حدث ويسأله رأيه ، فاتصل به تليفونياً من ثكنة جرول فقال له سأرفع الامر الى حكومتي واوافيك بالجواب عند وصوله .

واتصل به بعد يومين وطلب اليه ارسال مندوب الى جدة ، فأرسله اليه ، فعاد يحمل كتاباً من الحكومة البريطانية موجهاً الى ابن سعود تدعوه فيه للعودة بقوته الى نجد حالاً وعند وصول هذا الكتاب الى يده ، وتعده ببذل وساطتها للتوفيق بينه وبين الحسين .

وحمل نجاب الكتاب الى الامام وسلمه اليه ، فعاد في المساء الى عاصمته .

رواية الامير عبدالله عن الغزوة

وتناول الامير عبدالله هذا الحادث الجلل في مذكراته ، فساقه بتفصيل واسهاب على الوجه الآتي . قال ص ١٧٤ .

« وأمرت بالرجوع الى الطائف بالجيش الشرقي الذي كان تحت امرتي بقصد تأديب الشريف خالد بن لؤي بوادي « الخرما » ، وهذا اعتنق المذهب الوهابي وطرد قاضي الخرما الشرعي ، وقتل الأبرياء كما قتل الشريف بعيجان وهو اخوه من امه وابيه لأنه ابى ان يطيعه على فساده ، ثم اخذ يغير على من لم يدخل في هذا المذهب من العشائر التابعة للمملكة الهاشمية. وكان الملك المرحوم وجه الشريف حمود بن زيد بقوة تأديبية الى الخرما فلم يستطع عمل شيء ، فغلب . ثم بعثه مرة اخرى فغلب وجرح، فأمددته انا من وادي العيص بقوة تحت قيادة الشريف شاكر بن زيد ، فذهب بها ، وبعد تلكؤ توجه الى الخرما ونزل شرقيها في الوادي نفسه ، فهوجم وهو في منزله ، وهزم ايضاً كما هزم الشريف حمود قبله . فجهز الحسين قوة اخرى وبعثني بها معه ومع الشريف عبدالله بن محمد ، فبقيت هذه القوة بحضن ، وهو الجبل المعروف الذي ورد فيه الحديث « من رأى حضناً فقد انجد » . وأمرني الوالد بأن اقصد الخرما رأساً من المدينة ، فحاولت منع هذا الأمر وعدم الدخول فيه لأسباب جمة : اولها سأم الناس من الحرب نفسها واستغناء الجنود المستأجرة مالياً فقد أثروا وامتلأت جيوبهم ولم تعد لديهم رغبة في حرب او جلاد ، فاستأذنت في اني احب القدوم الى عشيرة وهي ماء شمالي الطائف فاجتمع بالوالد ، فوافق . ولما وصلت الى عشيرة وجدته . فأقمنا ثلاث ليال حاولت فيها صرفه عن متابعة هذه الخطة ، وان يوافق على سحب الاميرين عبدالله وشاكر من حضن ، فأبى .

وجاء اليه في عشيرة ، حسين روحي ، سكرتير المعتمد البريطاني في

جدة وقال لي : « لقد نصحت بريطانيا بعدم متابعة الحرب مع النجديين وهي ترى مقابلة الدعاية بمثلها ، وتعلم ان لديهم قوة نشيطة متعصبة ينبغي اخماد نارها بالحكمة ، وان ما وقع على الشريف حمود في المرتين السابقتين وعلى الشريف شاكر في المرة الاخيرة يثبت هذا الظن . وان للملك من المسائل في البلاد العربية كالشام والعراق ما ينبغي ان ينصرف لها دون غيرها » . وما كنت اجهل مغزى ما قاله .

وكنت قبل ذهابي الى عشيرة ، ارسلت من المدينة كتاباً الى عبد العزيز بن سعود ، أبلغته ما تم من نصر على الاتراك وبانقضاء حكمهم ، وقلت انني تلقيت امراً من والدي بالسفر حالاً الى الحجاز لتأديب الشريف خالد بن لؤي الذي خرج عن الطاعة ، وانه ليس من قصد سوى هذا ، وانني من الساعين لايجاد الصداقة والولاء بين والدي وبينه ، وفي هذا من الدلالة على حسن النية الشيء الكثير . ولم اتعد حدود اللياقة في جملة من جمل كتابي هذا في صدد التزامه للحركة الوهابية وتشجيع الاعراب كي يعتنقوا هذا المذهب ، وخصومة والدي لها وسعيه لاخمادها ، فقلت انني ساع لايجاد المودة القريبة بينكما ، وأن ليس للعرب من فائدة في التنافر والتناحر .

« وحاولت اقناع والدي ، حين اجتماعنا في عشيرة بعد ذلك ، بتأجيل الحركة ، زيادة في التبصر وتمحيص الأمر ، فأجابني ، وكان مسروراً بما رآه من قوة ومعدات ، بما يأتي : « يجب عليك ان تتجه حالاً نحو الخرما للقضاء على هذا الفساد ، وان معك من القوة ما إذا قابلت به كل العرب لتغلبت عليهم » .

« على انه لو عرف حقيقة ما اعرفه لبدل رأيه ، فان قتال العرب ليس كقتال الترك ، لانهم اهل ثقل في الحركات وبطش ، ولا وسائل نقلية لديهم ، فكنا نهاجمهم متى شئنا وننجو منهم متى خفنا لسعة حركاتنا ،

وكوننا في بلادنا ، ولأن الجندي الاجير الذي كان لدينـا ملأ جيبه من المال واستغنى ، فهو لا يريد الحرب ، اما الجندي الوهابي فهو حريص على الجنة لاعتقاده انه اذا قتل دخلها .

« ولما اختليت بوالدي وعرضت عليه آرائي هذه محاولاً ان اثنيه عن الحرب ، غضب غضباً شديداً وقال : هذا رأي ام عصيان ؟ فقلت اعوذ بالله منهما ولكنها النصيحة ، فانني عالم بروحية الفريقين . قال ان لم تفعل ما آمرك به فانا متخل عن الملك ، فاستعذت بالله وقلت انني فداه لكم ولرغبتكم وذاهب حسب ارادتكم ، ثم اضفت وكأني انظر الى مصارع القوم « سأصدع بالأمر واسأل الله لجندكم الظفر ولنفسي الشهادة .

وعاد هو الى مكة ، وتوجهت بالقوة قاصداً « البديع » وهو ماء عذب (بحضن) جبل البقوم ، وبعثت الى عبد الله بن محمد وشاكر بن زيد بأن يلقياني .

« وبعد يوم او يومين نزلت « البديع » وهو في منتصف الجبل ، يمينه القسم الجنوبي من حضن ويساره القسم الشمالي منه ، وأحببت لقاء العدو به لانه مركز منيع لا يؤتى الا من وجه واحد ، وانني متى تحصنت به وبثثت السرايا ، وقطعت النخيل ، واخذت المعاويد ، وهي دواب للسقاية ، اضطرت الاعداء للجلاء او التسليم ، وانه اذا اجتمع الاعداء وقصدوني فان الدفاع يكون اهون ، ومهاجمونا يمنعهم من البقاء الظمأ . فأقمت ، وانا ابعث اتحقق عن حالة العدو ، واذا بأمر من الوالد يأمرني فيه بالزحف حالاً ، وينذرني في حالة عدم تنفيذ امره بأن التبعة لاحقة بي ، وبأنه لا ترسل ذخيرة للعسكر بعد وصول الأمر بثمانية ايام ، فعلمت رغبته الاكيدة ، وخفت عاقبة المخالفة ، وبعد التشاور مع من اعتقد اخلاصه من الرؤساء رجحت الاستيلاء على مدينة تربا وحصنها المعروف « مادان » وهو الذي ضربت فيه القوة المصرية الحركة

الوهابية الاولى ، وذهبت عن بكرة ابيها ، وقد كانت هي ايضاً تحت تأثير الحركة الوهابية .

« فتحركت بالجيش صباحاً وأمسيت قربها ، وفي اليوم الثاني ضربت وافتتحت ، وفيها تلقيت كتاباً من عبد العزيز بن سعود يختلف في لهجته عن لهجة كتابه قبل اسبوع ، وقد جاء فيه :

« بلغنا انك جئت تجر (الاطواب) المدافع والعساكر تريدنا بنجد . وحنا ما عندنا بنجد الا الرمث نتظلل به حنا وعولاتنا . فانت اعلم ان اهل نجد كافة جاؤن يمشون نساؤهم تسبق رجالهم من اقصاهم في الشمال وأدناهم في الجنوب . وانا خرجت ونزلت الصخة (نجد) ، وعليه فانت انكفىء عائداً لديرتك (الحجاز) فإن فعلت فانا امنع الاخوان وان لم تفعل فمصيرك بنفسك »

وأرسلت اليه حالاً الرد الآتي :

« تلقيت كتابك ولم استغرب ما رأيت من تفاوت بين الكتابين الاول والثاني . فالتهديدات في الكتاب الاخير لا تتناسب مع ايمان الصداقة والمحبة في كتابك الاول . واما ما ذكرت من ان الناس جاءوا يقصدونني المرأة تسبق الرجل ، فمن هم هؤلاء ؟ فان كانوا عتيبة فنحن وهم من عهد رسول الله (ص) الى اليوم وعهد ظئرة حليمة السعدية ، من ذلك العهد وهم جيراننا ورعايانا ، فإن صدقت فيما قلت وأصابونا فلا فضل لك في ذلك فالغالب هم ، وإن قدرنا الله عليهم وأصبناهم فوالله لا تجد عليهم ولا تحزن ولا ينقصونك . واما طلبك مني الرجوع فهذا لا يليق ان يكتب الي به ، وانا لا يقعقع لي بالشنان ، فخابر ان شئت ولي الأمر بمكة وانا مستمر في عملي متوكل على الله » . وبعثت هذا الكتاب مع رسوله .

« ومضت ايام ، واذا جموع الوهابية تصل الى الحرما ، وتجتازها

الينا ، وقد أغارت خيلهم على سرحنا ، وتقابل الخيلان وقدر الله فطردوا ، وبعد ثلاث ليال جاءوا بجموعهم وهم عشائر مطير (الدويش) ومن معه ، وعشائر حرب اهل نجد ، وعشائر عتيبة وعلى رأسها سلطان بن بجاد الملقب بسلطان الدين ، وعشائر الدوامر ، وعشائر قحطان ، وكافة سبيع اهل نجد ، وسبيع اهل الوديان يزاحمون الخمسة والعشرين ألفاً وكانت القوة التي معي من حيث قوة النار لا بأس بها ، واما العدد فكان الجند النظامي ٥٠٠ والجند من اهل الحجاز والاوهاط المكتوبـــة ٨٥٠ فصبحونا بالحرما. وكانت الملحمة حيث استشهد من الاشراف ٥٣ من صفنا ، ولم ينجُ من النظاميين الا ثلاثة ضباط هم امير الالاي صبري والقائمقام ابراهيم الراوي والقائد حامد الراوي . والذي سلم من القوة العربية الحجازية ١٥٠ رجلا . أما هم فلم يبلغوا منا ما ارادوا الا بعد ان حصدوا حصداً . وعلى ما قيل لي ان عدد من دخل العدة من نسائهم في الارطاوية (قرية) هن ٧٥٠ امرأة ، هذه هي قرية واحدة . وكان قتلاهم فوق السبعة آلاف ، وكانت نجاتي منهم معجزة من المعجزات » .

ثم قال :

« وعدت بعد الهزيمة التي وقعت ، وبعـد القتل المريع الذي أردى الالوف ، وانا ارى ما سينجم عن استفحال امر هؤلاء على بلادنا كما وقع ، ولا يخفى انني نصحت لوالدي في ان يترك امر شرقي الحجاز الى فرصة مناسبة ، ريثما يستعد بجند نظامي قادر على كسر شوكتهم وايقـافهم عند حدهم ، فلم افلح في نصائحي . وكان ما أراده الله ان يكون .

وكانت الفترة بين واقعة تربا وبين قدومي الى شرقي الاردن ، فترة اضطراب وقلق على الوطن ومصيره ، وعلى النهضة واتعابنا فيها ، وعلى الملك نفسه ، فقد وجدته عند رجوعي الى مكة على غير علمي به ، وابتدأ مرضه الذي توفي به من ذلك الحـين ، فكان كثير الصمت ، كثير

النسيان ، كثير التردد ، قليل الاعتماد على من كان يعتمد عليه وللمسألة خطورتها » . ثم قال : « وكان اذا جاءه اي خبر من اي ناحية وصادف هذا الخبر ظنونه ، اخذ بها ، وعمل بموجبها ، ولهذا حف به الكثيرون من ارباب المشائر ، فصارت لهم كلمة والغاية كان من مراده » .

وقال في مكان آخر : « وامرني بعد انتهاء الحج في ذلك العام ان اهيىء القوة النظامية التي جاءت من المدينة ، مع الملك علي الى الخرما . ولما كنت لا اثق بهذه القوة ، بعد ان رأيت ما حل بالجيش الشرقي الذي نشأ على يدي . وبعد علمي بأن انكلترا سوف لا تصد ابن سعود مرة اخرى لو قصد الحجاز ، فاعتذرت ، فغضب وأسمعني ما لم آلف منه من كلمات تقريعية شديدة بحضرة اخي علي ، فتحملت وسكت .

« وذهبت بعد ايام الى الطائف مع اخي علي لتبديل الهواء ، ولما وصلنا الى ذات عرق ، تلقيت امراً منه يوجب توجهي بالقوات التي مع اخي الى الخرما ، فكتبت معتذراً ، ومصراً على عدم الذهاب مع النصح بترك اي تقدم نحو نجد قبل الاستعداد الذي يضمن النتيجة ، وبعد اعداد قوات احتياطية لامداد القوات المحاربة عند الاقتضاء . ثم قلت : « واذهب كجندي بقيادة اي كان ، اذا أصر ولي الامر ، على ألا اعود حياً : ولكن لا اتحمل مسؤولية القياده ثم أغلب وأهزم فاجر على الحجاز اهل نجد وليست لديه قوة احتياطية » .

مشروع لورانس لتصفية العهود

خان الانكليز الحسين بعد ختام الحرب ، وتناسوا وعودهم وعهودهم ، واقتسموا بالآتفاق مع الافرنسيين بلاد العرب، فنفذوا اتفاق سايكس - بيكو بحذافيره نصاً وروحاً ، وهو الاتفـاق الذي انكروه امام الحسين رسمياً وقالوا انه لا وجود له ، كما ورد في فصل سابق .

لقد اختص الانكليز بالأقطار الآتية :

١ – العراق .

٢ – فلسطين .

٣ – الاردن .

واختصوا فرنسا بـ :

١ – سورية الداخلية .

٢ – سورية الساحلية (لبنان) .

٣ – كيليكية .

٤ – الاراضي التركية الواقعة شمالي حلب .

وأنشأ الانكليز في العراق ، كما أنشأ الافرنسيون في الشام ، نظم حكم استعمارية قاسية ، فافرغ الاولون العراق بشكل مستعمرة تتبع مستعمرة

الهند ، وولوا ضباطهم ، ومعظمهم من الجهلة الاغبياء ، حكم المحافظات والاقضيـة ، فظلموا وجاروا ، وسرقوا ونهبوا ، مما تألم منه العراقيون أشد الألم .

وكانت الحالة في فلسطين أقسى وأسوأ ، فقد كان على الحكم العسكري الانكليزي ان يمهد للاستيلاء اليهودي ، وأن يفتح الباب في وجه المهاجرين اليهود ، ويسهل لهم امتلاك الأراضي ، ويطلق يدهم في العدوان على العرب اصحاب البلاد ، ومحاربتهم حرب إبادة وفناء .

وما كان الافرنسيون في بـلاد الشام أقل شراً من الانكليز ، وما كانوا دونهم غروراً ، ولا ظلماً ولا عنتاً ، فقـد أقاموا نظام حكم لمندوبهم السامي ، فيه الكلمـة العليا والنفوذ المطلق ، فحصروا جميع السلطات من تشريع وتنفيـذ في يده : فهو الحاكم المطلق ، والآمر الناهي . ومما يؤسف له ، انه ألف وضباطه الذين انتشروا في داخـل البلاد ، يعيثون فيهـا بالفساد ـ مجموعة شعارها سلب ما يمكن سلبه ، ونهب ما يمكن نهبه ، وارهاق الشعب بالضرائب والمغـارم ، فلا يثور ولا يشكو .

وكبر على العراقيين والسوريين والفلسطينيين ، ان تقتسم بلادهم ، وتستعبد شعوبهم ، وتنهب اموالهم ، ويشرد رجالهم ، وهم الذين ثاروا على الترك وقاتلوهم ، وأيدوا الحلفاء ونصروهم فخاطبوا لندن وباريس ، وقالوا لهما ليس على هذا كان التعاقد والاتفاق ، ولا على هـذا كانت العهود والمواثيق ، ولا بمثل هـذا يعامل الاصدقاء الاصدقاء ، والأوداء الأوداء . فوضع ساسة البلدين في آذانهم وقراً ، وكانوا ما يزالون سكارى بخمرة النصر والغرور .

وتنادى العرب الى الثورة ، وأشعلوها في داخـل بلادهم فتناً سوداء وحمراء . فثـار العراقيون على الانكليز في سنة ١٩٢٠ ونكلوا بضباطهم

وجنودهم ، وموظفيهم . ونهض السوريون منذ سنة ١٩١٩ لمنازلة الافرنسيين ، وتحركت فلسطين ، ونهضت مصر ، وهاجت الجزائر . وبالاجمال فقد شهد العالم العربي بين سنتي ١٩١٩ و١٩٢١ سلسلة ثورات على الاستعمار الاوربي لا عهد له بمثلها في غابر ايامه .

الترك يشتركون في المعركة

واستفاق الترك من هول الصدمة العنيفة التي أصابتهم في نهاية الحرب ، وزلزلتهم زلزالاً عنيفاً ، وبرزوا لقتال الحلفاء الذين اقتسموا بلادهم ، واتفقوا على تدمير امبراطوريتهم ، فوضع الانكليز يدهم على الاستانة (العاصمة) ، واحتل الافرنسيون كيليكية واراضي الجزيرة العليا والمناطق التركية في شمالي حلب ، ونزل الايطاليون في سلفكة وايضاليا ، واستولى اليونانيون على ازمير وتقدموا الى انقرة ، وفاز الارمن ببعض المناطق في شرقي الاناضول ، وظن بمصير تلك الدولة الظنون .

وأيقظ هذا العدوان القوم وحفزهم للنضال والجهاد ، وليس كالظلم حافزاً يحفز النفوس ويدفعها للتمرد والعصيان ، فنهضوا بقيادة مصطفى كمال ، وجمعوا ما تبقى لديهم من قوى في داخل الاناضول ، ونازلوا الافرنسيين في جنوبه ، والارمن في شرقه ، واليونانيين في غربه ، فانتصروا عليهم وهزموهم ، وطهروا بلادهم من رجس الاحتلال والمحتلين .

تدابير الانكليز

وأقلقت هذه الثورات الانكليز وأزعجتهم ، وأطارت الغرور من رؤوسهم ، وجعلتهم يسرعون فيعيدون النظر في موقفهم .

لقد زين لهم الغرور ، وكم للغرور من ضحايا ومساوىء ، بأن ما

كانوا يتشدقون به ويلوكونه من صداقة العرب ، تجعل هؤلاء يرحبون باحتلالهم ، ويطمئنون الى اساليبهم . فلما اشتعلت الثورة وانتصب سوق المنايا وكثر الفتك بضباطهم وجنودهم ، عادوا الى الرشد وجنحوا الى معالجة الامور بالحكمة والاعتدال .

ونثلت حكومة لويد جورج كنانتها وعجمت عود رجالها ، فوقع اختيارها على « تشرشل » وزير بحريتها ، فنقلته الى وزارة المستعمرات ، وأوفدته الى الشرق العربي وأطلقت يده في اتخاذ ما يراه لازماً ومناسباً من التدابير .

واختار هذا عدداً من الخبراء الانكليز ، الذين عملوا من قبل في الشرق العربي ومن جملتهم لورانس ، فقد استطاع اقناعه بالسفر معه الى الشرق العربي بعدما وعده بانصاف العرب واعادة حقوقهم . ولا يخفى ان لورانس اعتزل خدمة الحكومة بعد الحرب ورد الى الملك أوسمته ورتبه احتجاجاً على الحكومة البريطانية لظلمها العرب وعدم الوفاء لهم بعهودها .

رواية تشرشل عن مهمته

ويحدثنا المستر تشرشل في كتابه « عظماء معاصرون » وهو يترجم للورانس عن مهمته هذه ، وقد اقتبسنا منه فصلاً في السابق ، فيقول :

« وفي ربيع سنة ١٩٢١ ، نقلت الى وزارة المستعمرات لأشرف على مصالحنا في الشرق الاوسط ، ولأعيد اليه شيئاً من النظام ، وكنا في ذلك الوقت قد انتهينا من ثورة خطيرة دامية في العراق ، وصار حفظ النظام يتطلب نيفاً وأربعين الف جندي يكلفون ثلاثين مليوناً من الجنيهات في كل عام .

« اما في فلسطين فقد اخذ النزاع بين العرب واليهود ينذر بالتطور في كل لحظة الى اعمال العنف الشديد . وتوارى ، فيما وراء شرقي الاردن

من صحار ، زعماء العرب الذين طردوا مع كثيرين من اتباعهم من سورية ، وكانوا جميعاً حلفاء لنـــا ، وتربصوا فيها ساخطين . وكانت مصر تغلي كالمرجل ، وهكذا كان الشرق الاوسط كله ، يبدو في صورة كئيبة ، تنذر بشر مستطير .

« وأنشأت في وزارة المستعمرات ، ادارة جديدة مهمتهـا ان تنهض بهذه الاعباء الجديدة ، وكان قوامهـــا ستة من اقدر رجال الهند وممن خدموا في العراق وفلسطين في اثناء الحرب ، واعتزمت ان اضم اليهـــم لورانس ، وكان جميع هؤلاء الرجال يعرفونه حق المعرفـة ، ومنهم من حارب معه او تحت قيـادته . فلما كاشفتهم بهذه الخطة صرخوا ماذا ؟ « أتريد ان نلجم حمار الصحراء الجامح ؟ » . وهكذا كان الاتجاه العام على انه لم يكن صادراً عن اي اثر من آثار الحسد او الاستخفـــاف بكفايات لورانس ، بـل كان منشأه اعتقاد صادق في انه لا يطيق العمل الرتيب في ادارة من الادارات العامـــة وهو على ما هو عليه من طبع شاذ ومزاج حار .

« وصممت مع ذلك على خطتي ، وعرضت على لورانس منصباً خطيراً قبله فوراً ، فأدهش الجميع ولم يدهشني . وليس هـذا مجال الكلام عن المشاكل المعقدة الشائكة التي كان علينا ان نجد لها حلا ، وحسبي ان اعرض لها صورة بسيطة مجملة . لقد كان من الضروري ان نعالج الامور في مواضعها ، ولذلك طلبت عقد مؤتمر في القاهرة دعي اليه فعلا جميع الخبراء بشؤون الشرق الاوسط وجميع المسؤولين عن تصريف الامور . وسافرت الى القاهرة وفي صحبتي لورانس وهيبورن بنج ، وترنشارد الذي كان من خبراء وزارة الطيران ، وأقمنا فيهـا وفي فلسطين ما يقرب من شهر ، ثم قدمت المقترحات الاساسية الآتية الى مجلس الوزراء :

١ ان نعوض العرب عما اصابهم ، وان نرضي بيت شريف مكة

بأن نجلس الامير فيصل ملكاً على عرش العراق ، وان نعهد الى الامير عبدالله بحكم شرقي الاردن .

٢ – ان نسحب جيوشنا كلها تقريباً من العراق ، ونعتمد في الدفاع عنه الى سلاح الطيران .

٣ – ايجاد تسوية للمشاكل العاجلة القائمة بين العرب واليهود في فلسطين على ان تكون هذه التسوية اساساً لما سيتقرر في المستقبل .

« واثار الاقتراحان الاول والثاني معارضة شديدة من جانب الحكومة الافرنسية التي غضبت اشد الغضب لما رأته فيهما من ترضية للامير فيصل وهو الذي كان ثائراً ومهزوماً . اما وزارة الحرب البريطانية فقد أدهشها وأزعجها اقتراح اجلاء الجيوش عن العراق ، وتنبأت بما يعقبه من تدمير وتقتيل . على اني كنت لاحظت ان تونشارد اذا اخذ على عاتقه ان يفعل شيئاً فهو لا بد فاعله .

« وقبلت مقترحاتنا ، غير ان تنفيذها بسرعة فائقة بعد ان استقر علیها رأينا ، استنفد عاماً قمنا فيه بأشق الاعمال وأدعاها الى القلق .

« ونفذت بريطانيا المقترحين الاول والثاني ، فساعدت في انشاء عرش لفيصل في العراق ، وآخر لأخيه عبدالله في الاردن ، وكان للورانس يد لا تنكر في تحقيق هذين المشروعين ، وكان يعتقد انه بعمله هذا وفي العرب ببعض حقوقهم » .

تدابير الافرنسيين

ولا نرانا في حاجة الى اضافة شيء عما اورده تشرشل في كتابه ، ولذلك رأينا ان نتكلم عن تدابير الافرنسيين في تلك المرحلة ، وهم شركاء الانكليز في العدوان والغدر .

وهذا بيان عن تدابيرهم :

احتل الافرنسيون كيليكية ، كما احتلوا بـــلاد الشام ، عقب ختام الحرب ، وتولى الكولونيل بريمون ، مؤلف كتاب « الحجاز في الحرب العالمية » ، منصب الحاكم العام في هذه المقاطعة العظيمة الواسعة .

ولقد كان من سوء حظ الافرنسيين انهم نقلوا الى هذه المقاطعة كتيبة من متطوعة الارمن كانت مجندة في جيشهم ، فأسرف رجالهـا ، وكانوا حاقدين على الترك لما أنزلوه بالشعب الارمني من مصائب وبلايا ، فأخرجوه من بلاده ، وفتكوا بابنـائه ، ونهبوا امواله ـ فانطلقوا يقتلون كل من يقع في ايديهم من الترك ، انتقاماً وثأراً ، فأهاج ذلك هؤلاء ، فنهضوا للدفاع والمقاومة ، فكان فاتحـــة نضال عنيف استمر نحو سنة ، حشد الترك قواهم خلالها وتشمروا اقتال الافرنسيين لا الارمن وحدهم ، فهزموهم في كثير من المعارك .

ودرست حكومـة باريس الموقف من شتى نواحيه ، فأدركت انه لا قبل لها بمنازلة الترك في جنوبي الاناضول ، ومقـــاتلة العرب الذين كانوا يصارحونها بالعداء في الشام ، وخصوصاً بعدما وصل الى علمها بأن هنالك مباحثات تدور بين انقرة ودمشق للتعاون في قتال العدو المشترك (فرنسا) ، فقد تناسى القوم ، هنا وهنالك ، كل ما كان بينهم ، وأقبلوا يتدارسون مخططاً مشتركاً يتعاونون في اطاره على قتال المستعمر الغادر .

واستقر قرار باريس على مصافاة الترك والفوز بصداقتهم ومودتهم ، لـكي تتفرغ لقتال العرب واخضاعهم . وأسرعت فأوفدت المسيو فرانكلان بويسون ، فجاء الى انقرة وعقد مع حكومتهـا اتفاقاً (٧ اكتوبر سنة ١٩٢١) تخلت بموجبه (فرنسا) عن كيليكية واراضي الجزيرة العليا ، والمقاطعات التركية الواقعة شمالي حلب ، كما تخلت للترك عن كميات كبيرة من الاسلحة والمعدات ، مما عدّ في جملته فوزاً كبيراً للحركة الوطنيـــة

التركية ، وقد كان اول انتصار يحرزه الشرق الاوسط على الاستعمار الاوربي بعد الحرب وأول هزيمة تنزل بهذا ، مما هز الشعوب العربية ، وكان حافزاً جديداً حفزها على مواصلة الكفاح ، فلم تلق السلاح حتى طردت الانكليز والفرنسيين من جميع بلادها ، وطهرتها من ادرانهم . ولئن بقيت للانكليز مناطق صغيرة في جنوبي اليمن والخليج ، فيوم طردهم منها ليس ببعيد ، والامور تقاس باشباهها ونظائرها .

اللنبي قبل تشرشل ولورانس

ولا بد لنا ، قبل الكلام عن المشروع الذي حمله لورانس لتصفية العهود ، من تسجيل حادث ذي شأن حدث قبل ذلك بسنتين ، فقد زار اللورد اللنبي جدة في سنة ١٩١٩ واجتمع الى الحسين ونجله عبدالله اجتماعاً طويلاً عاد بعده الى القاهرة .

ويحدثنا عبدالله في مذكراته عن هذا الاجتماع فيقول انه جاء مع والده الى جدة للاجتماع الى اللورد ، وأدارا معه محادثات لم تنتج سوى ازدياد عدم التفاهم ، وكان الموضوع الشام وفلسطين والعراق .

ثم قال الامير في مذكراته : وبعد رحيل اللنبي بدون فائدة ، سافرت الى القاهرة لكي ارد له الزيارة ، وكنت احمل امراً بتعييني رئيساً للوفد العربي الى مؤتمر الصلح ، فقال لي اللورد ان فيصل هو رئيس الوفد (انظر ص ٢٧٦) ، فقلت له انه الآن ملك سورية ، فأجابني ان الحلفاء لم يعترفوا بهذا . فقلت له ان الذي ولاه وأرسله الى مؤتمر الصلح قد اعتبر الامر الواقع وعين رئيساً آخر هو انا ، فقال : هذا عمل لا يقره الحلفاء ولا يقبلونه ، فقلت : ما للحلفاء وتعيين موظف في وظيفة ، فقال : هو ما سمعت . وكان الأمر من أسوأ ما رأيت . فعرضت الأمر برقياً على مكة ثم عدت الى الحجاز » .

تلك هي قصة زيارة اللنبي لجدة وعودته فاشلًا في سنة ١٩١٩ ، ويمكن اعتبارها اول محاولة بريطانية لتصفية العهود والتحلل منها .

والمحاولة الثانية هي التي بدأها لورانس سنة ١٩٢١ ، وخلاصة امرها ، انه لم يعد مع تشرشل حين عودته الى انكلترا ، بعدما اعتقد انه أتم مهمته ونجح فيها ، بل ذهب الى عدن لأمر لم يعلن عنه شيء . وعاد الى جدة (شهر نوفمبر سنة ١٩٢١) يحمل مشروعاً أعدته لندن لتصفية المكاتبات والاتفاقات والعهود القديمة وإبدالها بمعاهدة تحل محلها ، وتنظم علاقات الحكومتين (انكلترا والحجاز) على اسس جديدة متفق عليها . ولعل لورانس كان يعتقد بأنه سيجد الحسين اكثر ليناً وتساهلًا ، بعدما أنشأوا عرشين في بغداد وعمان لولديه ، ولكن الواقع خيب ظنونه وقضى على آماله .

واستهل لورانس حديثه مع الملك بقوله : ان هنالك ديناً على انكلترا مستحق الاداء ، وحيث انه من المتعذر تسديده كاملا في الوقت الحاضر ، فقد اتيت لتسديد جانب منه ، على ان ينظر في تسوية الاقساط الباقية ودفعها تدريجياً .

وقال له الملك : شرفت وآنست واهلا وسهلا ، ولكن لا بد من البحث والمناقشة

واستؤنف الاجتماع في الغد ، وسلم لورانس الملك المشروع الذي حمله من لندن ، فقال الملك : ولكني لا اجد فيه شيئاً عن فلسطين وقضيتها ، ولا عن العراق ولا عن سورية . ثم اقترح ادخال نص بأن فلسطين مستقلة وداخلة في الوحدة العربية . فاعتذر بعدم امكان ذلك في الوقت الحاضر مؤكداً انه لا يدخل في دائرة اختصاصه .

ودارت مناقشة ، فعاد الملك يطالب بتنفيذ العهود المقطوعة للعرب بكاملها ، فقال لورانس ، ما الى هذا سبيل في الوقت الحاضر .

وقال الملك : وانا ليس في استطاعتي قبول هـذا المشروع في الوقت الحاضر .

وقال لورانس الملك في اثنـــاء المناقشة : ان فلسطين لا تريدكم ، فأجابه : ان هذا لا يهمني ، فأنا لا اطلبها لنفسي ولا لأولادي ، وكل ما اطلبه ان تبر بريطانيا بوعودها للعرب ، فاذا فعلت ذلك ، فنحن مستعدون للهجرة ومغادرة البلاد العربية .

وطال الأخذ والرد بينهما على غير طائـــل ، واخيراً اقترح لورانس اضافة مادة جديدة على مشروع المعاهدة معناها ان قبول هـذه المعاهدة وتوقيعها لا يخل ولا ينقض اي عهد او وعد قطع للعرب في اثناء الحرب . فلم يقنع ذلك الملك الذي أصر على تنفيذ العهود بمجموعها ، على ان ينظر في حالة سورية على حدة .

واتفقت كلمة الحاشية التي كانت تحيط بالملك في خلال المبـاحثات ، وكانت تتألف من نجليه علي وزيد والشيخ فؤاد الخطيب امين الخارجية ، وزوجته ام زيد التي جاءت خصيصاً من مكة للاشراف على سير هـذه المفاوضات ومتابعتها ـ نقول ان كلمة هؤلاء أجمعت على وجوب قبول المشروع وتوقيعه ، خشية مكر الانكليز وغدرهم ، فلا يتآمرون على الدولة ولا يوقعون بها ، ولكن الحسين ، رغم كل ذلك ، ورغم إلحاحهم الشديد عليه بالقبول ، أصر على الرفض ، ولما اشتد الضغط عليه ارتقى سلم الدار التي كانوا ينزلونها في جدة الى السطح وولى وجهه شطر البيت الحرام وأقسم بربه ألا يوقعه ، ثم انزوى لوحـده لا يكلم احداً ولا يخاطب احداً . فراب امره اهله ، فكفوا عن مضايقته ، وأمسكوا عن التحدث اليه ، واخيراً اتفقوا مع لورانس على ان يذهب الى عمـــان ويجتمع الى نجله عبدالله ، وكان ذا حظوة لديه ، ويوقع المشروع بالاتفاق معه ، وبعـد ذلك يرسله اليه فيوقعه وينتهي الاشكال .

ولم يجد لورانس صعوبة في اقناع عبدالله ، فقد أسرع فوقعه وأرسله ضمن كتاب الى والده يرجوه توقيعه ، حرصاً على مصلحة البيت الهاشمي ، فأعاده اليه بدون ان يفضه . وهكذا قضي على المشروع . وهــذا هو بنصه :

« لما كان صاحب الجلالة الهاشمية الملك حسين ، الناهض بالعرب ومؤسس الدولة الهاشمية وملكها ، حامي حمى بلد الله الامين ومدينة جده سيد المرسلين ، من جهة ، وجلالة ملك البلاد المتحدة البريطانيــة وارلندا والاملاك البريطانية وراء البحار ، وامبراطور الهند ، من جهة اخرى بالإصالة عن نفسيهما وبالنيابة عن ورثائهما وخلفائهما مدفوعين بالرغبة الخالصة لتوطيد وتقوية عرى الصداقة والولاء المؤسسة بين بلاديهما في اثناء الحرب التي اقتحماها معاً على الدول الجرمانية وتركيا ، ومحررلين ايضاً ، برغبة تمكين مصالحهما وتأييد السلام الدائم والاتحاد بين الشعوب العربية .

« ولما كان صاحب الجلالة الهاشمية قد سمى وعين صاحب السمو الملكي الأمير عبدالله مفوضاً من قبل جلالته ، لعقد معاهدة مع صاحب الجلالة البريطانية للوصول الى هذه الأغراض ، ولما كان صاحب الجلالة البريطانية عين المستر ت. ا. لورانس مفوضاً من قبل جلالته للوصول الى هــذه الأغراض مع صاحب الجلالة الملك حسين ، فقــد اتفق الأمير عبدالله ولورانس على المواد الآتية وتعاقدا عليها :

المادة الأولى – سيكون السلام والمودة قــائمين بين صاحب الجلالة الهاشمية وصاحب الجلالة البريطانية وورثائها وخلفائها . وقد اتفق كل من الفريقين المتعاقدين على استعمال جميع الوسائــل التي تبيحها قوانينه لمنع استخدام بلاده كقاعدة لحركات موجهة ضد مصالح الآخر الحالية والمستقبلة ووعدا بذلك .

المادة الثانية – تتعهد الحكومة البريطانية بأن تمنع بجميع الوسائــل

السلبية والفعلية المتيسرة لديها ، وخصوصاً بايقاف الاعانات من اي نوع كان ، كل تعد على بلاد صاحب الجلالة الهاشمية ، من المقاطعات المجاورة التي بينها وبين الجلالة البريطانية صلات معاهدة .

المادة الثالثة — يتعهد جلالة الحسين بأن يعمل ما في جهده لتنشيط استمرار صلات المودة والسلام بين جلالته وجيرانه الذين بينهم وبين الجلالة البريطانية صلات معاهدة ، ويمنع في مناطق نفوذ جلالته وما يسري على تابعيه من الممالك كل ما يضر بمصالحهم مادة ومعنى ومصالح احكامهم ، كما ان على حكومة ملك بريطانيا استعمال نفوذها فيما اذا احتيج الى ذلك في تسوية اي خلاف كان عند اي مسألة كانت بين الحسين وأحد جيرانه الذين بينهم وبين بريطانيا صلات معاهدة .

المادة الرابعة قد بلغ مع هذا لجلالة الحسين المعاهدات المعمول بها بين حكومة بريطانيا والسيد محمد علي الإدريسي ، وبينها وبين السلطان عبد العزيز بن عبد الرحمن بن فيصل السعود .

المادة الخامسة — يعترف جلالة الحسين بالمعاهدات المذكورة في المادة الرابعة .

ويتعهد جلالته بأن يحافظ على استمرار علاقات المودة التي كانت بين جلالته وبين هؤلاء الحكام قبل النهضة العربية ، وان يحترم الصلات والحدود المتفق عليها سابقاً فيما بينه وبينهم شرط ألا تغاير هذه الصلات والحدود مضمون المعاهدات المذكورة في المادة الرابعة .

المادة السادسة — اتفق وتواعد كل من الفريقين المتعاقدين على قبول معتمد الآخر والاعتراف به ، فيجوز للحسين ان يعين معتمداً للحكومة العربية الهاشمية في لندن ، ولملك بريطانيا ان يعين معتمداً بريطانياً يقيم في جدة وأي مدينة اخرى على ساحل المملكة الهاشمية ، ولا يعين ملك بريطانيا معتمداً بريطانياً في المدينة احتراماً لصفتها المأثورة . وكذا سيكون

الحسين اذا أراد ان يعين وكيلاً قنصلياً في جدة وفي موانىء اخرى من الموانىء الهاشمية التي تراها بريطانيا من آن لآخر مناسبة . ويتمتع هؤلاء المعتمدون والوكلاء القنصليون بالامتيازات السياسية والقنصلية المعتادة .

المادة السابعة — يعترف بهذا جلالة الحسين بالاحتياطات المؤقتة للكلورنتينات التي أعدتها بريطانيا في قمران كما تقتضيه شروط الاحتياطات الطبية المسنونة في العقد الصحي الدولي لعام ١٩١٢ ، او اي عقد صحي آخر يكون مقيداً للحكومة المذكورة .

ومن ناحية اخرى فان بريطانيا توافق على الاعتراف بالاحتياطات التكميلية التي يلزم اتخاذها في جدة وفي موانىء اخرى من البلاد الهاشمية تطبيقاً للنصوص الواردة في الاتفاقات او الاتفاقيات المذكورة وذلك بمقتضى لوائح يعدها الحسين

المادة الثامنة - تتعهد الحكومة البريطانية بألا تتدخل بأي حال من الأحوال في الاجراءات التي يتخذها الحسين لراحة الحجاج والاعتناء بهم داخل بلاده مع مراعاة ما جاء في المادة العاشرة .

ويتعهد من جهته ايضاً بأن يساعد كل مجهود يبذله الرعايا البريطانيون المسلمون او الاشخاص او الجمعيات المشمولون بحماية بريطانيا للاشتراك في سبيل رفاهية الحجاج في الحجاز وصحتهم وتموينهم ، كما يفعل جلالته فيما يختص بعين زبيدة .

المادة التاسعة — قد اتفق كل من الفريقين المتعاقدين على ان يحدد مبلغ معين على كل حاج بصفة رسوم وان يعين مقداره لغاية اول يوم من جمادي الاولى من كل سنة وذلك للاحتياطات الصحية التي يتخذها كل منهما وستكون هذه الرسوم شاملة لمصروفات جميع الاحتياطات الصحية حتى يوم نزول الحجاج الى البحر ، وتكون داخلة في ثمن التذكرة التي تصرف من شركات الملاحة المختلفة ، ويستولي الحسين على الرسوم المفروضة

(٢٢)

للاحتياطات التي تتخذ في الموانىء الهاشمية ، وبالمثل تستولي الحكومة البريطانية على الرسوم المفروضة على الاحتياطات التي تتخذ في جزيرة قمران .

المادة العاشرة – وافقت الحكومة البريطانية على ان تعترف بالتبعية الهاشمية لجميع رعايا الملك حسين الذين يوجدون في اي وقت كان داخل البلاد البريطانية ، والمشمولة بالحماية البريطانية او الواقعة تحت الانتداب البريطاني ، شرط ان يكون هؤلاء الرعايا الهاشميون حائزين على اوراق صادرة عن الحسين تثبت التابعية الهاشمية لحاملها . ووافق الحسين من جهته على ان يعترف بالتبعية البريطانية لجميع البريطانيين او الاشخاص المشمولين بحماية ملك بريطانيا الذين يقيمون عادة في البلاد الهاشمية خارج جدة وغيرها من الموانىء الهاشمية التي يمكن ان يعين ملك بريطانيا وكيلا او قنصلًا فيها .

المادة الحادية عشرة – وافق الحسين على ان ممتلكات الرعايا البريطانيين او المشمولين بحماية بريطانيا تسلم في حال موتهم في البلاد الهاشمية الى الممثل البريطاني فيها او الى سلطة يعينها لهذا الغرض ليتصرف فيها حسب القوانين التي تنطبق على الحالة . ويراعي ممثل بريطانيا في البلاد المذكورة ان الرسوم والضرائب الواجبة على تلك الممتلكات بمقتضى الشرائع الهاشمية تسدد في حينها .

المادة الثانية عشرة – وافق بهذا الحسين على انه في جميع القضايا التي تنشأ في البلاد الهاشمية ويكون احد الرعايا البريطانيين او الاشخاص المشمولين بحماية بريطانيا مدعياً فيها او مدعى عليه ، يحضر ممثل قنصل بريطاني في المحاكم الهاشمية في اثناء سماع القضايا . وفي الاحوال التي يظهر فيها المعتمد البريطاني رغبة لاسباب عادلة في اجراء مخابرات سياسية في شأن القضايا مع الجلالة الهاشمية ، فتؤجل الاحكام ولا تنفذ خلال مدة المذاكرات

ولا يجري تنفيذ الحكم الصادر في اي قضية كانت الا بعد الاذن من الجلالة الهاشمية .

ولا تسري احكام هذه المادة على الرعايا البريطانيين او الاشخاص المشمولين بالحماية البريطانية الذين يقيمون عادة في البلاد الهاشمية خارج جدة وغيرها من الموانىء التي يمكن تعيين وكيلا قنصلياً بريطانياً فيها .

المادة الثالثة عشرة - وافق الحسين على ان يسلم الرعايا البريطانيين او المشمولين بحماية ملك بريطانيا ، المقبوض عليهم بأمر من الحكومة الهاشمية او السلطة القنصلية البريطانية ، في الاحوال التي تضمن فيها السلطة المذكورة احضارهم متى طلبتهم منها الحكومة الهاشمية . ولا تسري احكام هذه المادة على الرعايا البريطانيين الذين يقيمون عادة في البلاد الهاشمية خارج جدة وغيرها من الموانىء التي يمكن ان يعين فيها وكيل قنصلي بريطاني .

المادة الرابعة عشرة - وافق الحسين على ان تنظر السلطة البريطانية في القضايا التي تقع بين الرعايا البريطانيين او المشمولين بالحماية البريطانية ولا تمس مصالح الرعايا الهاشميين ، ولا تسري احكام هذه المادة الا في الاحوال التي يرغب فيها الفريقان المتقاضيان ان يرفعا القضية الى المحكمة الهاشمية كالمنصوص في المادة الثانية عشرة ، وكذا لا تسري احكام هذه المادة على الرعايا البريطانيين او المشمولين بالحماية البريطانية الذين يقيمون عادة في البلاد الهاشمية خارج جدة والموانىء التي يمكن ان يكون فيها القنصل البريطاني او وكيله .

المادة الخامسة عشرة - وافق ملك بريطانيا على ان يتنازل في البلاد الهاشمية عن جميع الامتيازات والاستثناءات التي يتمتع بها الرعايا البريطانيون او المشمولون بالحماية البريطانية بمقتضى الامتيازات الاجنبية بين بريطانيا والحكومة العثمانية الا ما ذكر في هذه المادة .

المادة السادسة عشرة – وافق الحسين على ان يشعر المعتمد البريطاني في جميع الاحوال التي يحتاج فيها الى نفي احد الرعايا البريطانيين او شخص يتمتع بحماية بريطانيـــا ، وان المعتمد يكون مسؤولاً عن نفي الشخص المعين في مدة معقولة

المادة السابعة عشرة – يعترف الحسين بموقف بريطانيـا الخصوصي في العراق وفلسطين ويتعهد انه في المسائل الواقعة تحت نفوذ جلالته في البلاد يبذل استطاعته لمساعدة بريطانيا

المادة الثامنة عشرة – تثبت بهذا اعتراف بريطانيا بعلم الحسين شرطاً ان المراكب غير مراكب الحكومة التي ترفع العلم المذكور تكون مسجلة في جدة او ينبع او في ميناء محدود معلوم من البلاد الهاشمية ، وأن تكون حائزة على اوراق صادرة من الحسين وتنطبق بصفة عامـــة على الشهادات والاوراق الرسمية التي تعطيهـــا عادة الممالك البحرية الرئيسية لمراكبها

ويثبت جلالة الحسين من جهته بهـذا اعترافه بالأعلام التي ترفعهـــا المراكب التابعة لأي قسم من املاك بريطانيا او البلاد المشمولة بحمايتهـا او الواقعة تحت انتدابها بشرط ان المراكب التي ترفع هـــذه الأعلام تكون حائزة على الشهادات والاوراق الرسمية التي تعطيهـا عادة الدول البحرية الرئيسية لمراكبها .

المادة التاسعة عشرة – يصرح بهذا كل من الفريقين المتعاقدين انه اثناء مدة هذه المعاهدة لا يدخل في اية معاهدة او اتفاقية او تفاهم مع فريق ثالث يكون الغرض منه موجهاً ضد مصالح الفريق الآخر المتعاقد الحالي .

المادة العشرون – لا ينقلب اي شرط من الشروط الواردة في هذه المعاهدة على انه قيود تكون قد قيدت او ستقيد في المستقبل احد الفريقين المتعاقدين باحكام عهد جامعة الامم او بأي عهد آخر يمكن لجامعة الامم

ان تتخذه وان يدخل فيه احد الفريقين .

المادة الواحدة والعشرون – يعمل بهذه المعاهدة من تاريخ التوقيع عليها من قبل ملك الدولة الهاشمية وملك بريطانيا ، وتبقى نافذة المفعول مدة سبع سنوات من ذلك التاريخ ، واذا لم يخبر احد الفريقين الفريق الآخر ، قبل مضي السبع سنوات المذكورة بستة اشهر بعزمه على فسخ المعاهدة ، فتستمر معمولاً بها حتى مضي ستة اشهر من اليوم الذي يرسل فيه احد الفريقين المتعاقدين اعلاناً بهذا .

حررت هذه المعاهدة باللغتين العربية والانكليزية ، وستحفظ صورة كل منهما في سجلات الحكومتين الهاشمية والبريطانية ، وقد وقع عليها في عمان المفوضان المذكوران بعاليه في اليوم الثامن من شهر دسمبر سنة ١٩٢١ ، الموافق لليوم التاسع من شهر ربيع الثاني سنة ١٣٤٣ .

وعاد لورانس بعد فشله في سعيه الى لندن ، وكان ذلك آخر عهده في التدخل بالشؤون العربية والقضايا العربية ، ولم يعد للشرق بعد ذلك .

آخر محاولة لتصفية العهود

في يوم ٨ سبتمبر سنة ١٩٢٢ شرع مصطفى كمال في هجومه الحاسم على اليونانيين الذين اكتسحوا غربي الاناضول وبلغوا مشارف انقرة ، فهزمهم وواصل مطاردتهم حتى ازمير فأجلاهم عنهـا ، وطهر الأناضول منهم . واتجه الترك الفائزون بعد ذلك الى حدود مدينة الاستانة الشرقية، وكان الانكليز يحتلونها عسكرياً ، فدقوا ابوابها وطالبوهم بالجلاء عنها .

واهتز الشرق الاوسط ، واهتزت شعوبه لهذا النصر الحاسم يدركه الترك ، لا على اليونان وحدها ، بـل على الانكليز الذين كانوا وراءها يؤيدونها ويمدونها بالسلاح والأموال ، املاً بأن تحتـل انقرة وتقضي على الحركة الوطنية التركية ، فيخلو لهم الجو ويستقروا في الاستانة ، ويعزلوا الدولة التركية في اقاصي الاناضول ومجاهله ، طبقـاً لمعاهدة سيفر التي فرضوها وأرغموها على توقيعها ، فوقعهـا يوم ١٠ اغسطس سنة ١٩٢٠ رئيس حكومتها توفيق باشا وهو دامع العينين .

وكانت النتيجة الأولى والمباشرة لهذا الانتصار ، وقد جزعت لعظمته انكلترا نفسها ، سقوط وزارة لويد جورج الائتلافية في انكلترا ، وهي التي كانت تناصب الترك العداء وتعمل لتقويض دولتهم ، فحلت محلهـا

وزارة برئاسة بونارلو المحافظ ، فاجرت انتخابات نيابية فاز فيها العمال ، وألفوا اول وزارة في انكلترا سنة ١٩٢٣ .

وأبلغ الانكليز يومئذ حكومة العراق انهم خفضوا مدة نفاذ المعاهدة التي حملوها على توقيعها يوم ١٠ اكتوبر سنة ١٩٢٢ ، فجعلوها اربع سنوات بدلاً من عشرين سنة ، ارضاء للشعب العراقي الذي لم يكن راضياً عن المعاهدة وناقماً على الذين عقدوها .

ودارت مباحثات بين دول الحلفاء ، فتم الاتفاق على عقد مؤتمر في لوزان ، لحل المشاكل المعلقة بين تركيا وبينهم ، وعقد معاهدة الصلح تنظم علاقاتها على قواعد جديدة تتناسب مع التطور الجديد الذي تطورته علاقات تركيا الدولية نفسها .

الحسين ومؤتمر لوزان

ورأى الحسين ، وكان يرقب سير الحوادث الدولية ، في اجتماع هذا المؤتمر ، منفذاً ينفذ منه للمطالبة بحقوق العرب ، فأبرق الى الدكتور ناجي الأصيل ، وكان يمثله في لندن ، ، بأن يسافر الى لوزان ويجتمع الى لورد كرزن وزير خارجية انكلترا ، ويذكره بحقوق العرب . وهذه هي برقيته الى معتمده تنم عما كان يعتلج في نفسه من اسى وألم :

« سافر الى لوزان لتبليغ رؤساء واعضاء المؤتمر احتشاماتي وتعظيماتي ، وبأن لي الابتهاج بأن استرعي تأمل شهامتهم في أبسط مستند وهو برقية وزير خارجية بريطانيا باللسان الآتي مآله ادناه والذي يستدل منه على درجة تعهد الحلفاء للعرب امام قيامهم ووقوفهم الحربي المشهورة نتائجه ، ومصابهم بعد ذلك بالقنوط من حلفائهم الذي يمثله درجة التماسهم اليوم

الوسائل الساذجة البسيطة للعيـــان والوفود على الانقرويين لتأمين بلادهم وارواحهم . »

ثم أورد نص برقية وزير خارجية انكلترا اليه وهي منشورة في فصل سابق ، ثم قال :

« فهل من مقتضى الشرف والشهامة الادبية ان يتنصل مما تفرضه عليه هذه التصريحات والتعهـدات وخلف احكامها بكل ما أصاب العرب من بعد الهدنة وجعلهم اليوم امام الاتفاقات التي تريدها انقرة بكل وسيلة. هذا عائد على شرف واخلاق حلفائهم والعالم الاوربي . ونحن يكفينـــا شرفاً وفخاراً اننا اصبحنا قربان الثقة بالحلفاء ، وضحية الاعتماد على شرف عهدهم ووعودهم . وانـّا نجهل نتيجة واقعة قنوط جهود العرب وموقفهم بعد تلك الثقة والاعتماد » .

وذهب الدكتور الأصيل الى لوزان ، وسلم كرزن البرقيـة ، وردد على مسامعه شكوى الحسين من عدم انصافه وعـــدم الوفاء بالعهود التي قطعت له ولقومه ، فأصغى اليه وناقشه في بعض التفـــاصيل ، ثم ارجأ الاجتماع الى ما بعد العودة الى لندن .

واجتمعا بعد ذلك . ولما كان الانكليز ملوا شكوى الحسين وانينه وملوا تبكيته لهم ، وتشهيره بهم ، فقد رأوا ان يتخلصوا منه بمشروع جديد أعدوه وهيأوه ، وهو اكثر تسامحاً من ذاك الذي حمله لورانس ، وينم عن ميل الى الاتفاق معه وارضائه .

وحمل الدكتور الأصيل المشروع الى مكة ، فبلغ القـاهرة يوم ١٥ ابريل سنة ١٩٢٤ ، ثم واصل السفر ببارجة بريطانية خاصة الى جدة ، فوصل اليها في اواخر شهر ابريل ، فرحب به الحسين وتسلم منه المشروع وارتاح اليه مبدئياً يؤيد ذلك ما نشره عنه في جريدته « القبلة » التي صدرت في ذلك الاسبوع ، فقد أوردت في عددها رقم ٦٨٨ خبر وصول

الدكتور الاصيل الى مكة بهذا العنوان « عيد على عيد » وقالت وهي تصف حفلات الفطر السعيد ما نصه : « وبعد ان حمد جلالة الملك الله وأثنى عليه قال ان هذا العيد المبارك ، لا شك في انه تضاعف يمنه ، حيث صادف قبول المراجع الايجابية (يريد حكومة انكلترا) لجميع مطالب الامة العربية ، فلا ريب انه اجتمع فيه عيدان : عيد الفطر السعيد ، وعيد الاعتراف باستقلال العرب ووحدتهم ، ويعلن ذلك للامة العربية حاضرها وباديها » .

وألقى بعد ذلك رئيس الديوان العالي الهاشمي البيان الرسمي الآتي :

« بسم الله الرحمن الرحيم

« نصرح في هذا العيد المبارك بأن المعاهدة العربية البريطانية المؤسسة على مقرراتنا الاساسية ، والتي يعترف لنا فيها صاحب الجلالة البريطانية باستقلال العرب بجزيرتهم وسائر بلادهم ، وتتعهد لنا حشمته الملوكية بالمساعدة الفعلية لتأسيس الوحدة العربية الشاملة لكل هذه البلاد بما فيها العراق وفلسطين وشرقي الاردن وسائر البلاد العربية في جزيرة العرب ما خلا عدن . ولهذا نأمر ان يعد هذا اليوم المبارك عيد الامة العربية. والله ولي التوفيق » .

وألقى الدكتور الأصيل كلمة في الاحتفال فقال بعد ان اثنى على الحسين « ان المشروع ينطوي على اعتراف بريطانيا باستقلال العرب في جزيرتهم وسائر بلادهم » .

خلاصة وافية للمشروع

ومع ان الحكومة الهاشمية كتمت المشروع ولم تعلنه فان حكومة فلسطين اصدرت يوم ٥ يونيو سنة ١٩٢٤ بلاغاً رسمياً انطوى على خلاصة وافية له وهي :

المادة الاولى – تنص على وجود سلم بين الحكومتين البريطانية والحجازيه وعلى منع استعمال بلاد الحكومة الواحدة قاعدة لأعمال عدوان موجهة ضد الحكومة الاخرى .

المادة الثانية – يتعهد جلالة ملك بريطانيا بأن يعترف باستقلال العرب في العراق وشرقي الاردن والدولة العربية في شبه جزيرة العرب ، ما خلا عدن ، وان يعضد هذا الاستقلال . واما في ما يتعلق بفلسطين فقد تعهد صاحب الجلالة البريطانية بأن لا يجري شيء في هذه البلاد مما يمكن أن يجحف بحقوق العرب المدنيــة او الدينية ، وأما اذا أبدت هــذه الحكومات او كلهـا ، رغبة في الاشتراك في الجمارك او خلاف ذلك ، بقصد ايجاد حلف فيما بعد ، فان صاحب الجلالة البريطانية يسعى لترويج رغبتهم اذا طلب اليه ذلك المتعــاقدون ذوو الشأن . ويعترف صاحب الجلالة الهاشمية ، بالمركز الخاص الذي لجلالته في العراق وشرقي الاردن وفلسطين ، ويتعهد بأن يبذل غاية جهده في التعاون مع الجلالة البريطانية على القيام بتعهداته في المسائل التي تقع ضمن نفوذ جلالته الهاشمية بشأن هذه البلاد .

المادة الثالثة – يتعهــد ملك الحجاز بالمحافظــة على العلاقات الودية التي وجدت قبل الحرب بين جلالته وبين حاكم عسير وحاكم نجد .

المادة الرابعة – تتعهد الجلالة الهاشمية ، بأن تسعى في تسوية المنازعات بشأن الحدود بين بلاده وحاكمي عسير ونجد ، بمخابرات ودية . ويتعهد ملك بريطانيــا بأن يسعى في المساعدة بتسوية منازعات كهــذه عندما يرغب ذلك .

المادة الخامسة – يتعهد ملك بريطانيا بأن يصد بجميع الوسائل السلمية والممكنة اي اعتداء يقع على بــلاد المملكة الهاشمية ضمن الحدود التي تقرر نهائياً .

المادة السادسة – تنص على تعيين وكيل من قبل الجلالة الهاشمية في لندن ، وعلى تعيين وكيل من قبل جلالته في جدة او اي مدينة ساحلية اخرى . ويجوز للجلالة الهاشمية ان تعين ايضاً قناصل من قبلها في انكلترا والهند ، وكذلك يحق لبريطانية ان تعين قناصل في جدة وغيرها من المدن الساحلية كما يرى موافقاً ، ويتمتع هؤلاء الوكلاء والقناصل بالامتيازات السياسية والقنصلية العادية .

المادة السابعة – يعترف ملك الحجاز بالترتيبات الصحية والكورنتينات الموضوعة موقتاً من قبل الحكومة البريطانية في قمران ، قياماً بنصوص الاتفاق الصحي الدولي المعقود في سنة ١٩١٢ ، وتتعهد بأن تعترف بالتدابير التي قد تتخذ في جدة او في غيرها من المرافيء الهاشمية ، وفقاً لأنظمة يصدرها ملك الحجاز .

المادة الثامنة – تتعهد بريطانيا بألا تتدخل في التدابير التي يتخذها الحجاز للاعتناء بالحجاج . ويتعهد ملك الحجاز بأن يعضد المساعي التي يبذلها الرعايا البريطانيون المسلمون لمساعدة الحجاج في الحجاز .

المادة التاسعة – تنص على تعيين مبلغ محدود يدفعه كل حاج ، وعلى نشر المبلغ الوارد سنوياً .

المادة العاشرة – تنص على الاعتراف بالصفة الهاشمية التي لرعايا الحكومة الهاشمية في بريطانيا ، وكذلك يعترف ملك الحجاز بهذه الصفة للرعايا الانكليز في بلاده .

المادة الحادية عشرة – تنص على تسليم اموال الرعايا البريطانيين ممن يموتون في بلاد جلالته الهاشمية ، الى المعتمدين البريطانيين في تلك البلاد ، ويتصرف بأموال كهذه وفقاً للقانون الساري في ظروف كهذه .

المادة الثانية عشرة – تنص على حضور قنصل بريطاني ، في المحاكم الهاشمية عندما تنظر هذه المحاكم في قضية يكون فيها احد الرعايا

البريطانيين مدعياً او مدعى عليه ، وعلى تأجيل الحكم اذا رغب المعتمد البريطاني في اجراء المخابرات طبقاً للعدالة . ولا تسري نصوص هذه المادة على حالة الرعايا البريطانيين او الاشخاص الذين يتمتعون بحماية جلالته البريطانية القاطنين في البلاد الهاشمية .

المادة الثالثة عشرة – تنص على تسليم الحكومة الهاشمية الرعايا البريطانيين الذين يلقى عليهم القبض من قبل السلطات الهاشمية ، الى القناصل البريطانيين ، بشرط ان يعطى هؤلاء ضماناً باحضارهم عند الاقتضاء . ولا تسري نصوص هذه المادة على الرعايا المقيمين بصورة دائمة في بلاد الحكومة الهاشمية خارج جدة وغيرها من المرافىء التي قد تعين بريطانيا قناصل فيها .

المادة الرابعة عشرة – تنص على رؤية دعاوى البريطانيين التي لا تمس فيها مصالح رعايا الحكومة الهاشمية ، من قبل قناصل بريطانيا .

المادة الخامسة عشرة – تنص على تنازل بريطانيا عن جميع الامتيازات والاستثناءات خلاف المنصوص عليه في هذه المعاهدة التي كان يتمتع بها رعايا بريطانيا ، بمقتضى الامتيازات بين بريطانيا وتركيا .

المادة السادسة عشرة – تنص على اعلام الحكومة الهاشمية المعتمد البريطاني عندما ترغب في ابعاد احد الرعايا البريطانيين .

المادة السابعة عشرة – تعالج الشروط التي بموجبها تعترف بريطانيا بعلم جلالته الهاشمية .

المادة الثامنة عشرة – تصرح بأنه لا يجوز لأحد الفريقين الساميين المتعاقدين ان يعقد معاهدة او اتفاقاً مع فريق ثالث ضد مصالح الفريق السامي المتعاقد الآخر .

المادة التاسعة عشرة – تنص على انه لا شيء في هذه المعاهدة ، يبطل اي تعهد قد تعهد او يتعهد به في المستقبل ، احد الفريقين المتعاقدين

السامين ، بمقتضى ميثاق جامعة الامم .

المادة العشرون – تنص على تصديق المعاهدة ، وانها نافذة المفعول لمدة سبع سنوات ، اعتباراً من اليوم الذي توضع فيه موضع العمل » .

تحفظات الحسين

ووقع الحسين المشروع بعدما أدخل عليه بعض تحفظات ، فحمله مندوبه الى لندن ، لاتمام المباحثات مع وزارة الخارجية ، تمهيداً للتوقيع عليه .

المشروع بين عرب فلسطين ويهودها

وأثار المشروع ثائرة يهود فلسطين الذين رأوا فيه تهديداً لمشروعاتهم وخططهم ، فنهضوا لمقاومته وإحباطه ، ووضع كل عقبة في طريق اتمامه .

وأنكر عرب فلسطين المشروع ايضاً ، لأنه لم يأت محققاً لما كانوا يطالبون به من الغاء وعد بلفور وانشاء حكم عربي مستقل في بلادهم . فناشد موسى كاظم باشا الحسيني ، زعيم عرب فلسطين ، الملك الحسين ، بموجب كتاب أرسله اليه ، ان يرفض المشروع لأنه يناقض العهود المقطوعة للعرب ولحقوق الشعب الفلسطيني ، وألح بالغاء وعد بلفور ، وانشاء حكومة قومية في فلسطين « وكان ذلك خلاصة قرار أصدره المؤتمر العربي الفلسطيني السادس الذي عقد في يافا يوم ٧ يونيو سنة ١٩٢٤ » .

ومما قرره هذا المؤتمر ايضاً ارسال وفد الى لندن ليشترك في المباحثات التي قد تدور بين مندوب الحسين وحكومة بريطانيا ، لبلوغ الاتفاق النهائي . وغادر هذا الوفد فلسطين بالفعل الى لندن يوم ٢٥ منه ، وكان برئاسة موسى كاظم باشا الحسيني نفسه .

وتناقلت الالسن في فلسطين يومئذ ، انه كان لليهود يد في دفع عرب فلسطين للوقوف هذا الموقف من المشروع ومقاومته واستنكاره ، وقيل انهم بذلوا الكثير من الاموال لبعض ضعفاء العرب .

بيان جديد للحسين

واغتنم الحسين فرصة حلول موسم الحج لسنة ١٣٤٢ ، فألقى على كبار الحجاج البيان الآتي :

« يهمني من جميع الاقطار العربية ما يهمني من امر بيت الله الحرام، وقد عرضت عليّ الحكومة البريطانية معاهدة وجدت في بعض موادها ما لا يتفق والعهود المقطوعة لي ، فعدلتها تعديلًا هاماً نص فيه على استقلال فلسطين استقلالاً تاماً مطلقاً يخول الفلسطينيين ادارة بلادهم بانفسهم واختيارهم طريقة الحكم التي يريدونها ، وبذلك جعلت وعد بلفور في حكم انه لم يصدر وقضي عليه . وفوق ذلك فقد طلبت في التعديل انه بعد توقيع المعاهدة يؤمر المندوب السامي لفلسطين ان يصرح بحضور مندوب من قبلي وامام ممثلي عرب فلسطين باستقلال الاقطار الفلسطينية استقلالاً تاماً ، ودخولها صراحة في الوحدة العربية ، طبقاً للعهود البريطانية المقطوعة لي . واؤكد لكم انه اذا لم تقبل الحكومة البريطانية التعديلات التي طلبتها ، فلا يمكن ان اوقع المعاهدة بل ارفضها رفضاً باتاً وكونوا على ثقة بأنه لا يمكن ان يذهب شبر من اراضي فلسطين وانا واولادي احياء على وجه الارض ، فاننا نحافظ على اصغر قرية في فلسطين محافظتنا على بيت الله الحرام ، ونريق في سبيل ذلك آخر نقطة من دمائنا . وعلى كل حال فانني بعد انتهاء امر المعاهدة سأحضر بنفسي الى اطراف تلك البلاد . فاذا ورد جواب لندن على مطالبي بالايجاب فاني استشيركم فيما يجب عمله ، وأسير معكم على ما تتفقون

عليه . وكونوا على ثقة بأني انظر الى اهل فلسطين نظري الى اولادي ، ولا افرق في ذلك بين مسلم ومسيحي ويهودي وطني ومن يرجع عن الصهيونيـــة في اطماعها البلفورية . وأشهد الله على ذلك وهو حسبي ونعم الوكيل » .

مندوب الحسين الى عرب فلسطين

ولم يكتف الحسين بهذا التصريح ، فأوفد الشيخ عباس المالكي ، من علماء مكة ، الى القدس ، فبلغها يوم ٢٥ اغسطس سنة ١٩٢٤ ، وألقى البيان الآتي في دار اللجنة العربية :

سادتي اهل فلسطين الكرام

ابلغكم سلام سيدي الملك الذي يهمه من امركم ما يهمه من امر البلد الحرام ، وقد بعثني لأشرح لكم بيانه وأبين لكم ما تتساءلون عنه من امر المعاهدة الحجازية التي تدور المفاوضات لعقدها بين حكومته وحكومة صاحب الجلالة البريطانية ، بعد ان ذكرت الصحف شيئاً عنهـــا أخاف حكومة فلسطين .

سادتي

لقد عرضت بريطانيا المعاهدة على مولاي الملك ، وفي بعض موادها ما لم ينشرح له صدره ، فعدلها تعديلاً مهماً نص فيه على استقلال فلسطين استقلالاً تاماً يخول الفلسطينيين حق ادارة انفسهم واختيار طريقة الحكم ، فترك هـــذا التدبير وعد بلفور كأن لم يكن اذ قضي عليه بالموت . وفضلا عن ذلك فقد اقترح ان يؤذن للمندوب السامي لفلسطين بعـــد عقد المعاهدة ، وبحضور مندوب من قبله ، بأن يصرح باستقلال البلاد الفلسطينية استقلالاً تاماً مطلقاً ، ودخولها صريحاً في الوحدة العربيـة ،

طبقاً للعهود البريطانية المقطوعة لجلالته . ويؤكد لكم بأنه اذا لم تقبل بريطانيا ان تكون المعاهدة مطابقة للتعديل الذي اقترحه ، فلا يمكن ان يوقع عليها ، بل يرفضها رفضاً باتاً ، ويؤكد لكم انه لن يذهب شبر من اراضي فلسطين وهو واولاده احياء على وجه الارض ، وهم يحافظون على اصغر قرية في فلسطين محافظتهم على بيت الله الحرام ، ويريقون في سبيل ذلك آخر نقطة من دمائهم .

« ويريد جلالة الملك ان يحضر بنفسه الى اطراف هذه البلاد ، بعد انتهاء المفاوضات في المعاهدة ، فيعقد معكم مؤتمراً ، فاذا كانت المفاوضات انتهت بقبول مطالبه وعقدت المعاهدة ، «يستشيركم في طريقة ما تختارونه من نظام الحكم ، واذا كانت قد انتهت على غير اتفاق فيستشيركم ايضاً فيما يجب عمله ويسير معكم فيما تتفقون عليه » .

وبرّ الحسين بوعده ، فغادر مكة يوم ١٧ دسمبر سنة ١٩٢٣ ، الى جدة ومنها الى العقبة فعمان ، للاجتماع الى قادة فلسطين ورجالاتها ، والتحدث اليهم في المشروع ، وإن كانت المباحثات لم تبلغ النتيجة المرومة .

وزاره في عمان وفد من عرب فلسطين برئاسة موسى كاظم باشا الحسيني ، وحمل اليه قرار المؤتمر السادس ، فقال انه لا يعاهد عهداً ولا يبرم قراراً بشأن فلسطين ومصيرها ، قبل اخذ رأيهم ، وانه سينزل على ارادتهم ، ويتبع قراراتهم اذا أملتها الحكمة . ثم اقترح عليهم ان يضعوا ميثاقاً وطنياً ليعمل على تنفيذه .

شكوى جديدة

وقبل ان يغادر مكة وفي يوم ٢٣ نوفمبر سنة ١٩٢٣ ، أصدر بياناً

الى الشعب البريطاني طبع باللغة الانكليزية في مصر ، وأرسل الى رئيس الوزارة البريطانية والوزراء والنواب والصحف وغيرهم ، وهو مطول ولا يخرج في معناه عما اعتاد ان يردده في السنوات الاخيرة من الشكوى والانين ، وقد ختمه بقوله :

« وارجو ان تشرع الأمة البريطانية في انصاف العرب حلفائها الاوفياء . وخير لها ان يكون لها حليف متحد ، قوي ، مستقل ، من ان يكون هذا الحليف ممزقاً مقطع الاوصال ، ذليلا ، كما هي حالة العرب الآن . ولا يعلم الا الله الى اين يسوقهم قنوطهم بعدما طفح الكيل » .

مفاوضات لندن الجديدة

بلغ الدكتور ناجي الاصيل لندن في شهر يرايو سنة ١٩٢٣ ، يحمل تحفظات الملك ، وقد صارت معروفة لدى القراء ، من البيانات التي اصدرها ، فتقدم بها الى وزارة الخارجية وأخذ يعمل لاقناعها بقبولها .

واستقالت وزارة المحافظين « وزارة بونارلو » ، قبل ان تصل هذه المباحثات الى غايتها ، وجاء الى دست الحكم وزارة للعمال برئاسة رمسي مكدونلد تقلد وزارة خارجيتها المستر هندرسون .

واستبشر يهود فلسطين بقيام وزارة للعمال ، لأن هوى العمال معهم ، فشددوا في الحملة على المشروع بقصد القضاء عليه ، وجاراهم عرب فلسطين فاندفعوا ايضاً في مقاومته لانه لا يحقق مطالبهم .

وأعلن في لندن يوم ١٠ دسمبر سنة ١٩٢٣ انتهاء المفاوضات الدائرة بين وزارة الخارجية ومندوب الحسين ، وان الحكومة البريطانية خيرت العرب بين امرين :

١ ــ فاما ان تدخل فلسطين في المعاهدة وينص فيها على قبول

وعد بلفور بعد تفسيره تفسيراً صريحاً لا ينطوي على انشاء دولة يهودية في فلسطين التي تكون موطناً عاماً لليهود يلجأون اليه متى شاءوا ، وذلك طبقاً لاحكام الكتاب الابيض الذي اصدرته الحكومة البريطانية في هذا الشأن [1] .

٢ – وإما اخراج فلسطين نهائياً من المعاهدة ويسكت عنها ، وانشاء الاتحاد العربي من العراق وشرقي الاردن والحجاز .

ثم قال البيان : « ان الامر اصبح الآن بين يدي الحسين ، فاذا قبل احد المشروعين ، وهو كل ما تستطيع الحكومة البريطانية ان تمنحه ، انتهى الخلاف ووقعت المعاهدة » .

آخر محاولة لانقاذ الموقف

ولجأ الحسين الى طريقة ديبلوماسية اعتقد انه يستطيع بواسطتها انقاذ

---

١ – صدر هـذا الكتاب في شهر يوليو سنة ١٩٢٢ بشكل تصريح للمستر تشرشل وزير المستعمرات البريطانيـة ، وقد فسر بموجبه معنى وعد بلفور ومعنى الوطن القومي . ونص على تمسك بريطانيا بالوعد وعزمها على تنفيذه ، وهذا ما جاء في مقدمته :

« نظر وزير المستعمرات من جديد في الحالة السياسية الحاضرة في فلسطين بروية صادقة للوصول الى حل المسائل المختلفة التي نشأ عنهـا ريب وقلق بين بعض طوائف من السكان . وقد وضع هذا التصريح بعد استشارة المندوب السامي لفلسطين ، وفيه خلاصة الاجزاء المهمة من المخابرات التي دارت بين وزير المستعمرات ووفد الجمعيـة الاسلامية – المسيحية في فلسطين الذي مضى على وجوده في انكلترا بعض الوقت : وأورد النتائج التي تم الوصول اليها » .

(الكتاب مطول وهو مثبت بنصه في الجزء الثالث من كتابنا : الثورة العربيـة الكبرى ص ٦٣) .

الموقف ، فأبرق من عمان (شهر يناير سنة ١٩٢٤) الى المستر مكدونلد رئيس الوزارة البريطانيـة ، مقترحاً افتتاح مفاوضات جديـدة وارسال مندوب بريطـاني للحجاز ، او قبول مندوب حجازي في لندن . فرد عليه ببرقية قال فيها : « ان معتمد بريطانيا في جدة هو الواسطـة المثلى للمخاطبات بين الحكومتين ، وانه ليس في استطاعة الحكومة البريطانية ان تعامل مندوباً آخر يرسله الحجاز معـاملة المندوبين السياسيين قبـل التوقيع على المعاهدة » .

تحفظات جديدة على المشروع

ووصل الدكتور ناجي الأصيل في اوائل شهر يوليو سنة ١٩٢٤ الى مكة يحمل النص النهائي للمشروع كما وضعه الانكليز ، فوضع عليه الملك تحفظات جديدة تقضي بانشاء حكومة دستورية في فلسطين لكفالة حقوق اهلها ، وقال انه مستعد لقبول آراء بريطانيا في امور اخرى اذا قبلت تحفظاته .

وحمل الاصيل المشروع الى لندن فبلغها في ١٤ سبتمبر سنة ١٩٢٤ ، وقبل ان يصل اليها وردت الاخبار عن هجوم قام به الاخوان النجديون على حدود الحجاز واستيلائهم على الطائف ثم دخولهم مكة ، وتنازل الحسين وسفره الى العقبة .

بريطانيا تقطع المفاوضات

واستغلت الحكومة البريطانية الفرصة ، وكانت من أسنح الفرص في نظرها ، فأصدرت يوم ١٥ اكتوبر سنة ١٩٢٤ البلاغ الآتي :

« انه بالنظر لتنـازل الحسين عن العرش فليس في وسع الحكومـة

البريطانية ان تواصل المفاوضات بشأن مشروع المعاهدة مع الحجاز كما وضعه الحسين » .

وهكذا قضي على المشروع وأنزل في اللحد ، وتخلص الانكليز منه ، كما تخلصوا من العهود الاخرى . مع ان ما فعلوه لم يكن غير خيانة جديدة للعرب تضاف الى خياناتهم الكثيرة . فالعهود لم تقطع للحسين شخصياً بل قطعت له بالاضافة الى العرب كافة . وهذا الاعتبار ، وهو جوهري ، يجعلها ثابتة باقية ويجعلهم ملزمين بها .

الحسين والخلافة الاسلامية

في يوم ١٦ نوفمبر سنة ١٩٢٢ أصدر المجلس الوطني الكبير لحكومة انقرة ، قراراً فصل فيه بين الخلافة والسلطنة ، فجرد السلطان من رئاسة الدولة وأضافها الى رئيس مجلس الامة الوطني . اما الخلافـة فأودعها ولي عهد السلطنة العثمانية يوسف عز الدين ، بعدما نادى به خليفة للمسلمين ، وجعل مقره في الاستانة مجرداً من كل نفوذ .

واهتز العالم الاسلامي لهذا القرار الخطير ، يصدره ترك انقرة .وانقسم المسلمون بين مؤيد ومنتقد ، وكانت حجة انقرة في الالغاء ان الترك لم يستفيدوا شيئاً من الخلافة وانها كانت عبئاً ثقيلاً عليهم ، وسبيلاً لإغراء الدول الاجنبية بهم .

ورأى الملك عبدالله بن الحسين (امير الاردن) في قرار انقرة منفذاً ينفذ منه ، لخطب الخلافة لوالده الحسين ، وكان راغباً فيها ، حريصاً على بلوغها ، باعتبارها حقاً من حقوقه ، وقد لوّح الانكليز له بها عند ابتداء اتصالهم .

وكان عبدالله يعتمد في خطب الخلافة لوالده على هذين الركنين :

١ — تجريد الخليفة العثماني الجديد يوسف عزالدين من كل سلطة مما

ينكره الاسلام الذي يوجب ان يكون الخليفة رئيساً للدولة ومتمتعاً بكل سلطاته .

٢ — التقارب الجديد بين والده والانكليز ، فقد كانت هنالك مساع تبذل لتصفية العهود القديمة ، بمعاهدة جديدة تعقد بينه وبينهم .

وبلغ الحسين عمان يوم ١٨ يناير سنة ١٩٢٣ قادماً من الحجاز ، في زيارة خاصة لنجله بقصد ترويح النفس ، فاستقبل بالحفاوة ، وبعدما استراح قليلاً ، ذهب الى « الشونة » مشتى ولده ، فجاءت الوفود من سورية ولبنان وفلسطين وبلاد الاردن للسلام عليه ، كما جاء بعض المصريين.

وفي « الشونة » هذه ، وفي ١١ مارس سنة ١٩٢٣ (٥ شعبان سنة ١٣٤٢) بويع الحسين بالخلافة ، وكان نجله عبدالله اول مبايع له باسم شعب الاردن ، كما بايعه الحاج امين الحسيني ، رئيس المجلس الاسلامي الاعلى ، باسم فلسطين ، وقضاة المحاكم الشرعية في فلسطين ، وانضم اليهم بعض علماء سورية ولبنان ، وخطبوا باسمه على المنابر ، هنا وهنالك . ولم يلقَ ما جرى اي تأييد في جهات اخرى من العالم الاسلامي ، وخصوصاً في مصر والهند ، فرأى بعض المسلمين انها حركة جديدة يرمي الانكليز من ورائها الى السيطرة على هذا المنصب الاسلامي المقدس .

وخطب الحسين بعد البيعة ، فقال بعد ان حمد الله وأثنى عليه : اما بعد فاني أسأله الرأفة والرحمة بعباده والتوفيق ، وان يجعلنا هادين مهتدين ، غير ضالين ولا مضلين ، ولما كانت الامامة والخلافة العظمى نظام عقد الامة ، وقوام الملة ، وكان امر صيرورتها وكيفيتها وما جرى فيها مدوناً ومنقولاً عمن تلقينا عنهم ديننا القويم ، وكان كل ما جرى من بعد عهدهم السعيد في كيفية حقوقها وصلاحياتها وسائر معاملاتها الى يومنا هذا ، موضحاً في تاريخ العالم الاسلامي وسيره المنيرة ، فإقدام حكومة انقرة على الغاء ذلك المقام الكريم ، كيفما كان شكله ، جعل اولي الرأي

والحل والعقد من علماء الدين المبين ، في الحرمين الشريفين والمسجد الاقصى وما جاورهما من البلدان والامصار ، يفاجئوننا ويلزموننا ببيعتهم بالامامة الكبرى والخلافة العظمى ، حرصاً على اقامة شعائر الدين ، وصيـانة الشرع المبين ، ابسطه لعدم جواز بقاء المسلمين اكثر من ثلاثـة ايام بلا إمام ، كما يفهم صراحة من توصية الفاروق الاكرم ، رضي الله عنه ، لأهل شورى البيعة بعده كيفما كانت صيغة تلك الامامة واشكالهـا الى الآن .

« وعليه ، ولما كانت المملكة الهاشمية والقطعة المباركة الحجازية ، مهد الاسلام ، ومحل ظهوره ، ومطلع نوره ، وكانت مصونة بعنايته تعالى من كل شائبة في حالتيها السابقة والحاضرة ، ولا سيما العمل فيها بأحكام كتاب الله وسنة رسول الله ، بجميع خصوصياته وعمومياته ، وانطباق حكم البيعة المشروعة من المبايع والمبايع له ، انطباقاً لا يتصور حصوله في اي مملكة اخرى في الوقت الحاضر ، وكان حقاً علينا اجابـة ذلك الطلب الديني المشروع بعد الاتكال على الله سبحانه وتعالى واستمداد روحانيـة نبيه (ص) ، لذلك قبلنـا البيعة متوكلين عليه عز وجل ومستمدين منه الغوث والعون والتوفيق لما يحبه ويرضاه » .

وتكلم بعد ذلك عن عدم إثارته مسألة الخلافة في السابق ، وإبان النهضة ، فقال : انه تجنب بحثها حذر توسيع شقة الخلاف ، ولئلا يتخذه اعداء الاسلام وسيلة للتعريض بمكانته . ثم قال ولما كانت العـائلة العثمانية ممن سبقت لهم خدمات لا تنكر ، ومفاخر لا تستحقر ، للاسلام والمسلمين ، ولما كان الحكم الاخير عليهم مما تتفتت له الاكباد ، وتنفطر منه المهج ، رأينا من واجب اخوة الاسلام ان نهيىء لهـا ما يساعدها ، بما يقوم بأودها ويدفع عنها الغائلة في امر معاشها . فمن أحب الاشتراك في هذه المثوبة العظمى ، فعليه ان يشعر رئاسة الوزراء بمكة بما يريده .

وعاد الحسين الى الحجاز ، بعد ان اخذ البيعة وقبلها ، الى مكة .

فدعا ذوي المكانـــة الى اجتماع تقرر فيه تأسيس مجلس اطلق عليه اسم « مجلس شورى الخلافة » على ان يتألف من ٢٩ عضواً موزعين كما يأتي:

٩ من اشراف الحجاز و٤ من مكة و ٢ من السودان ومغربي واحد ومدني واحد واثنان من الطائف وسوري واحد ومثله من الداغستان واثنان من بخارى وثلاثة من الهند وتركي واحد وافغاني واحد وثلاثـة من اندونيسيا .

وبينما كانت المعدات تعد لانشاء هذا المجلس ، فاجأ السعوديون حدود الحجاز الشرقية ، فاقتحموها واستولوا على الطائف . فاعتزل الحسين الحكم وغادر الحجاز الى العقبة ، مما ستراه مفصلا في الفصول الآتية .

مؤتمر الكويت

لم يرتح ابن سعود الى قيام الدولتين الهاشميتين الجديدتين بجواره : دولة العراق على حدوده الشمالية برئاسة الملك فيصل ، ودولة الاردن على حدوده الشرقية برئاسة الملك عبدالله ، بالاضافة الى الدولة الهاشمية وتجاوره من الغرب . اي انه احيط بثلاث دول هاشمية ، يرى في رؤسائها منافسين خطيرين ، لا يركن اليهم ولا يثق بهم .

ولئن سبق للانكليز فأبلغوه بواسطة مندوبهم السامي في العراق (برسي كوكس) ، وكانت بينهما صداقة ومودة ، قبل مجيء الملك فيصل ، باتفاقهم معه وقرب وصوله الى بغداد ، وكانوا يتوقعون كما قالوا ان يقع ذلك موقع الارتياح من نفسه ، الا ان الامر كان بالعكس .

ورد ابن سعود على ما اعتبره تحدياً بريطانياً ، رداً عملياً صامتاً ، فأطلق العنان للاخوان ، فشنوا سلسلة غارات على حدود العراق وحدود الاردن ، في اوقات متقاربة بين سنة ١٩٢١ — ١٩٢٣ ، ففهم الانكليز ما تنطوي عليه هذه الغارات من مقاصد ، فعكفوا على درسها من جهة « الشكل » لا من جهة الاساس ، فما كان باستطاعتهم نقض ما أبرموه ، والغاء ما عقدوه وأتموه ، ولا ان يتنكروا للدولتين الجديدتين وهما من صنع ايديهم ، ومما شادوا وبنوا .

وأرسل اليه السر برسي كوكس (المنـــدوب السامي البريطاني في العراق) يوم ١٦ مارس سنة ١٩٢٢ ، كتـــاباً رسمياً يحتج فيه على غارات الاخوان على حدود العراق ، ويطلب وقفها . فدارت مباحثات انتهت بالاتفاق بينهما على عقد مؤتمر في المحمرة ، يشترك فيه مندوبون عن نجد وآخرون عن العراق لتحديد الحدود بين البلدين ، على ان يشهده مندوب بريطاني .

وعقد هذا المؤتمر يوم ٥ مايو سنة ١٩٢٢ ، وانجلى عن اتفاق وقعه المندوبون الذين شهدوه ، ثم عقد اجتماع آخر في العقير يوم ٢ دسمبر ، حضره الامام عبد العزيز والسر برسي كوكس ، ومع انه انتهى بتوقيع اتفاق اضيف اليه وسمي باسمه ، الا ان ذلك لم يحل المشكلة لانها اعمق جذوراً ، وأبعد غوراً ، ولم يبعث الاطمئنان الى النفوس .

ورأى الانكليز ، وهم منظمو هذه المؤتمرات ، وهم الذين يضعون مخططاتها ، ويتولون اخراجها ، ان يوسعوا نطاق الدائرة ، وان يدعوا الى مؤتمر أوسع نطاقاً تشترك فيه الحكومات الاربع ذات الشأن ، وهي نجد والحجاز والاردن والعراق ، فيتدارس مندوبوهـا ، ما هنالك من مشاكل وخلافات على صعيد يسوده الاخاء والوئام ، فلا ينتهون الا وقد رفرف طائر السلام وعادت مياه الوفاق الى مجاريها ، وسادت السكينة شبه الجزيرة .

ومما رسمه الانكليز ايضاً : ان يعقد المؤتمر في مدينة الكويت لانها محايدة ، وان يرأسه الكولونيل نوكس ، كبير المندوبين الانكليز في الخليج ، باعتباره محايداً ايضاً .

واشترط ابن سعود لحضور المؤتمر ، بعدما أبلغوه امره ، ان تدور المفاوضات فيه مع كل حكومة هاشمية على حدة . فقال الانكليز : لك هذا ، وانت على حق .

وعقد المؤتمر ثلاث دورات ، بدأت الاولى يوم ١٧ دسمبر سنة ١٩٢٣ وحضره مندوبون عن السعودية والعراق والاردن ، وتخلف مندوب الحجاز بدون عذر .

وتقدم مندوب شرقي الاردن ، وقد وصل متأخراً واشترك في الجلسة السادسة ، الى المؤتمر بمطالب ، آية في الغرابة ، والبعد عن كل اعتدال ، فقد طلب :

١ – تنفيذ مقررات النهضة التي عقدت بين الشريف حسين والحكومة البريطانية ، وتقضي بأن تكون حدود حكومة نجد كما كانت سنة ١٩١٦ ، واخلاء الجوف وسكاكه ووادي السرحان مع جميع الاراضي الحجازية التي تشغلها نجد مثل تربة والخرما والحائط والحويط وخيبر وبيشه ووادي شهران.

٢ – تكون الحدود الفاصلة بين الحجاز ونجد هي الصحراء القاحلة .

٣ – لا يمكن عقد صلح على غير هذا الاساس .

٤ – دفع دية القتلى الذين قتلهم الاخوان حين غارتهم على شرقي الاردن سنة ١٩٢٢ .

ورد الوفد السعودي طالباً من وفد الاردن ان يحصر كلامه باسم حكومته وألا يتعرض لشؤون غيرها ، ويحدد نقاط الخلاف بين نجد والاردن لمعالجتها .

وطال الاخذ والرد بين المندوبين ، ولكن بدون جدوى ، واخيراً وقف رئيس المؤتمر يوم ٢ يناير سنة ١٩٢٤ فألقى بياناً قال فيه انه يرى انه لا يحق لأهل العراق والاردن الكلام باسم الحجاز . والحكومة البريطانية لا تقبل مطلقاً البحث عن امارة ابن الرشيد ، ولما قبل سلطان نجد الاشتراك في المؤتمر اشترط شرطاً اساسياً قبلته الحكومة البريطانية وهو انه لا يحق لأي حكومة من الحكومات ان تبحث في امور لا تتصل بها .

وانفض المؤتمر على ان يعود كل مندوب الى حكومته لتلقي تعليماتها وعلى ان يعودوا الى الاجتماع في موعد يحدد بعد ذلك .

وواصل الانكليز في خلال ذلك السعي لدى الحسين لاقناعه بالاشتراك في مؤتمر الكويت لما في ذلك من الفوائد . وفي سبيل هذه الغاية ذهب السر هربرت صموئيل ، المندوب السامي البريطاني يومئذ في فلسطين ، ومعه السر جلبرت كليتن ، السكرتير العام لهذه الحكومة : الى الشونة ، وكان الحسين ينزلها ضيفاً على نجله عبدالله (انظر ص ٣٥٨) عاملين على اقناعه بايفاد مندوب يمثله في المؤتمر ، رغبة في حسم الخلاف والتقريب بين الجيران ، ومع انه اعتذر في اول الامر بحجة ان الحكومات المشتركة فيه خاضعة للنفوذ البريطاني ، بعكس الحجاز المستقل ، الا انه وافق في النهاية على انتداب اصغر انجاله وهو الامير زيد ليمثله ، مشترطاً ان يرسل ابن سعود احد انجاله ، ليحصل التوازن ، وعلى ان تكون مهمة نجله قاصرة على بسط وجهة نظر الحكومة الهاشمية وتقوم على عدم الاعتراف بما طرأ على الجزيرة من تبدل جغرافي بعد الحرب ، وإعادة الحالة الى ما كانت عليه قبل سنة ١٩١٤ .

ورد ابن سعود على هذه الشروط فقال انه يثق بمندوبيه في المؤتمر ولا ينوي تبديلهم ، وانه استشار علماء نجد بشأن انتداب احد انجاله للاشتراك في المؤتمر ، فلم يوافقوا .

واجتمع المؤتمر في دورته الثانية يوم ١٨ يناير سنة ١٩٢٤ ، ولم يحضره احد لا من العراق ولا من الحجاز ، وجاء مندوبان عن شرقي الاردن فمنعهما رئيسه من البحث في اية مسألة من المسائل الخاصة بالحجاز ، فانحصر البحث في حدود شرقي الاردن ونجد ، فطلبوا ان تكون حدودهما النفود وان تتخلى نجد عن الجوف ووادي السرحان بأكمله .

وأعلن رئيس المؤتمر انه أجل اعمال المؤتمر الى يوم ٥ مارس سنة

١٩٢٤ ، وقال انه أبرق الى حكومـــة لندن بشأن بعض القضايا وانه ينتظر جوابها .

وعاد المؤتمر فاجتمع في دورته الثـالثة في موعده المقرر ، ولم يحضر مندوبو العراق ولا الحجاز ، واقتصر الامر على مندوبي نجد والاردن .

وانفض المؤتمر نهائياً يوم ٩ ابريل سنة ١٩٢٤ بدون ان يحقق غاية واحدة من الغايات التي اجتمع لأجلها . ولا ريب في ان لتصلب الحسين وتشدده وعدم اصغـائه الى النصائح التي بذلت له ، الاثر القوي في ذلك الفشل .

السعوديون يقتحمون حدود الحجاز

كان من جملة التدابير التي لجأ اليها الحسين ، بعد معركة تربا (انظر ص ٣١١) انه أصدر امراً بمنع النجديين من دخول الحجاز لاداء فريضة الحج عام ١٣٣٨ (١٩٢١) . فسعت الحكومة البريطانية لديه لاقناعه بالغاء هذا التدبير ، فأجاز في السنة التالية سنة ١٣٤٠ لفريق منهم الحج فحجوا تحت امارة مساعد بن سويلم ، وقد أرفقه السلطان عبد العزيز بكتاب رقيق الى الامير علي ، هذا بعض ما جاء فيه :

« لما رأيت تفضل صاحب الجلالة الوالد المعظم ببذل عنايته بالرخصة والسماح لاهالي نجد لأداء فريضة الحج ، حيث برهن على حسن عواطفه ، واظهار فضيلته ، أحببنا ان نرخص لبعض رعايانا بزيارة بيت الله الحرام بصحبة خادمكم مساعد بن سويلم ، فاتخذت هذه خير وسيلة وأعظم فرصة لأهدي حضرتكم جزيل السلام ، ولأعبر لسموكم عن عظيم اشتياقي ، وخالص نواياي لتجديد عهود الصداقة ، وتمكين العلاقات الحسنة والمناسبات الودية المشتركة التي تربط القطرين الاسلاميين ، غير ملتفتين الى ما قدر الله رغم ارادتنا ان يقع فيما مضى بين الطرفين من الحوادث التي أوجبت تأسفي و كدري » .

وعاد الحسين في السنة التالية فمنع النجديين من اداء الفريضة ، خشية ان يخلوا بالأمن ، كما ادعى ، على انه عاد فقبل عدداً منهم . فكتب السلطان يوم ٢ دسمبر سنة ١٩٢٢ الى المندوب السامي في العراق (السر بريس كوكس) يبلغه بأنه ليس في امكانه تحديد عدد الحجاج النجديين لعام ١٩٢٣ كما فعل في السابق . فأرسلت الحكومة البريطانية تعليمات الى ممثلها في جدة ليتصل بالحسين ويقنعه بالتساهل ، ويقترح عليه الدخول في مفاوضات مع ابن سعود لعقـــد معاهدة على مثال تلك التي عقدت بينه وبين الملك فيصل في العراق . فكان جواب الحسين انه لا يوافق على حج النجديين في تلك السنة ١٩٢٣ ، الا اذا أخلوا الجوف وسائر الجهات التي احتلوها من الحجاز وهي رينه وبيشه وتربا ونواحي خيبر وما شاكلها. وقال عن عقد معاهدة مع ابن سعود كتلك التي عقدت بينه وبين العراق ، ان هذا البحث مفروغ منه لأننا كلفناه المرة بعد الاخرى بأننا مستعدون لذلك على هذين الشرطين :

١ — إما ان يعود الى ما كان عليه في زمن الآباء والاجداد من جهتنا وجهته .

٢ — واما ان يأتي ويتسلم البلاد جميعها .

وننشر بهــذه المناسبة كتابين ارسلهما المعتمد البريطاني في جدة الى الحسين بشأن السماح للحجاج النجديين بدخول الحجاز ، لما فيهما من المعلومات، ولأنهما من الوثائق التاريخية ذات الشأن في الموضوع :

— ١ —

نمرة ٢٣٤ — ١١ /٧ /١١

جدة في ٢ مارس سنة ١٩٢٣

حضرة صاحب الجلالة الهاشمية الملك حسين المعظم أيده الله

« بعد اداء فائق التحية وعظيم التوقير ، وبعد فقد وصلني يا مولاي

خطاب جلالتكم رقم ٧٤ وتاريخ ٨ رجب سنة ١٣٤١ الموافق ٢٤ فبراير سنة ١٩٢٣ ، ووردتني ايضاً مكاتبة وكيل الخارجية وضمنها البرقية المرسلة من امير جهينة الى اعتابكم . وها انا ابلغ فحوى الاثنين لجهات الاختصاص . واني اشكر جلالتكم على تفضلكم بافادتي عما وقع وعما تخشون ان يقع في المستقبل . واما عن اولئك الذين كانوا يعتدون على « بلي » فالحمد لله رجعوا خاسئين مقهورين . ولكن اعذرني يا مولاي ان قلت ان ذلك ليس بعداء بريطاني كما يصفه وكيل الخارجية . فان بريطانيا لا تربح من اي اعتداء في شبه الجزيرة ، ولكن بالعكس فانه من صالح بريطانيا ان يسود السلام في جميع بقاعها ، وان تلتحم تلك المراكز التي فرقها النزاع في الوقت الحاضر بفضل العلاقات الودية . وانه لا يخفى على جلالتكم مقدار شدة الاهتمام ورغبة حكومة جلالة الملك بان ترى ان مسائل الخلاف فيما بين جلالتكم ونجد قد انحلت ، وان صحيفة جديدة في التاريخ العربي قد ابتدأت ، فهل يعني ذلك شيئاً سخيفاً او غير مرغوب فيه او هل من المستحيل انجازه ؟

ان هنالك بعض اشخاص ينسون ان مصالح شبه الجزيرة وسلامها وخيرها اهم بكثير جداً من هذا الشرط او ذلك الشرط ، وان اولئك الذين يفكرون بذلك لا يسعهم الا التأسف عندما يرون ان الآمال من المفاوضات والمباحثات التي قد تنشأ منها فائدة عميمة نهائية ، تتحطم دائماً عند عقبة الشروط . وتذكرون جلالتكم ما قيل وكتب حينما سمح لحجاج نجد بزيارة مكة في العام الماضي . وانا لا اريد ان ادعي انه ليس لجلالتكم الحرية في التمسك بالرأي بأن تطبيق الشروط التي تضعونها اهم بكثير من اي شيء ينتج من المفاوضات بين الحجاز ونجد ، بل ان لجلالتكم الحرية التامة في التمسك بهذا الرأي او استنكار التسليم بغيره . الا ان جلالتكم تضعون الثقة في نتيجة البحث مع ابن سعود في مصالح شبه الجزيرة وحدود البلاد وخلافه ، ولا تضعون الثقة في عدالة الحكم

الذي ان احتاج الامر اليه فان حكومة جلالة الملك يكون لها الفخر والسرور بايفاده ، وان تكون هذه المباحثات او هذا التحكيم العرفي بسيطة ومباشرة ، وليست متوقفة على الاصرار باجراء هذا الشيء او ذاك او لا ، وان يتقدم سلام وخير يعم الجزيرة كلها ؟ فهل في ذلك عدم لياقة بالكرامة او جبن ؟ او هل هو عرضة لتأويلات الاعداء ؟ أما عن الاولى والثانية فلا ، وأما عن الثالثة فنعم . ولكن جميع الاعمال العظيمة عرضة للتأويلات . واني اعتقد ان عملاً كهذا من جلالتكم يكون له اعظم شأن ، وأرفع مكانة ومن اعظم الاعمال العربية في الحرب .

وتفضلوا يا مولاي بقبول خالص احترامي وعظيم تقديري .

نائب معتمد وقنصل بريطانيا
وكيل قنصل : جرافتي سميث

- ٢ -

وأرسل يوم ٧ يونيو سنة ١٩٢٣ الكتاب الآتي ، وتوجه بكلمة مستعجل ورقمه ٥٤٢ م - ٢/٢ الى وكيل الخارجية بمكة . وهو :

حضرة صاحب الاقبال وكيل الخارجية بمكة المحترم

سلاماً واحتراماً وبعد ، فاتشرف بان اخبركم بوصول تلغرافكم رقم ٦٧ ، الذي وصلني ليلة امس في موضوع حجاج نجد .

ان هذه المسألة المهمة كانت موضوع خطاب الميجر مارشال رقم ٨٤ تاريخ ٢٨ يناير سنة ١٩٢٣ ، والذي قلتم عنه انه خارج عن الموضوع .

ان حكومة جلالة الملك تضغط على ابن سعود لتخفيض عدد الحجاج النجديين وتأجيلهم الى سنة اخرى . فكم سنة حتى الآن منع اهل نجد من اداء هذه الفريضة المقدسة ، بناء على الطلب الشخصي من صاحب الجلالة

الهاشمية . ولست في حاجة لان ابسط المساعي والمباحث التي عملتها حكومة جلالة الملك للتشجيع على تسوية حبية في المسائل المعلقة بين حكومتكم وحكومة ابن سعود .

ولم تحترم هذه المجهودات ، وكانت ترمي الى توطيد الصلات السلمية في شبه الجزيرة ، بسبب اصرار حكومتكم على القول بأن المسائل التي هي تحت البحث يجب الحكم فيها مقدماً قبل ان تصير موضع تحكيم . وليس من المبالغة في شيء القول بان الارجاء المستمر لأي سعي للدخول في مفاوضات حبية مباشرة مع ابن سعود ، من أشد اسباب تثبيط الهمم في السياسة العربية الحاضرة . واني اذكر هذا في الموضوع لأنه هو الذي يضيف الى هذا البحث ـ بحث قضية الحج النجدي ـ احساسات واعتبارات خارجة عن صفته الدينية . وارجوكم ان تعتقدوا بأني لا اكتب هذه السطور بروح المعارضة او كنصيحة ووعظ ، فالموضوع اسمى من ان يكون موضوع شجار ، او ان يجعل في كلمات خفيفة الوزن . وهل هناك برهان على نموذج الكمال من الاتحاد العربي اعظم من ان يفوق ويسمو على كل ادراك ، فيتم على منوال يشمل شبه الجزيرة ولا يقتصر على بعض الاقاليم ؟ وهل هناك حدود صارمة جداً تحول بين المسلم وتأدية فريضة الحج المقدسة ؟ » .

الدعوة لمؤتمر الكويت

وابتكر الانكليز ، بعد ان استنفدوا جميع الوسائل والاساليب لاقناع الحسين بالتفاهم مع جاره ، ومد يده اليه ـ ابتكروا مشروع الدعوة لمؤتمر الكويت ، بعدما أحاطوه بضمانات اعتقدوا انها تسهل نجاحه ، فاشترطوا اجتماعه في بلد محايد وجاءوا اليه برئيس محايد ، وسعوا لدى الحكومات الاربع ذات الشأن للاشتراك فيه ، ظناً منهم بان اشتراكها

يخفف من حدة التوتر ويفتح باباً او منفذاً او يقيم رأس جسر للتفاهم .

ومع ان مندوبي ابن سعود حضروا جلساته ودوراته ولم يتأخروا دقيقة واحدة ، فقد امتنع الحسين عن حضوره ، وما كان يجهل الغاية من الدعوة اليه . فأرسل اليه الانكليز مندوبهم السامي لفلسطين ، وهو من كبار رجال دولتهم ، وأرسلوا معه السر جلبرت كليتن ، السكرتير العام لحكومة فلسطين ، وهو ايضاً من رجالهم المعدودين ، يرجونه باسم بريطانيا حضوره والاشتراط فيه ، فاشترك شروطاً لا يمكن قبولها ولا الموافقة عليها (انظر ص ٣٦٤) ، فكان ذلك بمثابة رفض للفكرة كلها وللمشروع كله ، بما تألم منه البريطانيون بطبيعة الحال ، حتى يمكن القول بان الفوز الذي أدركه ابن سعود في معركة مؤتمر الكويت ، وكانت من المعارك السياسية الكبرى التي شهدتها جزيرة العرب ، هو الذي فتح له الطريق الى الحجاز وسهل له دخوله ، وضمه الى ممالكه وأراضيه .

لقد أثبت السلطان عبد العزيز بن سعود في مؤتمر الكويت ذكاءه ، وأثبت سعة احاطته بالامور . فقد كان مدافعاً لا مهاجماً ، كما انه لم يطلب طلباً شاذاً ولم يقترح اقتراحاً غير مقبول ولا معقول ، فاقتصرت مهمة مندوبيه ، من الاول الى الآخر ، على الرد على مقترحات شاذة تقدم بها مندوبو الاردن . وقد كان مندوبو العراق اكثر اعتدالاً ، وأقل تهوراً واندفاعاً . ولعل ما دار في جلسات المؤتمر ، مقروناً بحركات وتصرفات خصومه ومنافسيه في خارجه ، زاده اقتناعاً بانه لا أمل هنالك ولا رجاء مع هذه الحكومات وخصوصاً مع الحجاز والاردن ، فهي تأتمر عليه وتنادي بتجريده من فتوحاته وباخراجه من المقاطعات والاراضي التي استولى عليها وصارت من جملة ممتلكاته ، لا لشيء الا لكي تؤذي عنه ، وتكف عن مناصبته العداء ، فقر قراره على غزو الحجاز وحده ، لأنه الأضعف ولأنه لا توجد فيه قوى لبريطانيا ، يضاف الى

ذلك ان صلات الحسين بالقوم في تلك الفترة كانت مصابة بنكسة ، ولا يجوز ان تقاس بما كانت عليه في سنة ١٩١٩ ، يوم كان التفاهم على أتمه .

ووفد رؤساء الاخوان في عيد الاضحى سنة ١٢٤٢ على الرياض لتهنئة السلطان بالعيد ، فقال لهم ان اعداء نجد يتآمرون عليها ، ويكيدون لها . وتخلص من ذلك فأثار موضوع غزو الحجــاز ، فلقي ارتياحاً وتأييداً ، على انهم ، ستراً للموقف ، أعدوا ثلاث حملات الاولى لمهاجمة شرقي الاردن ، وتتجه الثانية الى حدود العراق ، اما الثالثة فتقصــد حدود الحجاز وما كانوا يتوقعون لهـا ، ان تبلغ اكثر من الطائف في المرحلة الاولى .

ورافق الاخفاق الحملتين الاولى والثانية بـسبب اشتراك قوات الانكليز وطائراتهم في مقاومتهما ، بعكس الحملة الثالثة ، فاستولت على مخفر «كلاخ» وهو المخفر الامامي للحكومة الهاشمية من جهـة نجد ، وما كانت حاميته تزيد عن ١٥٠ جندياً ، بدون صعوبة ، وواصلت تقدمهـــا حتى مخفر الاخيضر ويقع شرقي الطائف ولا تزيد حاميته عن ٢٥٠ جندياً ، انضموا اليها ، ففتح امامهـا الطريق الى الطائف ، وكانت ذات سور قديم من العهد التركي ، فتقدمت نحوها ، وما كان عدد حاميتهـا يزيد عن ٥٠٠ جندي بقيادة اللواء محمد صبري باشا وزير الحربية ، وقد عهد اليه الحسين بالدفاع عن المنطقة كلها ، يساعده الشريف شرف بن راجح قائمقام الطائف وحاكمها . وكان فيها يومئذ الشريف عبدالله باشا بن محمد وزير داخلية الحسين وصهره ، جاءها مع عائلته للاصطياف مع عـــدد غير قليل من أسر الحجاز الغنية الموسرة .

وأبلغ هذا عمه ، خبر الغـارة ، فأمره بان يتخذ التدابير للدفاع ، فرد عليه بان مخازن الجيش تكاد تكون خاوية ، وطلب ارسال نجدات بسرعة . فأصدر الحسين امراً الى ولي عهده (الامير علي) وكان في

مكة جاءها حاجاً من المدينـــة مع ٨٠٠ جندي نظامي ، بالذهاب الى الطائف ، فغادر مكة يوم ٢ صفر ومعه ٤ مدافع جبلية و٨ رشاشات .

وأمره الحسين حين خروجه بان يسلك طريق (ربع التينة) وهو أقرب من الطريق السلطاني (طريق كرى) ولكنه اوعر وأصعب ، مما أدى الى تأخر وصول النجدة ، لان المدافع والرشاشات والذخائر كانت محملة على ظهور الإبل ويصعب عليهـا السير في الجبال . وهكذا وصلت الحملة يوم ٥ منه الى وادي المحرم ، وبيعد نحو ١٥ كلم عن الطائف ، متأخرة يوماً عن موعدها ، وتاركة مدفعين وكمية كبيرة من العتـاد في الطريق . ودخل الامير الطائف مساء ذلك اليوم (٥ منه) مع قوته البدوية ، اما القوى النظامية فتأخرت في الطريق وكانت بقيـادة اللواء جميل الراوي .

وأراد الامير النزول في قصر (شبرا) أكبر قصور الطائف ، وقـد اعتاد ان ينزله في زياراته ، فنصحه عبدالله باشا بعدم النزول ، لأن رصاص الاخوان يصل اليه .

وعرف الاخوان المحاصرون (بالكسر) بوصول الامير ودخوله الطائف ، ويقال ان جانباً من البدو ، الذين جاءوا معه ، انضم اليهم ، فقرروا الاسراع بالعمل ، قبل وصول القوات النظامية ، فشددوا بالهجوم عليها ، فاستلمت لهم يوم ٥ صفر .

وجمع الحسين كل ما كان لديه من جنود وقوى وسيرهم الى الطائف ، فالتقوا بالاخوان في « الهدى » ، وانتهت المعركة بانهزام قوات الحكومة ، ففتح طريق مكة امام الغزاة .

ولما وصلت الامور الى هذا الحد ، أرسل الحسين فدعا كبار الاشراف وسألهم رأيهم فيما يجب عمله ، فأشاروا عليه بالجلاء الى جدة والاستعـداد للمقاومة .

يطالبونه بالتنازل

وعقد اهل المشورة والرأي من ابناء الحجاز اجتماعاً في جدة قرروا فيه ، بعد درس الموقف درساً دقيقاً ، دعوة الحسين الى التنـازل عن العرش لولي عهده الامير علي ، وكانوا يعتقدون انهم بعملهم هذا يحققون اغراضاً متعددة ، هذا اهمها :

١ – التخلص من حكم الحسين وجبروته .

٢ – ارضاء ابن سعود باخراج عدوه الحسين ، والسعي لديه للكف عن دخول الحجاز والعودة الى بلاده ، بعد ان ذهب عدوه .

٣ – ارضاء الانكليز الذين أزعجهم بشكاويه وانينه .

٤ – ارضاء فريق كبير من متعصبة العالم الاسلامي الذين نقموا عليه خروجه على الدولة العثمانية وانضمامه الى الانكليز .

٥ – اخذه الخلافة الاسلامية بدون حق .

وكان اهم ما يهم الملك علي وانصاره بعـــد ان تمت بيعته في جدة ، وغادر والده الحجاز الى العقبة ، التفاهم مع الانكليز واقنـــاعهم بتنفيذ مشروع المعاهدة . يؤيد ذلك ، انه أبرق بعد اتمام بيعته ، الى الدكتور ناجي الاصيل في لندن معلناً قبوله مشروع المعاهدة الذي وضعه الانكليز ، واستعداده لتوقيعه مع تنازله عن التحفظات التي وضعها والده عليه . وكان رد الحكومة البريطانية انها لا تعترف بالحكم الجديـــد ، واعلانهـا اعتناق سياسة الحياد التام في الحرب الدائرة في الحجاز . وجاء في بعض المصادر ان رئيس الحكومة الحجازية (الشيخ عبدالله بن سراج) أرسل برقية من مكة الى لندن يطلب وساطتها . وعرف الحسين بالخبر ، وكان ما يزال في مكة ، فأمر باسترداد البرقية ولم يوافق على ارسالها .

ودخل الاخوان مكة بعد معركة الهدى ، محرمين ومنكسي البنادق ،

ولم يقع اي قتال ولا عدوان . وأقاموا الشريف خالد بن لؤي اميراً عليها .

ووصل السلطان عبد العزيز بعد قليل اليها ، فأقام حكماً شرعياً ، ثم زحف على رأس جيشه الى جدة فضرب الحصار حولها . وكان الملك علي يرابط وراء اسوارها .

وتوسطت بعض الشخصيات الرسمية والسياسية الكبرى والهيئات الاسلامية ، للاصلاح والتوفيق ، بذلها المجلس الاسلامي الاعلى لفلسطين ، والسيد طالب النقيب والامام يحيى والملك فؤاد . وكان السلطان يرد على هذه الوساطات بأنه لا مطمع له في الحجاز ولا رغبة في امتلاكه ، وانه سيترك امره لأهله يقررون مصيره بعد جلاء الحسين وابنائه .

ورأى الملك علي ، بعد ان افرغ الجهد في الدفاع عن جدة ، انه لا امل له ولا رجاء ، فوسط القنصل البريطاني للسعي عند السلطان للاتفاق على شروط التسليم . فدارت مفاوضات انتهت يوم ١٧ دسمبر سنة ١٩٢٥ فوقع الفريقان اتفاق التسليم ، وغادر الملك علي جدة الى العراق لاحقاً باخيه الملك فيصل .

وكان ذلك نهاية الدولة الهاشمية .

الانكليز ينفون الحسين الى قبرص ويعتقلونه حتى الموت

نزل الحسين العقبة في الاسبوع الاول من شهر اكتوبر سنة ١٩٢٤ ، قادماً من مكة ، بعد تنازله عن العرش ، فأحاط نفسه بطائفة من الانصار والاخوان ، وأنشأ اتصالاً مباشراً مع نجله عبدالله في عمان ، فكان يزوره بدون انقطاع ، وكان مما تم الاتفاق عليه بينهما ، حشد كل من يمكن حشده من الجنود والضباط المرتزقة وارسالهم الى جدة للاشتراك في الدفاع عنها ، مع تزويدها بكميات وافرة من الاسلحة ومعدات القتال ، مما كان سبباً في امتداد زمن الحصار ، مما أزعج السعوديين وكانوا حريصين على امتلاكها والفوز بها .

وضاق السلطان عبد العزيز بهذه الحالة ، واعتقد ان بقاء الحسين في العقبة متعاوناً مع نجله عبدالله وارسالها الجند والسلاح بطريق البحر الى جدة ، وكان مفتوحاً امامها ، يؤخر استسلامها . ولما كانت بلاد الاردن مشمولة بالحماية البريطانية ، ولما كانت انكلترا أعلنت الحياد من هذه الحرب ، فقد أرسل السلطان الى الانكليز يطلب منع امير الاردن من التدخل في النزاع الدائر ، وإخراج الحسين من العقبة وعدم اتخاذها

قاعدة لمقاومته ، وكانت ما تزال تعد من اجزاء الحجاز . وقيل يومئذ انه هدد بمهاجمة الاردن والعقبة في حالة اهمال طلبه .

ضم مقاطعة العقبة ومعان للاردن

ورأى الانكليز ، وهم سيد من يعرف كيف يستغل الاحداث ويغتنم الفرص ، ان الفرصة سانحة لاقتطاع منطقة معان والعقبة من الحجاز وضمها الى الاردن . ولميناء العقبة اهمية خاصة معروفة ومركز استراتيجي ممتاز . فأوفدوا الأمير عبدالله الى شقيقه الملك علي يطلب منه التنازل عنها للأردن ، فلم يتردد في الموافقة والقبول . وقد لا يبعد ان يكون همس في اذنه بأن هذا التنازل قد يفيده ويبعث الانكليز على مساعدته .

وهذا نص الاتفاق الذي عقد بينهما يوم ٢٥ ذي القعدة سنة ١٣٤٣ و٥ يونيو سنة ١٩٢٥ :

تقرر بين جلالة الملك علي وسمو الامير عبدالله ما يلي :

أ — التصريح بسلامة الشرق العربي .

ب — عدم ازعاج جلالة الخليفة الاعظم بالنظر لمقامه في العالمين العربي والاسلامي ، اي انه لا يجري التسلم والتسليم الا بعد تشريف جلالته لجدة .

ج — لا يجري التسليم إلا بعد صدور الأمر منه لموظفي ولاية معان.

د — عدم التعرض لمناقلات الحجاز الحربية مطلقاً .

ه — السماح للحكومة الحجازية بنقل جندها ومعداتها الى اي محل تريد قبل التسليم وبعده .

ولا بد لنا من القول ان الحسين تنازل حين زيارته لعمان في سنة ١٩٢٤ عن ادارة هذه المقاطعة لولده عبدالله مشترطاً ان يكون التنازل شخصياً وان يبقى حق الملكية للحجاز .

وطالب السعوديون ، بعد اتمام فتح الحجاز ، الانكليز باسترداد هذه المقاطعة لانها جزء منه ، وقالوا ان تنازل الملك علي غير شرعي ولا قانوني ، لأنه ما كان حين التنازل يملك شيئاً من السلطة . وأبى هؤلاء الاصغاء الى حججهم الشرعية والقانونية ، وقالوا ان ما دخل في حوزتهم لا يخرج بسهولة .

وكان امر هذه المقاطعة مما دار عليه البحث حين عقد معاهدة جدة سنة ١٩٢٧ بين الحكومة السعودية وبريطانيا ، فقد أصر مندوبو الاولى على المطالبة باعادة الحق الى اصحابه الشرعيين ، فأبى الانكليز على عادتهم . وبعد اخذ ورد طويلين تم الاتفاق على تبادل الكتابين الآتيين ، وقد ألحقا بالمعاهدة واعتبرا جزءاً منها .

الى صاحب الجلالة ملك الحجاز ونجد وملحقاتها

لي الشرف ان اذكر لجلالتكم انه في اثناء المفاوضات التي دارت بيننا والتي أدت ولله الحمد الى عقد معاهدة صداقة وحسن تفاهم بين صاحب الجلالة البريطانية وجلالتكم ، كنا بحثنا في مسألة الحدود بين الحجاز وشرقي الاردن وكنت شرحت لجلالتكم موقف صاحب الجلالة البريطانية من هذه المسألة ، كما هو مبين في مسودة الملحق [1] التي قدمتها لجلالتكم ، وأخبرت جلالتكم ان الحكومة البريطانية مصرة على التمسك بذلك الموقف . اما الحدود المشار اليها فتعتبر حكومة صاحب الجلالة البريطانية بها كما يأتي : « تبتدىء الحدود بين الحجاز وشرقي الاردن من نقطة

---

١ – لم يقبل هذا المشروع فرفع من المعاهدة واتفق على عدم العمل به .

تقاطع دائرة الطول ٣٨ شرقا بدائرة العرض ٢٩,٣٥ شمالاً حيث منتهى الحدود بين نجد وشرقي الاردن فتمتد على خط مستقيم الى نقطة على سكة حديد الحجـاز بعدها ميلان الى الجنوب من محطة المدورة ، ثم تمتد من تلك النقطة على خط مستقيم الى نقطـــة خليج العقبة بعدها ميلان الى الجنوب من مدينة العقبة » .

عن جدة في ١٩ مايو سنة ١٩٢٧

حلبرت كليتن

ورد عليه الامير فيصل بالكتاب الآتي :

جواباً على كتابكم المؤرخ في ١٨ ذي القعدة (١٩ مايو سنة ١٩٢٧) المختص بمسألة الحدود بين الحجاز وشرقي الاردن ، قـد اخذنا علماً بأن حكومة صاحب الجلالة البريطانية مصرة على موقفهـا ، ولما كنا نرى ان تسوية هذه المسألة بصورة نهائية امر متعذر في الظروف الحاضرة ، ونظراً لرغبتنا الصادقة في المحافظة على العلاقات الودية المؤسسة على صلات الصداقة المتينة ، رأينا ان نعرب لفخامتكم عن استعدادنا لابقاء الحالة الحاضرة على ما هي عليه في منطقة معان والعقبة ، مع الوعد بان لا نتدخـــل في ادارتها الى ان تحين الظروف المناسبة لتسوية هذه المسألة تسوية نهائية » .

وما تزال الحالة هنالك حتى الآن على ما كانت عليه .

الانكليز ينذرون الحسين بالرحيل

ورأى الانكليز ، بعدما اتموا اقتطـاع معان والعقبـة من الحجاز ، ان يتخلصوا نهائياً من الحسين ، ويتخلصوا من شكواه وانينه ، فأوعزوا الى نجله عبدالله ، في اواسط شهر مايو سنة ١٩٢٥ ، بأن يقنعه بمغادرة

العقبة الى اي مكان يختاره ، حسماً للنزاع ، وقالوا ان ذلك يساعد على استقرار الامن في المنطقة وينهي حالة الحرب . فقام بهذه المهمة الشاقة على مضض

ولم يكتف الانكليز بوساطة الأمير عبدالله ، فأرسلوا بارجتهم « فون فلاور » فبلغت العقبة يوم ٢٨ مايو سنة ١٩٢٥ ، ونزل قائدها فسلم الحسين كتاباً من الحكومة البريطانية تطلب فيه منه مغادرة العقبة في خلال ثلاثة اسابيع من وصول كتابها الى يده .

وهذا هو الكتاب ، وهو بتوقيع وكيل وزارة الخارجية البريطانية:

« الى جلالة الملك حسين

« بلغ حكومة جلالة ملك بريطانيا ان عظمة سلطان نجد ، هيأ قومه لمهاجمة العقبة ، وفهم من هذا ، ان الباعث هو جلالتكم وحكومة الحجاز التي جعلت مركز معان والعقبة بحالة عسكرية ضد ابن سعود . ولا يخفى ان حكومة بريطانيا مسؤولة عن الامن العام بفلسطين وشرقي الاردن مع معان التي تعد تحت انتدابها . فعندما اتيتم الى العقبة ، كلفت حكومة الملك علي والامير عبدالله بتعيين الحدود الفاصلة بين الحجاز وشرقي الاردن ، ومع ذلك رأت بريطانيا ان المثابرة على المذاكرة في مثل هذه الاوقات الحرجة غير ممكنة ، بالنظر لحالة الحجاز الراهنة ، وعليه أجلت بريطانيا المذاكرة في هذا الموضوع لفرصة اخرى .

« ان هنالك نقطة متخذة من قبل ملك بريطانيا لا يمكنه ان يتساهل فيها ، ان يبقي او يسمح بصورة ما بدوام الحالة الحاضرة ، ولذلك بدأت باظهار سلطة حكومة الشرق العربي في الاماكن التي هي مسؤولة عنها امام جامعة الامم ، وهي تضم معان والعقبة ، وتدعوكم ايضاً لمغادرة العقبة ، لكي لا تكونوا سبباً لحصول مشاكل جديدة بينها وبين سلطان نجد .

« ولهذه المناسبة تصر بالحاح بوجوب مغادرتكم العقبة ، معلنة انه لا يمكنها ان تسمح لكم بالبقاء اكثر من ثلاثة اسابيع » .

الحسين يرد بشدة ويحتج

وتحركت عاطفـــة الإباء والشمم في نفس الحسين ، وعاودته روحه القديمة ، روح العنف والجبروت ، فرد على هـذا الانذار بكتاب شديد اللهجة ارسله الى رئيس الوزارة البريطانية ، وهو :

« انني منذ ابتداء النهضة العربية حتى هذه الساعة وانا مخلص في ولائي لحكومة بريطانيا ثابت على مبدئي ، اعتماداً على شرفها ، وبناء على عهودها ومواثيقها الرسمية التي قطعتها على نفسها بمحافظتهـــا على حقوق العرب ، وتأمين الوحدة العربية والتصديق على استقلال العرب ، ومنحهـا الحرية للشعب العربي الذي اشترك مع حليفته ، جنباً الى جنب ، وسفك دماء زهرة الشبيبة من ابنائه ، وضحى بالنفس والنفيس في سبيـل الحصول على تلك الغاية الشريفة ، والوصول الى ضالته المنشودة . كما اني واقوامي العرب حريصون أشد الحرص على تنفيذ احكام تلك العهود والمواثيق التي كانت اساس النهضة العربية ، دون ان نخل بما يوجب مسؤوليتنا امام محكمة الضمير النزيه . وقد ضحيت بكل شيء ، وتنازلت عن العرش ، وغادرت وطني ، حباً بالسلام وحقناً للدماء ، وأتيت العقبة لأبرهن للعالم أجمع انه لا مطمح لي سوى اسعـاد قومي ، وتحرير بلادي ، بعـــد ان قمت بواجباتي ، ولم آلُ جهداً في المحافظة على حقوق العرب ، والسعي وراء الوحدة العربية ، والتمسك بنص المعـاهدة وانتظار تنفيذها . ولم اقطع الامل من الحكومة البريطانية بشأن انجاز وعدها ، والوفاء بعهدهـــا ، استناداً على شرف تقاليدها . وها اني اليوم مقيم في احدى قرى الحجاز ، معتزلاً العالم ، ومبتعداً عن كل ما من شأنه ان يوجب الشغب وسوء

التفاهم ، ولما كان هذا الاعتزال وهذا الابتعاد لم يخلصني من امثال تلك الشوائب ، فلا شك في اني اينما ذهبت لا يخلو الأمر من حدوث شيء لي اكما في التبليغات الاخيرة . وربما كان أشد هولاً من موقفي الحالي ، اذ لا اضمن منع هياج الشعب العربي وحدوث ما لا تحمد عقباه نحو الحليفة وغيرها . ولهذا فاني لا ارى مندوحة من بقائي في مكاني ، وان شاءت حكومة جلالة الملك فلتبعث بي الى عالم المريخ فاني مستعد لإنفاذ رأيها في هذه البعثة في اول دقيقة التبليغ ، او انها اذا شاءت ورأت عظمتها ان تبعث احدى وسائطها الحربية لتهلكني وعائلتي وخلاص الجميع من هذه الغوائل ، فلتفعل ، لاني آليت على نفسي بالا احجم عن مساعدة ابناء قومي ووطني .

« واني افتخر امامكم بكوني ما زلت ولا ازال اساعد الحكومة الحجازية بمالي الخاص الذي ادخرته لمستقبلي المجهول ، لان من لا خير فيه لوطنه ، لا يرجى منه الخير لحلفائه ، واصدقائه .

« ولي الشرف ايضاً بكوني ثبت على مبدئي ، وأخلصت في عملي ، وقمت بواجباتي ، فما عليّ من غيري ، اذا لم يفِ بوعده ، ولم يقم بانجاز عهوده ، ونفذ مطامعه بقوة مدرعاته ، ورؤوس حرابه ، فهناك يكون الحكم على عمله . وان القوى الموجودة في معان هي لأجل المحافظة على السكة الحجازية والمدافعة عن المدينة وملحقاتها تجاه كل طارىء او معتد . كما ان ابن سعود قد هاجم شرقي الاردن غير مرة ، وفي اواخر العام المنصرم دون ان يكون لحكومة الحجاز او حامية معان اي دخل فيها . فلماذا لم تعرفه حده لكي يقف عنده .

« وفضلاً عن ذلك ، فاني لم اعترف بالانتداب على البلاد العربية من امامه ، وما زلت احتج على الحكومة البريطانية التي جعلت فلسطين وطناً قومياً لليهود ، وشرقي الأردن تحت الانتداب مأوى للارمن . واني

لاعجب من تغاضي الحكومة البريطانية عما حل بالحجاز بل بمكة المكرمة من السحق والمحق في الاموال والانفس والدمار الذي لا يمكن تلافيه الا بعد عشرات من السنين ، ثم اهتمامها بمحافظتي معان والعقبة ، الامر الذي لا يبقي محل لإطالة البحث فيه لان ذلك كاف لأقل تأمل

« وعليه فانني اكرر جوابي النهائي بكوني لا اعترف بذلك الانتداب من اساسه ، ولا يمكنني مغادرة العقبة الا بعد ابلاغي لغوه ، وبعدئذ اذهب الى حيث تريد حكومة الملك ، بشرط ان يكون محل اقامتي في داخل البلاد العربية ، وان لا اكون مسؤولاً عما عساه قد يحدث من شغب ، او هيـاج شعب تطمح نفسه لرفع يد الاستعمار وتجديد النهضة ، فيما اذا مست الحاجة ، وإلا فاني لا ابرح العقبة مهما تكن النتيجة ، ولو أدى الامر لهلاكي ومحو عائلتي من الوجود . واني لا اقصد بهذا معاداة بريطانيا وسواها ، وانما هي في سبيل انقاذ وطني ، وبني قومي . وكل ما تفعله الحكومة البريطانية بي لما يزيدني شرفاً وفخراً بين شعبي واقوامي ، حيث يسجل التاريخ لكل منا عمله . وفي هذا بلاغ » .

« ثم اني استأذن في ان الفت نظركم الى ما بدا بين القبائل العربية من الدهشة والاستغراب ، في رؤية ابن سعود يجمع جيشاً عظيماً لمهاجمة الحجاز ، فهل بمقدرة ابن سعود ان يجيش مثل هذا الجيش من دون ان ينال من المساعدة ما يعينه على ذلك ؟ ان الحالة المشتتة التي كان عليهـا ابن سعود بعد تلك الهزيمة التي اصيب بها خلال الحرب العامة لم تزل حية في اذهان الأمة العربيـــة . فمن المفهوم ان ابن الرشيد هاجم ابن سعود خلال الحرب العالمية وهزمه ، في ذلك الهجوم الكبير على جراب . وتمت هذه الهزيمة في الكويت حيث فرّ ابن سعود تاركاً للعدو كل ما يملكه من سلاح ورجال . وفي ذلك الحين استنجـد بي ، أرسلت اليه ولدي عبدالله على رأس نجـدة كافية ، فوصلت اليه بعدما اصبحت الهزيمة امراً

مقضياً ، فحمته ومنعت من ان تتناوله هجمات ابن الرشيد . فمكث ولدي شهراً ومعه جنوده في قرية شقرا حيث تمكن من اكراه ابن الرشيد على التقهقر في حدود بلاده [1] .

وترجم هذا الكتاب الى اللغة الانكليزية وأرسل الى رئيس وزراء بريطانيا ، على ان يكون النص العربي هو المعتمد .

بارجة بريطانية اخرى

وقبل انقضاء الموعد المحدد بالانذار ، وصلت الى ميناء العقبة بارجة بريطانية اخرى اسمها « نيو دلهي » ، فرست الى جانب شقيقتها ، لتشديد الضغط على الحسين وافهامه بأنه لا سفر من السفر .

وجاء من عمان ايضاً الامير عبدالله أوفده الانكليز لاقناع والده بالسفر ، حرصاً على مصلحة البيت الهاشمي ، وعدم التورط باثارة نزاع بينه وبين بريطانيا قد لا تكون نتائجه في مصلحته ، وما زال به حتى لان ، ووافق على الرحيل مشترطاً ان يكون الى حيفا او يافا ، من اعمال فلسطين . ولكن الانكليز أصروا على نقله الى المكان الذي اختاروه له .

ولقد حدثني السيد نيازي رشدي ، من ابناء مكة وكان من حاشية الحسين في العقبة ، ان الاتفاق تم نهائياً بينهم وبين الانكليز ، بواسطة

---

[1] معركة جراب تلك دارت يوم ٢٤ يناير سنة ١٩١٥ اي قبل اعلان الثورة بسنة ونصف سنة ، وكان الحسين على اشد ما يكون من الجفاء مع الترك .

الأميرعبدالله ، على ان يسافر الى البصرة ومنها الى بغداد ، فيكون بجوار نجله فيصل .

ونزل الى البارجة « نيو دلهي » يوم الخميس ٢٧ يونيو سنة ١٩٢٥ (١٥ ذي القعدة ١٣٤٣) ، فأبحرت به الى السويس . وكان يترنم طول مدة السفر بهذا البيت :

مشيناها خطى كتبت علينا ومن كتبت عليه خطى مشاها

وبدلاً من ان تتجه به بعد وصولها الى السويس جنوبا في طريقها الى البصرة ، اتجهت شمالاً وواصلت السفر حتى ميناء ليماسول في قبرص ، بلغته بعد اربعة ايام ، فنزل فيه .

كتاب جديد الى رئيس وزراء بريطانيا

وما كاد يستقر به المقام في دار منفاه حتى ارسل يوم ٢٢ اغسطس سنة ١٩٢٥ كتاباً جديداً الى المستر بلدوين رئيس الوزارة البريطانية ، ردد فيه الاشاعة التي لاكتها الصحف ، وهي انه في قبرص أسير حرب، وشكا من المعاملة التي عومل بها . وهذا ما قاله بعد مقدمة :

« اني اسأله ان يهديكم سبل الرشاد ، ويجعل ما يتوق اليه العرب من السلم والارتقاء محققاً بتدخلكم الحكيم المشبع بالعطف ، والسلام » .

وأرسل اليه المستر بلدوين يوم ٢٧ اكتوبر سنة ١٩٢٥ الرد الآتي :

« لا بد لي من ان اشكر جلالتكم على كتابكم المؤرخ في ٢٢ اغسطس الماضي ، وقد كان هذا الكتاب موضع عناية دقيقة بالاشتراك مع رجال الحكومة المشتغلين بالشؤون العربية .

« واني آسف كل الاسف القلق الذي اصـــاب جلالتكم من جراء انبـاء ظهرت في الصحف المصرية فحواها انكـم في قبرص بصفة اسير حرب ، والحقيقة كما ذكرتها جلالتكم ، وهي ان هذه الانباء غير صحيحة ، ولم يخطر لحكومة جلالة الملك قط في بال ان جلالتكم تعاملون من اي وجه كان سوى معـــاملة فرد اختـار ، بناء على دعوتها ، ان يقيم في قبرص . وعندما دعتكم حكومة جلالة الملك لمغادرة العقبة لم تضع امامها سوى مصالحكم الخاصة ومصالح العنصر العربي ، التي ترى حكومة جلالة الملك ان قبول جلالتكم الاقامة في قبرص قد خدمها خير خدمة ، فهي ترى والحالة هـذه انه ليس من الضروري اجراء اي تحقيق في الاحوال التي تركتم فيها العقبة . ويعزز هذا الرأي انكم سلمتم في كتابكم ان معان والعقبة استخدمتا لحشد الجنود ضد سلطان نجد ونقلها ، فليس في وسع حكومة جلالة الملك سوى ان تعد هذا التسليم مبرراً لقولها بأن جلالتكم والحكومـة الحجـازية كانا يقومان في ذينك المكانين بأعمال ضد نجد .

« وقد نظرت حكومة جلالة الملك في طلب اجراء ما يمكن اجراؤه لانهاء حالة الحرب في الحجاز ، وطلب جلالة الملك علي طلباً كهـــذا ، وعندما تلقت حكومـة جلالة الملك هذا الطلب ، سألت عظمة السلطان هل يقبل وساطتها للسعي في تسوية الاختلافات بين الحجاز ونجد ، ولكن عظمته أجاب انه لا يستطيع قبول هـذا التوسط ، فاضطرت حكومة جلالة الملك مع الاسف الى الامتنـاع عن كل سعي آخر الى التوسط ، فاذا لم يكلفها الفريقان ، والحالة هذه ، ان تفعل ذلك فانهـا لا تستطيع ان تساعد في اعادة السلام .

« وترى حكومـة جلالة الملك ان فقرة اخرى في كتابكم لتعلق بالأحوال التي تنازلتم فيها عن العرش ، قد تحمل من لم يطلع عليها ولا

يكون غير واقف على حقيقة الحال ، على الظن ان حكومة جلالة الملك بذلت نفوذها لحملكم على التنازل ، ولا شك ان جلالتكم لم تشأ ايجاد مثل هذا الظن الذي لا يطابق الواقع ، ولكن بما ان كتابكم قد انتشر وربما قد نشأ عنه ما يثير الظنون ، فحكومة جلالته ترى من الواجب ان تذكر بصفة جازمة انها لم يكن لها اي تأثير في تنازل جلالتكم ولم يكن لها اي شان في هذا العمل لا بطريقة مباشرة ولا بطريقة غير مباشرة .

الحسين يشكو امره الى جامعة الامم

وأرسل الحسين الكتاب الآتي الى رئيس جامعة الامم في جنيف ، والى رؤساء الدول العظمى ، وهو :

قبرص في نوفمبر سنة ١٩٢٦

يا صاحب الرئاسة

اني انا الموقع بذيله ادناه حسين بن علي ، ملك الحجاز وعضو مؤسس في جامعة الامم وحليف بريطانيا في الحرب الكبرى ، أبين لجنابكم ما يلي :

١ — ان جامعة الامم لم تخلق ولم تقبل الدول المتحالفة والمحايدة بايجادها ، الا لأمر واحد ، وهو منع تعدي اية دولة مستقلة او مملكة مستقلة او امارة مستقلة على دولة او مملكة او امارة مستقلة مثلها ، وان هي لم تتمكن بالذات من هذا المنع أجبرت الدول العظمى الداخلة في عضويتها على التعاون عصبة واحدة لدفع الضرر ومنع المعتدي من التمادي في تعديه ، وهذا هو السبب الذي من اجله خلقت جامعة الامم وقانونها الاساسي . ومن الغريب المدهش انه لم يطبق هذا القانون الأساسي في

مسألتي مع الوهابيين الذين اجتاحوا بلادي وبلاد آبائي واجدادي حتى محمد بن عبدالله النبي العربي الهاشمي (ص) ، ولذلك فاني احتج اشد الاحتجاج :

١ – على هذا العمل من قبل قائد الوهابيين .

٢ – على الجمعية لعدم معاملتي بموجب قانونها الأساسي .

٣ – واطلب من الجمعية الموقرة اخراج الوهابيين من بلادي بقوة الدول اعضاء الجامعة التي اتشرف بأن اكون عضواً مؤسساً فيها ، واعادة ملك آبائي واجدادي اليّ . وأرى من العبث أن اعين لرئاستكم المواد القاضية لي من ميثاق الجامعة بهذا الحق الصريح .

٤ – تتذكر جامعة الأمم بأن قادة الوهابيين ، قبل اجتياح الحجاز ، كانوا قد دخلوا امارة الكويت ، مما حمل الدولة البريطانية على ارسال الجنود المقيمة في العراق مع طياراتها ودباباتها وسياراتها المسلحة الى الكويت وإرجاع الوهابيين بالفشل عن مقاصدهم .

٥ – لما فشل الوهابيون ولم يفلحوا في هجومهم على الكويت وغزوها ولما اقتحموا مملكة شرقي الاردن بجموع عصاباتهم هناك ، وقف في وجههم ولدي حاكم هذه المملكة وقاومهم بكل ما عنده من القوات الحربية والرجال الاشداء ، وانضمت اليه فرق من الجنود الانكليزية بطياراتها ودباباتها وسياراتها المسلحة ، فتغلب على هذه العصابات وردها . وقد رأى وشاهد بالعين كبار القوم وهم شهود عدول بان الوهابيين بعد فرارهم ، كانوا اذا وجدوا جريحاً ترجلوا عن خيولهم وأغمدوا خناجرهم في قلبه .

٦ – أما انا الموقع بذيله ملك الحجاز وعضو جامعة الامم وحليف دول الحلفاء العظماء والمنتصرين في الحرب الكبرى لم أعنَ بشأن هذه

العصابات بمثابة الخائف من تعديها على ملكي ، لأنني كنت ادري بأننا لسنا اليوم في العصور الوسطى ، ولأني كنت على اكثر من اليقين بأنها لا تتجاسر ان تهاجم بلاداً يقدسها ٣٠٠ مليون من المسلمين ويصلون الى قبلتها ويحجون الى كعبتها من كل حدب وصوب ، وتضمن استقلالها جامعة الأمم ، وتحمي وتحترم هـذا الاستقلال جميع دول الحلفاء . وما كنت لأظن بأن واحدة من هذه الدول العظمى توعز الى رجال هـذه العصابات ، بواسطـة بعض ساستها الاغبياء ، فيدخلون الأراضي المقدسة ويدمرون الأضرحة والمعابد والمشاعر الدينية .

اجل ، ما كنت لأتصور ان الحليفة الكبرى تأتي من وراء اكبر حليف لها في الشرق ، وأعظم مساعد لها في الحرب الكبرى ، وعلى الاخص عند فتحها القدس باعتراف قائد جيوشها الاكبر ، فتطعنه في ظهره دون ان يكون لها ضمير يوبخها ، او مودة او وفاء يمنعانها عن هـذا العمل الفظيع الظالم . اما الحليفة الكبرى فانها شعرت بفظاعة عملها هذا على الأخص عندما رأت اشمئزاز الرأي العام الإنكليزي منه ، او بالحري اشمئزاز الشعب البريطاني النبيل من سياستها المتخبطة المضطربة بل السقيمة الخرقاء ، ومن حرمان الإنكليز واقدس البـلاد الاسلامية من حليف شريف وملك عريق في الحسب والنسب ، وما لم يفكر قط في الاضرار بالآخرين .

اجل ، ان رجال الحكومة الإنكليزية الذين اقترفوا هذا الغلط الفاضح . وهذا الخطأ الفادح ، يقفون مطأطئي الرؤوس ، خافضي العيون أمام الرأي العام الانكليزي النبيل الذي سيحاسبهم اشد الحساب عنـد عودة افتتاح البرلمان الانكليزي ، والذي سيطلب منهم اعادة الامور الى ما كانت عليه قبل هذا الانقلاب الظالم ، بكل واسطة او شكل او نوع ، والا سخط عليهم وكان سخطه عظيماً . وما نحن ببعيد عن سخطه المؤلم

على رجال من اعاظم حكامه رفعهم الى قمم المجد والفخر ، ولما رأى سوء تدبيرهم وسوء نياتهم أنزلهم الى حضيض المذلة والمهانة بعد ان سحب كل ثقة منهم .

٧ — انني اطلب من جامعة الامم الموقرة اخلاء البلاد المقدسة والاقطار الحجازية من الوهابيين ، واستفتاء اهالي البلاد الذين يعتبر حجازهم الى اليوم كعضو مؤسس في جامعة الامم ، وكحليف للدول العظمى ، لكي يرى بأن ما فوق التسعين بالمئة من هؤلاء الاهالي يقترعون ضدهم .

انني اطلب اطلاق يدي في العمل لاعادة ملكي وملك آبائي واجدادي المغتصب ، ورفع حكم رجال الحكومة الانكليزية الجائر وضغطهم عليّ .

انني اطلب ابلاغ صوتي الشاكي من منفاي في جزيرة قبرص ، بواسطة جمعيتكم المحترمة ، الى رجال الدول العظمى ، وعلى الاخص الى كافة افراد الشعب الانكليزي النبيل ، لأفهمهم الحقيقة بكل صدق وصراحة بان سياسة حكومته غير الشريفة نحوي لا تثمر غير الضغائن والبغضاء بين المسلمين الاصحاء والانكليز . اقول المسلمين الاصحاء اي عامة المسلمين الذين يغارون على دينهم وعلى نبيهم وآله ، ولا عبرة بافراد لا يعدون الا القليل من المسلمين الذين هم جهلة اغبياء ، يضللهم المضللون وعمال السوء فلا يعرفون من دينهم شيئاً ، ولا يسيرون على النهج الذي أوصاهم به الكتاب العظيم ، وهم مسلمون بالاسم فقط ، ولو كانوا اصحاء الاسلام لاحترموا آل نبيهم (ص) وقد اوصاهم بهم خيراً ، ولوقفوا جميعاً وقفة واحدة كوقفة البطل المغوار والمسلم الصحيح المغفور له ساكن الجنان محمد علي باشا كبير العائلة العلوية الكريمة في مصر ، وباني اركان الدولة المصرية ، عندما بعث بأولاده ثم ذهب بالذات الى الحجاز لقتال الوهابيين واخراجهم من الاراضي المقدسة الحجازية .

انني اكتب هذا الاحتجاج الشديد لرئاسة جمعيتكم ، لكي تعلم الدول

كافة ويعلم الشعب الانكليزي خاصة ، بواسطتكم ، ان اعمـــال رجال حكومته في الحجاز غير العادلة وغير الحقة ، تحط من مقامه السامي في اعين عامـة المسلمين الاصحاء ، خصوصاً في الهند ، وفي جميع المستعمرات البريطانية والدولية ايضاً ، لان هؤلاء يريدون بكل قوام المحافظـة على شعائرهم الدينية في اراضيهم المقدسة ، ويحجون من كل فج سحيق الى هذه الاراضي من اجل هذه الشعائر والعبادات المحترمة منهم .

نعم ، فليعلم الشعب الإنكليزي النبيل هذه الحقائق ، وليتحرك من جوده ، وليقف موقف المنقذ العادل الشريف ، وليضع حداً بين الظالم والمظلوم ، فيرفع الظلامة التي سببتها حكومته عن المظلوم . وعندئذ فقط يجوز ان نقول ، بأن الشعب الانكليزي هو شعب نبيـل عادل ، يحب العدالة والحق ، وان الدول العظمى تحترم رعاياها المسلمين وتحترم شعائرهم الدينية .

« واني في الاخير اطلب من جمعيتكم المحترمة كعضو مؤسس فيهـا ان تتدخل الجمعية بكل قواها المستمدة من الدول المتحالفـة العظمى ، في مسألة الحجاز ووضعها في جدول اعمالها ، وبحثها بحثاً دقيقـاً وعادلاً ، ومساعدتي مساعدة فعلية لاستعادة ملـكي وملك آبائي واجدادي ، وارجاع الوهابيين الى بلادهم ، فتكسب بذلك حب عامة المسلمين الاصحاء العقيدة في العالم واعزازهم لها واحترامهم لاحكامهـــا ، وتكون مطمئنة الضمير ، بأنها فعلت الواجب الذي من أجله تأسست وخلقت عصبتها . وانها فاعلة ان شاء الله .

« مغتنماً هذه المناسبة يا جناب الرئيس لتقديم احتراماتي الفائقة لشخصكم ودمتم » .

وقد كان هـــذا الكتاب آخر ما كتبه ، وكان آخر سعي بذله في سبيل استرداد ملكه ، كما كان آخر أنة يرسلها بالشكوى من الانكليز.

ولسنا في حاجة للقول بان كتابه لم يلقَ اي اهتمام لدى جامعة الامم ولم يسجل في سجلاتها ، بل ألقي في سلة المهملات لانه ينطوي على مطالب ليس للجامعة شأن بها .

نقل الحسين الى عمان

وظل الحسين معتقلاً في قبرص ، يعاني آلام الأسر والبعاد حتى اواخر شهر مايو سنة ١٩٣١ ، فسمح الانكليز بإخراجه ، بعدما اشتدت عليه العلة واستعصى الداء ، فنقل الى عمان فاقد الوعي والشعور ، وفيها لقي وجه ربه يوم ٤ يونيو سنة ١٩٣١ ، اي بعد أيام قليلة من وصوله ، فذهبت روحه الى بارئها تشكو جور الإنكليز وظلمهم وخيانتهم . ودفن تحت قبة الصخرة بالقدس . رحمه الله رحمة واسعة .

فهرست

الموضوع	صفحة

أبناء السندباد

تأليف : آلان فاليارس

أثار العرب برحلاتهم العجيبة ومغامراتهم الفريدة إعجاب العالم ، وقد أصبح السندباد ، أحد بحارة الخليج العربي القدماء ، رمزاً لهذه الفئة المخاطرة التي لا تفتأ تجوب البحار وتصارع الأقدار ، وكم تفنن الكتّاب في مشارق الارض ومغاربها بعرض حياته حتى دخلت عالم الاسطورة .

على أن السندباد الكائن من لحم ودم ظل حقيقة واقعة متمثلة في بحارة الخليج العربي ، الذين ظلت سفنهم تتهادى على صفحة البحار وغوارب المحيطات ، منطلقين الى افريقيا او قاصدين الهند يحملون إليها غالي لآلئهم ويعودون منها بالكثير من بضائعها ومنتوجاتها .

وقد أبى الرحالة الشهير آلان فاليارس الاسترالي الأصل الانكليزي الجنسية ، إلا أن يقوم بمغامرة فريدة على سفينة شراعية كويتية دار فيها حول الجزيرة العربية والجانب الشرقي من افريقيا معايشاً أحفاد السندباد ستة أشهر كاملة ، مسجلاً بريشته الساحرة وحرفه النابض حياة البحارة العرب في هزلهم وجدهم وراحتهم ونصبهم ، ومعجز صبرهم ، ومجيد كفاحهم ، حتى لو بعث السندباد حياً لتمنى أن تكون حياته فصلاً من هذا الكتاب الطريف .

الثمن ٦٥٠ ق. ل.

شهيرات النساء في العالم الاسلامي

تأليف : قدرية حسين

السيرة أطرف الوان الأدب ، لأنها تجلو الاحداث من خلال الابطال، وتبرز التاريخ في اطار من القصة ، وتنهض بالمثل بطاقة من الواقع ، وتوشي الحقيقة بمسحة من الخيال .

وكم من سيرة فرد حركت شعباً ، وانطلقت بأمة ، وانعطفت بمجرى الاحداث ، فكانت مركز الثقل في تاريخ الامم ونهضات الشعوب .

وتاريخنا العربي زاهٍ بسيرة ابطاله مباهٍ بأعمال رجاله ، الذين كم كسفوا من نجوم وخسفوا من كواكب .

إلا ان التوفر على سيرة شهيرات نسائنا يكاد يكون يتيماً حتى انقطعت له الاديبة الكبيرة قدرية حسين .

وكان ميلاد هذا السفر واسطة العقد في سيرة البطولة ، عرضاً لخصال شهيرات نسائنا ، وخلال بطلاتنا ، وكل منهن في الادب والفن والحكمة والسياسة بيت القصيد بقول الشاعر :

ولو كان النساء كمن فقدنا   لفضلت النساء على الرجال
وما التأنيث لاسم الشمس عيب   ولا التذكير فخر الهلال

ان سفر « شهيرات النساء في العالم الاسلامي » كتاب كل أم وبنت ومربية ، وكل راغب لابنته وأخته السيرة الفضلى والقدوة المثلى ، في السير على نهج الصالحات الفاضلات .

الثمن : ٥٠٠ ق.ل.

اكتشاف جزيرة العرب

خمسة قرون من المغامرة والعلم

تأليف : جاكلين بيرين

نقله الى العربية : قدري قلعجي

(بالاشتراك مع مكتبة النهضة في بغداد)

الرحالة الغربيون الذين حاولوا اكتشاف جزيرة العرب خلال القرون الخمسة الأخيرة ، جمعتهم البحاثـــة الفرنسية جاكلين بيرين بين دفتي هذا الكتاب الرائع ، لتروي قصصهم الشيقة ، وتسجل ما قدموه من خدمات في حقل المعرفة البشرية ، واكتشاف المناطق المجهولة والأقوام التي تقطنها، منتقلة معهم في المكان والزمان ، مبينة الدوافع الحقيقيـــة لرحلاتهم ، والنتائج العملية التي أفضت اليها ، دون ان تتردد في هتك الستار عن كذب المفترين وخداع الدجالين . أو في الانحنـاء أمام الرواد الصادقين الذين تكبدوا المشقات وجابهوا الأخطار في سبيل رسالتهم العلمية النبيلة .

وقد جاء هذا السفر الممتع مرجعاً فريداً في الجغرافية البشرية لسائر أنحاء الجزيرة العربية ، في بقاع ما تزال مجهولة حتى لدى الباحثين العرب .

ويزيد في قيمة الكتاب المقدمة القيمة التي وضعها للترجمة العربية العلامة الشيخ حمد الجاسر ، ومساهمته في ضبط أعلامه وكتابة هوامشه .

الثمن : ٦٥٠ ق. ل.

المعتمد

تأليف : نديم المرعشلي

دراسة أدبية تاريخية رائعة تحيط بشخصية هذا الشاعر الملك من سائر وجوهها مع تبيان أثر البيئة الأندلسية في نتاجه ...

ويكفي دلالة على قيمة هذه الدراسة الأدبية أن يقول فيـــها الاستاذ أنيس المقدسي من رسالة وجهها للمؤلف بعد قراءته الكتاب :

« .. وسرني ان أرى فيه محاولة موفقة لإحياء ذلك العهد في ديباجة مشرقة ، ودرس مفيـــد وان تسلك ما نظمه ذلك الملك الشاعر الرقيق بعقد دراسة تتسم بالطابع الموضوعي والإداء الذاتي الأصيلين .

« وقد أعجبتني مقابلتك لشعره في الامر بشعر أبي فراس ، وكلاهما فرسا رهان في هـــذا الميدان ، فجمعت في كتابك التاريخ والأدب ، وقرنت بين الطرافة والفائدة . والحق يقال اني استمتعت بقراءته ، فاقبل جزيل شكري وأطيب تمنياتي » .

الثمن : ٢٠٠ ق. ل.

دار الكاتب العربي
للتأليف والترجمة والنشر
بيروت - بناية عمر الخيام - ص.ب ٣١٥٧
هاتف ٢٩١١١٨ - ٢٤٠٥٠٦ - ٢٤٠٥٠٧

من منشوراتها :

الكتاب	المؤلف	ق. ل.
الفنون الادبية وأعلامها في النهضة العربية الحديثة	لأنيس المقدسي	١٠٠٠
الكويت كانت منزلي	لزهرة ديكسون فريث	٤٠٠
المعارك الفاصلة في التاريخ	لحنا خباز	٣٥٠
تمثيليات كليلة ودمنة	لابراهيم عز الدين اسماعيل	٢٠٠
رائد الثقافة العامة	لهير شبرغ	٧٥٠
ادباء السجون	لعبد العزيز الحلفي	٣٠٠
اشهر ملكات التاريخ	لليديا فارمر	٣٠٠
اضواء على تاريخ الكويت	لقدري قلعجي	٥٠٠
في مواكب النور	لأنيس المقدسي	٥٤٠
سجناء الرون	لخضر نبوّة	١٥٠
الابطال	لتوماس كارليل	٤٥٠
مشاهير رجال العلم	لبولتون	٥٠٠
شاعر في المعركة	لرفائيل ساباتيني	٣٠٠
زهرة في الوحل	لمرغريت موندار	٢٠٠
المعتمد بن عباد	لنديم المرعشلي	٢٠٠

هذا الكتاب

بعد حكم دام أربعة قرون من الظلم والعسف والاضطهاد ، والتجهيل والتضليل ، أفاق العرب لواقعهم من الدولة العثمانية ، وامتشقوا الحسام بوجهها ، وأعلنوها ثورة عارمة .. ولعبت الجزيرة العربية دورها من جديد في حياة سورية فحركت اعماقها ، وبأحرار العراق فهزت ضمائرهم.. وتشكل الجيش العربي الذي انطلق من بطاح مكة الى ديار الشام .. وكانت احداث جسام ، ووقائع ضخام ، خالط فيها صليل السيف صرير القلم ، من مكة ولندن والاستانة ، عبر القاهرة المكبلة بالقيود الانكليزية ، ومن خلف خطوط النار ، وتطايرُ عبارات الوعود من عاصمة الى عاصمة ، وحبكُ المؤامرات ، ودس الدسائس ، وبروز شخصيات عدة مثلت دوراً مهماً في تاريخ العالم الفكري والسياسي ..

تلك بعض معالم هذا الكتاب الذي قدمه المؤلف قبل اكثر من ربع قرن ، فتناولته الأقلام العالمية بالنقل والترجمة ، وكان من اوائل الكتب العربية الحديثة التي نقلت الى الروسية ، وقد أعاد اليوم مؤلفه المؤرخ العلامة تقديمه بحلة جديدة ، وبفصول جديدة ، ووثائق فريدة ، أخذها عن مصادرها الانكليزية والفرنسية والعربية ، واصلاً بها أمسنا القريب بغدنا الحبيب ، يوم التقاء العربي بأخيه العربي على صعيد السياسة والقوميـة والاجتماع والتاريخ .. يوم يكون فيه العالم العربي حقيقة واقعة ، وواقعاً فيه طاقة القدر لأن فيه قدر أمة .

الثمن ٦٠٠ ق ل او ما يعادلها